پازوليني

ترجمة وتقديم:
معاوية عبد المجيد

حيـــاة عنيفة



بيير باولو بازوليني

حياة عنيفة

ترجمة وتقديم: معاوية عبد المجيد



حياة عنيفة

حياة عنيفة

تأليف: بيير پاولو پازوليني
ترجمة وتقديم: معاوية عبد المجيد

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-46-813-4



إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2022

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@rewayat.ae
www.rewayat.ae

تمت الموافقة على المحتوى من قبل المجلس الوطني للإعلام /
المرجع: MC-02-01-1392022
التصنيف العمري: +17



إلى كارلو بو وجوزيبي أونغاريتّي

اللذين شهدا معي في قضيّة «شبّان الحياة»

فهرس

مقدّمة المترجم

في إحدى مقابلاته التلفزيونيّة، سئل بازوليني: «أيُّ الأشخاص أَحَبُّ إليك؟»، فأجاب: «هم أولئك الذين لم يكملوا الصفّ الرابع بعد. هم الأناس البسطاء الذين لم تُفسِدهم ثقافة الطبقة البرجوازيّة الصغيرة. لأنّ هذه الثقافة تأتي دومًا بالفساد وعدم النقاء. أمّا الأمّيّون، والذين لم يصلوا إلى الصفّ الرابع بعد، لديهم فضيلةٌ معيّنة، يفقدونها من خلال الثقافة. وقد يستعيدونها في مراحل متقدّمة جدًّا من الثقافة. لكنّ الثقافة المتوسّطة هي مُفسِدة دائمًا».

ليس من المستغرب أن يكون لمثقّفٍ بحجم بازوليني رأيٌ كهذا، فهو المهموم بقضاياه الماركسيّة، ذو الروح المشبعة بالثقافة الشعريّة السامية، يلتقي بأولاد قرى الصفيح، الأمّيّين في غالبيّتهم، إبّان انتقاله إلى روما في الخمسينات من القرن الماضي. وفي روما نفسها يتعرَّف على الدهّان سيرجيو شيتّي، الذي سيصبح مخرجًا سينمائيًّا معروفًا يتعاون مع بازوليني صديقه الصدوق في أكثر من فيلم، ويعترف بازوليني بفضله عليه في تعلُّم لهجة أهل روما وضواحيها. لكنّ بازوليني في بداية استقراره في العاصمة، يعمل معلِّمًا في مدرسةٍ ابتدائيّة في إحدى ضواحيها؛ حيث يختلط بأولئك الصغار المشرّدين، أبناء الذين سحقتهم الحرب

وأضناهم الجوع. فينعجن بهم ويعيش معهم ويعاين حياتهم الكارثيّة ثمّ يكتب عنها ويسلّط الضوء عليها ويضعها على مرأى المجتمع الإيطاليّ.

غير أنّ الضريبة التي دفعها بازوليني في سبيل ذلك كانت باهظة جدًّا، وما انفكّ يدفعها حتّى آخر لحظة من عمره. ففي البداية، عندما أصدر روايته «شبّان الحياة» تعرَّض لهجمة واسعة من كبار المثقّفين والأدباء والنقّاد والوجهاء. ورُفِعت ضدّه دعوى قضائيّة تلو أخرى، لأنّه بالغ بتوصيفه الواقعيّ للأشياء والأحداث. ووُصِفَ بأنّه منحلٌّ أخلاقيًّا يسعى لترويج اللغة الوقحة والأسلوب المشين، والتركيز على قضايا اجتماعيّة يريد الجميع التكتُّم عليها، كالدعارة المثليّة الذكريّة.

كاتبٌ فضائحيّ، حضوره مزعج، آراؤه صادمة لا تزلُّف فيها ولا نفاق، ونقده لاذعٌ وموجع، لا يرحم القامات المكرّسة ولا يستسلم لعالمٍ يراه رأسماليًّا استهلاكيًّا مدمِّرًا. وما كتب مقالةً إلّا وصُنِّفت إشكاليّةً وفتحت الباب لجدلٍ تليه حملةٌ مضادّةٌ وشرسة. كما أنّ ميوله الجنسيّة المثليّة التي أثارت حفيظة الكثيرين آنذاك، أدخلته قائمة "الشعراء الملاعين"، فكتب عن هواجسه حيال الأمر ذات مرّة: «مستقبلي لن يكون مستقبل أستاذٍ جامعيّ بالتأكيد، أرى أنّي بتُّ موصومًا بعلامة رامبو أو كابوانا، أو وايلد أيضًا، شئتُ أم أبيت، تقبَّلَ الآخرون أم لم يتقبَّلوا!»

حياةٌ عنيفةٌ إذن، متمرّغةٌ في الطين، ومطويّةٌ في الإهمال. أغدق بازولِيني روايته بكلّ التفاصيل التي وقعت عليها عيناه، فسجَّلَ ما رآه ووثّقَ حالة البؤس والشقاء التي يعيشها أناسٌ يائسون ومحبطون، نظراتهم مريرة ووجوههم عابسة وأوقاتهم فارغة، يملؤونها بالشغب

والاستهتار. تتنقّل عدسة بازوليني الكاتبة في محيطاتٍ مكانيّة متعدّدة، يصوِّرها بواقعيّةٍ عارمة، ويمنح كلًّا منها رمزًا ودلالة. فما مرّ على شارعٍ أو زقاق إلّا وذكر اسمه، ولا انعطف إلى ساحة إلّا وتحدّث عن مزاياها. يركّز آلته السرديّة على تتبُّع مسارات بطل الرواية منذ طفولته، فيصاحبه في كلّ تلك الأمكنة، لنتبيّن كيف يقضي وقته بين الحانة والشارع، وكيف يلاقي حبيبته في المروج والسينما، وكيف ينضج وعيه بين السجن والمستشفى.

أمّا الزمن السرديّ فهو متعلّقٌ بالموضوع المراد تفصيله وأهمّيّته بالنسبة إلى الشخصيّة التي تعيشه. فنرى مثلًا كيف تمرّ أحداثٌ مهمّة تقتضي شهورًا طويلة في غضون سطرين، في حين تتكثّف صفحاتٌ بأكملها على أحداثٍ أخرى قد تبدو لنا بلا أهمّيّة. ذلك أنّ المنطق الزمنيّ لا يكترث بنا نحن الذين نتفرّج على تلك الحياة من الخارج، إنّما بأصحابها الذين يعيشونها من الداخل. وهي تقنيّةٌ سرديّة يوظّفها بازوليني بغية لفت الانتباه أو تشتيته بحسب ما تقتضيه الضرورة الأدبيّة الراهنة.

«حياةٌ عنيفة» ليست استثناءً عن روايات بازوليني الأخرى التي ينحو فيها إلى اعتماد العامّيّة الدارجة في أوساط سكّان الصفيح لتصوير عالم الجريمة والعصابات التي تغزو المركز وتستوطن الهامش. أبطاله هم الفتية المشاكسون من أبناء الضواحي والعشوائيّات، المهمّشون وسكّان القاع ممّن يقطنون الأكواخ عند تخوم روما، هناك حيث تنعدم البنية التحتيّة وتتفشّى الأمراض ويستفحل الجهل وتستيقظ الفاشيّة. كتب بازوليني الرواية بلسانهم مستخدمًا لغتهم، وذيَّلها

بقاموسٍ مصغّرٍ يحتوي على شرحٍ لمفرداتٍ وألفاظٍ سائدة بين أبناء تلك الطبقة المسحوقة، وذلك لعدّة أسبابٍ قد نخرج منها بتأويلاتٍ عديدة، أهمُّها ما يلي: لعلّ بازوليني أراد أن يجعل القارئ الإيطاليّ غريبًا عمّا يقرأ على الرغم من أنّه بصدد روايةٍ إيطاليّة، شخوصُها هم من أبناء جلدته، يتقاسمون معه شوارع وسط العاصمة، وتؤطّرهم الصورة النمطيّة دومًا بأنّهم قذرون ومتسوّلون ونشّالون، عالة على المجتمع يدبّرون جريمةً هنا وينفّذون سرقةً هناك؛ فيخضعون لأحكام مسبّقة تتجاهل خلفيّتهم الأهليّة المترديّة، وأوضاعهم المعيشيّة المزرية. ومن جانبٍ آخر، قد تكون غاية الروائيّ هي وضع الكتاب في متناول أولئك الذين ينتمون إلى البيئة نفسها، الذين قد تُشكّل اللغة الفصحى لهم عائقًا أمام الفهم الكلّيّ للرواية. فبازوليني نفسه يرى في الإيطاليّة الفصحى محاولةً لرأب انقسامات الإيطاليّين بلغةٍ أدبيّةٍ تستمدّ مشروعيّتها من الإرث الأدبيّ العريق الذي خلّفه دانتي وبوكاتشو وبتراركا، لا من الحاجة البيروقراطيّة والسياسيّة التي دفعت أممًا أخرى للتوحُّد في ظلّ لغةٍ واحدة، كالفرنسيّين مثلًا. وعليه فإنّ الفصحى الإيطاليّة بحسب بازوليني هي لغة البريستيج الإيطاليّ لا لغة الشعب، وقد فُرِضت على الشعب في مرحلة تاريخيّة معيّنة فقطعت الطريق أمام تطوُّر اللهجات الأخرى. فربّما أراد أن تُعطى هذه اللغة المحكيّة والمفردات العامّيّة والألفاظ السوقيّة الفرصة للهبوط على سطح كوكب الأدب الفصيح والمكتوب. ومن هنا تنبع حاجته إلى التعبير بما يتفوّه به أبناء تلك الطبقة لينسجم شكل الرواية مع مضمونها. كما أنّه لا يمكن الاستهانة بالقدرة التعبيريّة الهائلة التي تكتنزها العامّيّة إذ تضفي على

الحوار ألقًا مؤثّرًا، وتمنح هويّةً خاصّةً للمكان وساكنيه. على أنّ هذا المتن العاميّ تتخلّله لمساتٌ مكتوبةٌ بقلمٍ أدبيّ رفيع ينمّ عن شاعرٍ مثقّف يروي الأحداث ويوصِّف الحالة النفسيّة والمكان والطقس والزمان بلغةٍ سامية تجعل القارئ يميّز جيّدًا بين شخصيّات الرواية وطيف راويها.

أمّا بخصوص الترجمة العربيّة، فقد استغرقت وقتها الكافي الذي بحثتُ في خلاله عن معاني كلّ تلك المفردات، في قواميس متخصّصة باللهجة الرومانيّة. وفي بعض الأحيان لم أجد معاني بعض الكلمات في القاموس المصغّر ولا عبْر الإنترنت. فاستنجدتُ بالترجمة الفرنسيّة للمترجم والبروفسور الفرنسيّ جان-بول مانغانارو، وعادلتُ بين حلوله والنصّ الأصليّ لضمان نقل بعض المفردات والتعبيرات بأفضل طريقة. لم يكن من المستحسن اعتماد عاميّةٍ عربيّة ونقل التراكيب العاميّة إليها، فذلك يُفسِد البنيان المنطقيّ للغة العربيّة. كما أنّ لهجة الرومان هي لهجة الرومان، ما باليد حيلة. لكنّي أدخلتُ من عاميّتي ما لا يزيد على كلمتين وتعبيرين، لتنكيه النصّ ليس إلّا، مثل كلمة "عجيان" التي تعني "أولاد مشاغبون" و"انقلع من هنا" بمعنى "اغرب عن وجهي" إلخ. ورغم ذلك، عملتُ على إبقاء الرواية على حالها، فحرصتُ على ترجمة التوصيف الانطباعيّ الذي يتقصدّ انعدام الدقّة ليكون أقرب إلى المحكيّ منه إلى المكتوب، ونقلتُه بحذافيره: "كانت الساعة الثانية، الثانية والنصف"، "هناك خمسة أو ستّة أشخاص"، "لا شيء إلّا شمس وقمامة، قمامة وشمس". ناهيك بأسماء التصغير لبعض الشخصيّات: "تومّازو، تومّازينو"، "فرانكو، فرا"، "كاتزيتيني، كاتزيتي"... إلخ. فضلًا عن الحواشي في أسفل الصفحات، والهدف منها مزيدٌ من شرح بعض

النقاط التي قد يشوّش غموضُها القارئَ العربيّ ويقطع عليه القراءة المسترسلة.

بقي لنا أن نشير إلى حدث في غاية الأهمية: في ليلة الأوّل من نوفمبر عام 1975، يخرج بازوليني بسيّارته لإحياء سهرةٍ ماجنة في روما. يتوقّف عند المحطّة الحديديّة الكبرى/تيرميني؛ ويتعرّف على أحد شبّان الشوارع الذين لطالما ظهروا أبطالًا على صفحات رواياته: بينو بيلوزي، صاحب ملفٍّ إجراميّ لدى السلطات. يركبان السيّارة ويهيمان في الأنحاء، يتناولان العشاء على نفقة الكاتب، ثمّ يخرجان بنزهةٍ حتّى شاطئ أوستيا. وهناك يتوقّفان للتزوّد بالوقود، فتحدث بينهما مشاجرة لها خلفيّة جنسيّة، إذ كان بازوليني يتطلّع إلى مضاجعة الفتى. فيلقى بازوليني مصرعه بصورةٍ وحشيّة ومروّعة. بيلوزي يستقلّ سيّارة الكاتب ويمضي بها بسرعة جنونيّة، فيُلقى القبض عليه بعد أيّام. سيعترف بجريمته ويدخل السجن ثمّ سيكذّب أقواله، لتتّخذ القضيّة منحىً آخر وتكتسب فرضيّات مركّبة ومعقّدة لم يثبت أيٌّ منها حتّى يومنا هذا. نُسِجَت عدّة نظريات مؤامرة حول الجريمة، ووُجِّهَت أصابع الاتّهام إلى الفاشيّين تارةً، والمخابرات الأمريكيّة تارة أخرى، ولم يسلم منها رجالات المافيا بطبيعة الحال، ولا أزلام الحزب الديمقراطيّ المسيحيّ. إذ كان بازوليني يكرّس مقالاته لفضح هؤلاء جميعًا. طالب كثيرٌ من المثقّفين إعادةِ فتح القضيّة والتحقيق فيها بعد أن أُغلِقت وفُتِحت مرارًا، إلّا أنّ الغالبيّة العظمى من الإيطاليّين يميلون إلى تصديق الرواية الأولى: خلافٌ متعلّق بميوله الجنسيّة المثليّة مع مراهقٍ خطير وصاحب سوابق.

فُجِعَت إيطاليا بمقتل بازوليني الذي ظلّ إشكاليًّا حتّى آخر لحظة من عمره، وبعد مماته أيضًا؛ فتحدّث في ذلك الأديبُ الكبير ألبرتو مورافيا: «لقد اكتشف بازوليني عالمًا لم يمسّه الأدبُ الإيطاليّ من قبل، وفتح أعيننا على فتيةٍ يعيشون في أكواخ الصفيح وأحياء روما الفقيرة. فتيةٌ منحرفون ومجرمون، لكنّ بازوليني أظهرهم بصورةٍ بطوليّة تناقض ذاتها. ويبدو لي اكتشافه هذا من صنع الأقدار: بمعنى أنّه كان هو الذي اكتشف هذا العالم، ثمّ لقي مصرعه على أيدي هذا العالم نفسه».

فتعالوا لنكتشف معًا هذا العالم العنيف!

معاوية عبد المجيد

2020/07/01


الفصل الأول

1 - مَنْ هو تومّازو؟

كعادتهم بعد أن أكلوا، وصل كلٌّ من تومّازو وليلّو وزوكابّو والفتيةُ الآخرون، الذين كانوا يسكنون في قرية الصفيح عند شارع مونتي دي بيترالاتا، وصلوا قبالة المدرسة حوالي نصف ساعة على الأقلّ قبل موعد الدوام.

وكان هناك أيضًا أولادٌ من القرية، يلعبون بمطاويهم الصغيرة على الوحل. تربّعَ تومّازو وليلّو ومَن معهما حولهم ينظرون إليهم، وحقائبهم تكشط على الطين. ثمّ جاء اثنان أو ثلاثة بالكرة، فرمى الآخرون حقائبهم لتشكّلَ جثوة صغيرة، وركضوا خلف المدرسة إلى الفسحة التي كانت بمثابة الساحة المركزيّة للقرية.

تراهن ليلّو مع أحدهم، من القاطنين في التجمّع السكنيّ الثاني المجاور، لتشكيل فريقين. أمّا تومّازو فلم تأخذه رغبةٌ في اللعب، وفضّلَ الجلوس مع آخرين أرضًا لمشاهدة المباراة.

«هل وصل المعلّم يا كارلي؟» وجّه سؤاله إلى فتىً بقربه.

«ما أدراني!» أجاب ذاك رافعًا كتفيه.

«مَن سيتفرّغ اليومَ للتنظيف؟» سأله تومّازو بعد قليل، إذ كان قد تغيَّبَ عن المدرسة في تلك الأيّام، لإصابته بالحمّى.

«ليلّو، على ما أعتقد» قال كارليتّو.

«أوه! دعني أدخّن!» انتفض على حين غرّة، ساخطًا، ومتحدّثًا مع ولدٍ كان يدخّن بجواره مستندًا إلى حجرة كبيرة.

نهض تومّازو واتّجه نحو المرمى، من الطرف الآخر، حيث كان ليلّو، مثنيًا خصره، مفرجًا ساقيه، مشمّرًا عن ساعديه، ومتأهّبًا للانقضاض، يمعن النظر إلى المباراة بكلّ تركيزٍ ووجهٍ مكشّر.

«يا ليلّو!» قال تومّازو.

«اذهب من هنا، ماذا تريد؟» أجاب دون أن يحيد بصره.

«هل ستبقى اليوم للتنظيف، في المدرسة؟»

«أجل» أجاب ليلّو بنبرة باهتة، دون أن يعطي للحديث أيّ اعتبار.

جلس تومّازينو عند كومة الأحجار التي نابت عن عارضة المرمى. التفت ليلّو بعد قليل إلى الوراء، فرآه.

«انقلعْ عنّي... ماذا تريد؟» قال وسرعان ما أولاه ظهره، ليحدّق إلى وسط الملعب، حيث كان الآخرون يركضون خلف الكرة ويتشاتمون. لم يقل تومّازو أيّ كلمة، إنّما ثبّت ركبتيه على الطين المتيبّس، وأخرج من عمق جيبه جزءًا من سيجارةٍ وأشعلها.

رماه ليلّو بنظرة أخرى بعد قليل، فرآه يدخّن. وظلّ صامتًا يجيل أنظاره في الملعب، ثمّ قال بصوتٍ منخفض وأجشّ:

«دعني أدخّن منها يا تومّا».

مجّ تومّازو مرارًا، وبعجالة، ثمّ نهض وأعطى السيجارة لليلّو الذي أخذها دون أن تحيد اللعبةُ عن مجال بصره، وبدأ يدخّن مُسدِّدَ العينين، مستعدًّا للارتماء.

ظلّ تومّازو واقفًا خلفه، ويداه في جيوب بنطلونه المربوط بالخيط، والعريض حتّى كاد يبدو تنّورة.

وفي تلك اللحظة وصل الأولاد من الفريق الآخر إلى المرمى، واستطاع أحدهم أن يركل الكرة ركلةً ليست في منتهى القوّة؛ فتدحرجت قرب كومة الأحجار. ارتمى ليلّو تجاهها، مع أنّه ليس مضطرًّا لذلك؛ كان بوسعه الإمساك بها بانحناءة بسيطة. رماها إلى وسط الفسحة. استعاد عقب السيجارة الذي كان قد ألقاه، ومجّ منها قليلًا وهو في غاية السرور.

«كم أنت قويٌّ يا ليلّو؟» قال له تومازّو بنبرة متحايلة.

لم يردّ عليه بشيء، لكنّه كان من الواضح أنّه يرى نفسه قويًّا بالفعل، وهو يدخّن على طريقة المنحرفين.

«أوه يا ليلّو! هلّا قلتَ للمعلّم أن يسمح لي أنا أيضًا بالبقاء للتنظيف اليوم؟» سأله تومّازو بعد قليل، بتعبير وجهٍ محايد.

«سنرى!» قال ليلّو، وقد هدأ خاطره، وخفت حماسُه تجاه المباراة، فكاد يغلبه الملل. جلس تومّازينو بجانبه، ولم يبقيا هناك طويلًا. فبعد عدّة دقائق، بدأ الفتية – الذين ظلّوا قرب المدرسة – يتصايحون ويلوّحون بأيديهم. لقد وصل المعلّم وحان وقت الدخول. وانتهى هؤلاء من اللعب، وركضوا متدافعين متشاجرين لاسترداد حقائبهم المتكدّسة، وعبروا البوّابة المحطّمة إلى داخل باحة المدرسة.

بعد الساعة الثانية، الثانية والنصف، عادت الحياة في بيترالاتا إلى هدوئها. ما من أحد سوى شراذم من العِجيّان، وسط التجمّعات السكنيّة، وبضع نساء يعملن. لا شيء إلّا شمسٌ وقمامة، قمامةٌ

وشمس. غير أنّ شهر مارس لم ينقضِ بعد، وما زالت الشمس تأفل باكرًا، خلف روما. فتعود الأجواء مظلمةً وجامدة. وتحين ساعة الغروب بالتزامن مع خروج الأولاد من المدرسة تقريبًا. القرية ما تزال مقفرة، لأنّ العمّال يمضون عن العمل لاحقًا. السينما افتُتِحَت منذ وقت قصير. وما زالت الحانات الثلاث تنتظر أن تمتلئ بروّادها المعتادين الذين فقدوا الأمل.

كان الأولاد يخرجون من المدرسة، ويتفرّقون بين فُسحات الأرض الترابيّة، باتّجاه القرية: أربعةُ جدران تفصل التجمّعات السكنيّة، صفٌّ من حراب المشانق، وبعض المغاسل المطوّقة بذراعين من الوحل الأسود، وضوءٌ يزيد عمّا في داخل المدرسة من ضوء.

ظلّ ليلّو وحدَه مع المعلّم، إذ كان دوره في التنظيف يومها: وهذا ما يحدث غالبًا في بحر الأسبوع، لأنّ المعلّم يختار بلا تعيين، من دون عقوبة أو مكافأة، إنّما بحسب مزاجه. وكان ذلك الواجب بكلّ الأحوال يكمن في البقاء هناك زهاء نصف ساعة، وتمرير المكنسة بين المقاعد، ونفض الغبار عن المنصّة واللوحات. وسرعان ما أنجز ليلّو مهمّته، بحكم اعتياده؛ وركض وحيدًا باتّجاه البيت.

كان يراوده بعض التخوُّف من المضيّ بين المروج حينما يهبط الظلام، فيشقّ طريقه راكضًا، ويتطاير شعرُه إزاء عينيه، السوداوين اللامعتين مثل المحار، وتخفق كنزته الأمريكيّة المرقّطة برسوم الأزهار فوق بنطلونه. توقَّفَ القرويّون عن العمل في المزارع المجاورة منذ حين. وكان شارع ديلي ميسي دورو بأشجار الكرز واللوز، التي تفتّقت براعمها توًّا، مقفرًا بالكامل؛ بينما تُسمَع أصواتُ شبّانٍ من خلف الأكواخ،

يقلّدون كلاوديو فيلا[1]، وفي البعيد تعلن أبواقُ ثكنة الفورتي عن ساعة الاستراحة.

كان تومّازينو تحت أعمدة جسر القناة. لم يعد إلى بيته بعد، كان ينتظر هناك حاملًا حقيبته على كتفه.

«ها يا تومّا؟» قال له ليلّو، وهو يمرّ بجانبه ليتسلّق أوّلًا السلّمَ الحديديّ على العمود.

تبعه تومّازينو دون أن يقول شيئًا، بوجهه المدوّر والمنمّش لكأنّه دائم الاتّساخ بالدُهن.

وكان ليلّو يتقدّم على الجسر كأنّه السيّد، مترفّعًا عن الالتفات لرؤية عبده الذي يهرول خلفه.

«لِمَ العجلة يا ليلّو؟» قال تومّازو من الوراء، والنقمة تعلو جبينه «اللعنة على أمواتك!»

إلّا أنّ ليلّو كان منشغلًا في الهبوط إلى أسفل عبْر العمود الآخر: قفز على نبات النفل، وراح يعدو في الدرب وسطَ حقل القصب؛ بينما كان تومّازو يركض خلفه، مرهقًا ولاهث الأنفاس.

«انتظرني، تبًّا لك!» يصيح إليه.

إلّا أنّه كان يتقدّم مسرعًا، غير مكترث به. ولم يخفّف سرعته إلّا عندما اتّسعت المسافة بينهما. فأخذ يتمشّى لاهيًا بين أعواد القصب وأغصان الصفصاف. وحينما دنا تومّازو من أعقابه، انطلق راكضًا من جديد، ليهبط الحقولَ المنحدرة بأنساق القنّبيط الأخضر وقد أيعنت رؤوسُها، ما بين الشجيرات.

---

1 مطرب وممثّل من روما، حظي بشهرة على المستوى الشعبيّ ما بين الخمسينيّات والسبعينيّات من القرن الماضي. المترجم.

ابتعد عنه مرّةً، ثمّ تساوت خطواتهما عند المرتفع مرّة أخرى. حتّى إذا رآه يتصبّب عرقًا كالنافورة، شاء أن ينتظره، ليترلا مترافقين على السِنام المتعرّجة، صوب محشر الخربة هناك حيث مسكنهما، على الطريق ما بين بيترالاتا ومونتيساكرو، قبل مصبّ قناة مجاري المستشفى في نهر آنييني بقليل.

في قرية الصفيح أُشْعِلتْ بعض الأضواء وانعكس نورُها على الأرض الموحلة. بعض الفتية يلعبون عند أبواب المنازل، بينما في الداخل، في تلك الغرف الضيّقة التي يسكنها أكثر من عشرة أشخاص، يختلط زعيق النسوة اللواتي يتشاجرن بصياح الرُّضّع الذين يتباكون.

توقّف الأصحاب عن اللعب ما إن رأوا ليلّو وتومّازينو، واتّجهوا إليهما.

«أوه! هل أكلتما؟» قال زوكابّو مضرّج الوجه وأشعث الشعر.

«كيف عسانا نأكل! كيف عسانا نأكل!» صاح ليلّو بوجهه.

«انقلع من هنا!» صرخ به تومّازينو أيضًا «لقد أتينا توًّا من المدرسة! هل أصابك العمى؟»

«فاستعجِلا إذن» قال زوكابّو على مضض «لأنّنا سنذهب!»

«فاذهبوا!» قال تومّازو محتدًّا «أتحسبُنا لا نعرف الطريق؟ أم إنّكم ستحملوننا على الأكتاف؟ أيّ هراءٍ هذا!»

«سحقًا لكما!» ردّ زوكابّو غاضبًا على الفور «إن أردتما المجيء فاستعجِلا، وإلّا ذهبنا من دونكما!» وصفق بقوةٍ، ثلاث مرّات أو أربع، يدَه اليسرى بكفِّه الأيمن الموجَّه كالسكّين نحو مونتيساكرو.

ركض ليلّو في تلك الأثناء ودخل إلى الكوخ حيث كان يسكن، ولم

تمضِ دقيقة واحدة إلّا خرج حاملًا بيده شطيرة محشوّة بالفليفلة. أومئ برأسه إلى الذكور الآخرين وقال بفمٍ مملوء بالطعام: «هيّا، فلنذهب!».

هرع تومّازينو إلى كوخه حالما رأى ليلّو. لكنّ والدته لم تكن قد حضّرت العشاء بعد. فكاد ينفجر باكيًا لشدّة غضبه، غير أنّه لم يضيّع وقته في الاحتجاج. وسرعان ما خرج، ومضى خاويَ البطن مع أصحابه الذين قد ساروا.

كان الطريق المؤدّي إلى مونتيساكرو يلتفّ من خلف نهر آنييني، وقد اهترأ الأسفلتُ فيه وساده الغبارُ الحَصَويّ وانتشرت القمامة والقاذورات على أطرافه.

يجري النهر بين منحدراتٍ كريهة الرائحة، لاسيّما حيث تصبّ قناة مجاري المستشفى؛ وعلى الجانب الآخر منحدراتٌ أخرى، تتبدّى فيها بيوتٌ كبيرة وصغيرة، وبعض الورشات، وعشوائيّاتٌ أخرى تعيش أوضاعًا كارثيّة. وتمتدّ الحقول ما بعد الآنييني، تجاه تلال تيفولي، مغمورة بالضباب خلال الطقس البارد.

وبعد عدّة منحنيات، تكثر ورشات البناء والمنشآت: هناك حيث تجدها في كلّ جهة تقريبًا، على الهضاب، أمام السماء، أو في أسفل، في الخنادق، وبين بقايا المزارع والمروج، أمام مجرى النهر.

وخلف ذلك النطاق من الدعائم والحفّارات، يفضي الدربُ المثقَّبُ إلى نومنتانا، فوق باتريا، وقبل الجسر الجديد على الآنييني. هناك، عند تقاطع الشارعين تمامًا، تنفتح رحبةٌ مليئةٌ بأشجار الصنوبر، حيث صالات الملاهي، بكثيرٍ من الضوء وقليلٍ من الناس، الذي يجيئون

ويغدون خاصّةً حول خيمة البلياردو وطاولات كرة القدم.

«ماذا لو لعبنا مباراة يا ليلّو؟» هتف زوكابّو، حين تبدّت لهم الخيمة الكبيرة تغصّ بالفتية.

هزّ ليلّو رأسه بنعم، وهَمَّ بالركض نحو طاولات اللعب التي كانت جميعها مشغولة.

يلعب الأولاد عليها بهيجانٍ وفوضويّة، سيقانُهم مفرجة وأجسادُهم متعرّقة؛ بينما يتابعهم الآخرون من حولهم، مستندين إلى السياج، بمزاجٍ يغلبه المللُ والاستهزاء، مضطرين إلى رفع ياقات ستراتهم وغمس أيديهم في جيوبهم، لأنّ نسمات المساء في شهر مارس لا ترحم.

اقتحم تومّازو وأصحابُه حشدَ الزبائن الذين كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تخلو إحدى الطاولات. وفي الأثناء كانوا يصيحون بهمجيّة، كي لا تبرد هممهم: «هيّا يا فيلينو!»، «بقوّة يا تريري، أرهم من أنت!»، لمجرّد القضاء على الملل لا أكثر، بأفواهٍ تتكلّم بحكم عادتها.

كان مِن بينهم مَن هُم مثل تومّازو ورفاقه، أبناء فقراء مُعدَمين يسكنون في الجوار، في أكواخ الصفيح على الآنييني. إلّا أنّ معظم الآخرين كانوا أسيادًا وطلّابًا منعَّمين، يعيشون في مونتيساكرو أو في ناطحات السحاب الجديدة في باتريا نومنتانا. خلت طاولةٌ حينذاك من اللاعبين الأربعة، فانقضّ عليها كلٌّ من ليلّو وتومّازينو وزوكابّو وسرجيو وكارليتّو، ومسَّحوا بطونهم المتّسخة بحافّتها، واحتلّوها بغطرسة دون حتّى أن يصغوا إلى اعتراض الذين كانوا ينتظرون الدور قبلهم.

«أوه! الدور لنا، فنحن ننتظر منذ أكثر من ساعة!» قال أحد الطلّاب المنعَّمين محتدًّا ومنتفخ الصدر. فلم يعره الأربعةُ القادمون

من شنفهاي الصغيرة أيَّ نظرة، بل توجّهوا بعيونهم القادحة شررًا إلى المشرف، وكان مثلهم ممّن يموتون جوعًا، هزيلًا مثل الأنشوفة. مدَّ يده من دون أن يفتح فمه، وأخذ النقود وفتح شبّاك الكريّات الصغيرة.

وحدَه تومّازو توجَّه إلى الطالب بتعبيرٍ مشمئزّ وقال له: «هدِّئ أعصابك وانقلع من هنا!»، وهيّأ نفسه للعب.

لكنّ الأربعة تموضعوا على المقابض أساسًا، كأنّهم متّفقون من قبلُ: ليلّو وكارليتّو ضدّ زوكابّو وسرجيو. تقدّم تومّازينو ببطنه الصغير إلى حافّة الطاولة، وكانت عيناه تلمعان غضبًا بين نمش وجهه المُدهِن. سخط وحدّثهم بنبرة تهديد: «ماذا! وأنا لا مكان لي للعب؟»

«اغرب عن وجهي!» قال له ليلّو مستهينًا ونافد الصبر.

«كلا، كلا، هنا علينا أن نتّفق!» قال تومّازو بيقينٍ عميق.

«انقلع عن أيْ**!» زعق زوكابّو ودفره على خاصرته فأقصاه عن طاولة اللعب.

«انظر إلى هذا!» صرخ تومّازينو منفعلًا واحتقنت عيناه غيظًا وتهيّأ للمشاجرة حالًا. لكنّ الآخرين قد بدأوا اللعبة ولم يعيروه أدنى اهتمام.

تنحّى جانبًا وعيناه تتحرّقان، يثرثر في سرّه، والقيءُ يفور في باطنه. «يا لهؤلاء الأوغاد الملاعين! مَن يظنّون أنفسهم!»، وراح يبتعد عنهم شيئًا فشيئًا، وهو يتابع اللعبة بتوتُّرٍ واحتقار.

«مَن علَّمكم اللعب!» يصيح ساخرًا كلّما ارتكب أحد الرفاق خطأً.

لم يصغوا إليه، وأهملوه شرَّ إهمال، مندمجين جميعًا في تحريك المقابض برشاقة لتمرير الكرة.

«انظروا إليه! يا له من أحمق!» هتف تومّازينو واصفًا كارليتّو «هذا

اللاتزيالي الوغد!»، وانفجر ضاحكًا بفمٍ مفتوح، بأقوى ما استطاع، ليسمعه جميعُ مَن حوله.

«هاهاها!» يقهقه ويضغط بطنه بكلتا اليدين الغاطستين في جيوب البنطلون، ويتلوّى مثل دودةٍ مدهوسة.

«كفى فأنتم تقرفون أيْ**!» قال حينما هدأت أعصابه قليلًا، بابتسامةٍ ماكرة تنحو إلى التقزّز أكثر فأكثر «هيّا، دعوني أذهب، فهذا أفضل! ما الذي يجبرني على البقاء هنا لرؤية هؤلاء الحمقى الأربعة!»، واستعاد ضحكته القويّة التي تنمّ عن احتقار، وخرج من تلك الخيمة، وذهب للتجوّل بين الألعاب الدوّارة.

كان هناك بعض الناس في الفسحات المضاءة: شبّانٌ يمتطون درّاجاتهم الناريّة، عساكر، وبحّارة على وجه الخصوص. يتنزّهون بمجموعات صغيرة، مبرزين فحولتهم، كمن لا شغل له، فمنهم مَن يدمدم أغنية ومنهم من يتواقح على البنات اللواتي يلعبن بالسهام المريَّشة. طاف تومّازينو مثلهم بين أشجار الصنوبر، وتوقَّف ليشاهد سيّارات المصادمة في الحلبات الخاوية إلّا قليلًا والمراكب الدوّارة التي لا يجلس فيها أكثر من زبونين أو ثلاثة، منكمشين على أنفسهم وشاحبةً وجوهُهُم من شدّة البرد.

وهكذا ظلّ يبتعد حتّى وصل إلى حيث تنتهي غابة الصنوبر، تحت الجسر على النهر تمامًا، ويبدأ المنحدر الممتلئ بالقمامة المكدّسة.

- وأخذ يراقب الحركة من هناك. ففي أعلى الجسر، تحت ما يشبه اللوح الأبيض الصغير الذي بدا شاهدةَ قبر، كان هنالك بائعتا هوى. وكانتا متضايقتين كثيرًا، إحداهما بسترة حمراء، والأخرى بكنزة

صوفيّة سوداء، متجهّمة وشعثاء. وكانت كلتاهما غليظتين، وبطنُ كلٍّ منهما يوحي بأنّ صاحبته حامل، الساقان قصيرتان وبدينتان، والوجه أسود ومشعر والجبين خفيض كجباه القِرَدة.

كانتا واقفتين هناك في الأعلى، أو تمشيان خطوتين جيئة وذهابًا، وتحملان حقيبة اليد. في حين انحرف أربعة أو خمسة بحّارة عن حلبات الملاهي، وصعدوا بين أشجار الصنوبر. تسلّقوا درب المنحدر ووصلوا قرب بائعتي الهوى في قمّة الجسر. ظلّوا يدردشون قليلًا: هاتان تجيبان بحدّة، قاسيتان مثل كمبيالةٍ مرفوضة التسديد؛ وأولئك يستمتعون برؤيتهما غاضبتين تتظاهران بعدم حاجتهما إلى أموالهم.

توصّلوا إلى اتّفاقٍ في النهاية، وبدأوا يهبطون المنحدر: بائعتا الهوى مع بحّارَين، فيما يبقى الآخرون عند الجسر يدخّنون وينتظرون دورهم. وصل البحّاران بخفّةٍ وسهولة إلى فسحة الصنوبر، بينما لم تنزل بائعتا الهوى أكثر من بضع خطوات: كانتا تتدرَّجان كالماعز، على أربعة أطراف، وتلقي كلٌّ منهما نظرة إلى أسفل بوجه ساخط، وتسند على النزلة الزليقة قدمًا تلو الأخرى حتّى كادتا تنبجسان من الحذاء مثل قوالب عجينة التمبالي. وصلتا أخيرًا، تمسّكت كلٌّ منهما بحقيبة يدها بشدّة؛ وذهبتا صحبة البحّارَين، مرورًا قبالة تومّازينو، نحو المنحدر الأخفض الذي يهبط ممتلئًا بالأحراش الكثيفة على نهر الآنييني.

وإذ تواروا في الظلمة، ذهب تومّازينو تجاههم ليتجسّس على مكانهم، سواء أكانوا وسط الدغل المكتظّ بالأوراق والأوساخ والأوقية الذكريّة، أم في فتحة الكهف الأضيق تحت الجسر القديم.

وبعد أن تعقَّب خطاهم ورأى أنّهم كانوا متّجهين إلى ذلك الكهف

تحديدًا، وهو يصفّر ويقهقه من تلقاء نفسه، عاد أدراجه ركضًا، ودلف ما بين الدوّارة وحلبة سيّارات المصادمة، فوصل إلى الساحة الصغيرة المضيئة وسط الألعاب، فلم يجد أحدًا من شركائه، لا في صالة البلياردو ولا في الأرجاء. مَن يدري أين ذهبوا. «اللعنة على أمواتهم، هؤلاء الحقراء!» قال في نفسه غاضبًا. وأطرق عائدًا نحو أحراش الآنييني وحيدًا، ببطء لأنّه كان يتوقّف هنا وهناك. وهكذا وجد ليلّو متشبّثًا بسياج حلبة سيّارات المصادمة، ينظر إلى السيّارتين الوحيدتين اللتين ركب في كلٍّ منهما بحّاران.

اقترب تومّازينو مبتهجًا من خلفه، على رؤوس أصابعه، وغطّى بيديه عينَي رفيقه. فاستشاط الأخير غضبًا ونعره بمرفقه وكاد يودي به إلى الحلبة. انفجر تومّازينو ضحكًا، وما فتئ ليلّو يرمقه بنظرة مسمومة وهو يهذر: «تبًّا لوغدٍ مثلك». «أوه! هل تعلم أنّ هناك بائعات هوى؟» قال له تومّازو. سكت برهةً ثمّ أضاف: «هلّا ذهبنا لرؤيتهنّ يا ليلّو؟»

رفع ليلّو كتفيه. فانفجر تومّازو بضحكة مفتعلة. «إنّي ذاهب» قال وهو يتمسّح ببطنه على السياج. «بائعتا هوى مع البحّارة» أردف قائلًا، بعينين تلمعان. كان متمسّكًا بقضبان السياج يؤرجح جسمه.

ثمّ تشقلب إلى الوراء فصار على الطريق وسار نحو النهر، وهو يومض بأنظاره إلى ليلّو ويومئ له برأسه لكي يتبعه.

وبعد أن مشى قرابة الخمسة عشر مترًا، ووصل تحت أشجار الصنوبر أو يكاد، اندفع ليلّو إليه وبلغه دون أن يقول كلمة واحدة. تقدّم تومّازينو بتصميمٍ بين أعواد القصب المتيبّسة، وتخبّئا بين مسالك المنحدر الضيّقة التي تنتشر فيها الأوساخُ والأوراق المستهلكة.

تنقّلا هناك بعض الوقت، حتّى وصلا إلى أسفل الكهف. كان البحّاران مع بائعتي الهوى قد توقّفوا عند المنفذ تمامًا، لأنّ داخل الكهف طافحٌ بالخراء، كما أنّ القمر كان يضيء المكان وإن قليلًا. بائعتا الهوى واقفتان ومستندتان إلى الجدار المخدَّش، والبحّاران يعاشرانهما، ويتبرّمان مثل وَزَغَتين انقلبتا على ظهريهما برمية حصى.

جلس تومّازو وليلّو تحت أجمة كبيرة، يشاهدان الثنائيّين من بين الأغصان المهشّمة. انسطح تومّازو ومدّدَ ساقيه على تلك الأعشاب المتّسخة.

«هيّا يا ليلّو!» قال بعد قليل، وهو ينظر إليه، كمن لم يعد يطيق صبرًا. ففعل ليلّو مثله بعد أن كان جاثمًا على ركبتيه. «لا بدّ أنّك لستَ راغبًا كثيرًا!» همس له تومّازينو. «أجل! ليس لديّ رغبة!» أجاب ليلّو. «ألم تفعلها في المدرسة اليوم؟». «اخرس، فقد سئمتُ منك!» قال الآخر نافد الصبر.

«هيّا، فلقد فعلتَها» أصرّ تومّازينو بفظاظةٍ محاولًا أن يتّخذ تعبيرًا ساخرًا. «هل يؤسفك؟» قال له ليلّو. فتدحرج تومّازينو على الحشائش مختنقًا من الضحك. «وما همّني أنا!» قال بصوتٍ مرتفعٍ تناهى إلى مسامع الثنائيّين عند الكهف فنظروا حولهم متوجّسين. ثمّ هدأ وعاد إلى ما كان يفعله بجانب ليلّو الذي بدا متشنّجًا، وغرّتُه تتراقص أمام عينيه. ثمّ بادر تومّازو بعد قليل: «ولكن، حقًّا، أنا أيضًا أودّ أن أجرِّبها يومًا ما!». قالها بنبرة محايدة، بنبرةِ العازم على تحقيق تطلُّعٍ ما، إلّا أنّه تطلُّعٌ يسير وسهل المنال. «إن أتيتك بمائة ليرة في الغد، هلّا ساعدتَني في ذلك؟» قال له.

«وماذا أفعل بمائة ليرة؟» ازدراه ليلّو.

«مائتان» زاد تومّازو «هل يناسبك؟»

*

استيقظ تومّازينو في السادسة من صباح اليوم التالي، وما زال الظلام مخيِّمًا، والطقس يتراوح بين أمطارٍ وريح. أشرقت الشمس، ثمّ أمطرت السماء ثانية، ثمّ عادت الشمس.

فأبرقت بيترالاتا في حدود منتصف النهار وكانت مبلّلةً بأكملها. وعلى الوحل القديم المتيبّس في الفسحة، تشكّلت طبقةٌ من الوحل الجديد، كالشوكولاطة، فتمرَّغ الذكورُ فيها أثناء اللعب بالكرة تمرُّغًا كصغار الخنازير.

كان تومّازينو يحمل بيده الكيس البائد الذي وضع فيه الخردة، ويده الأخرى في جيبه حيث تجعّدت المئتا ليرة التي جمعها أثناء بحثه عن الحديد بين القمامات المتكدّسة على امتداد منحدر تيبورتينا.

«هيه، أنت يا فتى!» صاح إلى أحدهم، بفم مفتوح وساقين مفرجين «سألعب معكم، إن كان ذلك لا يؤسفكم».

«كلا، كلا!» صرخ الفتية «فنحن مكتملون!»

«اللعنة على أمواتكم!» صاح تومّازو «كيف مكتملون، ها؟ أتحسَبون أنّكم في روما؟»

«انقلع من هنا، ولا تصدِّعْ أَيْ**...!» صاح أحد الصغار بصوتٍ يشبِهِ الغراموفون المحطّم.

انتقل تومّازينو بخطوات متهادية ومتثاقلة نحو المرمى، ورمى الكيس على كومة الأحجار التي تنوب عن العارضة، واندفع صوب

الفسحة بين حشد الأولاد.

اتّجه إليه أحدهم، وكان يشبه التفّاحة، باكيًا أو يكاد، بصيحةٍ أوشكت على تهشيم حنجرته الصغيرة: «ألن تنصرف من هنا؟ أيّها المعتوه!»

إلّا أنّ الكرة جاءت من الطرف الآخر في تلك اللحظات، فرفس تومّازينو ذلك الكتكوت وأوقعه في الطين على رِدْفه. وضحك بشدّة حتّى تضرّج وجهه وركض خلف الكرة بساقيه المفرجين لكأنّهما ساقا كلبٍ فحل.

«ها قد وصل!» صاح حينذاك شابٌّ هائمٌ مع رفاقه الثلاثة، مطوِّقًا فمه بيديه كالقِمْع، عند حافّة الميدان الصغير. كان هناك بثيابٍ رثّة مع الآخرين، في منطقةٍ مظلّلة، خلف السياج الليّن لمزرعةٍ تغصّ بالأوراق المتّسخة وأجزاء مبولةٍ مهشّمة.

تظاهر تومّازينو بعدم سماع تلك الصيحة المتعجرفة.

«يا ذا القدمين القذرتين!» صاح الآخر وهو ينهض، وناداه باللقب الذي عيَّره به شقيقه الأكبر، الأصهب والمنمَّش مثله، كريه الرائحة دومًا كمجرور الصرف «هيه، مَن تحسَب نفسك؟»

وما فتئ تومّازو يركض ويرمي بساقيه هنا وهناك على الطين، بنعلٍ مشدود بالخيوط، دون أن يعبأ بمن يعترضه.

وسرعان ما أخذتِ الشابَّ متعةٌ، فوقف على قدميه، وامتلأ وجهه بملامح الشراسة، وحطّت ابتسامةٌ هانئة على عينيه الغائرتين، المحدِّقتين إلى الأمام، كأنّما تكثَّفت فيهما لذّةُ الخير الروحيّ العميق. غلَّ يديه في جيوب بنطلونه المتدنّي تحت خصره، حتّى ظهرت سُرَّتُه من

تحت الكنزة. وتقدّم خطوتين إلى طرف الفسحة، وهو يلعق شفتيه بلسانه.

«يا ذا القدمين القذرتين!» استأنف «ألا ترى أنّك مضطرٌ للمشي بساقين مفرجتين؟ ألا ترى أنّك شبيه البطّة؟»

التفت تومّازينو هذه المرّة، إذ كان يركض ويتصبّب عرقًا، ووجهُه محمَّرٌ كصلصة الطماطم، وعيناه يغشوهما الدمع، والغَضَنُ يشطر جبينه. صاح مستهزئًا: «يا زيمّي! ألن تتركني وشأني؟ ألا تعرف أنّني أقوى من باندورفيني[2]؟». واندفع مخفضًا رأسه نحو الكرة بين جمع الأولاد.

«أجل، أجل، اصرخْ أكثر!» أجابه ذاك مغمغمًا، وقد ازداد إشراقًا بنظرته لنفسه. «اضحكْ، اضحك، فأمّك قد طبخت النيوكّي[3]!» أضاف بلفظٍ بطيء كأنّه يوحي إليه «انظر إلى نفسك، تبدو مثل إعلانٍ للتبوّل!»

«أيّها الوغد!» صاح تومّازو، مغتاظًا كثيرًا، برأسه التي تتأرجح بين الكتاكيت الذين يركضون متزاحمين خلف الكرة. وكاد الدمع ينتر من عينيه، بينما يكتوي فمه المسطّح بابتسامةٍ مسمومة، تكشف عن صفّ أسنانه البنيّة.

انضمّ وغدٌ آخر. كان ذا خمسة وعشرين عامًا أو يزيد، وشعره المجعّد يغطّي عنقه، ويرتدي شالًا على طريقة اللصوص، أصفر الوجه

---

2 إيجستو باندولفيني، لاعب كرة قدم مشهور، وقد لعب في صفوف نادي روما إبّان الخمسينات من القرن الماضي. المترجم.

3 تعبير شعبيّ رائج في إيطاليا، بما معناه: «لا يوجد أيّ سببٍ للضحك». والنيوكّي نوعٌ من الباستا، يُصنَع من عجينة البطاطس بالقمح والدقيق. ولأنّها وجبة شهيّة ولذيذة، يصبح المعنى: «لا داعي لكلّ هذا الابتهاج، فأمّك لم تطبخ النيوكّي!». المترجم.

كثعلب جائع. جلس الاثنان جنبًا إلى جنب على مستوى المرمى.

برز منهما الجبين والفم وغرّة الشعر ومربط البنطلون، فيما ظلّت اليدان في الجيوب. «اللعنة عليك» صاح الذي بدا أنّه ربّ أسرة، بنبرة مراهقٍ يطلق النار للمرّة الأولى «كيف؟ من أين لك الشجاعة للكلام وأنت ابن عشرة أعوام؟»

«أجل! عشرة أعوام!» صاح تومّازينو ساخرًا، بوجهٍ قد جيَّشَهُ الغضب، حتّى كاد ينفجر باكيًا، «لم أبلغ ثلاثة عشر عامًا بعد!»

«ماذا تريد أن تقول؟» قال زيمّيو بلهجةٍ شرسة، وانفجر ضاحكًا ليمرِّر كلمةً ثقيلة «أنّك لم تكن تلعقه حين كنت في عامك الثاني، في شنغهاي الصغيرة؟ عند قبيلة الأقدام القذرة؟»

«آتِني بأختك!» صرخ تومّازو مبتهجًا، بصوتٍ يخرج من أنفه.

طاب خاطر الأكبر، ودسَّ أنفه الضخم وذقنه تحت الشال مخاتلًا: «ماذا يا زيمّيو، ألم تكن تعلم؟» قال «اذهب ووفِّرْ بعض النقود! وانظر! فأنا من الغد لن أسمح لأختي بالخروج من المنزل! سأشتري لها سروالًا حديديًّا!»

«وكيف ذلك؟» هتف زيمّيو بلطف «هل كذبوا عليّ عندما قالوا لي إنّ أمّك علّمتك التصفير؟»

«دع أمّي وشأنها» انتفض تومّازو، وتقدّم نحوهما خطوتين «هل فهمت؟»

«ما بك؟ هل تريد أن تضربنا؟» قال الأصغر، بنظرةٍ مستفزّةٍ تُخْرِجُ الصينيَّ عن طوره، «أتحسَب نفسك تينيا[4]؟»

---

4 روميو أوتافياني (1877-1910): مجرم خطير وخارج عن القانون، واشتُهِرَ حتّى صار مضرب مثلٍ في روما وضواحيها. وكان لقبه تينيا. المترجم.

وفي تلك اللحظة، مرّت زمرة من الأنذال في البعيد. «كاغوني[5]!» صاح أحدهم إلى الشابّ الأكبر بصوتٍ يُسمَع بالكاد «ماذا تفعلان هناك، هل تأخذان غفوة؟ هلّا انضممتما إلى الرجال، ها؟»

«ما بك؟» صاح كاغوني مسرورًا «ألا ترى أنّنا نعمل؟»

«هل أنتم ذاهبون إلى روما؟» صرخ زيمّيو متناسيًا أمر ذي القدمين القذرتين لحظة.

«ذاهبون لتحصيل النقود!» صاح أحدهم.

«هل نذهب نحن أيضًا يا كاغو؟» قال زيمّيو لرفيقه. «فلنذهب!» وافقه.

«أوه! انتظرونا» صاح زيمّيو حتّى بُحَّ صوته إلى العصابة التي تهبط فرادى بين المناطق السكنيّة.

«إنّنا مصدر الرعب في بيترالاتا!» زعق أحدهم فرحًا. «طبعًا، طبعًا!» ردّ آخر. «نحن الكاليفورنيّون!»

«الحافلة، الحافلة!» قال زيمّيو وهو يتحرّك، يتبعه كاغوني، بمشية مَن وُلِدَ متعَبًا، نحو الرفاق. وأخذ يركض مثل الأعرج، ورفيقه خلفه، نحو موقف الخطّ 211 حيث كانت الحافلة آتيةً من مونتيساكرو مزدحمةً بالموتى جوعًا والعساكر من ثكنة الفورتي. وكان الآخرون يركضون أيضًا، يصفِّرون مثل قطيعٍ من الضباع.

وكانت الصافرات تصدح متقطّعةً هنا وهناك في منتصف النهار.

وتومّازو يركض في الملعب الصغير متعرّقًا، بين الصغار الذين يصلون إلى حدّ ذقنه، وجوههم مضرَّجة وقمصانهم متمزِّقة. كانوا

---

5 «Cagone» باللهجة المحكيّة في روما تعني الرجل الذي يتغوّط كثيرًا أو المصاب بإسهال حادّ ومزمن، وتُستَخدم للاستهزاء أيضًا. المترجم.

يرتمون برؤوسٍ مخفَضة نحو الكرة، وألسنتهم متدلّية خارج أفواههم، وشعرهم الذي لم يُحلَق منذ سنة ينسدل على عيونهم؛ يهاجمون معًا أو يدافعون معًا.

كان يسرح فوق طبقات الغبار المتيبّس والمتقشّر، مستحوذًا على الكرة بين قدميه دومًا أو يكاد: وكلّما استحوذ عليها تشيطَنَ أكثر، فيتجاوز خصومه تارةً ويعرقلهم بقدمه تارة أخرى، وكان يدفعهم أحيانًا فيرتمون على قفاهم فوق الأطيان، ويصرخون. لكنّ تومّازو لا يشغل لهم بالًا، ويتابع اللعب بكلّ لؤمٍ ويقهقه بشدّة، راضيًا عن نفسه، سواء لِما أحسن صنعه في الصباح أم لمهاراته التي كان يؤدّيها آنذاك. «إنّني قويٌّ، قويّ!» كان يصيح، فاتحًا فمه على وسعه مبرزًا تلك الأسنان المصفرّة والمكسَّرة.

إلى أن تقدَّم في وجهه أحدُ الصغار، الذي بدا ما يزال رضيعًا، كالجرو، وصاح فيه: «أيا رأس الأيرا» فتوقّف تومّازو عن الركض، وأهمل الكرة. زمّ شفتيه منفعلًا، وتخضَّبَ لون وجهه: «ماذا قلت؟»

ثبت الصبيُّ في مكانه، ببنطلونه الذي بلا أزرار وكنزته المثقَّبة أكثر من المصفاة؛ وانتفخ صدره وأبرقت عيناه.

«عديم الشرف!» غمغم بصوت مرتفع بما فيه الكفاية «يا رأس الأيرا»

«بل أنت هو عديم الشرف، هل فهمت؟» قال تومّازو متوعّدًا، وقد تشنّجت أوردة عنقه. ولو أنّها انقضت هكذا، لاستأنف اللعب ثانيةً، لكنّه دنا منه وردّد قائلًا: «فهمت، أم لم تفهم؟» وسدّد إليه ضربة خفيفة برؤوس أصابعه على فمه. فاحتقن الصغير حتّى كاد يشتعل،

كما لو أنّ أحدهم ينفخه من الخلف بمضخّة، فانفجر صارخًا: «أيّها المعتوه، أيّها اللصّ، يا عديم الشرف! مَن ناداك إلى هنا؟ انقلع، انقلع، اللعنة على أمواتك!»

شحب وجه تومّازينو، ولم يقل شيئًا، وصفعه صفعةً جعلت رأسه تدور إلى الطرف الآخر.

ثمّ قال له بعينين جاحظتين كعيون البوم: «حذار وإلّا لطمتُك حتّى نزعتُ رأسك عن مكانه، فهمت؟»، ولم ينتبه ذاك إلّا بعد قليل أنّه تلقّى صفعة مدوّية قلبت رأسه إلى الجانب الآخر؛ فدوّى بصرخةٍ نابعة من أحشائه.

كان يبكي واقفًا، منحني الجذع، فاغرًا فمه، تتطاير الدموع منه كأنّها بذر القرع.

غضب تومّازو من بكائه الشديد، فحمل إصبعًا إلى أنفه، وصرخ في وجهه بنظرة حولاء: «سأُجهِز عليك إن لم تكفّ عن البكاء». وبما أنّ الصغيرَ أصيب بنوبة الغضب ولم يكفّ عن البكاء، تلقّى من غريمه لطمتين أخريين، ورفسة أودت به أرضًا، فتمرّغ جسمه الصغير في الوحل، واقترب منه وزاده ركلتين على أضلاعه.

تدحرج الولد على الطين، يصرخ عاليًا، ثمّ نهض وانطلق كالصاروخ إلى البيت دون أن يلتفت إلى الخلف.

«سينادي أخاه الآن، لقد جنيتَ على نفسك!» قال ولدٌ آخر، كان شاهدًا على الشجار مع الآخرين ولم يحرّك ساكنًا. مشى تومّازو مشية المتكبّرين، وغمغم بشتائم لا قيمة لها، واتّجه نحو المرمى، وحمل كيسه، وتظاهر أنّه ليس مستعجلًا، ومضى نحو موقف الحافلة.

كان يلقي أنظاره إلى الخلف، متطيّرًا ومستاء، بعينين تقدحان من شدّة الغضب المبرَّر، مركّزًا إلى جهة ذلك الكوخ القذر، ليرى إذا ما خرج ذلك الأخ الأكبر. وحالما أصبح في منأى عن الخطر، على مستوى بسطة السيّدة أنيتا، أخذ يغنّي ويمشي متعَبًا، ويلقي نظرة خاطفة إلى الخلف بين الفينة والأخرى، بعينٍ تقول: «انجُ بجلدك، فهنا قد تتأذّى!» والأخرى: «إنّني قويٌّ، قويّ! باندورفيني لا يساوي شيئًا أمامي!»، بينما فمه الواسع، بصفّ أسنانه المصفرّة، يغنّي: «يا للتفاح، يا للتفاح...» صدّاحًا بين أشجار الكرز في المزارع القذرة نحو نهر الآنييني.

*

تلبّدت السُّحُب في تلك الأثناء على امتداد السماء، من خلف النهر وما بعد المساكن في مونتيساكرو، إلى البعيد البعيد. وقد غطّت كلَّ الضياء الذي كان من قبلُ يملأ السماءَ المبلّلة بالمطر، ويعكسه آنذاك على الحقول المقمّلة.

ظنّ تومّازينو أنّ الوقت متأخّر وأنّ المساء قد أتى، لأنّه لم ينتبه إلى الصافرات منذ قليل.

فأخذ يركض ويثب على الأوحال بحذائه الذي تلطَّخ بأكمله، سائرًا على الدروب المدفونة بين المزارع والحواجز، ثمّ عبَرَ جسر القناة، ليعدو على الهضاب التي فاضت بها الأمطار وتألّقت بنضارة خضرتها، حتّى وصل إلى شنغهاي الصغيرة. «لا بدّ أن هؤلاء قد ذهبوا، اللعنة على أمواتهم!» كان يقول في نفسه مغتاظًا وهو يهبط بين خِرَبِ المنازل، نحو الفسحة الصغيرة المغمورة بالماء.

اتّجه إلى بيت ليلّو مباشرة. لا أحد. ما عدا الكلب العجوز الأسود

الكهلان، الذي لا طاقة تعينه على النباح، من شدّة الجوع. اكتفى بالنهوض ونظر حوله ثمّ انتقل من تحت الباب المخلوع، ذي الألواح الخشبيّة البائدة حتّى النتانة، إلى السياج الصدئ، حيث أقعى على الطين الممزوج بالبول وفضلات حساء الخضروات.

«اللعنة...!» ردّد تومّازو محتقنًا. استدار وأقفل صاعدًا صوب بيته الذي في الجوار من هناك.

«أمّاه» قال وهو يدخل راميًا الكيس «هل الطعام جاهز؟»

لكنَّ القِدر كانت ما تزال تغلي فوق الموقد الصغير. وأمُّه هناك، في الغرفة الأخرى: الغرفة الأخرى إن صحَّ التعبير، لأنّ البيت كان عبارة عن وكرٍ واحد، مقسوم بستارة رماديّة ومهترئة، وحائط من الكرتون يعتلي دعامة من قطعٍ وألواح من كلّ نوع، رديئة التركيب.

جثا تومّازينو على ركبتيه ونبش في صندوقٍ، كان إضافةً إلى الخوان البالي والموقد والكرسيّين يشكّل كلّ الأثاث في تلك الغرفة الضيّقة. أخرج من الصندوق جرائد متجعِّدة وراح يقرأ.

وكان في البيت ولدان آخران أيضًا، تيتو وتوتو، الشقيقان الأصغران لتومّازو، اللذان وقفا ينظران إليه في صمتٍ ما إن دخل. وإذ رأيَاهُ يقرأ، اقترب منه أحدهما يحبو لينظر إليه من أسفل إلى أعلى، وثبت هناك، بوجهه الصغير المنتفخ الذي سال عليه المخاط ووسَّخه ببقعٍ كثيرةٍ حائلة في الوسط ومسوَّدة عند الأطراف. وبدت عيناه السماويّتان حتّى البياض كأعيُن الأعمى، تحت شعره المتجعّد الذي ابتُليَ بالغبار والمخاط أيضًا.

وما زال يحدِّق إليه، على أربع، حتّى أصدر من بطنه أنينًا يُحشرِجُ

في خروجه من الحلق: كان يضحك. اقترب من تومّازو مزيدًا حين رأى أنّه يتجاهله، وحطَّ رأسه على ركبته، وذقنه على فخذه. تضايق تومّازو فهزَّ ركبته إلى أعلى فتدحرج الولد على الأرض، وارتطم رأسه بالصندوق.

وكاد ينفجر باكيًا، مستويًا على ظهره، فإذا هو يُجذَبُ انتباهُه إلى كسرة خبز كانت قد سقطت منه تحت الخوان في الصباح. فاستوى على بطنه واستطاع بعد عدّة محاولات أن يلتقط الخبزة، وعاد يمتصّها.

وكان الولد الآخر، توتو، يلعب حينها في الطست المملوء بالماء، والموضوع في وسط الغرفة لتجميع قطرات المطر التي ترشح من السقف، بين قطعتين من الورق السميك. ثمّ راح يقفز منتفضًا هنا وهناك، ومن يدري لماذا، كما تفعل الجراء حين ترى ذبابة تحوم حول أنوفها.

استعدّ تومّازو للخروج، فاحتسى بعجالة أربع ملاعق من الشوربة، وأخذ شطيرة محشوّة ببعض الخضروات، وخرج يمضغها.

كان زوكابّو وسيرجيتّو يلعبان في الخارج بالمطوى عند أحد الجوانب الجافّة من الفسحة.

«هل رأيت ليلّو يا سيرجو؟» سأل تومّازو بأسمى ما يقدر عليه من لطف.

«كلا» أجاب سيرجو بنفور دون أن ينظر إليه حتّى. ارتكب زوكابّو خطأً في تلك اللحظة فانقضّ سيرجيتّو على المطوى.

«أنا ذاهبٌ إلى المدرسة، ها!» صاح تومّازو بفظاظة.

«فاذهب!» تمتم زوكابّو «ماذا تنتظر؟»

أخذ تومّازو يغنّي بغلوٍّ، ويضغط على المائتي ليرة في جيبه، ومشى في

الطريق نفسه نحو بيترالاتا.

كانت والدة ليلّو، السيّدة أنيتا، تبيع بذرَ القرع والسكاكرَ على بسطتها بجانب موقف الحافلة. وصل تومّازو هناك واتّجه إليها مباشرة.

«هل رأيتِ ابنكِ يا سيّدة؟» سألها.

«لقد ذهب إلى روما ليشتري لي العرقسوس، سيعود حالًا» أجابت.

قرفص تومّازينو بجانب البسطة، عند أقدام أنيتا، على بقايا الرصيف. كان يبدو أنّ المساء قد حان والطقس بارد؛ ففي تلك الأجواء الباردة والمعتمة التي تسود بيترالاتا، بدت البسطة أصغر كثيرًا، بأرجلها الثلاث، والستارة التي تغطّيها من المطر. ثمّة علب كثيرة من الكرتون المقروض والمتعفّن، حيث ركّز تومّازو بصره، مبتلعًا لعابه، على حفنة من السكاكر الشهيّة. وعلبةٌ تحوي بذر القرع، وأخرى مسحوقَ العرقسوس؛ وحبّات الترمس في صرّةٍ تتدلّى من إحدى الزوايا. كانت السيّدة أنيتا جالسةً على كرسيّ صغير، تراقب بضاعتها، عابسةً، وبدينةً لدرجة أنّها لا تستطيع ضمّ ساقيها.

قدم ليلّو بعد حوالي نصف الساعة حاملًا طردًا مليئًا بالمصّاصات. وقف يجادل والدته ويعطيها المرتجع، وتشاجر معها لأنّه أراد الاحتفاظ بخمسين ليرة. أخذ حصتّه ومضى في شأنه دون حتّى أن ينظر إلى تومّازو مثلما لم يره حينما وصل.

نهض الأخير ملولًا وتمطّى قليلًا، وبلغه.

«يا ليلّو» قال له فالتفت الأخير عابسًا، بسحنة سمراء كالعرب، والكنزة الأمريكيّة المرقّطة بالأزهار تخفق عند خاصرتيه النحيلتين، والبنطلون المهترئ.

«ماذا تريد؟»

«ما زلنا على اتّفاقنا...» قال تومّازينو بمكر.

ضمَّ ليلّو أصابع يده على بعضها، وحرّكها بصيغة استفهاميّة ومتشكّكة أمام عينَي تومّازو.

«لقد حصَّلتُ النقود» لَمَّح تومّازينو.

«آه» قال ليلّو متذكّرًا، وفرَدَ عقدة أصابعه، وفركَ يديه ببنطلونه متأملًا ومهتمًّا.

«خذ!» أعطاه تومّازو المبلغ.

فلم يأخذه ليلّو حالًا: رفع يده قليلًا ونظر بمرارة واحتقار إلى المائتي ليرة.

«ما هذا؟ مئتا ليرة تعطيني؟» قال متقزّزًا وكاد يغضب «وماذا أفعل بمائتي ليرة؟»

«تبًّا لك» قال تومّازينو «ماذا تقصد؟ ألم نتّفق على هذا المبلغ؟»

«أوه» ردّ ليلّو «ماذا تريدني أن أقول؟ إن زوَّدتَ فهذا خير، وإلّا فلا».

نظر عميقًا في عينَي تومّازو، وهو يفرك سبّابته بإبهامه، ثمّ استأنف سيره نحو المدرسة.

«لديّ خمسون ليرة» قال تومّازو «أوه، ستجعلني أدخّن، أليس كذلك؟»

ظلّ ليلّو صامتًا. فاحتقن تومّازو وأخرج الخمسين ليرة التي تبقّت لديه ومدّها إلى ليلّو «خذ، عليك اللعنة!»

سحب ليلّو النقود بخفّة وأخفاها في جيب بنطلونه، مقطّبًا جبينه ومكثِّفًا الضجر في عينيه، ليواري سروره.

أوشكت ساعة الذهاب إلى المدرسة، وأشرق بعضٌ من ضوء الشمس ليتلألأ الوحلُ في بيترالاتا، وكان الصبية هنا وهناك ينتظرون. ثمّ رنّ الجرس ودخلوا جميعًا، يغمغمون متزاحمين. وخلت القرية إلّا قليلًا، وسادها الصمت، تحت الشمس.

وفي نهاية الدوام، خرج جميع التلاميذ، مُحدِثين جلبةً أكبر من ساعة دخولهم. وظلَّ تومّازو وحيدًا في القاعة الصغيرة في الطابق الأرضيّ.

منذ أن شادت هذه القرية، عمد العشرات من أبناء الساقطة على نقش المقاعد بأسمائهم وأسماء رفاقهم، وعبارات "يحيا" و"يسقط" إضافة إلى ما لا يُحصى من الأخطاء اللغويّة، حتّى لم يعد هناك خشبةٌ سليمة.

وسرعان ما همَّ تومّازينو بمسح تلك المقاعد، ببطء، ولم ينظّف أكثر من مقعدين في خلال خمس دقائق، إذ كان يمسح ويمسح بالخرقة كيفما اتّفق، مركّزًا على تفريغ كوارث الأوساخ من جوف الثقوب والنقوش. لم يكن مهتمًّا إلّا بالنظر إلى المعلّم: لهذا السبب كان هناك، وقد كرّس نفسه للتنظيف مع ليلّو، وتبًّا لهذا العمل! كان واضحًا أنّه منزعج من ذلك، وقد ابيضّ وجهه من شدّة الصقيع الذي يعربد في القاعة، ما بين الجدران العارية والمتصدّعة، والنافذتين اللتين يتسرّب منها الضوء المُحتَضر.

وبما أنّ المعلّم لم ينتبه لوجوده إطلاقًا، كفّ حتّى عن المسح، لعلّه إذا رآه مكتوف اليدين يجود عليه بكلمة.

إلّا أنّه كان منكبًّا على طاولته، يكتب في السجّل، برأسه الملمَّعة

بالدهن وشعراته الخمس المنتصبة إلى الخلف مثل المطاوي حيث تنتهي المسايفة.

وبعد أن أكمل تنظيف المقعدين الأوّلين، استراح تومّازو وجلس على المقعد الثالث ليلهو بالخرقة ويصدم قارورة الحبر بالثقب.

كان ينظّف بذلك الشكل، مترنّحًا على الكرسيّ. والمعلّم يتابع عمله كما لو أنّ شيئًا لم يكن، يكتب في السجّل. أسقط تومّازو الخرقة من الكرسيّ، وانزلق ببطء على المسند حتّى مدّ ساقيه كليًّا، ورأسه غارقة بين كتفيه، ويداه وسط فخذيه، اللذين برزا بتلك الوضعيّة خارج بنطلونه المهلهل الأشبه بتنوّرة فضفاضة.

رفع عينيه بتلك الوضعيّة نحو المعلّم، كأنّه ينتظر آنذاك أن يقول له شيئًا. لكنّه حافظ على صمته. «اللعنة عليك!» قال تومّازينو في سرّه بوجهه المتجمّد الذي يحتدّ من شدّة الغضب أكثر فأكثر.

ظلّ هكذا بعض الوقت، يرمق المعلّمَ، ويمطّ ساقيه، واحدة تحت المقعد والأخرى فوق، محوّلًا أمارة الغيظ إلى تكشيرة ملولة تميل إلى الابتسامة. «أيّها المغفّل» قال بصوت عالٍ دون أن يتوقّف عمّا كان فيه «ماذا؟ هل نمت؟»

استعاد الخرقة ومرّ بمسحةٍ خاطفة على المقاعد المتبقيّة على صفّ الحائط ذي النافذتين. ومرّ على الصفّين الآخرين بعجالة شديدة كأنّه يركض. ثمّ خرج ليأتي بالمكنسة وراح يكنس الأرض عابثًا هنا وهناك.

كان في الأثناء يصفّر بصوت منخفض، ويكشّر بفمه، فانتبه أنّ المعلّم وجّه أنظاره إليه برهة.

فتوقّف عن الكنس، ووقف عند المنصّة منتظرًا أن يراه المعلّم. وعندما حاد بعينيه، قال له تومّازو: «هلّا سمحتَ لي بالذهاب إلى المرحاض؟». «اذهب» أجابه ذاك على مضض، بما معناه: "ماذا تريدني أن أقول لك؟ افعل ما يروقك، لماذا تستأذنني؟".

لكنّ تومّازو لم يذهب إلى المرحاض، ولم يعد إلى المكنسة التي أسندها إلى الحائط أيضًا. بل اتّجه إلى أحد المقاعد وجلس مستأنفًا ما كان يفعله بثيابه.

كان يرتدي كنزة خفيفة متّسخة، توجَّبَ على والدته أن تقصّ أكمامها لأنّها أضحت بائدة لا تصلح حتّى للمسح. وتحتها، كنزة أخرى بأكمامٍ ما تزال بوضع جيّد. والبقيّة كلّها باليةٌ ولا تُرَى. لكنّ تومّازينو كان يدرك الأمر. وبحجّة ترتيب تلك الثياب الرثّة، أرخى حزام بنطلونه، ومرّر يدًا على بطنه، وأزاح الانتفاخات التي ما إن تحرّكت تكدّست عند خصره، وكان باليد الأخرى ممسكًا البنطلون والحزام.

رفع المعلّم رأسه، جادًّا، مستغربًا، ثمّ سأل بصوت منخفض بالكاد يُسمَع: «ما بها والدة ليلّو؟». «ما أدراني، مريضة» قال تومّازينو وما زال يرتّب بنطلونه على بطنه. أغفله المعلّم وأطرق رأسه على الطاولة ثانيةً. وكان قد حلّ المساء، إلّا أنّ الضوء الخافت المتغلغل من النافذتين كان يملأ القاعة ويبهر الأبصار، في البرد القارس.

وما لبث تومّازو هناك، واقفًا عند المقعد، محتقنًا بوجهٍ اختلطت فيهِ معالمُ الدهاء بالشرود، حتّى فكّر في سرّه: «ماذا تنتظر أيّها الوغد؟ هل تراني مستضعفًا؟ هل أنا أسوأ من ليلّو؟ أوه، حذار فأنا قاهر الجميع هنا، فهمت؟ ماذا تظنّ، أنّي لا أجيد صنعًا؟ وأنا الذي فهمتُك

قبل الآخرين جميعًا أيّها الغبيّ! وأنا مَن أخبَرَ ليلّو بأمرك، من قبل حتّى أن تبدأ به أيّها الحقير! ألا ترى أنّه مغفّل! أنا أجيد صنعها، أمّا هو فلا!»

وبينما كان تومّازو في أفكاره تلك يزداد توتّرًا، مرّرَ المعلّم المنديل المجفِّف فوق السجلّ وأغلقه ونهض. «فلنذهب» قال «حان الوقت».

تحرّك بمشقّة، وأخذ مئزره المعلّق على المشجب خلف المنصّة، وارتداه. وكان تومّازو ينظر إليه طافحًا بالاستغراب والسخط، وقال في نفسه: «ولِمَ كلّ هذه العجلة في هذا المساء، اللعنة على أمواتك!»

لكنّ المعلّم أومئ له برأسه، بجدّيّة تامّة، وأقفل على السجلّ في الدُّرج، وتحرّك نحو الباب.

هرع تومّازو لإعادة المكنسة والخرقة في إحدى زوايا المرحاض، وتبع المعلّم الذي قد خرج سائرًا بين الفُسَحِ والأرض الترابيّة، التي تتخلّلها قطع الأسفلت.

«سلامًا يا بوتزيلّي!» قال المعلّم بأنفاس خفيضة، وأسرع خطاه نحو موقف الحافلة وكان أكثر خفّة وهزلًا من تلاميذه الصغار.

«طاب مساؤك أيّها المعلّم!» قال تومّازو وقد بقي بعيدًا، وأضاف في قلبه: «عليك اللعنة!»

ظلّ يرمقه من آخر الشارع، ولم يهدأ له بال، فركض حتّى بسطة السيّدة أنيتا.

«لا تريد أن تفعلها معي، ها؟» فكّر غاضبًا «أنت خائف! يا لوطيّ! ما الذي تجده في ليلّو، الوغد الجوعان، الذي ليس لديه والد، لا أب له، هو ابن لا أحد! تعال معي، فأنا فتىً شاطر، لا مقمِّل مثله! يا لوطيّ!»

قبع على انتفاخات الرصيف بجانب أنيتا، وظلّ يحدّق ساخطًا

إلى المعلّم طوال انتظاره عند موقف الخطّ 211، بعينين محتدّتين، كما لو أنّ فكرةً خطرت في باله فتمعَّن بها.

وصلت الحافلة، ووقف المعلّم في الطابور للركوب، وما زال تومّازو ينظر إليه. وما إن صعد وتحرّكت العربة، نهض واثبًا: «حقًّا؟ أنت تفعل ذلك؟» فكّر «يا لك من بارع! سأريك الآن، اللعنة على أمواتك! سأهشّم قفاك! جنيتَ على نفسك الآن! عشرة أعوام من السجن لن يشفعها لك حتّى يسوع المسيح!»

وكما قال فعل. لم يودّع والدة ليلّو، بل ركض باتّجاه الحافلة نحو تيبورتينا.

وكان ليلّو في الأثناء، مع نفر من الفتية، ذهبوا للتجوّل في القرية. يتمشّون في تلك الأنحاء عن غير هدى، ويدخّنون ما استطاعوا التقاطه من أعقاب السجائر في الطرقات. ثمّ سلكوا درب الحرب، وصعدوا جبل بيكورارو، لإيقاد النار بأكداس السلال الخشبيّة، عند المهبط الأجرد. تسابقوا على النزول، ونادى أوّلُ الواصلين رفاقه: «تعالوا، تعالوا!». في أسفل الجبل، قرب الكنيسة، ثمّة امرأة محترمة، بسيّارة كبيرة بحجم بناية، ممتلئة بالأغراض التي تُوزَّع على الفقراء. التفّوا حولها وأحدثوا هرَجًا للحصول على شيء ما: «أنا، أنا! يا سيّدة! أنا! أنا!»

أعطاهم السائق ثلاث علب من مسحوق الحليب. فمزّقوها وأخذوا يَعُبُّون منها على حفنات حتّى كادوا يختنقون.

ثمّ ركضوا نحو الصنبور ليشربوا الماء ويتحلّل المسحوقُ في أفواههم؛ وسرعان ما ضجروا فتراشقوه على أنفسهم ودلقوه خلف رقابهم. وصلوا بجوار السينما، بِيضَ الوجوه كصبية المخبز. وبدأوا

يحومون حول المكان يتحيَّنون الفرصة للتسلّل.

وهكذا رآه ليلّو من باب صالة اللوكس. كان تومّازو راكضًا إلى الأمام، لا ينظر في وجه أحد، وقد غالبَهُ الإرهاق، وأسمال بنطلونه تخفق على ساقيه، وذراعاه المرتخيتين تتأرجحان على خاصرتيه.

ضيَّقَ ليلّو عينيه، وسرعان ما عرف تلك الحركة المتثاقلة، وتقدَّمَ خطوتين إلى الطريق، لينظر إلى تومّازو بشكلٍ جيّد.

«إلى أين يذهب ابنُ الساقطة هذا؟» غمغم مركِّزًا عليه.

وبأيّ حال، تعقَّبَ خطاه بعد أن فكّر قليلًا. هرول خلفه على امتداد شارع بيترالاتا، من سينما لوكس حتّى فورتي في شارع تيبورتينا. لا خطر، فتومّازو لم يلتفت وراءه، كان يركض إلى الأمام محنيّ الجذع، وبدا أنّه فرَّ بجلده من عقوبة قاسية للتوّ.

كانت الساعة تصادف موعد الاستراحة، فاحتشد جمعٌ كبير من العساكر عند زاوية المقهى، ما اضطرّ ليلّو للتريّث قليلًا لئلا يفقده من مجال بصره. أسعفه الوقت ليراه ينحرف نحو الأسفل، باتجاه تيبورتينا تيرزو، وما زال يعدو.

«إلى أين يذهب؟» ردّد ليلّو في نفسه، وازداد تجهُّمًا، وانتقل إلى الجانب الآخر من الطريق على المنحدر.

أمّا تومّازينو فكان يجري على الرصيف المرتفع، على سفح جبل بيكورارو: وحينما وصل إلى النهاية، عند رحبة تيبورتينو، توقّفَ لحظةً يراقب ما حوله، ثمّ غطس في فوضى الدرّاجات الناريّة المزدحمة وقَطَعَ الشارع.

تمسَّحَ ليلّو بالجدار، متواريًا بين الأجمات والأطيان؛ ثمّ استعاد

ركضته ليصل إلى رحبة تيبورتينو بتوقيت مناسب قبل أن يختفي الآخر.

تواري ثانيةً خلف برجٍ قديمٍ مفتَّت، في أعلاه قُمرة كهربائيّة وفي أسفله تسكن عائلة، ويطلّ من الخلف على الرحبة كلّها، وأضواؤها منيرة منذئذ. وقبالتها تمامًا ثمّة بيوت متكدّسة، ومقهى "ألفين"، إلّا أنّ الجانب الخلفيّ للرحبة مغلقٌ مثل فِناء.

كان تومّازينو متّجهًا إلى هناك تحديدًا: وسط عدّة أشجار من الصنوبر، في العمق، هنالك منشأةٌ تتقدَّمها أعمدةٌ مربّعة كثيرة: صالة لكمال الأجسام، قديمة، من العهد الفاشيّ، حائلة الطلاء أو تكاد، تُستَخدَمُ آنذاك ثكنةً عسكريّة.

ابيضّ وجه ليلّو من الغضب، وغرّتُهُ تتراقص على جبينه. «مُخبِر!» قال وهو يصوِّب إليه عينًا أوشكت على البكاء.

صعد تومّازينو أعتاب الصالة بالفعل، يترنّح تحت صفّ الأعمدة البنيّة، كأنّه كومة من الخِرَقِ البالية، مقدِّمًا نفسه إلى شاويشٍ مسلَّحٍ متموضعٍ بجانب الباب.

2 - ليلةٌ في مدينة الربّ

«ألدو، هل رأيتَ ليلّو؟» سأل تومّازو شابًّا يمرّ بجانبه، يدعى ألدو. «ومن رآه؟» ردّ الأخير بازدراءٍ واضحٍ حتّى كاد يبصق. ثمّ ندم على سلوكه المتعجرف وأضاف: «إنّه يرقص». «طبعًا» قال تومّازينو وصعد الطريق: طريق المدرسة وقاعة الحزب الشيوعيّ التي كان الناس يتجمّعون فيها يوم الأحد للرقص. وبالفعل، كانت الأرصفة – إن جازت هذه التسمية لمسار الطين والبلاط على جانبي الطريق – مزدحمة بالفتية المتأنّقين وعساكر ثكنة الفورتي. وعلى الرغم من أنّه شهر ديسمبر، أوج الشتاء، كان الطقس حارًّا يسبِّب التعرُّق؛ فبدا الضباب الذي يغطّي بيترالاتا والحقول المحاذية للنهر مثل بخارِ حمّام. كان تومّازينو يمشي وسط الطريق، يداه في جيوب جُبَّتِهِ الجلديّة، على مستوى مرفقيه: يجرجر قدميه اللتين توجعانه، محدودبًا ومتعبًا.

«هل رأيتَ ليلّو يا كاتزيتي؟» كرّر السؤال على شابٍّ آخر، يدردش بالقرب، ويرتدي ثيابًا كما لو أنّه في أغسطس، فيما كانت الرطوبة تُرجرِجُ خصلات شعره المجعّد حتّى منخاريه. «كلّا» ردّ بفظاظة. لكنّ تومّازو لم يسمعه، فلا غاية لديه من السؤال سوى طرح السؤال، لمجرّد الثرثرة. فهو يعلم جيّدًا أنّ ليلّو ابن الساقطة في الصالة يرقص.

كانت القاعة داخل بيت صغير ذي طابق واحد، مطليٌّ بالزهريّ، وله ثلاث نوافذ على جانب واحد، وبابٌ عند فناء صغير على الطريق. بيتٌ ككلّ تلك البيوت المجاورة والمصفوفة هناك بما لا يزيد عن اثني عشر بيتًا، جميعها متشابهة، وأمام كلٍّ منها فناء صغير ومتّسخ. إنّها بيوت المُرحَّلين الواقعة على امتداد تلك المناطق السكنيّة. ثمّة شجيراتٌ متبرّمة بين هنا وهناك، لا ورقةً تعلو أغصانها؛ وبعضُ المباول المطوَّبة.

كان الباب مفتوحًا، والنوافذ كذلك. والضوء ينعكس على الفناء. وهناك دَوشَة في الداخل والخارج: فتية، شبّانٌ مُرُد، صبايا، وشيوخٌ سكارى كما لو أنّهم في الساحة مجتمعون.

«اللعنة على أمواتك يا ليلّوا» صاح تومّازو برئتين ممتلئتين ووجهٍ شرّير، حين دخل ورأى ليلّو ملتصقًا على جانبٍ من الحائط المثقَّب كالمصفاة. «دعني وشأني» ردّ ليلّو، وسرعان ما تركه هناك مزروعًا كالوتد، إذ إنّ الفرقة الموسيقيّة المكوّنة من ثلاثة غلمان ورجل عجوز يشبه الممثّل كاتشيني استهلّت بعزف مقطوعة سامبا؛ فما كان من ليلّو إلّا أنِ اندفع مسرعًا إلى قلب الحشد، ليسبق الآخرين في تقديم نفسه – بلا انحناءة أو معذرة – إلى صبيّةٍ ترتدي المخمل الأسود. ولم تكد تمرّ ثانيةٌ إلّا كان يراقصها على أنغام السامبا، ويُقلِّبُها بين يديه يمينًا شِمالًا مثل بلبلٍ دوّار. وبينما كانت تدور، كان ليلّو يمضغ علكة أمريكيّة ويُنقِّلُ ساقيه المشدودتين تحت بنطلونه الأمريكيّ[6] خطوةً بخطوة، ويخِضخض ردفيه، ويُوثِّبُ قدميه اللتين في الحذاء مدبَّب الرأس ذي

---

6 البنطلون الأمريكيّ هو الجينز، وكان الإيطاليّون في تلك الآونة يسمّونه كذلك نسبةً إلى بلد المنشأ. وقد تعمَّدنا ترك التسمية على حالها مراعاةً لأسلوب العصر الذي أُلِّفتْ فيه الرواية ودارتْ أحداثُها في خلاله. المترجم.

قفلة الحزام.

لا بدّ أنّ الفرقة تعزف بأجرٍ مقطوع، ولاسيّما الفتى عازف الهارمونيكا، أسمر البشرة كالمغاربة، وصاحب صفٍّ من الأسنان المكشوفة، كأسنان قطٍّ نافق، والتي تلمع كلّما ابتسم.

وخلف حاجزٍ، يكاد لا يربو ارتفاعُه عن متر، هنالك المقصف: وهو عبارة عن برميل، وطاولة ونادلٍ أشبَه بالرجل الذئب، كان مخمورًا هو أيضًا منذ تلك الساعة المبكرة.

وحول الطاولة هناك كاغوني، رفقةَ بوذا وناتزارينو وثلاثة نشّالين ليسوا في مطلع شبابهم، إنّما كانت أعمارهم تتراوح بين أربعة وعشرين وخمسة وعشرين عامًا.

«أوه» قال تومّازو لكاغوني «متى سيتحرّك ذلك الوغد؟ بعد سنة؟»

كاغوني لم يردّ، إذ كانت عيناه مشغولتين برؤية بعض الصور مع الآخرين. «يا كاغوني» استأنف تومّازو بنبرة منغّمة تقريبًا «لِمَ لا تذهب وتنادي ذلك الحقير؟ لقد تأخّر الوقت!»

إلّا أنّ كاغوني أيضًا كان لديه ما يمنعه عن التحرّك. نظر إلى تومّازو برقّة، وقوّسَ حاجبيه، ثمّ زعق والبصاقُ يتطاير من فمه: «كيف والساعة لم تتجاوز الرابعة بعد!»

«أجل، إنّها الرابعة!» قال تومّازو «لقد حلَّ الليل!»

«اغرب عن وجهي!» قال كاغوني بصوت خفيض، وعاد ينظر إلى صورةٍ كان أحد الأصحاب يريه إيّاها.

حدّق فيها متهدّلَ الجفنين، ثمّ لاح على وجهه تعبيرٌ لا يخطر في بال: شدقان مرتخيان تظهر عليهما بعض التجاعيد، وفمٌ مثل خدشٍ

صغير، بشفتين قد بهت لونُهما حتى مال إلى البياض، وعينان زجاجيّتان بلا حاجبَين، ورأسٌ قد نالها صلعٌ خفيف، وشعرٌ مجعّد وقذرٌ يغطّي العنق؛ كما كان كلُّ ما فيه ينتفخ بقهقهةٍ تجبره على إخفاض جسمه حتّى الذقن فوق البرميل.

«ما هذا، هل أنت رياضيٌّ أيضًا؟» قال، وكاد شدقاه يتصدَّعان ضحكًا.

انتزع ناتزارينو الصورة من بين يديه، وحملق في عينيه.

«أيّها الحقير!» قال، وثنى شفته السفلى لشدّة تقزُّزه الذي كاد يسيل أسفل ذقنه. «أيّها الحقير!» ردّد الكلمة التي لم يعثر على سواها. ثمّ نظر إليه وهو يهزهز رأسه الصغيرة كرأس الدجاجة، كأنّه يقول: "حاسِبْ فإنّك تخطئ! لقد أسأتَ الفهم!"

رماه كاغوني بنظرة مريرة ولمَّا يكفّ عن التمزُّق من الضحك، وصاح قائلًا: «ألا فاذهبْ إلى مأوى العجزة! هيّا!»

«ولماذا؟ هل أنت أفضل حالًا؟» انتفض بوذا، ثالثهم. أخرج محفظته من جيبه فعلًا، وأخذ يقلّب في أقسامها بخفّة، حتّى وجد صورةً يظهر فيها هو نفسه، وأصدقاء آخرون، وكاغوني.

كانوا يرتدون سراويل البحر، مصطفّين جنبًا إلى جنب: الذين في الخلف واقفين، والذين في الأمام جالسين القرفصاء؛ يحدّقون إلى عدسة الكاميرا بنظراتٍ جسورة، منتفخين كالديكة ليبدوا مكتنزين: ناتزارينو يكاد ينفجر لشدّة تعريضه صدرَه وتقديمه منكبيه وتثبيته يديه على خاصرتيه. كاغوني يبدو امرأةً عجوز، نحيلًا كسمكة القدّ. وما إن رآه بوذا وناتزارينو على تلك الحال حتى تمزّق شدقاهما من

فرط الضحك. لم تكن قهقهة بقدر ما كانت صيحة تكشط الحلق وتضطرهما إلى الانحناء على خصريهما والتدحرج تحت الطاولة.

كان كاغوني ينظر إليهما منعزلًا، بحاجبيه المقوّسين، وعينيه الغبشتين وشفته السفلى المرتخية؛ لكنّه من الواضح أنّه كان سينفجر ضحكًا هو أيضًا.

نظر تومّازينو إليهم وضحك حتّى احمرّ وجهه، وانتظر أن يتوقّفوا. وعندما هدأوا قليلًا، استلّ محفظته من جيب جبّته الداخليّ.

«يا أصحاب!» قال بنبرةٍ تثير التعاطف «ها هم الأقوياء!» أضاف متريّثًا، وكان يصيح لأنّ الضوضاء التي على بُعد خطوتين لا تتوقّف أبدًا، ما بين أنغام الفرقة والحركات المفرقعة التي يؤدّي بها أبناءُ الساقطة رقصةَ السامبا هناك.

في الصورة الأولى كان تومّازو وليلّو وزوكابّو وكارليتّو في أوستيا. زوكابّو وكارليتّو جالسان على أعتاب الكوخ، يصنع كلٌّ منهما بيده قرنًا باديًا من خلف الرأس المبتلّة للآخر. وهو كان نصف جالسٍ ونصف مستندٍ إلى السياج الخشبيّ. وفي الوسط، كان ليلّو منزويًا عند الباب، بنطلونه الضيّق، وملامحه اللطيفة وهيئته الجدّيّة وقامته المنتصبة.

مرّر تومّازو الصورة أمام أعين الأصدقاء بسرعة خاطفة، دون أن يجعلهم يرونها جيّدًا. أعادها إلى المحفظة، وأخرج أخرى. كان فيها صحبة ليلّو وزوكابّو فقط، بهندام أنيق، يتمشّون جنبًا إلى جنب على جسر غاريبالدي: التُقِطت الصورة في ذلك الصيف، وكان خلفهم فوجٌ من الحجّاج يلتفتون إلى الطرف الآخر. أمّا الثلاثة فيمشون وأيديهم في جيوبهم جميعًا. كان الطقس جميلًا، وكانوا يرتدون قمصانًا خفيفة

تتبدّى منها صدورهم المنتفخة. مرّر تومّازو هذه الصورة أيضًا بسرعة تحت أنوفهم، بالكاد شمّوا رائحتها. «إيه يا ملاعين!» قال في النهاية ظافرًا. وأخيرًا أخرج صورةً وهو يغمز بعينه نحو كاغوني.

كانت الصورة صغيرة جدًا، أصغر من صور البطاقات الشخصيّة حجمًا، وكان تومّازو يحملها من حوافّها ما بين السبّابة والإبهام: رفعها وثبَّتها جيّدًا باتجاه بوذا وناتزارينو. صورةٌ لموسوليني، مسوَّد الوجه تحت طاقيّته الموسومة بالنسر.

لم يعبأ بوذا وناتزارينو كثيرًا بتومّازو، كي لا يشعرانه بالرضا، ولم ينظرا إلى الصورة إلّا قليلًا، ما يكفي للاستغراب من ماهيّتها.

«سحقًا!» غمغم بوذا «ما الذي يطلعنا عليه هذا المخبر النغل!».

"المخبر" هو اللقب الجديد الذي أطلقوه على تومّازو، بعد لقب "ذو القدمين القذرتين". تثاءب بوذا، وتمطّى متجهّزًا للانشغال بأمور أخرى، ولم يسمع ما قاله تومّازو وهو يديم النظر إلى صورة موسوليني: «ها هو الذي كان رجلًا بالفعل!»، وظلّ يرنو بإعجابٍ متفاخرًا.

انتفض كاغوني على حين غرّة، كما لو أنّه تذكّر شيئًا وقال: «حسنٌ، ما الذي يفعله ليلو الخرائيّ؟»

«مرحى، فهمتَ أخيرًا!» قال تومّازو ببطء ومرارة، وأعاد صورة موسوليني إلى المحفظة بعناية. لقد انتهت رقصة السامبا، وبما أنّ الفرقة كانت تعزف الأغاني ثلاثًا ثلاث، ما زال المتراقصون واقفين على أقدامهم، أمّا أولئك الذين كانوا فرادى بلا صبايا فانسحبوا وهم يتمسَّحون بالجدران، ويغمزون للواتي كنّ يرقصن، ترتيبًا للوصلة التالية.

صاح كاغوني وسط الصالة، وتناثر البصاق من فمه: «هيّا يا ليلّو، اللعنة على أمواتك!»

لكنّ الأخير لم يسمعه من شدّة الصخب، وربّما سمعه فتظاهر بعكس ذلك. راح كاغوني يبحث عنه، متبوعًا بتومّازينو، وطاف المكان ما بين جدرانه ذات الجصّ المتفتِّت. وحينها انطلقت الفرقة بعزف أنغام الشارلستون بسرعة فائقة. فهبَّ الراقصون قفزًا كأنّهم تلقّوا بعْ** مباغتة. انحنوا على رُكَبهم قليلًا وتثبّتوا على رؤوس أصابعهم، وأخذوا يرمون سيقانهم هنا وهناك كالرعاع.

وسرعان ما عثر كاغوني، وتومّازو بوتزيلّي، على ليلّو الذي كان أحسن راقص في بيترالاتا، فمن الصعب أن تفوته رقصة شارلستون لإثبات تفوُّقه. وكانت الصبيّة التي معه أشدَّ حيويّة منه، رغم عبوسها وجدّيّتها؛ فقد ثارت راقصةً وهي تضبط فستانها الناعم بيدها على فخذها. «أيّها المنحوس» صرخ كاغوني بليلّو حين مرّ بقربه. فلم يردّ عليه حتّى. فوقف الصديقان مكتوفي اليدين، بانتظار أن ينتهي ليلّو من الرقص كيف ومتى طاب له.

كانت الحرارة في الخارج خانقة: هبطت الشمس، ولم يتبقّ منها إلّا شعاعٌ أخير، يتغلغل في الضباب الذي غطّى بيترالاتا والأرياف المحيطة بها.

ساروا في الطريق الذي يزداد اكتظاظًا كلّما حلَّ المساء، ليمتلئ بشبّانٍ يصيحون ويغنّون، وفتيةٍ يُحدِثون الضجّة.

وصل الرفاق الثلاثة إلى أسفل، عند موقف الحافلة، بعد أن مرّوا أمام والدة ليلّو التي ما تزال جالسة إلى بسطتها المطوّقة بمتراسٍ من الأولاد.

لم يلتفت إليها ليلّو، وحين تشبّثوا بأعمدة الموقف، غمغم وهو يتابع مضغ العلكة: «أوه، لقد ولدتُ متعَبًا!» وبدأ بتثاؤبٍ لا ينتهي.

لم تصل الحافلة بعد. كان تومّازو يرسل نظراته المتنبّهة في الأرجاء، مسرورًا، يفكّر في البرنامج الجميل الذي كان بانتظارهم.

كاغوني مستندًا إلى العمود، بجانب ليلّو، مثل كيسٍ من الخِرَق المتمزّقة، رافعًا ياقة معطفه إلى أعلى؛ وخصلاتُ شعره المجعّد والمتّسخ تتبلّل برطوبة الضباب. كان معطفه أملسَ ومهترئًا وحائل اللون، تصل أهدابه حتّى قصبة ساقه، ليبدو مثل القساوسة، وكان يستغلّ مظهره المضحك هذا في النصب والاحتيال.

كان ابنًا لبائعة هوى ومنحرف، ولديه إخوةٌ ثلاثة هائمون على وجوههم في أصقاع روما. يقضي والده عامين داخل السجن، وشهرًا خارج السجن: ويمكننا أن نقول إنّ كاغوني لم يره قطّ. فتكفّلت والدته بأعباء الحياة حين كان صغيرًا. وكانوا يسمّونها الشمطاء، نسبةً إلى شعرها الأشيب كليًّا، هناك عند جسر غاريبالدي حيث تعمل، لأنّ قوّادها يسكن في كامبو بووتزي.

ولمّا بلغ كاغوني من العمر أربعة عشر عامًا، وعرف أنّ أمّه بائعة هوى، تروَّى ليصبح أكبر سنًّا. ومن ثَمَّ، بعد عامين أو ثلاثة، أقبل إليها وأطبق قبضتيه على عنقها وقال لها: «ها، ستسلّمينني خمسمائة ليرة في اليوم، وإلّا قتلتكِ!» ذُعِرت المرأة ووافقت، لأنّ كاغوني لا يمزح البتّة. وهكذا، كانت تسلّمه المعلوم – خمسة عشر ألف ليرة – على رأس كلّ شهر، من خلف ظهر القوّاد. الأمر الذي يجعل كاغوني مطمئنًّا من هذه الناحية؛ أمّا البلايا الأخرى التي يقترفها فكانت بهدف التسلية والسفاهة لا لكسب القوت.

*

السماء في روما ماطرة. لاسيّما حول نهر التيفر، من تستاتشو إلى بورتا بورتيزي ولونغاريتا. تنهمر مياهٌ ناعمةٌ وخفيفة فتذوب قبل أن تلامس الأسفلت. وكانت الشوارع والأزقّة تغصّ بذلك البخار الدافئ الذي تعوم فوقه رابيةُ أفنتينو من جهة ورابيةُ مونتيفيردي من جهة أخرى.

الساعة حوالي السادسة أو السابعة مساء، لذا عندما نزل تومّازو وليلّو وكاغوني من حافلة الخطّ 13 عند المساحة الخضراء قبالة جسر كواترو كابي، كان المكان مقفرًا إلّا من طلائع المومس اللواتي يبدأن بالتجوّل تزامنًا مع دورة الشبّان بالدرّاجات الناريّة من جسر غاريبالدي إلى كاراكلّا؛ إلّا أنّ أمسية الأحد الصاخبة تبدأ عند عبور الجسر والوصول إلى لونغاريتا. حيث يطوف الشبّان جماعات، خارجين من الريالي وإسبريا وفونتانا، أو من إحدى صالات السينما الخوريّة الرديئة، ويتمشّون لتنسُّم الهواء قبل العشاء.

كان الجميع يرتدي المعاطف والشالات حبًّا بالمظاهر ليس إلّا. وقد أحسن ليلّو صنعًا عندما خرج بلا معطف أو جبّة – ناهيك بأنّه ليس لديه أيٌّ منهما – فبدا وسيمًا ومتجاسرًا بكنزته المخطّطة بالأحمر والأزرق، ومنديله الحريريّ الرماديّ المرقّط بالزهيرات الحمراء والمكوّر والمعقود على عنقه.

كان مقرّ م.س.إ[7] في فيكولو ديلا لوتشي/درب النور. لكنّ تومّازو والآخرين لم يضطروا إلى الوصول حتّى هناك، إذ صادفوا أوغو عند رأس الدرب.

---

7 «Movimento Sociale Italiano» الحركة الاجتماعيّة الإيطاليّة: حزب يمينيّ، ذو توجّه فاشيّ، تأسّس عام 1946 وقام بأعمال تخريب واغتيالات في البلاد. المترجم.

كان يشعل سيجارة: هذا ما جعله يقف عند المنعطف؛ وقد أومأ بتكشيرةٍ مفترسةٍ جعّدت سائرَ وجهه، تحت أمواج شعره الخشن كبلاط الرصيف.

«ها؟!» قال له تومّازو، رافعًا يده متردّدًا.

رمى ذاك سيجارته بعد أن سحب منها سحبة طويلة. ثمّ بصق بلسانه ما علق بين شفتيه من بقايا تبغٍ كانت تزعجه وأعيته في التخلُّص منها.

«سلامًا يا شباب!» قال ومرّر يده على الثلاثة. وسرعان ما عاد تومّازو إلى الموضوع، بجلافة، مكشِّرًَ الأنف كأنّه اشتمَّ رائحة كريهة: «لماذا أنت هنا؟» سأله وتهيَّأ للسير في الدرب نحو مقرّ الحركة.

«لم يعد هناك أحد» أجاب أوغو.

«وكيف ذلك؟!» ردّ تومّازينو، وكان رفيقاه ينظران باستغراب.

«كارليتّو قال أنْ ننتظر هنا، في ساحة بونزياني، هيّا!» أردف أوغو وسار نحو لونغاريتا دون أن ينتظر ردًّا.

«لماذا؟» سأله تومّازينو وهو يتبعه مستاءً.

توقَّفَ أوغو فجأة. ضمّ كفّيه كأنّه ينوي ترتيل "أبانا الذي في السماوات". ثمّ قلبهما بحركة سريعة، وما زالا مضمومين ولكنْ من ظهريهما، وغرس أنامله في صدره. وهكذا شبك أصابعه بعضها ببعض، وهزَّ يديه على صدره وتحت ذقنه، خمس مرّات أو ستّ، بطريقةٍ متسائلة، وانفجر قائلًا: «وما همُّك أنت!»

بصق واستأنف سيره إلى أسفل نحو لونغاريتا التي كانت تتلألأ بفعل الأمطار الدافئة.

وفي ساحة بونزياني كان هناك إنريكو وماتّو[8] وسالفاتوري. وسرعان ما لمحوهم، لأنّ الساحة بكونها صغيرة وبعيدة عن المركز نوعًا ما، كانت شبه خاوية؛ فكانوا متجمّعين عند زاوية شارع فاشيلاري، بجانب الحانة.

ذهب تومّازينو والآخرون تجاههم، وتصافحوا. لم يتحرّك أيٌّ من الشبّان الثلاثة، بل ظلّوا مستندين إلى الجدار، بسيقانٍ متصالبة، أو بقدمٍ ثابتة على الأرض وأخرى مثنيّة إلى الجدار. كانوا يتثاءبون خلال الانتظار، في مكان الموعد هناك. رفعوا أيديهم اليمنى على مضض، من دون أيّ تغييرٍ في تعابير وجوههم الهانئة والهازئة. وهكذا، لتزجية الوقت، راحوا ينظرون إلى بائع الزيتون الذي كان على الطرف الآخر من الشارع، والدلو الخشبيّ المليء بالزيتون على الرصيف. «أين كوليتّا؟» سأل أوغو بلا غاية. «سيأتي حالًّا» قال واحدٌ من الثلاثة، ذو العينين الشبيهتين بلؤلؤتين مشتعلتين.

«ماذا؟ هل نحن وحدنا هنا؟» قال تومّازو مشمئزًّا.

«أوه، وهل نحن نكرات؟» ردّ أحدهم.

وما كان من تومّازو المتجهّم، الذي ما انفكّ ينظر حوله، إلّا أن افتعل ضحكة مريرة على تلك الجملة، وفُتِحَ فمه المسطّح ليكشف عن أسنانه المصفرّة والمتفرّقة.

وحينئذٍ اتّجه ماتّو، ذو العينين اللامعتين مثل النيون، نحو بائع الزيتون، بخطوات متثاقلة لكنّها حاسمة، متبوعًا بنظرات أصحابه.

«أعطني زيتونًا بمائة ليرة يا سيّد!» قال ماتّو.

---

8 «Matto» يعني المجنون. ولا بدّ أنّه لقبٌ أُطلِق على هذا الفتى لشدّة هياجه وانفعاله. المترجم.

نظر السيّد – الذي لم يكن سوى راعٍ للأغنام آتٍ من ضيعةٍ نائية في مقاطعة أبروتزو – نظر نحو يد ماتّو التي يحمل بها النقود، فمدَّ يده ليستلم، فأعطاه. غطَّسَ المغرفة في الماء، فإذا هو يستشعر أنّ النقود مزيّفة حالما تلمَّسَها. نظر إليها فرأى بينها خمسين قرشًا قديمًا، من زمانٍ سالف. ارتسمت على وجهه ابتسامة بليدة. «هذه ليست نقودًا صالحة!» قال بعينين تلمعان.

لم يضحك ماتّو. «ليست صالحة؟» قال جادًّا وحانقًا لكرامته «حاسِبْ فإنّك تخطئ يا عزيزي!» أضاف مسارعًا بنبرةٍ مسالمة، كأنّه يريد أن يسحق شرودَه بصخرة. إلّا أنّ تلك الابتسامة المغفلّة لم تبرح وجه الكهل، لا بل راح يلقي نظرات ماكرة يمينًا شِمالًا. وحينها اقترب الآخرون.

«أوه، والآن؟ ستعطيني الزيتون أم لا؟» قال ماتّو نافد الصبر مرّة أخرى.

«أعطني نقودًا صالحة!» أجاب البائع، والتجاعيدُ تتمدّد حول عينيه.

أخفض ماتّو رأسه، لينظر من أسفل إلى أعلى، وطقطق بلسانه جوفَ فمه كأنّه يتذوّق مرارةً فيه. وبادر بصوت منخفض وملطَّف: «أليست صالحة؟ أليست صالحة؟» ثمّ استشاط غيظًا: «كيف تسوِّل لك نفسُك الاستهزاء بهذه النقود، أيّها الشحّاذ؟! ألا تعلم أنّ لهذه النقود تاريخًا مجيدًا؟ هيّا، ناولْني الزيتون. وانتبهْ جيّدًا في المرّة القادمة وأنت تميّز النقود الصالحة! وانظر في النقود عميقًا! كم أرغب في لكمك على فمك!». وما زال بائع الزيتون يضحك مواربًا. «هذه هي النقود الحقيقيّة

الوحيدة التي عرفتها إيطاليا» أضاف سالفاتوري صارخًا من بعيد، «أيّها الأحمق! ستأخذها وستُرجِعُ لنا الباقي أيضًا. هيّا بسرعة!»

وفي تلك اللحظة ظهر كوليتّا ومعه خمسة أو ستّة آخرون، من عمق شارع فاشيلاري. كان كوليتّا شابًّا فارع القامة، أسمر البشرة، نحيفًا، مطاول الرأس، كثيف الشعر مسرَّحًا إلى الخلف؛ ولون وجهه ضاربٌ إلى الخضرة ومخدوشٌ بفمٍ أعوج.

وكانت عيناه جديّتين على الدوام، كأعين فتىً أغضبه أحدٌ ما. ينظر بحدّة لكأنّه يستنبط ألمًا وضغينة.

أمّا الآخرون فكان جميعهم تقريبًا من أبناء الأثرياء: أحدهم بسترة المونتغومري، وآخر بنظّارات البرناردوني. وجوههم منتفخة وبنفسجيّة، وأجفانهم السفلى بهالات قاتمة، وبشرة أعناقهم سوداء بفعل اللحى الحليقة بشكل سيّئ عند لوزة الحلق. وكان بينهم صديقٌ لتومّازو أيضًا، يسكن في الأحياء المجاورة له، في ناحية تيبورتينا، ويدعى ألبرتو بروييتي، ويبدو كالممثل ألبرتو سوردي: إلّا أنّه كان يعمل محاسبًا منذئذ، ويقيم في فيلا صغيرة قبل شارع فيورنتيني: شرائطُ زينة الكرمة البائدة تحت واجهة البيت، والطحالب تطغى على الحوش. انتفخ تومّازو لرؤيته، وذهب نحوه ليصافحه باحترام.

خطر في بال كاغوني أن يتناول بعضًا من حبّات الزيتون. وتوجّه إلى المغفّل بخفّة: «أعطني كيسًا بمائة ليرة» قال وهو يضع يدًا في جيب معطفه. تجاهله البيّاع. فكشَّر كاغوني وردّد: «أعطني كيسًا بمائة ليرة».

فقال البائع حينها: «النقود أوّلًا». رماه كاغوني بنظرة صبورة وقال

له بنبرة ودودة: «اسمع... أعطني زيتونًا بمائة ليرة». «النقود أوّلًا» كرّر المسكين معاندًا، ومن يدري كم مرّةً تعرَّض للنصب.

تألَّبَ كاغوني بفورة غضب، فرفع قدمه وصرَّ أسنانه، وتهيّأ لرفس الدلو: «سأركل هذا السطل حالًا إلى وسط الساحة، فاذهبْ إلى الجحيم» صاح «هيّا، أعطني الزيتون!». ولئن كاد البائع يسلِّم أمره، ويحضِّر نفسه للإعدام، ظلّ ثابتًا على تعنُّته: «كلّا، كلّا، ضع النقود في يدي» قال.

صمت كاغوني ونظر إليه. انتفخ وجهه شيئًا فشيئًا، وضيَّق فمَه حتى صعد به إلى منخاريه، وجحظت عيناه احتقانًا وكادتا تنبجسان خارجًا. كانت كلّ عضلات وجهه ترتجف كأنّه يغيِّر جلده. وبدا محتارًا ما بين الانفجار بتشنُّجات ناقمةٍ تدفعه إلى ركل ذلك الوجه الغبيّ أمامه، وبين الانفجار من الضحك.

«أوه، ما بك؟» زعق في النهاية بصوتٍ ينخفض «هل رأيتَ وجهي؟ سأخبط بوزك بهذه النقود!»

وبالفعل، أخرج من جيبه ثلاثمائة ليرة، فأخذ منها مائة، وغمرها بالماء في لمحة عين، وألصقها على وجه بائع الزيتون بخبطةٍ سمعتها كلّ الأحياء المجاورة. ثمّ التفت من دون حتّى أن يجود عليه بنظرة، وعاد مرتجفًا إلى أصحابه الذين جلسوا في حلقةٍ يشاهدون ضاحكين. ربّت كوليتّا على كتفه، ثمّ قال متوجّهًا إلى الجميع: «فلنذهبْ!»، محرِّكًا رأسِه التي بدت مرسومة في بيرق، نحو جسر روتّو.

كانوا يسيرون متنشّطين، أحدهم هنا والآخر هناك.

وكوليتّا يمشي ويداه في جيوبه، متقدِّمًا، وعيناه المضغوطتان

البيضاوان كالهليون لا تحيدان عن الأمام.

ونظرًا إلى مسؤوليّة العزم التي ألقيت على عاتقه وحده، كان الحمقى الآخرون يتبعون له، ويتقرّبون منه كالببغاوات. أوغو الذي قُتِلَ والده وشقيقه على أيدي المناضلين، وكان حينذاك يعيش مع والدته فقط، ويعمل لصًّا، كان يتمشّى مع إنريكو وسالفاتوري لمواجهة كلّ الفتيات اللواتي يمررن من جانبهم.

أمّا أبناء أشباه الأثرياء فكانوا يمشون في الخلف أزواجًا كالبطّ. فتلصَّقَ بهم تومّازو، بجانب صديقه، ألبرتو بروييتي ذاك، وتباهى برفقتهم، لأنّهم ليسوا جوعى بائسين كأولئك الآخرين أصحابه في القرية. «لن أصبح غنيًّا إلّا إذا تقرّبتُ من هؤلاء» كان يفكّر عابسًا متفاخرًا «وأكسب الحظوة أيضًا! فلنفترض أنّي أردتُ الذهاب يومًا لتناول القهوة أو دخول السينما، فمن أصطحب يا تُرى، هؤلاء الميسورين أم أولئك المنتوفين؟ إنّ أتعَسَ هؤلاء حظًّا يعيش في بحبوحة؛ فأحدهم نجلٌ لطبيب، وثانيهم ابن محامٍ، والآخرُ والدُه مهندس: كلّهم أناسٌ لا يخشون شيئًا!»

ساروا على الأقدام من جسر روتّو إلى لارغو أرجنتينا. وهناك التقوا بمجموعات أخرى من الشبّان الآتين – مثلهم بلا مبالاة – من المناطق المحاذية، بورغو بيو أو بونتي أو بانيغو؛ أو المناطق الأبعد، مونتيفيردي أو أليبروني، فمِن هناك تمرّ حافلاتٌ أكثر. إلّا أنّهم يتعاملون مع بعضهم بأنفة، يَتَأمْرَكُون، فيتجاهل بعضهم بعضًا ويكملون مسيرهم كلٌّ إلى شأنه. وحده كوليتّا قال: «انتظروا» ونزل نحو بائع أزهار تحت البرج الصغير، من حيث يمرّ فيلق مونتيفيردي، يجلس على سجّادة قذرة

مطأطئ الرأس ويضحك كالأطفال. مشى كوليتّا معه في الحارة، باتّجاه بقاليّة شبه خاوية. وعاد بعد قليل، يحمل صرّةً في يده.

وكان الآخرون قد استندوا إلى سور لارغو أرجنتينا، تحت البرج، ينظرون إلى الفتيات.

وحينما عاد كوليتّا، كان أوغو ينحني على فتاة ترتدي فستانًا أحمر، يغمغم من خلف ظهرها في غاية السرور: «هل الحلوة ذاهبة للتغوّط؟»

لكنّ كوليتّا، والصرّة تحت ذراعه، اجتثّه عنها بعزم وعاد به سريعًا، وهو يقول: «فلنذهب، هيّا!»

استأنفوا السير بلامبالاة. كان يوم أحد، وكانوا يبدون زمرةً من الفتية الذاهبين إلى قصر آلتييري[9] حقًّا، الذي كان بالجوار تمامًا، يقهقهون أو يغنّون. مرّوا أمام شارع مازيتّي، وانعطفوا نحو ساحة مينرفا، وكان لهم وقفةٌ أخرى في زقاقٍ يطلّ على ساحة روتوندا.

نادى كوليتّا على ليلّو، وسلّمه الصرّة، وابتعد مجدّدًا نحو ساحة روتوندا، خلف صفوف سيّارات الأجرة والحناطير، بينما كانت جماعات السفلة الأخرى تتوافد من كلّ الحارات. وعندما عاد خلال عشر دقائق تقريبًا، كانت ملامح وجهه قد تغيّرت: بدا كأنّه بُعِثَ من جديد، وباتت عيناه تلمعان بشدّة، فوق خديّه البيضاوين كصابونة. لقد حان الوقت.

وكان كلٌّ من أوغو وسالفاتوري وماتّو والآخرين على الأرصفة يبصقون على القطط المستلقية على الحجارة في باحة البانثيون.

---

9 قصر آلتييري: شيّده الكاردينال جامباتيستا آلتييري عام 1650 في روما. وتحوّل إلى مسرح للعروض الشعبيّة في الخمسينيّات من القرن العشرين. المترجم.

وقد وصلت المجموعات الأخرى من الحارات، وبدأوا يشكّلون حشدًا متجمهرًا، يتبادلون التحيّات، ويثرثرون بصوت عالٍ، ويتجمّعون ويتخالطون ويتداعون. نزل كوليتّا مشيًا نحو باحة البانثيون، وكاغوني إلى جانبه. وقد تجمَّع حوالي مائة فاشيّ بين صفوف السيّارات والعربات، وقبالة الحانات التي شرعت بخفض مشابكها الحديديّة.

وبدأ الشبّان بالتصفير وتنظيم صيحاتهم، مصطفّين هنا وهناك، على الأرصفة وفي زوايا الشوارع، وعلى عتبات النافورة. ومع وصول فرَقٍ أخرى، امتلأت الساحة كلّها تقريبًا، وعلا التصفير الرعويّ وصار أشدّ وطأة واستمراريّة. فانسحب سائقو التاكسي والحناطير إلى جانب كشك الجرائد، حيث أخذوا يكيلون اللعنات وقد اصفرّت وجوههم فزعًا.

تقدّمت جموع الفاشيّين تجاه ناحيةٍ من الساحة، عند مدخل شارع سيميناريو. هناك حيث يوجد فندق صغير، يدعى فندق الشمس، وقد تقهقر الخدم والنُّدُل بعد أن أغلقوا جميع النوافذ كيفما استطاعوا إبّان هروبهم، وبقي الباب شبه مفتوح، حيث احتمى خلفه صاحبُ الفندق ليطلّ برأسه بين الفينة والأخرى، متغوّطًا في ثيابه من شدّة الرعب. «اطردوا التشيكوسلوفاكيين!» هتف المنتسبون إلى الحركة الاجتماعيّة اليمينيّة مستهجنين، وهم يصفّرون بقوّة أكبر «أنتم مقرفون!» يصيحون «عودوا من حيث أتيتم!» يصرخون «هل جاءوا بكم أم جئتم من تلقاء أنفسكم؟» «عودوا إلى معسكركم!» «إلى بلادكم، أيّها التشيكوسلوفاكيّين الملاعين!»، كان أحدهم يهتف ويردّد الهتافَ ستّةٌ من رفاقه حوله كأنّهم في جوقة. «اهدؤوا، اهدؤوا!»

أوصاهم صاحب الفندق، «ما ذنبي أنا إن أوفدوا إليّ مواطنين تشيكوسلوفاكيّين!»

وفي تلك الأثناء تناقلت الأفواهُ بين الصفوف: «الخراء! الخراء!».

وتقدَّم من الأزقّة بالفعل خمسةُ أو ستّة أوغاد، مكلَّفين بتلك العمليّة، التي وُصِفتْ بالطريفة للغاية. تقدَّموا رَمَلًا، برشاقةٍ وظهورٍ منحنية، تارةً يضحكون وطورًا يزعقون، ويحملون بأيديهم قدورًا وسطولًا ودلاء. كانت جميعها مليئة بأخلاط صفراء قاتمة ومكثّفة. وشرعوا يقذفونها على باب الفندق وجداره. وكان لا بدّ من تكتيكٍ مُحكَم، لئلا يرتدّ الخراءُ المرميُّ في وجه راميه ومَن معه. فكانوا يمسكون الدلو بخفّةٍ من ممسكه وأسفله، ويلقون بمحتواه هنا وهناك بتسديدةٍ عازمة. فهبَّت موجةٌ من ريحٍ نتنة، تقطع الأنفاس، فيما كان الشبّان يضحكون ويضحكون، محدثين دوشةً كبيرة.

وكلّما أغاروا اختفت الدلاء الفارغة. لقد ألقوا منها على الحائط ما يقارب العشرة. وكان ذلك المزيج المقزّز يسيل على الجدار الذي أصبح بسببه بنيّ اللون. وقد تهيّأ الجميع للانفضاض عندما ظهر كوليتّا فجأة، مصحوبًا بصيحات جديدة، مُبيضَّ الوجه، وشعرُه يتراقص في الهواء، حاملًا الصرّة في يده، ومتبوعًا برفاقه.

توقّف أمام باب الفندق قبل أن يسعف الوقتُ المالكَ لإغلاقه. حاول أن يغلقه لكنّ الآخرين ضيّقوا عليه. أشعل كوليتّا بجمرة سيَجارته فتيلَ القنبلة، وتقدَّم مسرعًا بضع خطوات، وألقاها داخل الممرّ المتعفّن. فسُمِعَ دويٌّ انفجار، ولفحت موجةٌ لهب. وحينها سُمِعَت صافرات الشرطة. «الدَّرَك! الدَّرَك!» تنادى الرفاقُ من البعيد. وبدأ

الفرار المتخبّط: بعضهم ما زال يصفّر ويهتف، وبعضهم فرّ بجلده. وصل الدَّرَك من جانبين: من شارع سيميناريو ومن ساحة مينرفا. فما كان من الفاشيّين الذين حوصروا في الوسط إلّا أن تَدَافَعوا للهرب عبر الدروب الأخرى. ألقي القبض على قرابة عشرة منهم؛ وتلقّى آخرون ضربات الهراوة على رؤوسهم؛ فيما لاذ معظمهم بالفرار، وذابوا بغمضة عينٍ في الحارات والأزقّة.

وكان توماّزينو وكاغوني وليلّو، مع كوليتّا وسالفاتوري وأوغو وماتّو، يركضون متراصّين جميعًا، كالضباع اللاهثة، في شارع دي كريشنزي صعودًا. سيقانهم تعدو بضراوة، بينما كانت وجوههم تضحك كما لو أنّهم في نزهة. «هيّا يا ليلّو!» صاح توماّزو وهو يقهقه. «هيّا لنعاشر السيّدات!». وصلوا عند مفترق طرق، بين شارع أوبردان وشارع تياترو فالّي: دلفوا أحدهما من غير تعيين، فصادفهم مفترق آخر. «فلنذهب من هنا!» «كلا، من هناك!» «كلا، من هنا!»؛ فتوقّفوا والعرق يتصبّب من جباههم كالصنابيرِ الفالتة. «أوه، لقد سئمتُ من الركض» قال أوغو بشراسة. وكان متأنّقًا: بينطلونه المنسوج من الفلانيلا، وسترته المموّهة بالأبيض والأسود والمربوطة بالحزام، وطوقه الذهبيّ، وخاتمه، والساعة في معصمه. «إنّي جائع، وسأتغوّط في ثيابي!» قال. «وأنا أيضًا. لم آكل منذ ليلة البارحة» وافقه توماّوز. فاحتدّ أوغو من جديد: «أوه. إن لم آكل حالًا، سأعطس!»، «فلنذهب لنأكل البيتزا عند فيليني» اقترح سالفاتوري. فانتفض أوغو: «هيّا بنا، ماذا ننتظر؟!»

لم يتّجهوا إلى تراستيفري مباشرة من خلال الطريق الذي سبق أن سلكوه، بل من طريق أبعد. استقلّوا الحافلة عند جسر فيتوريو،

لتسير بهم عبر شارع غوفرنو فيكيو، ثمّ نزلوا عند جسر غاريبالدي، ودخلوا شارع الملك حيث كان محلّ البيتزا، الذي أشاروا إليه، يقع بعد سينما إسبريا بقليل.

وكان المحلّ مكتظًّا، لا وجود إلّا لطاولة خالية في الزاوية، لحسن حظّهم، بجانب الفرن. تزاحموا إليها محدثين عربدةً انزعج على إثرها الزبائن الذين كانوا يتناولون البيتزا على الطاولات من حولهم. «تنحَّ جانبًا!» يتصايحون «هيّا!» كما لو أنّهم في ساحة مفتوحة لا في مطعم. رموا بأنفسهم على الكراسي وهم يضحكون كالأنذال، وسرعان ما نادوا على النادل. «ستّة بيتزا!» صاحوا، «ولتران من النبيذ الحلو!»، «أريدها بيتزا بالفطر» طلب أوغو. «ولنا أيضًا» صرخ الآخرون، «فنحن لسنا حجيجًا!».

وفي جوارهم طاولةٌ جلس إليها شبّانٌ من تراستيفري، لكنّهم أكبر منهم. وكان يعرف بعضهم بعضًا، فتبادلوا التحيّة بتلويح اليد مشدودة الأصابع كأنّها متلاصقة بالصمغ. «مرحبًا أيّها الرائق!» قال أوغو لشابٍّ عريض المنكبين وناصع البشرة كحزمة طازجة من الهندباء البيضاء. غمز الأخير بعينه، وبينما كان يمسك الكأس بيده راح ينظر إلى أوغو، ويحدّق فيه، بعينٍ ضاحكة. ارتشف قليلًا ثمّ وضع الكأس على الطاولة، وقال مثبّتًا أنظاره دومًا على أوغو: «هاك، أيُّ رأس سنة مرتقب! ستنكِّسون راياتكم المهترئة!»

عبَّر أوغو بوجهٍ متملّق، وصاح لأنّ الجميع في مطعم البيتزا يصيحون تحت أنابيب النيون في وجه ألسنة اللهب الآتية من الفرن، وأجاب بهدوء: «نحن ما نزال الأقوى، وسننجح!»

«أجل، أجل» ردّ الشابّ الرائق، بهزٍّ رأسه أعلى وأسفل، «لكنّ طغيانكم ولّى إلى غير رجعة!»

ردّ أوغو بعزمٍ وكبرياء: «على الأقلّ استطعنا أن نكون طغاة، ليس مثلكم ما زلتم لا تفلحون في ذلك!»

«لأنّنا لسنا سفّاحين مثلكم!» أجاب الشيوعيّ. حدّق إليه أوغو، متظاهرًا بضبط النفس، وكان في أوج غليانه، بل وحتّى رفاقه أوشكوا على الانفجار، لاسيّما تومّازو الذي كان ينظر إلى جلساء تلك الطاولة المجاورة، بعينين تقدحان غضبًا وتتعطّشان لنهشهم أحياء حتى آخر شعرة.

غيّر أوغو نبرته وتعبيره، كما لو أنّه كان يتحدّث إلى الريح عوضًا عن ذلك الأشقر المكتنز: «نحن سفّاحون، ها! السفّاحون هم رفاقك، أولئك الذين يتبنّون أفكارك ذاتها، والذين قتلوا والدي وشقيقي!»

استغرق الآخر بعض الوقت قبل أن يجيب، وابتسم عمومًا، ابتسم للريح هو أيضًا، واستعاد الكأس بيده، ونظر إليها قليلًا ثمّ قال: «فلنترفّع عن هذا! أنتم من عندكم وأنا من عندي، فينتهي هذا النقاش».

جاء النادل بالبيتزا والإبريقين، وبدأ يرتّب الأطباق على الطاولة مرتبكًا، بينما كانوا ينادونه من الجانب الآخر. «سآكل شحم القلب» قال سالفاتوري وهو يولي ظهره إلى رفاقه. «أمّا أنا فأودّ أن آكل قلوبهم» قال تومّازو بصوت منخفض، ووجهٍ يصفَرُّ من الحقد. «لو أُعطِيتُ ضوءًا أخضر، لصففتُهم جميعًا أمام الحائط وأعدمتُهم!».

وكان كاغوني قد شرع بتناول البيتزا. قسَّمها أربعة أجزاء، وأمسك

جزءًا بيده وطواه وأخذ يلتهمه كأنه شطيرة. ففعل الآخرون مثله، وهمّوا بالأكل وهم يتضاحكون ويتصايحون، وكلٌّ منهم يحاول سرقة النبيذ من الآخر. وبعد قليل، وبما أنّ الأجواء قد هدأت، ردّد الرائق بهدوء: «أوه» قال موجّهًا كلامه اللاذع نحو أوغو، «سأقدّم لك نصفَ لتر من النبيذ إن أنت انتقلتَ إلى صفوفنا!»

رماه أوغو بنظرة حانقة، وأخذ يتكلم واللعابُ ينتر من أطراف فمه: «ماذا، أتريد أن تخضعني أيضًا؟ أتعتقد أنّك متفوّق عليّ؟ أنت في السياسة لا تفقه شيئًا! اسمع، إنّي آمنتُ بذلك الرجل. انظر للأمر كما يحلو لك، فإنّ كلَّ ما أنجزه القائد كان يصبّ في مصلحة الشعب! ففي السابق لم تحدث هذه الكوارث التي تقومون بها اليوم! انظر إلى ميدان موسوليني، انظر إلى كلّ المشاريع التي أُنجِزَت والتي نعرف جميعًا أنّها أُنجِزَت في عهده فعليًّا! لكنّكم خونةٌ وقد غدرتم به! ليتني أقدر على إحيائه كي يبصق في وجوهكم!»

تلقّى الأشقر نكزة من أحد رفاقه، لكنّه كان قادرًا على ضبط نفسه بنفسه: ابتسم بمودّة صادقة، على الرغم من أنّه كان يسمع صوت تومّازو الذي كاد السمّ يقطر من عينيه وهو يهمس: «اللعنة على أمواتكم أيّها القتلة!».

لتران من النبيذ كميّة كبيرة، لكنّهم سرعان ما أنهوها. طلب ماتّو لترًا إضافيًّا. فأنهوه أيضًا. وعادوا إلى بهجتهم واحدًا تلو الآخر، واستولى عليهَم هوسٌ بعدم القدرة على السكون. فواحدٌ يغنّي لنفسه، والآخر يرفع قدميه على الطاولة. فتح كاغوني فمه في النهاية وقال: «أوه، هذا المساء أشعر أنّني في أحسن حال. يطيب لي القيام بسرقة القرن».

ضحك الجميع لكنّهم شنّفوا آذانهم جيّدًا، لأنّ كاغوني لم يكن يمازحهم البتّة.

«والآن» قال ماتّو «إن كنتَ تشعر بهذه القوّة، فهيّا بنا للمغامرة!»

«هيّا، هيّا، هيّا» صاح ليلّو «فلقد مللتُ البقاء هنا!»

اكتمل عددهم، وعيونُهم تلمع كالشُّعَل في وجوههم السمراء.

«أوه» زعق سالفاتوري متحمّسًا «هل نذهب لسرقة فرن ألدوتشو، وأكياس طحينه؟»

«وما الذي نفعله بكيسين من الطحين!» صاح ماتّو رافعًا يده. «فلنذهب لنرى كيف يمكننا نهب أسطوانات النحاس التي في محطّة مايانا!»

«هل جننتَ؟» قال أوغو «الآن يكون النحاس في المحطة قد صدأ! أمّا أنا فيطيب لي سرقة بائع تبغ. هل توافقون؟»

«علينا أن نتدبّر سيّارة أوّلًا!» قال سالفاتوري ساعيًا لرفع المستوى.

«وما الصعوبة في ذلك؟» قال ليلّو، منتعشًا، بابتسامه الهانئة تحت شعره الأشعث «سترى! نفتحها بدقيقتين، نركبها وننطلق!»

وبقوله هذا نهض واتّجه مباشرة، دون أن يلتفت إلى الوراء، نحو مخرج المطعم، أمام منفذ الفرن.

وثب كاغوني ونهض لكي يرافقه، ومشى خلفه ككلبٍ عجوز.

الطقس في الخارج ما يزال حارًّا. وقد أخرجت الحاناتُ طاولاتها على الأرصفة في شارع الملك، وكان هناك كثيرٌ من الزبائن. امتلأت أشجار الدلب بالعصافير: الآلاف والآلاف منها على الأغصان التي ما زالت تحمل أوراقًا شبه ميّتة، وكانت تزقزق محدثةً ضجّة تسدّ الآذان.

والفتية يطوفون تحتها بقمصانهم الداخليّة، ويقذفونها بالمقلاع.

اتجه ليلّو مبتهجًا، وكاغوني خلفه، نحو جسر غاريبالدي. قطعه باتجاه شارع أرينولا عائدًا إلى لارغو أرجنتينا.

توقَّف الاثنان هناك وأشرفا على الحركة. وأدركا على الفور أنّه المكان المناسب. دارا حول الساحة، ثمّ ألقيا نظرة على شارع بوتيغي أوسكوري. كان المكان مزدحمًا على أشدّه بالسيّارات، نظرًا لوجود حفلة في مسرح الأرجنتين. وفي إحدى الفسحات عند مدخل ذلك الشارع، إلى جانب صفّ من السيّارات المركونة، ثمّة سيّارة فيات ألف ومئة تي-فو منزويةً وقد برزت مقدّمتها.

اقترب منها ليلّو، وراقب الوضع حوله، وثبَّتَ ركبته بقوّة على بابها، ثمّ أمسك بالمقبض بشدّة بكلتا يديه ورفعه بحركةٍ حاسمة. فانفتح الباب، ودلف ليلّو خلف المقود، وفتح الباب الآخر. فركب منه كاغوني وسرعان ما مزّق الوصلات: انتزعها وطحنها وحطّمها بيسراه، بينما كان يمسك بيمينه وصلة الضوء. شغلّ ليلّو المحرّك، وسلك شارع بوتيغي أوسكوري، وعبر من جانب جسر روتّو ليعود إلى مطعم البيتزا في شارع الملك بغضون دقيقتين.

«غرناااااطة» سُمِعَ الغناء في الداخل، بين الزحام والدخان: كان هناك عازفان عند مدخل الفرن، أخضران كالسجّانين، يأكلان ويدردشان بفظاظة على أنغام الموسيقى.

«أيّها الحقراء!» قال ليلّو حين وصل إلى طاولة رفاقه، الذين باتوا سكارى بعد أن تجرّعوا اللتر الثالث. وسرعان ما عاد أدراجه إلى المخرج، دون أن ينتظرهم.

دفع الآخرون الحساب ونهضوا وتبعوه.

نظروا إلى السيّارة في الخارج، وسادت البهجةُ وجوهَهم، ووثبوا إليها لينطلقوا بسرعة نحو محطة تراستيفري.

«غرنااااااطة» بدأ سالفاتوري يغنّي، سعيدًا، بوجهٍ منتشٍ، ما إن استرخى على المقعد «يا أرض أحلامي[10]».

كانوا مضطجعين جميعًا وبعضهم ينظر إلى الخارج كالكلاب، والضحكة في العيون. أخرج أوغو رأسه من النافذة، وراح يصيح بالفتيات اللواتي يمشين على الأرصفة: «أيّها القَ** المغوار! يا صاحبة المؤ** الذهبيّ! يا ذات الـ** الملحـ**!». «إلى أين نذهب؟» قال سالفاتوري متحمّسًا، وقد قطع أغنيته. «هيّا بنا!» ردّ عليه تومّازو مبتهجًا.

التفت كاغوني وهو ممسك بالوصلات، فتح فمه وقال: «إلى الحياة!»

ساروا في طريق مظلم، بين بورتا بورتيزي وأماتساتورا، وأعادوا شبك الوصلات بعضها ببعض، ثمّ انطلقوا بسرعة قصوى نحو تستاتشو. جالوا قليلًا على امتداد النهر ثمّ اتجهوا نحو سان جوفاني، وهم يغنّون، وأساريرهم تنفرج جنونًا. حتى صاح ماتّو على حين غرّة: «انظر، انظر، سيّارة أجنبيّة!»

«الحقها يا ليلّو، الحقها» صاح أوغو فورًا، «فلنرَ أين تتوقّف، وحيثما توقّفتْ نهبناها!»

كانت سيّارة الأجانب تلك من طراز كابيتان، قديمة ونظيفة وداكنة اللون، تسير ببطء شديد، بلا عجالة، إذ تحمل على سقفها

---

10 بالإسبانيّة في الأصل، وهي مطلع أغنية شهيرة: «Granada, tierra sognada por mi». المترجم.

حقائب وأمتعة وعربة صغيرة. وكان فيها رجل وامرأة وصغيران.

أخذ ليلّو يلاحقها، حتى قطعوا ساحة سان جوفاني، ووصلوا شيئًا فشيئًا إلى شارع كازيلينا، عند مفترق توربينياتّارا، أمام فندق بيليغريني تيديسكي/ «الحجّاج الألمان». كان المكان قفرًا، لا يمرّ فيه سوى بعض السيّارات والترامات الخاوية. نزل ركّاب الكابيتان، رنّوا الجرس، ففتح لهم البوّاب ودخلوا.

ينبغي القيام بكلّ شيء في أقلّ من دقيقة، قبل أن يخرج البوّاب ليحمل الحقائب. «ها، مَن منكم مسلّحٌ بالسكاكين؟» همس كاغوني. «أنا!» قال تومّازو، وهو يشهر سكّينًا أمريكيّة مزوّدة بالمفكّ وثاقب السدّادات وفاتح العلب. فنزل كاغوني وتومّازو، واتجها إلى السيّارة: راح تومّازو يمزّق الأربطة بالسكّين، فأخذ كاغوني العربة الصغيرة التي كانت تعوقه ورماها على الرصيف. وفي أقلّ من دقيقة، عادا إلى سيّارة الفيات التي كانت نوافذها مفتوحة ومحرّكها مشغَّلًا، حاملَين في أيديهما الحقائب والأمتعة. وضعا الأغراض وهرولا تمامًا في اللحظة التي أنيرت فيها أضواء البوّابة والحديقة الصغيرة.

عاود المطر هطوله من تلك السُّحب الحمراء التي أطبقت على المدينة، وكانت سيّارة الفيات تمضي في خضمّ تلك المياه الغزيرة كأنّها زورقٌ آليّ، وتسلك المنعطفات من أقصى زواياها. «كم أحبّ قيادة السيّارة تحت المطر!» عبَّر سالفاتوري فرحًا ومهتاجًا. «أحبّ من الأشياء اثنين» أضاف بينما كانت السيّارة تتخبّط في بِرَك المياه، «قيادة السيّارة تحت المطر، والتغوّط على المرج وأنا أنظر إلى الناس وهم يمرّون على الطريق!»

وصلوا إلى جسر المحطة الحديديّة، واجتازوا أقواس ساحة لودي، فعادوا إلى سان جوفاني، وانعطفوا نحو باب ميترونيا والممشى الأركيولوجيّ، وها هم في غضون دقيقتين يصلون ثانيةً إلى تراستيفري، تحت الأمطار التي تهطل كالشلالات، وتنقر على الأرض بمرحٍ كأنّها تعزف ألحان تانغو الكومبارسيتا.

اتجهوا نحو ميدان سانتا ماريّا، ودخلوا أحد الدروب، وتوقّفوا في حارة أخرى يخيّم عليها الظلام بالقرب من ساحة رينزي.

نزل أوغو راكضًا تحت المطر الفاتر، محتميًا بالحيطان، وذهب إلى ساحة رينزي ودخل الحانة التي كانت مصدر الضوء الوحيد في الساحة كلّها. وما إن دخل نظر إلى الشريك، فاقترب منه وهمس له: «عليَّ أن أحادثك!» وبإيماءةٍ من الرجل، خرج ثانية من الباب ووقف ينتظره تحت الإفريز.

وخرج إليه الشريك بعد لحظات. «لديّ بعض الحقائب» قال له أوغو «لا أعرف ما محتواها. هل نتّفق بشأنها؟»

«حسنًا» ردّ العجوز «إن كانت بضاعة محترمة، فاحملها إلى أعلى! سأذهب إلى بيتي»

«انظر» قال أوغو «الحقائب أربعة، لا أستطيع حملها بمفردي. سأصحب أحد رفاقي!». «إنّه واحدٌ من القاعدة!» أضاف وهو يستأنف الركض نحو السيّارة، ليطمئن تاجر المسروقات.

«لا بأس» وافق الرجل «ولكن بسرعة!» ومضى إلى الجانب الآخر نحو حارته.

ولم تكد تمضي دقيقة إلا كان أوغو وكاغوني على خطاه، يجرّان

المسروقات. دخلا الحارة الممتلئة بالقمامة العائمة على المياه، ثمّ ولجا إلى البناية، وصعدا السلالم التي لا يضيئها سوى مصباح كهربائيّ واحد يتراقص مع الريح، وتوقّفا عند مستراحٍ يعتصره الظلام: كان الباب مواربًا فدفعاه.

تاجر المسروقات في انتظارهما هناك، دعاهما إلى غرفة فارغة، لا شيء فيها سوى طاولة صغيرة وثلاثة مقاعد. وضع أوغو وكاغوني البضاعة على الطاولة، أربع حقائب ومحفظتين، وسرعان ما بدأ الثلاثة بفكّ الأربطة وفتحها. ألقوا نظرة على المحتويات: مجرّد ثياب وألبسة داخليّة وكتب. وافتتحوا المساومة. «أعطنا بقدر ما تكفرا» قال كاغوني متوعّدًا «هات عرضًا مقنعًا!». كان العجوز يعرض خمسة وعشرين ألفًا؛ بينما كان الشريكان يطالبان بخمسين ألفًا. نعم لا، لا نعم، هكذا دواليك حتّى خطرت في بال الكهل الفكرةُ المعتادة، ألا وهي إخراج النقود وإظهارها على مرأى فراخه، لأنّه كان يعرفهم حقّ المعرفة: فهؤلاء يسيل لعابهم عند رؤية المال، وتحدوهم رغبةٌ عارمة بالتقاط نصيبهم على الفور، فيقبلون بأيّ سعرٍ يفرضه.

ذهب إلى الأريكة الصغيرة حيث كان قد وضع عليها دمية ضخمة، كتلك الهدايا التي توزَّع في الحفلات الخيريّة؛ انتزع رأسها وأخرج منها حزمة من النقود، إضافة إلى مسدّس دوّار كان بين الصرر. فاصطاده كاغوني بنظرةٍ سديدة وبُهِر به. «أرني إيّاه!» قال. أمسك بالمسدّس وتحسَّسَهُ جيّدًا. «هل مخزنه ممتلئ؟» سأل وهو يتفحّصه.

«كلا» ردّ العجوز الذي ظلّ هناك يتصنّع الحمق، والدميةُ بين يديه.

نظر إليه كاغوني، ثمّ إلى حزمة النقود، بعينين شرهتين. «لا بأس، خمسة وعشرون ألفًا، عليك اللعنة!» قال وهو يرتعش «ولكنْ ستعطينا المسدّس معها!». أخذ التاجر بالتباكي قائلًا إنّ هذا خطير وإنّه لا ينوي التورّط في مآزق وكيت كيت. لكنّه وافق في النهاية، وتمّت الصفقة.

«يكفي ألّا تخبر أحدًا من أين حصلتَ عليه!» أوصاهما العجوز، لكنّهما لم يسمعا ما قال إذ كانا يغادران بالثراء الذي حلَّ عليهما، مسرورَين مثل كلاب السيّد. كانت السيّارة هناك، تحت الظلام، والآخرون فيها، صامتين كجثث هامدة. تقاسموا النقود، وحصل كلٌّ منهم على حصّته، ما يقارب الأربعة آلاف، وانطلقوا من جديد.

«إلى أين نذهب؟» سأل سالفاتوري وقلبه يخفق بالمرح. «إلى الشرب!» هتف كاغوني، وعيناه تدمعان كالكلب. «هيّا!» صاح تومّازو. جال ليلّو بين هنا وهناك لا على التعيين متنقّلًا بين الحارات، حتّى ولج جسر سيستو وانطلق بالسيّارة نحو كورنيش النهر. انقطع المطر، وكانت السماء تصفو. وصلوا إلى جسر روتّو في غضون ثلاث ثوانٍ، وإلى جسر سوبليشو خلال ثلاث ثوانٍ أخرى، فإلى محطة أوستيا بثلاث ثوانٍ أخريات. واستداروا بعجلاتٍ تنفث دخانًا بمحاذاة الهرم، وهم يصفّرون لفتاتين أو ثلاث مرابطات في تلك الأنحاء. وساروا في شارع مارموراتا ودخلوا تستاتشو. وكانوا في حالٍ من نشوةٍ مربكة. هناك شاحنةٌ متوقّفة في شارع زاباليا، والطريق مقطوعة. كانت الشاحنة مليئة بأشجار أعياد الميلاد: انفكّت الرافعة الخلفيّة، فتهافتت الأشجار المتكدّسة إلى وسط الطريق. وكان السائق يحاول فعل شيء ما، إذ

وضع عمودًا بدلًا عن المحور. إلّا أنّ كومة الأشجار المبلّلة كانت تعيق المرور، والأولادُ حولها يثيرون البلبلة.

«أوه، أنا جائع» صاح تومّازو مستاءً، وهو يرنو إلى مقصف في الجوار. «لا ترجع إلى الخلف!» قال سالفاتوري لليلّو، منحازًا إلى جانب تومّازو. وبما أنّ ليلّو لم تكن تروقه العودة إلى الخلف، نزل وهو يضحك وصفق الباب، متّجهًا نحو المقصف مباشرة. «هيّا للأكل، هيّا!» صاح.

كانوا وحدهم في المحلّ كلّه، فأخذوا يتصرّفون كالسلاطين: ليلّو طلب صدَفَ البحر؛ تومّازو وجبةً من شحم رؤوس البقر؛ كاغوني ديكًا مخصيًّا وبيتزا بالفطر ولحم الخنزير المقدّد؛ ماتّو بيتزا الفصول الأربعة؛ أوغو شرائحَ سمك القدّ؛ وسالفاتوري وجبةً من عجين الرزّ والجبن. وطلب جميعهم قبل ذلك طبقًا من البطاطس المقليّة والمقرمشة، وجبن الماعز المجفّف، وأخيرًا نبتة الشمّرة المتبَّلة بخلطة الزيت والملح والفلفل.

عادوا إلى السيّارة، ثملين حتى النخاع، وتسكّعوا على امتداد النهر، تحت الأشجار التي أسكرها المطرُ فتلاعبت بها الريحُ زعزعةً وأسقطت أوراقَها حفنةً حفنة.

«أوه، ما زلنا حتى الآن مفلسين!» قال أوغو لليلّو ما إن انطلقوا. «علينا أن نحاول مرّة أخرى» أضاف غاضبًا، وتجهّمت ملامح وجهه كما عندما يشاجر أحدَهم. «أنا موافق» قال ليلّو متجنِّبًا الجدل «إنّها مسألِة وجهة فقط!»

احتدّ أوغو ساخطًا، وشدَّ قبضتيه مجمِّعًا أصابعه وثبَّتهما على صدره تحت ذقنه: «أين نذهب؟» قال. «فلنغامر في وسط البلد!» قال

سالفاتوري بحماسته المعهودة «ولعلّنا في الطريق نصادف فريسة ما!»

«إلى الأمام يا شباب!» صاح ماتّو بلا شكّ «فالعالم يتطلّع إلينا!»؛ وأضاف تومّازو بغنّة أنفيّة وفمٍ مزموم: «ما زلنا على عهدنا: النصر، وسوف ننتصر[11]!»

عادوا أدراجهم إلى شارع مارموراتا، وسلكوا كورنيش النهر ثانيةً. «أوه» قال ليلّو مصمِّمًا، قبل أن يشغّل المحرّك «هل أنتم مستعدّون للحصول على كثيرٍ من الأموال أم على أعوامٍ في السجن مديدة؟»

«ماذا؟ ماذا؟» قال الآخرون. «سرقة» ردّ كاغوني، وبعد أن نبش في جيبه قليلًا استلَّ المسدّس الدوّار. «هائل!» أكّد ليلّو، الذي فهم شريكُه مرادَه على الفور. «كم من الأموال وممّن؟» سأل أوغو. «أرى أن نسرق محطّة وقود!» أجاب ليلّو على رويّة من أمره، وكان قد أقلع بالسيّارة بأقصى سرعة نحو بورتوينسي. «أين؟» سأله أوغو. «في أيّ مكان مناسب، مكان ممتاز، في كريستوفر كولومبوس، آبيا، أردياتينا، فلنختر ما نشاء!»

كانوا متّفقين جميعًا على ارتكاب الفعلة، لكنّهم تجادلوا قليلًا حول اختيار المكان، ثمّ ذهبوا نحو جسر ميلفيو، واتّجهوا إلى كاسيا صوب مكانٍ يعرفه أوغو جيّدًا. اختصروا الطريق مرورًا بجانيكولو ومونتي ماريو، وسرعان ما وصلوا إلى وسط الريف، المطوّق بالتلال. وبعد بضعة كيلومترات وسط المزارع والأحراج، وأضواء روما تتلألأ من هنا وهناك في المدى، نزل سالفاتوري وماتّو وتومّازينو الذي كان معارضًا

---

11 «النصر، وسوف ننتصر»: كلمة شهيرة أطلقها موسوليني في ختام خطابه التأريخي الذي ألقاه وسط روما في 1940/06/10، وأعلن فيه دخول إيطاليا الفاشيّة الحربَ إلى جانب هتلر وألمانيا النازيّة. المترجم.

بشدّة وكاد يتعارك معهم قبل النزول، وانتظروا عند أحد المرتفعات، فيما تنبح الكلاب حولهم من داخل الأكواخ.

تقدّم الآخرون إلى العامل في محطة الوقود، قبل ستورتا بقليل، وكان ليلّو خلف دفّة القيادة، وكاغوني بجانبه، وأوغو على المقعد الخلفيّ.

اقتربوا منه، وكان المكان مظلمًا ومقفرًا، لا شيء سوى علامة شركة شيل على شكل القوقعة تلمع كبيرةً كالقمر.

«خمسة عشر لترًا يا صاح!» قال ليلّو للعامل. كان فتىً يتراوح عمره بين خمسة وعشرين عامًا وثلاثين، منتفخ الوجه بسبب النعاس. بدأ بواجبه فثنى ظهره ليضع المضخة في الخزّان. وفي الأثناء قال ليلّو لكاغوني وهو يتثاءب: «ألقِ نظرة على العجلات، كيف حالها؟»

وبهذه الحجّة نزل كاغوني برفق وتفقّدَ العجلات. «العجلات بأحسن حال!» قال. ولم ينهِ قوله هذا إلّا وصوَّبَ المسدّس على عامل الوقود حينما كان يسحب المضخّة. ووضعه على بُعد سنتمترين من صدره، وجعل يرجِّف يدَه ليُظهِر أنّه خائف؛ فعندما يخاف المرء يطلق النار. ولكن، ما من داعٍ للتظاهر، لأنّ يده كانت ترتجف حقًّا، لا بسبب الخوف إنّما من روع الغضب. «أعطني النقود!» قال. «خذ ما تريد، ولكنْ لا تقتلني، فلديّ عائلة» قال عامل الوقود وقد ابيضّ وجهه كالشمع، وهو يُخرج المحفظة بسرعة ويعطيها لكاغوني. وما زال الأخير مصوّبًا المسدّس على ظهره، ألقى نظرة على محتوى المحفظة، ورأى أنّ النقود فيها شحيحة.

صرَّ أسنانه وحدّق إلى وجهه، واعوّجت شفتاه من فرط الغيظ.

«ادخل إلى الكشك» أمره.

فانصاع العامل حالًا، ودخل الكشك والمسدّسُ على ظهره. «افتح كلّ الأدراج» أمره كاغوني ثانية، فأذعن. وجد كاغوني نقودًا أخرى في أحد الأدراج، فاحتازها ووضعها في جيبه. ثمّ أغلق على العامل داخل الكشك، وهو يصرخ إليه عبر الزجاج: «إيّاك أن تتحرّك، وإلّا أضرمتُ فيك النار!»

غطس في السيّارة مصوّبًا إليه فوّهة المسدّس، وانطلقت السيّارة مسرعة.

«كم جنينا؟ كم جنينا؟» سأله أوغو. لكنّ كاغوني كان صامتًا يحصي النقود. وعادا لاصطحاب تومّازو والآخرين الذين تجمّدوا في الجوّ الرطب، وقد أقبل نحوهم كلبان أو ثلاثة من أحد الأكواخ، للنباح عليهم، وكانت الكلاب تغدو وتجيء من بين إحدى الأجمات.

«بكم عدتم؟» سأل تومّازو مكشّرًا. فأظهر كاغوني الغنيمة. «تعال هنا!» صاح ماتّو حين رأى حزمة الأموال. كانت قرابة الثلاثين ألف ليرة. اشتدّت تكشيرة تومّازو احتقانًا فقال لأوغو: «ماذا، أهذه هي الأماكن التي تعرفها؟». «أيّها الوغد!» ردّ أوغو «دلّنا أنت على أماكن أخرى إذن، ما دمتَ لا تُكثِر إلا من الصياح والهراء!». فسكت تومّازو، وأنفه على فمه، فإذا به يهمّ بالغناء فجأة:

لم نأبه بالسجن يومًا

لم نأبه بالموت القبيح...

وهكذا بالغناء تحت النجوم، عادوا إلى جسر ميلفيو، سلكوا كورنيش النهر، ودلفوا إلى جسر الدوق داوستا، قبالة المسلّة. وعندما

صاروا وسط الجسر، أخرج كاغوني المسدّس بحركةٍ هوجاء وألقاه في النهر وهو يصرخ: «لم نعد في حاجة إليك!»

«لماذا؟» استوقفه تومّازو وما زال مستاءً، «يا لك من وغد!»

التفت إليه كاغوني وتجشّأ في وجهه.

وما انفكّوا يُحدِثون ضجيجًا وهم يدخلون شارعًا عريضًا يفضي إلى فلامينيا، وليلّو يسوق بهم عشوائيًّا في تلك الطرقات والأزقّة والساحات، حتّى وجدوا شارعًا مظلمًا حيث ركنوا فيه السيّارة. مشوا على أقدامهم قليلًا يجسّون نبض الحركة. هناك الكثير من السيّارات في تلك المنطقة، مصطفّةً على امتداد الأرصفة؛ لكنّ جميعها مزوّدة بأجهزة إنذار. إلى أن وجدوا أخيرًا سيّارة فيات أخرى، علامة ألف ومائة، سليمة. اقتحموها وانطلقوا مجدّدًا. وكان تومّازو حَرِدًا.

«أوه، ألا يروقكم إبكاءُ عامل وقود آخر، ها!» قال «هذه المرّة سأدلّكم أنا على المكان!»

«وأين ستأخذنا؟» سأله أوغو.

«على طريق فيوميتشينو» أجاب تومّازو محتدًّا. «هيّا!» قال لليلّو المستهتر بالقدر، السعيد والمسرور بقيادة السيّارة كيفما اتّفق وهو يسند مرفقه على النافذة.

قطعوا نصف روما مرّة أخرى، وعادوا إلى شارع بورتوينسي. وما زالت شعلة مصنع فورموليو خفّاقةً، وعاليةً مثل عرشٍ في سلام الليل. وقد تكثّفت الرطوبة في الأرجاء من جديد، بأبخرةٍ وأدخنةٍ سوداء كالفحم، وبدت جميع الأحياء بأضوائها الخافتة نائمةً في السكون المنتشر هناك على شارع بورتوينسي، خلف فورلانيني. القمر في العلا،

يطلي بلونه الأصفر كلَّ الغيوم المتلبّدة والمضطربة في دفء الربيع.

«هنيئًا لنا!» قال سالفاتوري مبتهجًا «فمَن سيقضي أعياد ميلاد هذه السنة أفضل منّا؟»

«توقّف، توقّف!» صاح أوغو بغتة.

«توقّف!» ردّد غاضبًا. كبح ليلّو الفرامل فجأة، فتمايلت السيّارة على الأرض المبلّلة. كانوا يمرّون خلال فسحةٍ في حيّ بورتوينسي، عريضةٍ بحجم ساحة، ومحاطة ببيوت وأبنية غافية، خلف سور عظيم، عند آخِرِ أروقة الفورلانيني، وإلى اليسار منهم شارعٌ قفرٌ ومستقيم، وأمامهم مبولة ومحطّة وقود مضاءة. وقد لاحظ أوغو أثناء مرورهم أنّ عامل الوقود كان غافيًا داخل الكشك الزجاجيّ.

«اقترب!» همس لليلّو.

«أوه، هيّا، فلنتابع طريقنا، عليك اللعنة!» قال تومّازو غاضبًا.

«اخرس أيّها الأخرق، دعنا نعمل!» ردّ أوغو.

«ولكن، هل تريدنا أن نتوقّف هنا؟» أصرّ تومّازو، رافعًا يده فذراعه على طولهما. «ما بك، هل تريدنا أن ندخل السجن؟ فلنذهب إلى حيث أرشدكم أنا!». لم يعره أوغو أيّ اهتمام. «هيّا، انزل!» قال لماتّو، بوجهٍ أشبه بالرِّدْف، إلا أنّ فمه كان باسمًا بسبب أعصابه المشدودة. دنا ماتّو منه بعد أن صفَّ ليلّو السيّارة عند رصيف الحصى؛ واتّجه أوغو بخفّة ويقظة نحو الكشك المتلألئ في ذلك الصمت الدنيء.

«هيّا بنا، فلنسرق هذا أيضًا!» همس.

«انظر ما أحلاه!» قال ماتّو، بصوتٍ هامس وهو ينظر إلى عامل الوقود النائم داخل الكشك.

لا بدّ أنّه كان قد غفا سريعًا، اتّضح ذلك من استرخائه على السرير، وقد أجهز عليه النعاس، مسنود الرأس إلى حافّة الجانب الزجاجيّ، وحقيبته في حضنه. كان يرتدي بدلة فيروزيّة وطاقيةً انثنى رأسُها على غرّة شعره الأسود. فتح ماتّو الباب الزجاجيّ شيئًا فشيئًا، بينما كان أوغو من خلفه ممسكًا ببلاطة وجدها على الأرض، فأحكم قبضته عليها بشدّة، متأهّبًا لتحطيم رأس العامل بها إذا استيقظ. فُتِحَ الباب ببطءٍ وخفّةٍ تضاهي خفّة القطّ، فدلف ماتّو إلى الداخل وراح يتحسّس الحقيبة التي كان العامل قد وضعها على بطنه. وفي أثناء ذلك ما انفكّ يحدّق في وجهه، ولم يحد عنه أنظارَه لحظة واحدة. يبدو أنّه قرويٌّ وافدٌ إلى روما منذ فترة قصيرة، من إقليم أبروتزو أو بوليا: يتّضح ذلك من وجهه العريض والمكويّ بالشمس، وفمه الذي لا تفارقه أمارات السذاجة حتّى خلال النوم، وقوّته الجسديّة التي تتبدّى بين ثنايا البدلة مفكوكة الأزرار.

سحب ماتّو الحقيبة بيده اليسرى برفق، وفتحها باليمنى ولمَّ النقودَ التي فيها، وأخذ القروش الحديديّة أيضًا. ثمّ تراجع إلى الوراء، وأنظاره لا تحيد عن وجه العامل، وأغلق الباب. أعاد أوغو البلاطة إلى مكانها، وركضا إلى الخلف نحو السيّارة. وما كادا يلتفتان إلّا رأيا كاغوني قادمًا نحوهما. كان وجهه مصفرًّا كجثّة، انحنى على ضاغطة الغاز، وشدَّ أسنانه من المشقّة، وحاول انتزاعها من مكانها، باذلًا في ذلك قصارى جهده. كان يستنشق بصعوبة، ويزفر ما يشبه الحشرجة من حنجرته. «ماذا تفعل يا كاغو؟» سأله ماتّو نافد الصبر؛ لكنّه لم يردّ. وكان الفزع قد استولى على أوغو، «دعه وشأنه» قال «فهو صاحب

سوابق!» لكنّ كاغوني لم يكن يسمعهما. فقرّر أوغو أن يعاونه لإنهاء العمليّة بأسرع وقت. رفعا الضاغطة عن الأرض ونقلاها معًا إلى السيّارة. واستطاعا زجَّها في الداخل، وجلس كاغوني عليها فيما كانت السيّارة تنطلق كالصاروخ نحو فيوميتشينو.

كان تومّازو منتصب القامة، كالحلزونة التي تخرج من قوقعتها وتصوّب أنظارها نحو قرنيها. ينظر إلى الأمام، وهو يراقب الطريق، نحو المكان الذي دلَّهم عليه؛ وكاد وجهه يصير بنيًّا كما لو أنّه حُرِقَ بالنار، بينما كان الآخرون يتقاسمون الغلّة. وما فتئ يحدج الأبنية المتشابهة بنظرةٍ ناقمة، وهي تتطاير إلى الخلف، تحت الظلام، ومن ثَمّ بيوت فورتي الرديئة، ثمّ باروكيتا عند قمّة الجبل، وإلى ما هنالك من الريف المثخن بالماء كأنّه إسفنجة قذرة، وترولو أخيرًا، بمساكنها الصفراء والمصفوفة وبعض أعمدة الإنارة التي تضيء مشهدَ الجوع والموت.

«من هنا؟» صاح ليلّو وهو يفرّغ عدّاد السرعة نحو ماليانا.

«أجل» قال تومّازو بفمه المكشّر. إلّا أنّ كاغوني صرخ فجأة: «توقّف!». «لماذا يتوقّف؟! لماذا؟!» سأله تومّازو محتدًّا «بل عليه أن يسرع!»

التفت نحوه كاغوني بوجهٍ يزبد لعابًا وصوتٍ مبحوح وصاح عليه: «اللعنة على أمواتك!» ثمّ التفت منتفضًا نحو ليلّو: «توقَّف!» ردّ غاضبًا، «توقّف!». كبح ليلّو الفرامل، فتوقّفت السيّارة في شارع فرعيّ بجوار محطّة ماليانا.

نزل كاغوني: هناك صنوبرة وخلفها سورٌ يطوّق أربعة أكواخ أفناها السكونُ بين البساتين الموحلة، وفوق كلّ ذلك جبلٌ من القمامة

السوداء. ذهب كاغوني إلى السور، خلف ما تبقّى من القصب، وشمّر عن بنطلونه. سمعوه يشهق ويتألّم: كأنّه كان يتعرّض للتعذيب، عاريًا مكموم الفاه لا يقوى إلا على المواء كالقطّ. عاد أخيرًا، وهو يعقد أزرار بنطلونه ويركّب حزامه. كان مبلّلًا بعرقه حتّى النخاع؛ وزجاج السيّارة كان أبيض، بفعل الأنفاس في الداخل والطلّ في الخارج، والعرق يقطر من الجميع. قال له تومّازو حانقًا: «هل انتهيت؟ فلنذهب الآن!». التفت إليه كاغوني ورماه بجشأة أخرى.

غطّت السُّحُب السماءَ ثانيةً، وخيّمت القتامة على كلّ شيء. وكانت صفوف أضواء المحطّة في أسفل كأنّها تتسرّب من تحت الأرض. انطلقا ثانية، لكنّ كاغوني لم يكن بخير. لقد أخذ بردًا أصابه بالإسهال، فبات يتلوّى متخبّطًا ويقرص مرفقيه. وكان يُطلق ريحًا كريهة قاتلة بين حين وآخر، ما اضطر الآخرين إلى سدّ أنوفهم وفتح النوافذ.

صاح كاغوني فجأة مرّة أخرى: «توقّف! توقّف!». فاستشاط تومّازو غيظًا: «أوه» زعق نحوه «ألم تملّ من التغوّط بعد؟». «توقّفوا! اللعنة على أمواتكم!» صاح كاغوني خائبًا.

توقّف ليلّو مرّة ثانية بكلّ هدوء. كانوا قد تجاوزوا ماليانا، ولم يعد هناك بيوت: لا شيء سوى تلك الأضواء التي نسيها الربّ – في الناحية اليسرى – على امتداد السكك الحديديّة. ركض كاغوني بخطوات يائسة، وشمّر عن بنطلونه ثانية، وجلس القرفصاء على طرف الشارع، قبالة ما يشبه الوادي المليء بالأحراش الشائكة التي تصعد نحو السماء، بين جبلين من حجر الطفّة، متقطّعين ومليئين بالأحراش المتيبّسة أيضًا. وما زال كاغوني هناك، يئنّ ويعاني ويصِرُّ أسنانه ويشدّ عنقه من الألم.

ثمّ نهض على رِسْله ورفع بنطلونه وعقد أزراه. كان السلام مكتملًا حتّى لَيُسْمَعُ نباحُ كلبٍ على بعد ستة كيلومترات، خلف تلك الأراضي المبلّلة والهضاب الموحشة، سواء أكان باتجاه روما أم صوب البحر: ليس واضحًا. بدا أنّه روحٌ هائمةٌ وتبكي.

عبروا جسر غاليريا بسرعة خاطفة، وكانت أولى قطرات المطر تعاود الهطول. كلّ الأماكن مظلمة ومقفرة. ثمّ رأوا أضواءً في نهاية أحد المنعطفات: بعض البيوت ومقصف. محطة الوقود في عمق الشارع، وسط فسحة شادت مؤخّرًا، مليئة بالحصاة البيضاء، ومكتملة الإنارة. وكان العامل مشغولًا بتنظيف درّاجة ناريّة بخرقته، والسيجارةُ مضمومة بين شفتيه، والدخانُ يحرق عينيه.

وما إن رأى زبائن، رفع رأسه وحدّدهم وهو يرمي السيجارة بنقفة من إصبعه. وسرعان ما أفهمهم بأنّه لم يَرُقْ لمرآهم. كان قرويًّا هو الآخر، بشعره الكثيف الرابض على رأسه كطيرٍ جارح، يتراوح ما بين الشقرة والسواد؛ ووجهه الشرس الحادّ اللئيم ذي الزوايا النافرة. نظر إلى العصابة، وسألهم كم يريدون، وذهب إلى مضخّة البنزين، ببطء وتؤدة، وهدوء محسوب، متأهّبًا لأيّ حركة خبيثة. لا بدّ أنّ مسدّسه في جيب بدلته، في أحد تلك الجيوب العميقة التي تصل إلى الركبة تقريبًا. وفي الأثناء أعاد ليلّو مقولته، وهو يتثاءب مستندًا إلى المقود متسربلًا في جبّته: «أيّها المخبر، تفقَّدِ العجلات!». نهض تومّازو ونزل معه أوغو أيضًا. ركل الأوّلُ العجلاتِ ركلتين وقال: «إنّها بحالٍ جيّدة!»، وكان ينظر إلى العامل بفمٍ يرتعش. وفي اللحظة التي أمسك فيها العامل بالمضخّة، انقضّ عليه تومّازو وحزم له ذراعيه على ظهره

كما يفعل رجال الشرطة: وانقضّ أوغو على جانبه ووضع ساعده على عنق الرجل، وراح يشدّ عليها بقوّة حتى كادت عيناه تنفجران. وكاغوني أيضًا خرج من السيّارة، وسرعان ما وضع يديه على الحقيبة، وباشر عمله، وهو يئنّ على وشك البكاء، ويرتجف من الغضب بحيث لم يعد يستطيع فتحها. وفي تلك اللحظة، خرج مساعد عامل الوقود من خلف الكشك، من ناحية السكة الحديديّة. توقّف برهةً بين الضوء والظلّ، مندهشًا. كان أشقر الشعر وقصير القامة ومكتنز البنية، وعيناه فاتحتان وتقدحان. غلَّ يده في جيبه بسرعة وأخرج المسدّس: ماوس مربع. صوَّبه نحوهم واستعدّ للتلقيم. فاستطاع الآخر، المخنوق بذراع أوغو، أن يصيح: «لا تطلق النار!». فسارع كاغوني وتومّازو فعلًا إلى الوقوف خلف العامل للاحتماء بجسده. أخرج تومّازو سكّينه وسدّدها نحو خاصرة العامل، وهو يصيح بضراوة إلى المساعد: «إن أطلقتَ النار ذبحناه!». فصرخ ليلّو من مقعد القيادة: «أدخلوه إلى السيّارة!» وما زال الأشقر واقفًا هناك، تحت الضوء، مصوِّبًا مسدّسه من دون أن يطلق الرصاص. «هيّا، فلنشحنه!» صاح تومّازو. وحينذاك سطعت حزمة ضوء، عند منعطف أسفل الهضاب، وسرعان ما ظهرت سيّارة بسرعة خارقة، متبوعة بسيّارة أخرى. مرّت السيّارتان أمام محطة الوقود وأغرقتا المكان كلّه بالضوء. لم يلحظ أوغو وتومّازو وكاغوني تينك السيّارتين، وعادوا إلى سيّارتهم، وجرّوا معهم العامل، الذي دخلها بالطول فوق سيقانهم، شبه مختنق. تحرّك ليلّو، استدار وانطلق كالصاروخ نحو روما. وتناهت إلى أسماعهم أعيرةُ الرصاص التي أطلقها الأشقر في الهواء. وبعد أربعة أو خمسة كيلومترات عن الموزِّع، سحبوا

المسدّس من جيب العامل وأنزلوه، بعد أن استولوا على حقيبته، وأشبعوه ضربًا: وقد ثبّت تومّازو له ذراعيه خلف ظهره، وأخذ أوغو يلكمه على معدته أوّلًا ثمّ على وجهه. فسالت دماؤه من أسنانه وأحد حاجبيه وأغمى عليه. فنزل كاغوني أيضًا، وأطلق ما يشبه العويل وراح يضربه ويرفسه على وجهه وبطنه. وما إن حرّره تومّازو فسقط الرجل على الأسفلت، جاد عليه كاغوني بركلتين أو ثلاث على ظهره وسائر جسمه، أينما تسنّى له. ثمّ بات مثخنَ الجروحِ نازفَها، وهكذا دحرجوه من حافّة السكّة إلى أسفل، وسط الأحراش.

وما زال المطر الناعم يتساقط، والأراضي المعشبة ترزح تحت خطوط الضباب الأبيض، والقمر في السماء مضيءٌ، كبقعة دم. وما لبث كاغوني يشعر بالألم، رغم كلّ تلك العمليّة، فيضغط بيديه على بطنه وينكمش على نفسه، حتى تكاد رأسه تستقرّ ما بين ركبتيه. وكان يفسد الهواء بحيث تعذَّرَ التنفّسُ داخل السيّارة. إلّا أنّ الآخرين لم ينتبهوا إليه، كلٌّ مشغولٌ بتقاسم الكعكة.

وعندما تجاوزوا سكّة ماليانا، ونزلوا خلال شارعٍ مطوّقٍ بأعواد القصب، ليخرجوا إلى الجسر الجديد، نحو منطقة اليور، عاد كاغوني يصرخ مطالبًا بالتوقّف.

ضحك ليلّو وكبح فرامله، وهرع كاغوني إلى المنحدر من قمّة الجسر، بين الأجمات المترعة بالمطر، متزحلقًا على الطين الرخو المرتفع بطول ذراعين. ولم يتمكّن من التوقف حتى زلق إلى أسفل قوس الجسر، بين الحشائش العالية. هناك حيث راح يتعرّى للمرّة الثالثة. ثمّ عاد إلى أعلى متشبّثًا بالأجمات بشقّ الأنفس، شاحب الوجه كالموتى.

لكنّه لمّا وصل إلى السيّارة لم يركبها، إنّما أمسك بضاغطة الغاز التي كانت تحت ساقيه، ولم يفتح فمه.

«ما بك، ماذا تفعل؟» انتفض تومّازو مكشّرًا عن أنياب كلب.

«اللعنة على موتاك!» صاح الآخرون ولوّحوا بأيديهم معًا، مستنكرين فعلته. أمسك أوغو بكتفيه محاولًا سحبه إلى داخل السيّارة. لكنّ كاغوني، الذي ظلّ ساكتًا، تخلّص من قبضة أوغو؛ وما انفكّ يحمل الضاغطة بيديه حتّى كادت مثانته تنفجر من الإرهاق، وأعاد الكَرَّة، فتزحلق إلى أسفل الجسر، متبلّلًا كمن أُلقِيَ في نهر، وخبّأ الضاغطة في حفرةٍ في الوحل مخفيّةٍ بين الحشائش. ثمّ عاد إلى أعلى، ملتزمًا الصمت دائمًا، جلس على مقعده في السيّارة، وهو يصرُّ أسنانه.

«ها قد وصلتَ» قال له سالفاتوري ما إن قطعت السيّارةُ الجسرَ نحو سان باولو. «لم يعد لديك أنفاسٌ حتى لإطلاق الرّيح!» تابع متهكّمًا.

«لا تقل له ذلك!» قال تومّازو لاذعًا «وإلّا خنقنا جميعًا هنا في الداخل، ليثبت عكس كلامك!»

كان كاغوني صامتًا، لأنّه لم يعد لديه أنفاسٌ حقًّا، للردّ.

«ولكن إلى أين نحن ذاهبون؟» قال ماتّو بروح مبادرة عالية، كما لو أنّه بدأ التجوّل توًّا. كان في جيب كلٍّ منهم أكثر من عشرة آلاف ليرة: فلتبدأ الحياة الآن!

سقطت آخر قطرة مطر، وعاد كلّ شيء صافيًا، نديًّا ومتألّقًا، بين صفحات الضباب الفاتر. «هل نريد الذهاب إلى الرقص؟» قال ليلّو فرحانًا، وهو ينظر إلى الأمام، بابتسامة تضيء وجهه كالمنارة.

«أيُّ رقصٍ وأيُّ هراء!» قال أوغو الذي كان دماغه مصابًا بداء

الزهري. «نحن في منتصف الليل! فلنذهب للأكل والشرب!»

فانتفض تومّازو، مشمئزًّا حتّى لقد وصلت أطراف فمه إلى ذقنه: «أيُّ أكلٍ وشرب! أيّها اللواطة! فلنذهب إلى الانغماس حالًا، من فضلكم!»

«إنّه على حقّ!» صاح ماتّو.

ازداد وجه ليلّو لمعانًا: «هل نذهب لنعاشر يا أوغو؟»

«فلنذهب لنعاشر!» وافقه أوغو على الفور.

«نحن وُسَماء وأقوياء، نجيد الرقص، ونحترف السرقة، ونتقن المعاشرة!» صرخ سالفاتوري.

بُعِثَ كاغوني من جديد وأخذ يصفّر.

ركنوا السيّارة في مكان مظلم، بجانب كاتدرائيّة سان باولو، ومشوا نحو الحانة عند آخر خطّ الترام، التي كانت تتلألأ تحت أشجار الصنوبر.

«فلنذهب إلى ماريانّا ذات الأنف الكبير!» اقترح أوغو.

«نحن ستّة!» اعترض ماتّو «لن تدخلنا ماريانّا جميعًا!»

«سأتحدّث معها بنفسي» قال أوغو «ثمّ إنّنا نمتلك المال! إذا أريناها قطعة من عشر آلاف ليرة، أرخت سراويلها حالًا!»

«فلنستقلّ الخطّ 18 إذن» صاح سالفاتوري وهو يهمّ بالركض نحو الموقف.

كان الموقف خاليًا حتّى من رائحة الترام. فدخلوا الحانة الصغيرة التي كانت توشك على الإغلاق، ينعقون كالغربان الهرمة. طلب كلّ واحد منهم دمعةً من المشروبات الكحوليّة التي رأوها ذات مرّة على

واجهة الحوانيت. أحدهم طلب ستريغا، والآخر ويسكي، والآخر ميسترا. وأخذوها ليشربوها بين الصنوبر، وهم يصيحون في الساحة المقفرة الموحلة.

وعلى حين غرّة، هرع أوغو راكضًا كالمنحوس نحو طريق الكاتدرائيّة الخالي. «فلنذهب إلى الأجراس!» كان يصيح. هرول الآخرون خلفه، دون أن يفهموا شيئًا، وهم يجترعون المشروب غرغرةً.

وصلوا إلى الطريق بخطوات مسرعة بحيث استطاع أوغو أن يوقف التاكسي الذي رآه من بعيد.

«هيّا أيّها البؤساء!» صاح «سأدفع عنكم نصف الأجرة!»

ركبوا وهم يضحكون ويتدافعون سكارى وقد أعمى الخمرُ أبصارَهم.

وحالما نزلوا من التاكسي، عند كاتدرائيّة سانتا ماريا ماجوري، صادفوا كلبًا يهرول نحوهم مباشرة على بلاط المنحدر المبلل.

«فلنأخذه معنا!» صاح سالفاتوري إذ بوغِتَ بهجمة حنان أنسته ذات الأنف الكبير، وابيضّت عيناه من كثرة السُّكر.

وبدأ يفكّ حزام بنطلونه وهو يترنّح.

«فلنتركه وشأنه!» صاح تومّازو معترضًا وهو ينظر بطرف عينه الناقمة إلى الكلب العجوز الذي كان يحتفي بالرفاق.

وبات سالفاتوري يتحرّك كما لو أنّه يعوم، ببنطلونه المترهّل، وأخذ يربط الكلب من عنقه بالحزام. وقد سمح له الكلب بذلك، وما انفكّ ينظر حوله.

وكان أوغو يشرب الكحول وهو يتمايل بساقيه المنفرجتين،

والقنّينة في يده، متوجّهًا نحو الكاتدرائيّة التي كانت ترتفع حتى الغيوم بأعتابها وقببها. ثمّ التفت واقترب من الكلب هو أيضًا.

«أجل، فإذا دهمنا رجالُ الشرطة ليلًا، سلّطناه عليهم!» قال. «ها يا بوبي!» قال للكلب وهو يطبطب على رقبته.

ونجح سالفاتوري أخيرًا بربط الحزام حول عنقه، وراح يجرّه خلفه. وكان الكلب يتشمَّم هنا وهناك، لاسيّما الأحذية وما بين السيقان، وهو في غاية السعادة.

«ماذا؟ هل هذا الكلب نجس؟» قال تومّازو بنبرة احتقار.

«طوبزا!» غمغم كاغوني.

«هيّا يا مرعب الجبناء!» هتف سالفاتوري إلى الكلب مسرورًا.

وفجأة، حتى ماتّو أصيب بنوبة حنان: سجد على البلاط المتلألئ بالماء وشرع يحنو على فرو الكلب من عنقه ويداعبه ويتمسّح بوجهه وذقنه قائلًا له: «يا ابن الحرام! يا ابن الحرام!»

وشيئًا فشيئًا وصلوا إلى المنطقة حيث تقيم ماريانا ذات الأنف الكبير، صوب شارع ميرولانا.

«من هنا!» قال أوغو وهو يلج دربًا صاعدًا. «كلا، من هنا!» صاح ماتّو مستعدًا لولوج درب آخر، مليء ببوابّات مغلقة وأعمدة صغيرة على الواجهات.

«كلا» أجاب أوغو بحدّة «إنّها تسكن أعلى الصّعدة!»

«ألا تذكر إشارة المرور بجوار بيتها؟» قال ماتّو.

«كلا. ها هي الجنبات الخضراء هناك!» زعق أوغو «تذكر تلك المرّة حين مررنا من الجنبات!»

«تعالوا معي» صرخ ليلّو «لقد سكرتم جميعًا، وفقدتم صوابكم!»

ذهب في الصعدة تاركًا رفاقه خلفه يتجادلون ويتصارخون بقلوبٍ حرَّى، والكلب ينبح هو أيضًا، لاهث الأنفاس من أجل إسماع رأيه.

داروا وداروا، وصعدوا النزلة ونزلوا الصعدة ثلاث مرات، ومرّوا بالجنبات الخضراء قبالة مسرح برانكاتشو، وعادوا إلى الخلف، من خلال تلك الشوارع المليئة بالأعمدة الصغيرة والأبواب الحديديّة والبوّابات المغلقة جميعًا، دون أن يعثروا على بوّابة بناية ماريانا.

ويا للقدر! وصلوا قبالة «القطّ الأحمر». وجدوا أنفسهم هناك فجأة، فبسبب كميّة الكحول التي تشرّبوها، نزلوا راكضين في شارع سانتي كواترو، كلٌّ يحمل عصفوره بيده، ويتبوّلون هنا وهناك بسرعة، للمرة الثالثة أو الرابعة، وهم يصيحون: «انظر ما أجمل خطّي!»

نسي ليلّو أن يعقد أزرار بنطلونه من هول المفاجأة، وهرع راكضًا نحو البوّابة المضاءة التي يحاذيها صفٌّ من الدرّاجات الناريّة: فسبا، لامبريتا، موتوم، غوزيتو، جيليرا وأولياء وصالحين. قفز على إحداها وهو يصيح: «هيّا إلى الرقص يا شباب!»، والآخرون من خلفه مع الكلب. ربط سالفاتوري الكلب بمقود درّاجة هوائيّة، بسرعة فائقة، ولحق بالآخرين الذين دخلوا في الممرّ وكانوا يتجادلون مع مدير الصالة.

«مع الأسف يا شبّان» قال بنبرة بشوشة «سنغلق بعد قليل»

حدّق إليه أوغو كأنّه لم يفهم المغزى من كلامه.

«ألن تُدخِلنا؟ لماذا؟ هل نقودنا مربّعة؟» أجابه.

«هذه وصلة الرقص الأخيرة!» قال مدير الصالة، وفي الأثناء اقترب الحارس منهم والمحاسبة أيضًا.

كان ليلّو قد تقدّم قليلًا وأطلّ برأسه إلى الداخل ليلقي نظرة على الحركة. في الصالة يرقصون أزواجًا، الفرقة تعزف قطعة تانغو، والأضواء حمراء قاتمة. صاح ليلّو إلى قائد الفرقة في الزاوية المقابلة: «اعزف جوني غيتار من أجلي!»

ثمّ عاد أدراجه وهو يصيح: «حسنًا، لن ندخل إذن؟»

«يا شباب، لقد انتهت السهرة!» قال مدير الصالة ذو الشارب المتهدّل كمقدّمة السيّارة. توتّرت أعصاب ليلّو. أخرج عشرين ألف ليرة وألقاها على مصطبة الحارس: «ما رأيك بهذا السعر؟» صاح، ودون أن ينتظر إجابة دخل الصالة، والآخرون من خلفه، متّسخين جميعًا حتى النخاع. تبعهم المدير ومرؤوساه لإجبارهم على الخروج. طلب ليلّو أن يراقص فتاة شقراء، سهلة المراس قابعةً في إحدى الزوايا. ولم تكد ترفض طلبه حتى انتهت قطعة التانغو، وعادت رفيقتها مع راقصها، وغادروا معًا.

تغيّرت الإضاءة. طغى ضوء عاديّ تتخلّله أنوار حمراء هنا وهناك، وتهيّأ جميع الحاضرين للانصراف. فمنهم مَن كان يرتدي معطفه، وآخرون توجّهوا لأخذ معاطفهم من على المقاعد حيث وضعوها ليرقصوا الرقصة الأخيرة.

كان الرفاق يتنقّلون في أرجاء الصالة الطويلة والضيّقة. جلس كاغوني على حلبة الرقص، ونزع فردة حذائه من القدم التي كانت توجعه. اتجه أوغو نحو الفرقة في عمق الصالة. وعزفت الفرقةُ الرقصةَ الأخيرة هذه المرة حقًّا. كانت قطعة رومبا تبدأ عاديّةً ثمّ تتصاعد أكثر وأكثر وتصبح سريعة بحيث لا يجاريها أحد: وقد كفّ معظم الحاضرين

عن الرقص واتجهوا نحو المخرج. ولم يبق على الحلبة أكثر من أربع عصابيّات، يرقصن كالممسوسات حتى النهاية، وكأنّهنّ يتفوّقن على رقصة القدّيس فيتوس[12]. انتهت الرومبا، وغادرت تلك الفتيات أيضًا.

تمترس أوغو أمام الفرقة، وعندما أنهى العازفون ما عندهم قال لهم ببهجة كبرى: «أوه، اعزفوا الكومبارسيتا!»

رمقه العازفون وكادت أعناقهم تتفتّق غيظًا، وأهدوه ابتسامةً بالزبدة ونظرةً متملّقة، وقالوا بلامبالاة: نعم، نعم؛ ثمّ بدأوا بحزم آلاتهم.

وسرعان ما طاش أوغو: «هيه» صاح عليهم بفمٍ مزموم على سبيل الاحتقار «أنا لا أمزح البتّة!»

«اسمع أيها الفتى» قال له قائد الفرقة بنبرة متروّية ومسالمة «دعنا نذهب، فقد أصابنا النعاس!»

التفت أوغو إلى أصحابه، وصفّر بشدّة، فهبَّ الآخرون إليه، يتبعهم مدير الصالة.

«هيّا» قال أوغو مصوّبًا سبّابته ورافعًا إبهامه نحو الفرقة، ولوّح بيده كأنّه يقول كلا «ماذا؟ ألا تعزفون لنا؟»

«يا فتى» ردّد المايسترو «نحن لسنا سوى موظّفين!»

التفت أوغو إلى مدير الصالة حينها وغمز بعين كالأعور: «كم يعطيكم هذا المتسوّل؟» صاح.

«نحن نقابيّون!» صرخ ماتّو وهو يقهقه.

---

12 رقصة القدّيس فيتوس: تسمية شعبيّة للوثة العصابيّة التي تصيب بعض الأطفال بحركات متوتّرة ورجفان واضطراب نتيجة اختلال وظائف الغدد الدرقيّة. المصطلح العلميّ لهذه الحالة المرضيّة: رُقاص سيدنهام. المترجم.

«النقاش هنا لا يجدي نفعًا. هل تريدون أن تعزفوا أم لا؟» صاح أوغو.

نظر إليه قائد الفرقة جادًّا، في بؤبؤ عينيه. «يا فتى...» قال كمن يقصد: "رفقًا بنا، ألا ترى أنّ الوضع غير مناسب؟".

تدخّل ليلّو: «لماذا لا تريدون أن تعزفوا؟»

لكنّ أوغو نحّاه بيده وتقدّم إلى الأمام وهو يزعق: «سندفع لكم أجركم أيّها العجزة!»

«حسنًا» قال قائد الفرقة «لكنّنا لا نستطيع العزف داخل الصالة، لأنها ستغلق!»

«اعزف لنا في الخارج إذن!» صاح أوغو كما لو أنّه يغنّي.

«خذ، اشرب!» غمغم كاغوني، وأخرج من جيبه قنّينة ستريغا الممتلئ نصفُها. فنظر إليها المايسترو، وأمسك بها، وارتشف منها تحت أنظار كاغوني المسرور. فأخرج الآخرون زجاجاتهم بما تبقّى فيها وقدّموها لكلّ العازفين.

«ألم تنادكم أمّهاتكم؟» قال مدير الصالة ذو الشارب الكبير، «ألستم تريدون الذهاب إلى النوم؟»

«ها، يا أبا الشوارب!» قال أوغو «سأشتريها كلّها، هذه الفرقة!»

أخرج النقود من جيبه، مئاتٍ وآلافًا، ليثبت كلامه. فألقى المدير نظرة متحريّة.

«خذ!» صاح عليه أوغو «إن عزفتَ من أجلي، جعلتُك سعيدًا لشهر كامل!»

«ياه» قال المايسترو «بإمكاننا أن نعزف قطعة! ولكن، في الخارج»

«أينما أردت» ردّ ليلّو.

وسرعان ما اتجه الجميع نحو المخرج، وهم يرقصون ويغنّون.

وحين وصل أوغو عند الباب التفت نحو أبي الشوارب، فكوَّرَ يديه على فمه وصرخ: «ابحث عن فرقة أخرى، لأنّنا استأجرنا هذه!»

خرجوا إلى الشارع، مصحوبين بعازف الأكورديون وعازف الغيتار وعازف البوق. وقبل كلّ شيء، تناقلوا قوارير الخمر ما بينهم وشربوا منها، ثمّ عزفت الفرقة أغنية "شكرًا على الأزهار!"، بينما كان القدّيسون الستّة يتبوّلون على الرصيف. ثمّ راحوا يمشون في الشارع المقفر، يتراقصون ويتمايزون. «هيّا» صاح أوغو للعازفين «سندفع لكم على العدّاد!»

لحقوا بهم مترنّحين وقد أسكرهم الشرب هم أيضًا. وعندما أنهوا الأغنية قال لهم أوغو: «أيّها المزيّكاتيّة، أَسمِعوني – وأنا الغالي على قلوبكم – أغنية "مسجون"!». «أيّ هراء أقول!» استدرك مستاء «بل اعزفوا لي "أفعى"!»

كفّ سالفاتوري عن مراقصة ماتّو وصاح: «ما الذي تتفوّه به من أفاعٍ وثعابين؟ هل أنت سامّ؟ سأُسمِعُكُم أنا أغنيةً تطربكم جميعًا!»

رفع إصبعه نحو عازف الغيتار ذي العيون الأربعة: «عشرون عامًا» قال.

«الكرسيّ الكهربائيّ!» صاح ليلّو.

- «لا تصدِّع أُيُ**** أيّها السكران» صرخ أوغو وقد تملّكه الغضب، فتوجّه نحو العازفين بنبرةٍ مفترسة: «أنا قلت أفعى، وأفعى ستعزفون!»

«اجعلها وزغة لهذا الأبله!» قال ليلّو منزعجًا. «اعزفوا "مسجون"

هيّا، فهذه أغنية الحياة!»

كشّر أوغو عن أسنان كلبٍ مسعور، وانحنى باتجاه الفرقة حتى كاد يلامس الرصيف بذقنه زاحفًا مثل حيّة: «اعزفوا أفعى!» أمرهم.

بدأ ليلّو يفقد صوابه، فضيَّق عينيه، وعوج فمه، ورفع سبّابته ولوّح بها نافيًا: «كلا. لماذا؟» قال «فليعزفوا "مسجون"!»

نسي سالفاتوري أمر أغنيته المفضّلة، "عشرون عامًا"، وشرع يزعق بحدّة كصفّارة الإنذار، بسعادة بالغة، وأخذ يغنّي ويرقص بمفرده "لولا، لولا!".

فاغتنمت الفرقة الوضع وعزفت قطعة شارلستون صاخبة، فهبَّ الجميع إلى الرقص، ممسكين أيديهم القذرة بعضهم بعضًا، يدورون هنا وهناك. وبينما كانوا يرقصون الشارلستون بسرعة عجيبة، جمعًا وفرادى، وصلوا إلى قمّة شارع سانتي كواترو، عند ساحة سان جوفاني. وهناك أرسل أوغو الشارلستون وما تبقّى إلى الجحيم، وراح يركض نحو المسلّة، واقفًا على قدميه فوق القاعدة.

بسط ذراعيه ورفع عينيه إلى السماء، مثل تمثال القدّيس فرانشسكو في الطرف الآخر من الساحة، وصاح: «ها هي أمجادُكِ يا روما!»

ثمّ أخذ يغنّي بحنجرةٍ تهتزّ أعلى وأسفل، صادحًا صوب السماء:

لا بدّ للنصر من أُسُودِ
موسوليني المسلَّحين بالقيم...

لكنّه توقّف فجأة، وتجهّم وجهه وشدّ على أسنانه: «وما لزوم هذه المسلّة؟» صاح «لقد سرقناها من الروس، الملاعين! نحن قادرون على أن نكون قوة عظمى، لماذا؟! أيّها الأوغاد! لماذا لا يقيم لنا أحدٌ أيَّ اعتبار! إنّها روما، إنّها المدينة الخالدة!»

التقط أنفاسه ثم استأنف صياحه الخائب: «أيّها الرعاع! لقد ولّى زمن السوق السوداء! الآن باتوا يعطوننا الخبز بدون قسائم! الآن صار علينا أن نكدّ ونشقى في سبيل لقمة خبز! في السابق كان والدي يأتي لنا بالخبز، لكنّكم تعلمون جيّدًا أنّهم اغتالوا والدي... على باب منزلنا... ظلّ راقدًا على الأرض حتّى الصباح، بثلاث طلقات في جبينه... من منكم ساعده؟ لا أحد، سحقًا للربّ! نحن في إيطاليا خمسون مليون نسمة، وجميعنا نتغوّط من الخوف!»

لقد صرخ بشدّة حتّى أغمض عينيه وبدا أنّه سينفجر؛ إلّا أنّه صاح بشدّة أكبر: «دي غاسبيري[13]!»

صمت قليلًا، ثمّ عاد يصرخ بصخبٍ لا ينقطع، واللعابُ يسيل من فمه، محدثًا ضجّة مشؤومة، وينحني على بطنه بيديه. وبعد أن أنهى ذلك العويل، استجمع قواه مرّة أخرى، شاحبَ الوجه كالموتى، ليصرخ نحو العازفين: «اعزفوا لنا "المسيرة إلى روما"!»

وفي تلك اللحظة، أجال ماتّو بأنظاره في ساحة سان جوفاني، فأدرك أين هو حينها، وكان شبه ميّت لكثرة التعب من رقص الشارلستون مع تومّازو، فسدّد عينيه نحو مكانٍ محدّد، نحو بناية عند مدخل شارع سان جوفاني إن لاتيرانو، فراح وجهه يتنوَّر من تلك المصادفة الجميلة.

---

13 ألتشيدي دي غاسبيري (1881-1954) سياسّي إيطالّي مخضرم، ترأَّسَ الحكومة بعد الحرب العالميّة الثانية، وفي عهده انتقلت إيطاليا من النظام الملكيّ إلى الجمهوريّ. المترجم.

«أوه» صاح «توقّفوا، توقّفوا، فهناك تسكن عرّابتي!»

ثمّ نظر حوله كما لو أنّه يتأكّد من شكٍّ ساوره.

«أليس هناك يضعون الموتى؟» سأل.

«أجل» ردّ كاغوني الذي كان يستريح خلف القاعدة التي اعتلاها أوغو لإلقاء خطبته، «تلك هي المشرحة، حيث يضعون الموتى بعد أن يموتوا في المستشفى!»

عاد وجه ماتّو يتألّق ضياءً من الفرحة: «فهي هناك إذن، عرّابتي!» صاح «لأنّها ماتت ليلة أمس»

صمت لحظة، ثمّ توجّه نحو بوّابة المشرحة في آخر الساحة وصاح:

«يا عرّابتي!»

ومرّة أخرى:

«يا عرّابتي!»

«لقد توفّيت بالسرطان!»

«أيُّ سرطان» قال كاغوني «بل ماتت من الشهوة»

لم يهنأ ماتّو بمناداتها، فصفّر بإصبعين في فمه.

«ماذا، هل تنتظر منها أن تردّ عليك؟» قال له أحد العازفين.

«اعزفوا له سيريناتا» صاح سالفاتوري. وحينذاك هرع ماتّو راكضًا نحو المشرحة. فركض الآخرون وراءه، ضاحكين، وسحبوا معهم العازفين. وتحت نوافذ المشرحة، التفت ماتّو إلى الموسيقيّين الذين وصلوا متعرّقين، وقد اصفرّت وجوههم خوفًا وإرهاقًا.

«هيّا، توتاري!» صاح «فهذه تقدمة منّي!»

استدار نحو النوافذ، وبدأ يغنّي، وهو يبصق كُعُوبًا من اللعاب من

كثرة الشغف الذي اشتعل به:

السيريناتا الأخيرة
ليست لكِ،
السيريناتا الأخيرة
ما المشكلة...

«اعزفوا!» أمر أوغو ساخطًا العازفين الذين كانوا يتسيّبون. وبعد ارتباكٍ دام لحظات، بدأوا يرافقون المُغنّى، واستطاع ماتّو أن يؤدّي بامتياز، وهو يلوّح بيديه كأنّه على خشبة مسرح أمبرا جوفينيلي:

أريد أن أُسْمِعَ أغنيتي
للحلوة الشقراء التي في الأعلى،
أريد أن أرتجل أغنيتي
لمن ينتظرني منذ عامٍ وأكثر...
السيريناتا الأخيرة...

وحينذاك، ظهر من أقصى الساحة أربعة أو خمسة رجال شرطة ليليّة، يمتطون درّاجاتهم الهوائيّة، من بين جنبات باب سان جوفاني. وكان كاغوني أوّل مَن انتبه إليهم. «اهربوا!» صاح «هناك دوريّة!» ثمّ فرّ إلى أسفل نحو شارع ميرولانا.

«ها هم، الشرطة!» صاح تومّازو، وركض خلف رفيقه. وسرعان ما

تبعهم الجميع، وهكذا فكّوا رقاب العازفين، الذين لم يكن في وسعهم أن يركضوا بسبب ثقل آلاتهم.

*

وأخيرًا، نامت روما. ولم يبق تحت السماء سوى دوريّات الشرطة. تحت السماء مجازًا، إذ كانت السُّحُب القاتمة تتلبّد وتعصف بين الأسطُح وفوق الساحات. أعياد الميلاد تقترب، والطقس يزداد سوءًا بالفعل. وصل الرفاق إلى مكان آمن فتودَّعوا، وانصرفت جماعة تراستيفري في حالها، مصطحبين معهم كاغوني الذي لم يعد يحتمل، بروحه تلك التي ما انفكّ الإسهال يعذّبها.

أمّا ليلّو وتومّازو فسارا على الأقدام في طريق العودة إلى البيت. لم يكن هناك ما يتطلّب مشيًا كثيرًا، فإمّا لغاية ساحة فيتوريو، أو سان لورنزو. كما أنّ حركة النقل الداخليّ ستباشر بعد حين. ذهبا في شارع إمانويلي فيليبرتو، وحينما وصلا إلى ساحة فيتوريو، اتجها نحو الجنبات الخضراء التي نالت منها الرطوبة، وتمدّدا على مقعدين متقاربين. كانت قدما ليلّو على جانب، وقدما تومّازينو على الجانب المقابل، ما جعل رأسيهما متعاكسين بحيث لا يرى الواحد منهما وجه الآخر.

الأكشاك، باعة الجرائد، دواوين الدولة، كلّها ما تزال مغلقة. لا أحد يمرّ من هناك. أعمدة الإنارة بين الأشجار تضيء لنفسها. سوى أنّه عند إحدى زوايا الساحة، وسط بعض الحجارة المصنَّعة، هناك قبيلة من القطط، من كلّ نوع، تتسكّع وتنوح بحدّة كالمصاهر بين الفينة والأخرى. وكان تومّازينو وليلّو متوائمين: كلٌّ منهما مستلقٍ ويداه

مشبوكتان تحت رأسه، مفرجًا ساقيه لينتصب صانعُ الشعوب نحو السماء.

لا شيء يفعلانه، لذا استرسلا في الحديث عن الأيّام الخوالي، عن فترة الصبا، حين كانت الحياة ورديّة لدرجة أنّهما ما يزالان يكدحان ويعانيان شظف العيش.

وسرعان ما تولّاهما الضجر من تلك الأحاديث الجميلة، فأصابهما التثاؤب، وتعاركا قليلًا، ثمّ غرقا في غفوة قصيرة.

ومرّت الليلة بهدوء. استيقظا ونهضا واقفين على الحصى الرطبة، وكانت الساعة حوالي الخامسة صباحًا، وتناهت إلى مسمعهما أصوات الترام.

وكان ليلّو متحمّسًا، والضحكة لا تبرح وجهه، فتمطّى ونظر إلى تومّازو وقال: «ما رأيك أن نمشي مسافة أخرى يا توما؟». «تبًّا!» قال تومّازو ضاحكًا «ألم تملّ من المشي؟». «ومَن يتعب؟» قال ليلّو وهو يباشر النزول في ساحة فيتوريو.

وبدأ الباعة المتجوّلون يظهرون بعرباتهم: فواحدٌ يجرّها من الخشبتين كأنّه عبدٌ ذليل؛ وآخر يدفعها مهرولًا موارب العينين ممشّطًا شعره بأناقة كما لو أنّه خرج من عند الحلاق توًّا. كانوا يجولون بخفّة على البلاط المبلّل، كالأشباح، ويختفون على الأرصفة حول حدائق الساحة.

طغى في أحد الأركان دويٌّ كبير. كان عمّال النظافة تحت القناطر يدحرجون حاويات القمامة ويرفعونها إلى الشاحنة.

لم يكن ليلّو نعسانًا، بل كان يشعر بالنشاط، مثلما عندما يخرج

المرء من المرقص عند الفجر نشوانًا. كان يمضي تحت القناطر، يداه في جيبه، منتفخ الصدر، ووجهه يوحي بأنّه ابن بائعة هوى.

وكان تومّازينو يلهث خلفه، مسرورًا بهمّة صديقه، ومتنشّطًا هو الآخر ولكنْ ليس إلى درجة الرضا.

«عليك اللعنة يا ليلّو» قال له «لماذا تسرع كأنّك تمشي على جمر؟»

لم يكن ليلّو بوارد الردّ. كان يوشك على الضحك، ويسير دون أن يلتفت. وكان يعرف أن رفيقه يتحدّث هكذا، لا لشيء سوى لأنّ لديه فمًا: ولئن هاتَرَهُ من الخلف، فلأنّه كان رائق المزاج. ثمّ إنّه يمتدحه، كأنّه يقول متملّقًا: "اللعنة عليك يا ليلّو، يا لك من ابن ساقطة! ألا تتعب أبدًا؟ هل أنت مقاتل؟"

كان يغنّي أغنية، ويهزهز رأسه طربًا، وعيناه تحدّقان إلى الأمام، ويداه في جيبه كما لو أنّه ربطهما.

صادفا شرطيًّا ليليًّا يعود إلى بيته، وعاملًا شاحب الوجه من النعاس يمضي إلى عمله في سكك المقاطعة، وعجوزًا ملتحيًا يدفع عربة مليئة بالخِرَق الرطبة وأغراض أخرى كريهة الرائحة. كلٌّ منهم ماضٍ في شأنه، بمعزل عن الآخر، غارقًا في صمتٍ جليديّ. حتّى إنّ طرقة أحذيتهم المهترئةُ كُعُوبُها بالكاد تُسمَع على الأرض المبلّلة.

خرجا من ساحة فيتوريو إلى شارع لامارمورا، حيث المؤسسة المركزيّة لتوزيع الحليب، التي تصدر منها قرقعةٌ للصناديق الحديديّة الممتلئة بالقوارير، إذ تُسحَبُ على أرضيّة المستودعات وتُنقَل إلى الشاحنات.

توقّفا قليلًا أمام واجهة أمبرا جوفينيلي، ينظران مبهورين إلى

ملصق الفيلم الذي سيُعرَض يومها، وصور الفنّانين المشاهير.

«آه يا روحي!» قال ليلّو مهتاجًا، وهو يعضّ شفته، أمام ملصقٍ تظهر فيه شقراء شبه عارية، وقد أولت وجهها فوق كتفها لتنظر إلى العدسة بابتسامةٍ داعرةٍ لا حدود لها. وقف يطيل النظر فيها، ويداه في جيب بنطلونه الضيّق.

دوّت قعقعة الترام من ناحية ساحة فيتوريو.

«هيّا بنا يا ليلّو!» صاح تومّازو عندئذ وهو يهمّ بالركض.

انعطفا من زاوية المسرح، وهما يصفّران كالهمج، بسرعة شديدة، ودخلا شارع أمير بيمونتي، على امتداد سكّة ترام شينتوشيلي. ووصلا إلى قوس سانتا بيبيانا. وكانا متعبين حتى انقطعت أنفاسهما، ولم يلحقا بالترام. «اللعنة!» صرخ ليلّو وهو ينثني على جذعه ليتنفّس بشكل أفضل. «وما أدراني أنا!» أجاب تومّازو محاولًا أن يبدو أقلّ إرهاقًا «ما أدراني إن كان الخطّ 12 أم 11!»

جلس ليلّو على حافّة الرصيف. مدّد ساقيه، وأسند ظهره إلى الحائط المتقشّر. «ما أصعبها!» عبّر مكشّرًا، لكنّه سلّم أمره فورًا، وصفا وجهه، وعاد إلى الغناء وهو مستلق على الرصيف.

جلس تومّازينو بجانبه، مستندًا إلى الجدار، متصلّبًا، ويداه في جيبه، والساق فوق الساق.

كان يشعر بالرضا من الحياة، لا بل بالإشباع تقريبًا، ولم يبق أمامه سوى التثاؤب ريثما يصل الترام.

توقّف ليلّو عن الغناء برهة، وقال بفمٍ رخوٍ لأنّه يشعر بالضحك من الطرفة التي كانت تجول في ذهنه: «من يتصدّق على هذين

الشحّاذين!»

مضغ ريقًا مريرًا، واستأنف غناءه فرحانًا. كان يشعر بعدم الارتياح، لكنّه رأى أنّ الوضعيّة التي اختارها لا بأس بها فلم يشأ تغييرها.

كانت سينما أبولّو قبالتهما، وواجهتها هي أيضًا مثقلة بالملصقات المبللة، خلف الشبكيّة الحديديّة، وكان عنوان الفيلم مكتوبًا بأحرف ضخمة فوق الباب.

لم يكن هناك أيّ مخلوق على امتداد شارع كايرولي حيث جلسا عند الزاوية، مع أنّه لا وجود لموقف هناك. لكنّ الترام سيخفّف سرعته كالعادة. كانت تبدو أنّها مدينة الأموات. والجانب الآخر أسوأ مرّتين، شارع أمير بيمونتي، حيث سكك ترام شينتوشيلي تضيق عند حوافّ السور الأبيض للمحطّة الكبرى تيرميني، وفوقها ما يشبه المئذنة الملفوفة بسلّمٍ حلزونيّ وخطوط ضوئيّة كثيرة. كان هناك الممرّ السفليّ لسانتا بيبيانا، الذي ترشح منه المياه كغرفة الغسيل: صفٌّ من الفوانيس على الأقواس ذات الطلاء المتقشّر، وسكك الترام التي تتقدّم تحتها إلى سان لورنزو ومقبرة فيرانو.

ما من أحد على الإطلاق. كان يبدو أنّ الليل يهبط بدلًا من أن يطلع النهار، وأنّ الجميع عادوا إلى أسرّتهم، واهبين الساحات والطرقات والشوارع والممرّات السفليّة لذلك الظلام الذي كانت أنوار البلديّة تضاء فيه بلا أيّ داعٍ، سوى لإنارة البلاط اللامع بفعل المياه اللزجة.

وما من صوتٍ عدا صفير بعض القطارات، فوق دعامات المحطة الكبرى، خلف السور. وكانت السماء تُرى بوضوح، إذ لا بيوت تحجبها، ولكنْ لا سبيل للتأكّد ممّا إذا كانت تلك الخطوط العريضة والداكنة

تشير إلى طقس صافٍ أم أنّها غيومٌ مشحونة بالأمطار.

كانت سماءً لا نهاية لها حقًّا: تتراوح ألوانها بين البياض والحمرة. هبّت نسائم باردة رفقة الصباح جمّدت كلّ شيء، ما منع تساقط المطر، فيما صحا الجوّ وراق. إلّا أنّ ذلك اللون الأحمر الذي يغطّي أكداس الغيوم، لم يتبيّن إذا ما كان انعكاسًا لأضواء المدينة الليليّة التي تمتدّ أميالًا وأميالًا في كلّ الاتجاهات، أم أنّه استهلالٌ لضوء الصباح.

طلع الصبح ببطء شديد، وكان شحيحًا بما هو أسوأ من ظلام الليل: أنفاسٌ محمرّة أو صفراء – حدودها المدى المفتوح، تلك المعلّقة ما بعد الضواحي، ما بعد القرى، ما بعد تخوم الريف، المتأرجحة على الناحية أو الهضاب – توقد السحب المتلبدّة. بدت أنّها تنفخ عليها عند أطراف المدينة المعرّضة لريح الشمال، هناك حيث تبوّل بعضُ السكارى أو تقيّأوا قبل ساعتين أو ثلاث، لكأنَّ مائة عامٍ قد مرّت عليها؛ أو أنّها تنفخ عليها من مسافة بعيدة جدًّا، من شواطئ أنتسيو أو فيوميتشينو.

«اللعنة!» قال تومّازو مشمئزًّا، وقد أصابت عينيه غشاوةٌ حادّة كادت تُبكيه. لكنّه كان يحكّ بطنه بيدين غارقتين في الجيوب، فيهدأ باله. أمّا ليلّو فقد كفَّ عن الغناء؛ وغيّر وضعيّته أيضًا. أقعى على الرصيف، مُسنِدًا مرفقيه على ركبتيه، ومثبّتًا رأسه على قبضتيه. يتثاءب من حين لآخر، سارحًا وصبورًا.

«اللعنة على هذا الخطّ رقم 11» قال تومّازو ضاغطًا على أسنانه «ماذا دهاه؟ هل أضاع الطريق؟»

وفي تلك اللحظة تحديدًا، تبدّى الترام من مدخل شارع كايرولي إلى ساحة فيتوريو، كأنّه مرسلٌ من عند الربّ، يكشط على السكّة ليصدر

صريرًا ممغنطًا، نيووو – نيووو، تقشعرّ له الأبدان. وها قد ظهر الخطّ 11، خاويًا بأكمله.

قفز الاثنان مثل وحوشٍ ضارية. «بسرعة! سينطلق الترام فورًا! ليلّو! ليلّو!» صاح تومّازو محتدًّا.

وما لبث ليلّو يتعامل بلامبالاة، حتّى أبطأ الترام عند سينما أبولّو، لينعطف ويلج تحت قوس سانتا بيبيانا. انتفض تومّازو إلى الأمام، تمسّكَ بالمقبض، وقفز على المنصّة، ودخل العربة بحركة بهلوانيّة، مستعدًّا لاختلاق مشكلة مع قاطع التذاكر الذي كان في المقدّمة بجانب زميله السائق إذ لا وجود لأيّ راكب. إلّا أنّ العربة فرملت بقوّة، وبشكل مباغت، فصدر عنها دويٌّ حادّ يفزع العظام، فانقذف تومّازو إلى قاطع التذاكر. صرخ الأخير: «أوه، ما بك يا هذا؟». كان السائق ممسكًا بالمقود، انفتح الباب الأماميّ فارتمى قاطع التذاكر من الترام، آخذًا معه تومّازو الذي وجد نفسه على قارعة الطريق، أمام قوس سانتا بيبيانا. كان ليلّو جالسًا على الأرض، على البلاط المبلّل، بجانب السكّة، على مستوى الترام. موليًا ظهره لتومّازو والعاملين اللذين نزلا من العربة: كان قاطع التذاكر واقفًا بجانبه، ينظر إليه بحزم. وليلّو هناك، بظهره المتصلّب وساقيه الممدودتين. يده على البلاط المبلل، والأخرى مرفوعة أمام عينيه. وكان بالنظر إليه من الخلف يوحي بأنّه يحمل شيئًا من الأرض ويتفحصّه بعناية. ركض تومّازو إليه. أمّا الشيء الذي كان ليلّو يتفحصّه فهي يده نفسها: إلّا أنّها تردّت إلى حالٍ يرثى لها، وإذ رآها تومّازو اصفرّ وجهه من الصدمة وأخذ يرتجف. باتت يد ليلّو أشلاءَ عظامٍ ودماء. حاول ليلّو أن يصرخ، لكنّه في الحقيقة نفخ صوتًا خفيضًا بدا

أنّه آتٍ من عالم آخر، لا صادرًا عن فمه: «يا إلهي، النجدة!». حتّى قدمه كانت مفرومة: حذاؤه، ولحمه وعظامه تُشكّل ثريدًا مهروسًا من دمٍ أحمر.

كان السائق وقاطع التذاكر هناك، منحنيين نحو ليلّو، ينظران مشدوهين بلا حراك، مثل تومّازو الذي غطّى وجهه بيديه كي لا يرى. وشيئًا فشيئًا، قدم أناسٌ آخرون، واحتشدوا حول الترام. حاول أحدهم أن يحمل ليلّو من تحت إبطيه ليسحبه إلى الرصيف. لكنّه أخذ يولول بصوت عالٍ، فتركوه هناك حيث هو، جالسًا على البلاط، بيده المرفوعة وساقه الممدودة.

هرع ثلاثة من عمّال النظافة الشبّان ليتّصلوا بالإسعاف من أحد المقاهي أو من موقف ترام شينتوشيلي. وفي الأثناء، توضّحت الأشياء حول ليلّو – جدران المنازل المبلّلة، أسوار المحطة، وجوه الناس، قطع البلاط – وكادت تتّشح بالبياض، تحت أولى خيوط ضوء النهار الذي كان يطلع بصورة اعتياديّة، رويدًا رويدًا، على المدينة.

3 - إرينه

كانت ظهيرةً رائقة قبل عيد الفصح بفترة وجيزة: شمسٌ دافئة وهواءٌ لا يزال يحمل بعض البرودة المنعشة التي تصيب الجلد بالقشعريرة.

خلف المستنقعات، بجانب مجاري الصرف، نهض تومّازو ورفع بنطلونه، وشدّ حزامه وهو يلعن الحصى والحشائش، وراح يصعد المنحدر.

اتّسخ حذاؤه كليًّا بالوحل الأسود النتن: بدا كأنّه صاعدٌ من فوّهة بركانٍ في عمقها ماءٌ أسود اللون أيضًا. وفي المحيط، بين بُسُطِ الأعشاب المائيّة والعفن، كانت بعض الضفادع تقفز مطمئنّة كما لو أنّها في ربوع الريف؛ وبعض الحشرات المجنّحة أيضًا، هنا وهناك، كتلك التي تظهر في أوائل الربيع.

وصل تومّازينو إلى القمّة وكان الكثيرُ من الحصى عالقًا بحذائه، فاستاء لذلك وجلس ليغسله. نظّفه وهو يغنّي، ثمّ لبسه، واستأنف المشي باتجاه شارع الكنائس السبع.

قطع شارع كريستوفر كولومبس بخفّة، ودخل الفسحة نحو غارباتيلا. الفسحةُ بطول كيلو متر تقريبًا، وفي وسطها بضعُ أسوارٍ

محطّمة، وحولها صفوفٌ من أبنية شاهقةٍ بُنيَت مؤخّرًا، بعلوّ ستّة أو سبعة طوابق، وثمّة أبنية صغيرة في الجانب العريض من الفسحة، المؤدّي إلى شارع ماريا أديلايدي غاريبالدي، حيث تجمَّعَ حوالي مائة فتى للعب الكرة.

توغّل تومّازو إلى وسطهم: كانوا يهتفون ويستمتعون كأنّهم في عيد. وهناك صغارٌ لا يلعبون الكرة، تناهز أعمارهم ثلاثة أعوام، يرتدون المآزر ويحملون دمى الدببة، وجوهُهم ناعمةٌ مثل إخوتهم الأكبر منهم سنًّا.

بيد أنّ تومّازو لم يكن يعبأ بكلّ تلك الجوقة من الأولاد المشاكسين. لقد مرّ من هناك لسببٍ وحيد: أراد أن يلقي نظرة على البنات اللواتي رآهنّ من بعيد.

كان هناك الكثير منهنّ بالفعل، على امتداد المرج، يتحاشين الشبّان، إحداهنّ ما زالت صغيرة، وأخرى تكاد تكون صبيّة، وكلّهنّ يرتدين ثيابًا منزليّة مبتذلة. كنَّ جالسات في صفوف أو حلقات وسط الفسحة، يتجنَّبن أيّ تواصلٍ مع الذكور، على اختلاف أعمارهم، إذ كانوا يحومون حولهنَّ في تلك الأرجاء.

كنّ جالسات على العشب اليابس أو التراب المسحوق الذي كنسته الريح، كعادة النساء في الجلوس: عجيزاتهنّ على الأرض، والركبتان مضمومتان جيّدًا من تحت ثنايا التنوّرة، مسنودتان كلاهما إلى الطرف نفسِه. لكنّهنّ، أثناء ثرثرتهنّ، يغيّرن وضعيّاتهنّ أحيانًا، أو ينهضن لتبادل الصفعات أو تنفيذ المقالب، فيسمحن للتنوّرة أن تميل على هواها، ما يسمح برؤية شيءٍ ما من تحتها.

هذا ما دعا تومّازو للمشي متلصّصًا في أرجاء الفسحة، متناسيًا أمر المباريات، ومركّزًا على المرور بجانب مجموعات الإناث لرصدهنّ. وكانت الفتيات يتظاهرن بأنّهنّ لا يلاحظن شيئًا، على الرغم من أنّهنّ سرعان ما أدركن أنّه يرميهنّ بنظراته. وهكذا يزددن رغبةً في المزاح، أو يضحكن بوقاحة، دون أن ينظرن إليه في وجهه: وكنّ يتركنه يسدّد نظراته إلى تحت تنانيرهنّ كيفما تحرّكن، على اعتبار أنّهنّ لم ينتبهن لوجوده. ثمّ إنّه كان بمفرده، وهنّ كثر. تومّازينو يمشي، خطوة في إثر خطوة، ويبلع ريقًا مريرًا.

«اللعنة عليهنّ، هؤلاء القذرات!» يغمغم بفمٍ مكشِّر.

بات متهيّجًا حقًّا عندما وصل إلى آخِر الفسحة. وهناك، خلف شارعٍ يقع بين أبنية غارباتيلا، ثمّة فسحة أخرى، ليس فيها أيّ امرأة، فكاد تومّازو يعود أدراجه باتجاه أولئك النسوة، مضرَّج الوجه مثل ديكٍ روميّ، فإذا بالقدر يتدخّل كالعادة: ففي تلك الأثناء تحديدًا، خرجت من شارع كريستوفر كولومبس شاحنةُ نقل الكلاب. مرّت قبالة تجمُّعات الفتيات، ودخلت شارع آنّا ماريّا تايجي، وتوقّفت أمام إحدى البنايات العالية في الجوار.

ركض جميع الأطفال نحوها وهم يتصايحون، متبوعين بالفتية الأكبر سنًّا، يدفعهم الفضول كأنّهم قِرَدة. وأقبل أولادٌ آخرون من الأفنية المجاورة، ليشكّلوا جمهرةً من العجيان عند بوّابة تلك البناية. وكان بين هؤلاء بعضُ الفتيات أيضًا، شعرهنّ ممشّطٌ كالممثلات: إحداهنّ قد سبلت شعرها الناعم على كتفيها، وأخرى ربطته كذيل الحصان فوق كنزتها.

اقترب تومّازو إذ رآهنّ، بينما كان المشرف يسير رشيقًا في الفناء الضيّق والطويل بين المساكن.

تظاهر تومّازو بالحياديّة، وانغمس وسط حشد الأولاد، تمامًا خلف صبيّتين، تشبك الواحدةُ منهما خصر الأخرى، وتطاول عنقَها نحو الفِناء لترى ما الذي يحدث.

فتظاهر هو أيضًا بأنّه ينظر نحو الداخل، ودنا من الصبيّة الكبرى، ويداه في جيبه، وراح يتحسّس جسمها برؤوس أصابعه من تحت قماش بنطلونه الخفيف والبائد: وسرعان ما أحسّت به، فتحرَّقت عيناها وهي تنظر نحو الفناء تارةً ونحو الشارع تارة أخرى، وتهزّ رأسها بحركة محدّدة: تِكْ إلى جهة ما، تَكْ إلى الجهة المعاكسة، مثل دجاجةٍ تلقم الحبوب بمنقارها من على الأرض. وهكذا كانت ضفيرة شعرها تصفق من جهةٍ إلى أخرى، ممشوقةً، على الياقة الحمراء. وكانت تتذرّع بالالتفات نحو الشارع لتلقي نظرة خاطفة على تومّازو، وهو من الخلف ملاصقًا لها وعابس الوجه، منتصبَ الأصابع، يتصرّف كأنّه ليس موجودًا، كأنّه هواء، كالملائكة.

وكانت الشمس الرقيقة في كبد السماء، تنير التجمّعات السكنيّة بنورٍ لطيف. وكلُّ شيء في غمرة الهواء، من الأرصفة إلى الشجيرات، ينعم بالدفء والضوء.

مضت خمس دقائق، ثمّ عشر، فربع ساعة. استأنف الأولاد دوشِتهم ولهوهم. وبدأت المحادثات بين المتجمّعين. وكانت الفتيات يضحكن كالمجنونات، تشبك الواحدة يد الأخرى، أو يتلامسن بالخدود دلالةً على المودّة. حتى الأخريات انتبهن أنّ تومّازو كان يتحسّس

صديقتهنّ الكبرى، الصهباء ذات الضفيرة كذيل الحصان، وكلّما علت ضحكاتهنّ تضرَّج وجه تومّازو.

وها هو أخيرًا: شيءٌ ما يظهر من عمق الفناء، على جوانب الدعامات الإسمنتيّة التي يعتليها العشب اليابس ويُنشَر عليها الغسيل. نفرٌ من الأشخاص يتقدّمون بمشية منتظمة: يتقدّمهم المشرف ومساعده، وخلفهما فتاتان جميلتان، يرتديان مئزرًا أسود، تمشيان برشاقة واهتياج. كان المشرف يحمل بيده ما يشبه صنّارة الصيد، عصا طويلة كتلك التي يمسكها الصيّادون على ضفاف نهر التيفر، إلّا أنّ شريطةً جلديّةً تتدلّى من أعلاها بدلًا من السلك.

وعلى الطرف الآخر من تلك الشريطة ثمّة شيءٌ مضحك مربوطٌ بها، يتقدّم مهرولًا بأطرافه الأربعة كالصرصار: تك تك تك تك.

جروٌ أسود، صغيرٌ صغير: كلبٌ هجين، مجعّد الوبر، بضفائر سوداء عند أطرافه. كان مجبرًا على السير هرولةً لأنّ الفتاتين تتبعانه، فيركض من حين لآخر ليبقى قريبًا من المشرف، وغالبًا ما كان يثب مترًا عن الأرض لأنّه مربوط بتلك الصنّارة كالسمكة.

وما إن وصلت تلك المجموعة بسرعة إلى المدخل، حتّى ضحك المجتمعون هناك.

«انظر إليه!» كان الأولاد يصيحون، إذ غلب اللهوُ خيبةَ أملهم حينما رأوا وصول ذلك المضحك.

ارتبك الكلب قليلًا عندما رأى هذا الجمع الغفير الذي كان بانتظاره عند مدخل البناية، جميعهم يصوِّبون أنظارهم إليه. توقّف فجأة، وساقه الصغيرة مرفوعةٌ لينظر من حوله. لكنّ المشرف هزَّ الصنّارة

فرفعه عن الأرض، ما اضطرّه إلى معاودة السير، بأطرافه التي تتحرّك بخفّةٍ شديدة حتّى كادت لا تُرَى.

وما زال يحدّق إلى الناس من حوله، في خضمّ ارتباكه وتعجُّله، وكان واضحًا أنّه يشعر بالخجل، بعينيه الكبيرتين السوداوين اللتين تلمعان من بين زغبه، راميًا أنظاره هنا وهناك. حاول أن يواري خجله ومهانته، فاعتلته أمارات البهجة: بدا أنّه يبتسم للناس الذين ينظرون إليه، ليريهم أنّه لم يتعرّض لأيّ مكروه، لا بل كان سعيدًا.

ومرّ هكذا بين الجمهور، شبهَ مختنقٍ بالشريطة الجلديّة، منتفخَ الصدر يهزّ بذيله.

سوى أنّه عندما صار قريبًا جدًّا من أقدام الناس، رأى هؤلاء أنّ ظهره منتوفٌ برمّته، وأنّ بقع الجرب الرماديّة تغزو جلده بين ما تبقّى من خصلات شعره الأسود والمجعّد.

طيَّره المشرف إلى الشاحنة الصغيرة حيث كان السجناء الآخرون ينطُّون ويرفسون بأطرافهم على الجوانب ويشهقون بصعوبة.

شغّل المحرّك وانطلقت الشاحنة. فانفضّ الجمع ضاحكين: توجّه الذكورُ نحو الفسحة لاستكمال اللعب، وعادت الفتيات إلى الأرصفة المجاورة تحت بيوتهنّ ينعمن بأشعّة الشمس.

إلّا أنّ الصبيّتين اللتين كانتا تتبعان الجرو ما تزالان هناك عند بوّابة البناية.

ازداد هياج تومّازو، فسعل من شدّة تأثّره، واقترب واستند إلى السور الصغير، مثنيًا قدمه إلى الجدار المخدَّش، وواضعًا يده في جيبه.

وما زالت الصبيّتان تدردشان، تتنعّمان بالشمس والهواء الطلق،

مسرورتين ومطمئنّتين، كما لو أنّ والدة كلٍّ منهما لا تنتظرها في البيت.

«القذرات!» فكّر تومّازو وهو ينظر إليهما مشمئزًّا ومحتقنًا.

الأولى قصيرة القامة، سوداء كالأفارقة، شعرها سبطٌ، نهدها صغيرٌ ومدبّبٌ من تحت الكنزة الصيفيّة، وأردافها بدينةٌ ومنخفضة تكاد تصل حتى كعبيها. إلّا أنّ تومّازو لم يكن يعيرها أيّ اهتمام، إذ كانت كثيرة الحسن والمكر. كان يصوّب نحو الثانية، راقت له وهي قصيرةٌ أيضًا لكنّها مكتنزةٌ ومتينة، كالذكور تقريبًا، وشعرها متجعّدٌ بفعل المثبِّت، ومرتفعٌ عن جبينها، ويبدو محمَّصًا حول وجهها الأحمر والمربع.

انتبهت كلٌّ منهما إلى وجوده، لكنّهما لم تنظرا إليه البتّة. كانتا واقفتين هناك، تثرثران كما تفعل النسوة. كانت الأفريقيّة القصيرة تحدّث رفيقتها عن المكالمة التي تلقّتها في الأمس من صديق خطيب ابنة عمّها، وعن المكالمة التي أجرتها لاحقًا في ذلك الصباح لتخبر والدة ابنة عمّها عن المكالمة الأولى. وتومّازو هناك كالأهبل، وهي تثرثر وتثرثر، بينما كانت الأخرى تنظر إليها تارة وتحوم بعينيها في الأرجاء تارة أخرى. حتى الثرثارة كانت في أثناء حديثها تلقي نظرة نحو الشارع بين الفينة والفينة، تحرّك رأسها كما يفعل الدجاج.

وكانتا ترتعشان من النسمات الباردة، بما أنّهما كانتا في ثيابٍ منزليّة مهمَلةٍ وخفيفة.

وكانت الأفريقيّة مصابة بالزكام، لكنّها بدت راضية جدًّا من صوتها المخنوق والجافّ وهو يصدر عن أنفها المسدود ومنخاريها المحمرّين. أمّا الأخرى، إرينه، فكانت تصغي إليها شبه متجمّدة من البرد، تشدّ خاصرتيها بمرفقيها، وتحتضن صدرها بذراعيها، وتشبك يديها بعضهما

ببعض. وكانت محدودبة الظهر قليلًا ومنكمشة على نفسها، ورأسها غائصةٌ بين كتفيها، وقدماها موجّهتان نحو الداخل، وفخذاها متلاصقان وبطنها مشدود. وتومّازو صامتٌ كسمكة، أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها بهدوء، وراح يدخّنها بأنفاس بطيئة ومحسوبة.

كانت البنتان تتهزهزان وتتضاحكان وتفرك كلٌّ منهما كتفيها ونهديها بيديها بسبب النسمة الباردة التي هبّت عليهما. وبينما كانتا تدردشان، مرّت في الطريق امرأةٌ عجوز، بشعرها المسرَّح كأعواد المكنسة، هزيلةٌ كأنّها صائمة في الجمعة العظيمة. صاحت إليها الفتاتان بتحيّة، وتقدّمتا تجاهها حتى أوّل البوّابة: «مرحبًا يا شيلي!». ردّت عليهما بتحيّة، جادّة، من بعيد. فازدادتا مرحًا واندفاعًا: «هلّا أعطيتِني قبلة يا شيلي؟» قالت لها السمراء. إلّا أنّ العجوز تابعت سيرها وشأنها، عابسة الوجه، مُسَلِّمةً أمرها.

حانت اللحظة المناسبة. عبَّ تومّازو سحبتين من الدخان بتروٍّ وهدوء، وتنحّى عن السور وتقدَّم خطوة نحو الصبيّتين.

«هيه، هل كان ذلك الكلب لكما؟» سألهما بجديّةٍ واهتمام.

نظرت الواحدة في وجه الأخرى. «إنّه لها» قالت شبيهة الأفارقة. فاحمرّت خدود إرينه أكثر وأكثر، وفلتت من فمها ابتسامة. «لماذا؟» سألته.

«هل كان مصابًا بالاستسقاء؟» استفسر تومّازو.

«كلا، بل أصيب بالجرب» أجابت إرينه.

صمت تومّازو برهةً، وهو ينظر إليها. وسرعان ما استأنف كلامه، بطريقة لائقة ومؤدّبة: «تبًّا له! كيف أصيب بالجرب؟»

«ما أدراني» قالت «كان أخي الصغير يصحبه دائمًا هنا وهناك، لعلّ كلبًا آخر نقل إليه العدوى!»

كانت تتحدّث بسرعة، وترتجف، في حين أنّ الأخرى لكثرة ما تكلّمت من قبلُ اقتصرت آنذاك على النظر إليه من أسفل إلى أعلى دون أن تفوه بكلمة.

وهكذا بدأ تومّازو وإرينه يتعمّقان في الحديث، بإبداء الملاحظات على الكلاب، وفوائد وجودها في البيت ومساوئه: إذ كان لإرينه خبرة متواضعة مع فيدو؛ بينما كان تومّازو يعرف بعض الكلاب في القرية.

«إيه» قال «الناس يحبّون كلابهم أحيانًا، ويعاملونها كما لو أنّ الكلب أحد أفراد الأسرة! كان لديّ كلب، عندما كنت صغيرًا. وحين كبر قرّرت والدتي أن تعطيه لبائع النبيذ المتجوّل! حتّى إنّكِ قد لا تصدّقينني، كم بكيتُ على فقده يومذاك!»

«نعم، نعم» أكّدت إرينه «ثمّ إنّ الكلاب ذكيّة!». وأضافت: «وغالبًا ما تفهم أكثر من بعض الأشخاص، أولئك الذين لا ينبغي لهم أن يبقوا في هذا العالم! بل يجدر بشاحنة نقل الكلاب أن تحمل هؤلاء الأغبياء بعيدًا!»

«هو كذلك، مع الأسف!» قال تومّازو.

وفجأةً عبست شبيهة الأفارقة، وبدت على عجلة من أمرها، فأخذت تطرق الأرض بقدميها وكأنّها تحاول تدفئتهما داخل حذائها البالي ذي السطح المكشوف. قالت: «وداعًا يا إرينه...». كان من الواضح أنّها اتّخذت قرارًا حاسمًا، ومن غير المجدي مجادلتها.

«هيه، هل ستغادرين؟» قالت إرينه، لمجرّد أن تقول شيئًا ما.

فقامت السمراء بانحناءة طفيفة، إذ انثنت على ركبتها اليمنى وأرجعت ساقها اليسرى قليلًا إلى الخلف بحركة سريعة: «كما تعلمين!» قالت «لن أبقى هنا وعندي ألف واجبٍ في البيت!»

كانت مستاءة وحانقة، لكنّها سرعان ما غيّرت نبرتها، واستعادت رونقها وطيبتها، على الرغم من استعجالها الانصراف: «سلامًا يا إرينه!» قالت «نلتقي فيما بعد!»

هرولت فخورةً بصوتها المزكّم واستعجالها، آخذةً معها أردافها المفلطحة والمترهّلة، مسرعةً بساقيها كما تفعل النساء عندما يركضن حتى تكادان تنفصلان عن الجسد، وواضعةً ذراعيها ومرفقيهما على خاصرتيها، مثل جناحين صغيرين ومنتوفين. استغرقت نصف ساعة للوصول إلى الرصيف في آخر الفِناء لتختفي وراء باب تجمّعٍ سكنيّ.

حمل تومّازو إلى فمه السيجارةَ التي باتت جمرةً كبيرة. يده الأخرى منسيّةٌ في جيبه، نصفها بالداخل ونصفها بالخارج، وقد احمرّت واصفرّت مثل قلب الفاكهة. واستأنف كلامه عن الكلاب: «أوه، هل تودّين الحصول على كلب جديد يا آنسة؟ إن أردتِ، عندي صديقٌ في بيترالاتا لديه أكثر من ستّة كلاب، جراء صغيرة: وكم هي جميلة لو تعلمين! نقيّة العِرق!»

«هذا ما ينقصني!» قالت بصوتٍ يصيح أو يكاد، شبه منزعجة، ونفخت نهديها. «لا تخبرْ أخي أو أبي بذلك، وإلّا جاءا بكلبٍ جديدٍ حقًّا! أنا لا أحبّ الكلاب إطلاقًا، إطلاقًا! إذ لا أجني منها سوى العناء: تصعد على الأسرَّة... توسِّخ البيت... ثمّ إنّها تأكل كثيرًا!»

كانت تتكلّم كطفلةٍ لا تقول الأشياء إلّا لإغاظة طفلة أخرى.

تضرّج وجهها كثيرًا من فرط اهتياجها: «ما الذي يقدّمه الكلب؟» تابعت «إزعاج، لا شيء سوى الإزعاج!». كانت تبدو قد فقدت صوتها من شدّة اقتناعها، وما فتئت تهرس ذقنها على عنقها وهي تنفي بهزّ رأسها مرارًا.

فخطرت في بال توماّزو فكرة عبقريّة: حين رأى أنّ موضوع الكلاب لم يعد ذا فائدة، نظر إليها ضاحكًا بوجهه المدوَّر والمنمِّش، وفكّر قائلًا: «لو لم آتِ إلى هنا، إلى غارباتيلا، لدى صديقٍ لي، ولو لم أتوقّف لمشاهدة الفتية يلعبون الكرة، ولو لم يحدث مشهد نقل الكلب، فمتى كنّا سنلتقي أنتِ وأنا؟»

كان مسرورًا بهذا التساؤل الفلسفيّ: لم يقل إنّه في الحقّ قد توقّف عند الفسحة ليتلصّص إلى أسفل الإناث، لا ليشاهد الأولاد وهم يلعبون الكرة.

ولم يفكّر حتى بضرورة الكشف عن صديقه هذا، الذي جاء إلى زيارته، والذي يدعى سيتيميو أوغوستو، اليهوديّ المقيم في المساكن الجديدة خلف كريستوفر كولومبس: كان يساعده من حين لآخر في جرّ العربة، فيُحصِّلَ بذلك بعض النقود. لا بل تعمَّد ألّا يتحدّث عن الأمر معها، لأنّه بتلك الفلوس التي في جيبه، كان قد رتّب المشوار بأكمله.

«لماذا؟» قالت إرينه عند ختام تلك الخطبة الفلسفيّة التي ألقاها توماّزو، متظاهرةً بالسذاجة، لتبدو أنّها الفتاة العاقلة البيتوتيّة التي لا تفقه شيئًا بهذه الأشياء، ولا تخطر في بالها حتّى.

وما كان من توماّزو إلّا أن أفسح لها المجال، لأنّه هو أيضًا كان يدّعي أنّه الفتى العاقل. «تقولين لماذا؟» علّق على سؤالها «إيه، ألا تعرفين

كيف تُدبِّر الأقدار...»

ولم يتبقّ لإرينه أمام ظاهرة الأقدار إلّا أن تلتزم الصمت: لكنّها بسكوتها، المشحون بالكلمات، أرادت أن تعبّر عن شيئين: «والآن؟ ماذا بعد؟» و«أعرف، أعرف!»

باختصار، لم تنشأ المخاطرة. تومّازو، من جانبه، دنا بقربها، بوجهٍ مصبوغٍ بالأحمر، وبخطواتٍ متهادية. كان يحملق فيها، بعينيه اللتين ضاقتا مثل شقّين صغيرين، وابتسامته التي تنفخ فكّيه تحت النمش. حدّق إليها وسألها بلا اهتمام، لمجرّد طرح سؤال: «ماذا يعرضون في غارباتيلا، هذا المساء؟»

«فيلم "إلى أين ذاهب؟"[14]» أجابت إرينه بسرعة، كأنّها سعيدة بزفّ بشرى سارّة.

«جيّد جدًّا، تبًّا!» قال بنبرة مَن له باعٌ بالسينما، وسعيدًا هو الآخر كمن يتلقّى خبرًا عاجلًا.

ظلّ صامتًا قليلًا، بتلك الابتسامة المشحونة التي تُزيد من ملامحه مكرًا: «لِمَ لا نذهب معًا في الغد، يوم الأحد؟» سألها، في محاولةٍ لرمي الشبك، فلا بدّ أنّ إرينه كانت تتوقّع ذلك.

تجهّم وجهها، واتّخذت منحىً صارمًا وجادًّا، وتكلّلت بما يشبه الهيبة: «لا أستطيع» قالت، بنبرةٍ تميل إلى الحزن، ملمّحةً إلى وقائع معيّنة في حياتها، دبّرتها الأقدار أيضًا.

- غير أنّه من المستحيل أن توافق على المجيء فورًا بطبيعة الحال؛ كان هذا الأمر مفهومًا.

---

14 «Quo Vadis» فيلم ملحمّي تاريخّي يتناول الاضطهاد الذي تعرّض له المسيحيّون الأوائل من الإمبراطوريّة الرومانيّة إبّان حكم نيرون. من إخراج ميرفين لوروا. المترجم.

لذا لم يلحّ تومّازو عليها، بل أظهر تفهُّمه مستعرضًا درايته بشؤون الحياة، كرجلٍ يعلم علم اليقين كم من الصعب أن تتمتّع الفتاة بقليلٍ من الحريّة، في ظلّ أهلها والجيران وبقيّة الناس.

ضغط بأصابعه على عقب السيجارة، وقذفه بنقفةٍ موفّقة ليطير عاليًا ويهبط على الرصيف.

تجاهل موضوع السينما، وسألها: «هل أنتِ تعملين يا آنسة؟»

«لا. أعمل في المنزل، هناك الكثير من الواجبات» قالت إرينه مستاءة.

«ربّة منزل إذن، ها!» قال تومّازو وما انفكّ يتظاهر بأنّه الفتى العاقل.

«إيه» ردّت إرينه.

«ووالدكِ، ماذا يعمل؟» استفسر تومّازو باحترام.

عبست إرينه وقالت بصوتٍ هامسٍ ونبرةٍ وقورة: «موظّفٌ في البلديّة!»

لمعت عيناه من هول المفاجأة السعيدة: «ووالدي أيضًا!» هتف. فهذا الشأن يوحّد بينهما أكثر، ويضفي على المحادثة كثيرًا من الألفة، ما أثّر في كليهما وأسعدهما.

«وشقيقي يعمل أيضًا» قال تومّازو بعدئذ «خيّاط». ثمّ أضاف بحرقة: «أمّا أنا فأتدبّر أمري بالعمل بائعًا. لكنّي أكملتُ عامين بمعهد التأهيل المهنيّ، في تيبورتينو، وآمل الحصول على عملٍ أحسن. ما زلت أنتظر ردًّا...»

صمت قليلًا، وضيّع الوقت بإشعال سيجارة أخرى: ثمّ نظر إليها

وهو يدخّن ساكتًا، فيما كان السؤالُ الذي أراد طرحه يتبدّى على وجهه: «فإذًا... ماذا عن الغد؟» قال «لن نفعل شيئًا...؟»

فأظهرت إرينه نفسها أقلّ سلبيّةً هذه المرّة: «يبدو لي أنّنا لن نفعل شيئًا».

«ولكنْ لماذا؟» سأل تومّازو ببراءة.

هامت إرينه في أفكارها. ثمّ هزّت رأسها من جديد وقالت: «لا، لا».

«لمَ لا؟» ألحَّ تومّازو ثانيةً «إن التقينا هنا، عند موقف الخطّ 11، واتجهنا إلى السينما مباشرة، ما المشكلة في ذلك؟»

«لا أدري» قالت إرينه «هذا يتعلّق بـ...»

«بماذا؟» هتف تومّازو، ببراءة الملاك الصغير وسذاجته.

«بإمكانك أن تنتظرني، إن أردتَ» قالت له «غدًا، حوالي الرابعة، هناك عند موقف الترام... إذا خرج والدي... وإذا ذهبت السمراء، صديقتي، إلى بيت عمّتها في ألبيروني، فهكذا يسعني أن أتذرّع بحجّةٍ أمام والدتي، وربّما أتمكّن من القدوم إلى الموعد...»

تضرّج وجه تومّازو متأثّرًا: «بإمكاني أن أنتظركِ ساعتين وأكثر» قال «لا يهمّني، ولكنْ ينبغي لكِ أن تأتي...»

«أوه» قالت إرينه وهي تضغط ذقنها على عنقها «إن استطعتُ المجيء أتيتُ، وإلا فلا...». عمومًا، كان من الواضح أنّها ستأتي. ثمّ أصبحت جادّةً على نحوٍ مفاجئ، وأظهرت عجلتها وبعض غموضها، كما فعلت السمراء من قبل. «تأخّر الوقت، عليَّ أن أذهب» قالت «إلى اللقاء!» ومدّت يدها الغليظة والمحمرّة على حياء.

فاستوعب تومّازو هذه المرّة أيضًا، كرجلٍ خَبِرَ الحياة، ولم يلحّ.

«إلى اللقاء!» قال وصافحها، بنظرةٍ مطوّلة. وتباعدا هكذا، وظلّ يرنو إليها وهي تقطع الفِناء بعجلة ولكنّها لم تهرول، وما زالت محافظة على رزانتها، وشعرها يتأرجح يمنة ويسرة. وعندما وصلت إلى العمق، مدركةً أنه ما زال ينظر إليها، لم تصمد فتقدّمت بخطوات متسارعة، لتتظاهر بأنها مستعجلة في الصعود إلى البيت، بحناياها المتمايلة، يغلبها الحياء بأنّ أحدًا يراقبها من الخلف، خصوصًا أنّ كنزتها مفتَّقة من عند المرفقين وحذاءها مهترئ.

وحين اختفت في عمق الفِناء، انصرف تومّازو وهو يدخّن، ويغلّ يديه في جيوبه، بما يدلّ أنّه فتىً لعين. كان لا يفكّر إلا في اليوم التالي: واستغرق وقتًا في ذلك، لأكثر من ساعتين، وكاد يخيّم عليه الليل، لأنّه مضى سيرًا على الأقدام حتى تيبورتينا، كي لا يهدر النقود على الترام.

*

كانت منطقة غارباتيلا تتلألأ تحت الشمس: الطرقات الصاعدة المحفوفة بصفوف الشجر، المنازل ذات الأسطح المنحنية والأفاريز المسطّحة، كتل البنايات البنيّة ومئات النوافذ والملاحق، والساحات ذات الأقواس وما حولها من قناطر مصنوعة من حجر مخلوط. في إحدى تلك الساحات الصغيرة، عند آخر خطّ الترام، بجانب سينما الخوريّة المتواضعة، كان تومّازو يدخّن محترق الأعصاب، أنيق الهندام، ينتظر إرينه.

لقد كانت متأخّرة ما يقارب العشر دقائق، فيما كان تومّازو يغمغم مغتاظًا، ويجول بنظراته الشرسة حوله، لاسيّما نحو شارع الكنائس السبع، حيث يتعيّن على الفتاة أن تأتي من هناك. «وماذا الآن؟» كان

يفكّر محتقنًا «هل خدعتني؟ هل خدعتني؟»

تحت تلك الشمس الجميلة، نزع الجميع قبّعاتهم، بل وستراتهم أيضًا، وكانوا يتنزّهون بكنزاتهم وبنطلوناتهم على الصرعة الأمريكيّة. يتجوّلون جماعاتٍ صاعدين ونازلين، أو أزواجًا أو ثلاثًا على درّاجة ناريّة.

أمّا تومّازو الذي لم يشمّ رائحة المعطف طوال الشتاء، ولم يخرج في عزّ البرد القارس إلّا بشالٍ قذرٍ يلفّ به عنقه حدًّا أقصى، كان حينذاك متدثّرًا من عنقه حتى كعبيه بمعطف جميلٍ ومكين، ذي حزامٍ منخفض، استعاره من ألبرتو برويتي، صديقه ذاك الذي ينتمي إلى صفوف الطلبة بالحركة اليمينيّة المتطرّفة في تراستيفري، الذي يعمل محاسبًا. ذلك أنّ تومّازو، على الرغم من أنّه يرزح في أسفل دركٍ من طبقة المسحوقين والجوْعى – مع فائق الاحترام – كان يحظى بعلاقات مع عليّة القوم. ولهذا السبب أوّلًا، ولسبب أنّه ينتظر قدوم امرأة ثانيًا، كان عابس الوجه لا يرى أحدًا ولا يقيم لأحدٍ أيّ اعتبار.

وها قد وصل الترام رقم 11 من أعلى، وهو يهتزّ، شبه خاوٍ، وتوقّف هناك عند النزلة، قبالة صالة السينما البائسة. نزل سبعة ركّاب أو ثمانية، وكانت إرينه من بينهم، صحبة صديقتها التي كانت معها في اليوم الفائت.

تضرّج وجه تومّازو كحبّة الفليفلة الحمراء، وتقدّم إلى الأمام، وأنفُه إلى أعلى متفاخرًا، بين مجّة دخانٍ وأخرى. وتقدّمت الآنستان نحوه أيضًا، يتّشحان الصمت، وتفلت ابتسامةٌ طفيفة منهما بالكاد. تصافحوا بالأيدي. وبعد ذلك، سرعان ما مدّت الأفريقيّة يدها ثانيةً لتنصرف فورًا، وكانت على درجة من الأناقة، تحمل حقيبة كتفٍ تصل

حتى كعب حذائها. «عليَّ أن أغادر، ها!» قالت متردّدة بعض الشيء، لكنّ نبرتها تنمّ عن تواطؤها. لم يصافحها أحد منهما، فاتجهت نحو ساحة الكنائس السبع، وهي تجلد الهواء بضفائرها.

بقي الاثنان وحدهما. لوّحت إرينه بيديها كالعادة لترتّب شعرها الذي كان يضايقها عند ياقة كنزتها. هي أيضًا كانت متألّقة: تنوّرةٌ رماديّة وكنزة خفيفة من الصوف الأسود، ضيّقة جدًّا. اهتاج توّمازو ما إن رآها. "اللعنة ما أضخم ثدييها!" قال في سرّه وازداد وجهه احمرارًا وانفعالًا.

«هلّا ذهبنا يا إرينه؟» قال وهو يتحرّك نحو صالة غارباتيلا الواقعة على بعد ثلاثمائة متر.

استقرّت إرينه بجانبه: «إذا رآني أبي!» قالت عوض أن تجيب بنعم. ومشيا خطوة بخطوة على امتداد سكّة الترام. كان لدى تومّازو بعض الأفكار حول موضوع الآباء. «قبل كلّ شيء» قال «الرجال المسنّون لا يتسكّعون في أرجاء البلدة! إنّما يجلسون في الحانة، يشربون كأسًا ويلعبون الورق!»

«أجل» ردّت إرينه «لكنّ أبي غالبًا ما يقصد هذه المنطقة، حيث الحانة التي يلتقي فيها برفاقه المقيمين في ساحة بانتيرو بانتيرا!»

"يا للهول، ماذا لو التقينا به حقًّا، اللعنة على أمواته" فكّر تومّازو. قهقه ثمّ قال بقوّة: «حسنًا، وما المشكلة إذا صادفناه! بل إنّ هذا أفضل! فهكذا نتقدّم إليه ونتعارف وننتهي من هذه الرسميّات!»

«أجل!» قالت إرينه متشكّكة. باختصار، كان كلام توّمازو هو ما اعتاد الرجال على التفوّه به لإيهام الفتيات. لكنّ إرينه ليست مغفّلة

أبدًا. فبعد أن قالت أجل، بطريقةٍ غامضة نوعًا ما، التزمت الصمت، وتولّى وجهَها تعبيرٌ بين الإنكار والكآبة، كأنّها تقول: "أجل، موافقة، ها أنا ذا، لكنّي لست من مواليد البارحة، ها!".

آثر تومّازو عدم التوغّل في الموضوع. "صبرًا عليّ، سأفعل بكِ! بهذين الثديين الجميلين اللذين تحملينهما!" فكّر في نفسه، لكنّه قال لها: «صديقتكِ لطيفة جدًّا!»

«أجل، إنّها كذلك!» ردّت إرينه بمزيجٍ من المجاملة والتصلّف.

«ما اسمها؟» سألها تومّازو.

«ديازيرا» أجابت إرينه، فخورةً بأنّ لديها صديقةً بذلك الاسم الجميل. «مرتبطة!» أضافت بعدُ، مستعيدةً تلك الضحكة الماكرة والساذجة في آنٍ معًا.

«آه حقًّا؟» قال تومّازو عن طيب خاطر.

ارتسم على وجه إرينه أعمقُ تعبيرٍ عن التشكُّك: «بشابٍّ من تورمارانتشو» قالت.

تجاهل تومّازو التعمّق في الحوار هذه المرّة أيضًا، فلم يطلب إيضاحات أخرى عن ذلك الشابّ. إلّا أنّ إرينه تابعت: «لكنّه ليس خيرَ فتىً! يعمل أسبوعًا، ويتصعلك شهرًا. لقد هجَّ البارحة تحديدًا! يبدو لي أنّه غير راغب في العمل!»

"مممم" فكّر تومّازو "يا للضجر!" ثم قال: «لا يمكن للجميع أن يكونوا محظوظين! كما ترين، في هذه الأيّام الصعبة!»

طغى على إرينه صمتٌ جديد ملؤه تشكُّكٌ ومرارةٌ ينحتان تقاسيمَ وجهها. فإذا هما يقتربان من صالة غارباتيلا، حيث الملصقات الضخمة

التي ترتدي ضوءَ الشمس البهيّة. هناك في الفسحة مقهىً صغير، وحوله قرابة عشرين شابّ. غالى تومّازو من سيماء الغضب على محيّاه، وسعل واقتاد إرينه إلى المدخل نحو شبّاك التذاكر، واضعًا يديه على خاصرتيها بالكاد كأنّه يحميها. وسرعان ما اتّخذت إرينه ملامح التجهّم والمعاناة، مثلما تفعل الفتيات المرتبطات.

وظلّت على تلك الحال كلّ الوقت الذي استغرقه تومّازو في الطابور لشراء التذاكر؛ ثمّ صعدا إلى الشرفة دون أن يتصدّقا ولو حتى بنظرةٍ على الفقراء المساكين الذين يجلسون في أسفل القاعة. ولكنْ لا يوجد حضورٌ كثر، فمعظم الناس كانت قد شاهدت "إلى أين ذاهب" في إحدى صالات العرض الأوّل أو الثاني، لاسيّما الشبّان، فمن النادر ألّا يؤدّي أحدهم دور ضيف الشرف.

دخلا أثناء الفاصل ما بين التقديمات وبداية الفيلم، وجلسا في الصفّ الأوّل، عند سياج الشرفة، وقد تملّكَ العبوس والتحفُّظ كليهما. غير أنّ بعض الرضا تبدّى جليًّا على وجه إرينه حالما خفتت الأضواء: ألقت نظرة على تومّازو، ودفعت شعرها إلى الخلف بحركة يدها المعتادة، واسترخت على المقعد، وكان واضحًا أنّها تتهيّأ للتمتّع بالفيلم. ثمّ راق مزاجها أكثر حين نادى تومّازو على بائع البذر إذ كان يغادر الصالة، واشترى كميّة من بذر القرع بخمسين ليرة.

«انظرا» قالت إرينه بلطف، بين بذرةٍ وأخرى، وهي تقرأ أسماء الممثلين «يوجد ليو غلين بينهم!». لم يكن تومّازو يعلم مَن ليو غلين هذا. لكنّ إرينه تابعت، وقد ازدادت لطفًا، وقالت بنبرة مرحة: «يعجبني إتقانه عمله!». «إنّه ممثلٌ بارع!» أقرّ تومّازو.

وطالما دام البذرُ، أي أثناء الفصل الأوّل كلّه تقريبًا، ظلّ تومّازو يشاهد الفيلم، مشغول الفم واليدين، بأريحيّةٍ تامّة، مثل إرينه. ولكن، ما إن انتهى البذر بدأ التوتّر: إرينه بجانبه هناك، بريئةً مثل حمامة، وثدياها يتدلّيان من على السياج، وثناياها تتجاوز حدود مقعدها لتلامس معطفه. كان تومّازو مكشِّرًا، مستاءً ذهنيًّا، يحاول تثبيت رأسه بين كتفيه، من الناحية الذهنيّة أيضًا، كما لو أنّ أحدهم لكمه بقوّة، وهو يفكّر: "إنّها فاتنة! اللعنة عليها، ما أجملها!".

بدأ يقرِّب ركبته من فخذها. فهمت إرينه مراده، ونظرت إليه بطرف العين، لكنّها تهاونت فهذا أقلّ ما يمكن السماح به كي لا تُكدِّرَ المتعةَ البريئة في مشاهدة الفيلم. وهكذا، بعد قليل، انتهز تومّازو مشهدًا للشهداء المسيحيّين، في الكولوسيوم، وحطّ ذراعه حول كتفيها وضمّها إليه. فمرّرت له هذه أيضًا، سوى أنّها ازدادت عبوسًا وتجهُّمًا، وظلّت تتابع الفيلم بعينين تلمعان تعاطفًا.

وفي الأثناء ازداد تومّازو اهتياجًا بالغًا: فبينما كان يضمّ إرينه بيده اليسرى، كان باليمنى يدخّن متوتّر الأعصاب؛ وفجأةً وجد نفسه للمرّة الأولى في حياته يضحّي بسيجارةٍ ما زالت طويلةً سنتمترين على الأقلّ، وراح ينزع عنه المعطف على مَهَل. «الجوّ حارّ» غمغم وهو يطوي المعطف بعناية ويضعه على بطنه.

ثمّ أعاد ذراعه على أكتاف إرينه، التي سرحت في مشاهدة كيف يؤدّي ليو غلين عمله بإتقان فإذا بها تنثني قليلًا نحو تومّازو. إلّا أنّه لم يُبقِ ذراعه على كتفيها طويلًا؛ بل سحبها وبحث هذه المرّة عن يدها وشبكها بيده. كانت يداها تبدوان يدي رجل، لكنّ هذا لم يُثنِ

تومّازو عن الإثارة، بل شبك يدها بقوّة، وضغط بشدّة بظاهرِ يده على فخذها، قرب ركبتها.

«جميلٌ، أليس كذلك؟» سألته إرينه مشيرةً إلى القدّيس بطرس «إنّه يتقن عمله جيّدًا!»

«ليس بما فيه الكفاية!» ردّ تومّازو. اعتبر جملة إرينه تحفيزًا، فزحف بظاهر يده إلى أعلى فخذها شيئًا فشيئًا.

إلّا أنّ إرينه، وبكلّ بساطة، أزاحت يدها نحو أسفل، إلى ركبتها، لتحمل معها يده المشدودة على يدها.

"اللعنة على أمواتكِ!" جدَّف تومّازو في نفسه.

«يا إلهي!» قالت إرينه وهي ترفع يدها الأخرى إلى فمها، خوفًا على مصير المسيحيّين، الصاعدين لدخول الحلبة كي تلتهمهم الوحوش.

«هذه ليست قصصًا حقيقيّة!» قال تومّازو الذي اعتاد على المؤاساة بهذه الطريقة «إنّها مجرّد سينما!»

«ها قد تكلَّم!» ردّت إرينه مغتاظة «ليست قصصًا حقيقيّة! والإنجيل، ما هو برأيك؟ نكتة؟!»

«ما أدراني» قال تومّازو باستخفاف، إذ لم يكن مهتمًّا بهذا الشأن كثيرًا، «ربّما وقعت بالفعل، ولكن متى؟ قبل ألف عام على الأقلّ!»

«فإذًا؟» قالت إرينه وكانت متأثّرة جدًّا برؤية الشهداء يصعدون السلالم وهم يرتّلون أناشيد الكنيسة، وظلّت ساكتة.

استغلّ تومّازو اللحظة ليدفع كلتا يديه إلى أعلى، لكنّ إرينه تمنّعت على الرغم من أنّها كانت مندمجة بالفيلم. "حقًّا؟" فكّر تومّازو ممتعضًا، "الآن تستشرفين عليَّ؟"

بدأ صبره ينفد، وكان حانقًا جدًّا، وهو مستلقٍ على المقعد الصغير، يسند ركبته إلى السياج، بحيث إنّ صدْرَ إرينه صار تحت أنفه تقريبًا. كان نهداها يتبديّان من تحت الكنزة الصوفيّة الخفيفة منتفخين ومتكتّلين، بما يعادل عشرة كيلوغرامًا للثدي الواحد. انتزع تومّازو يده من يدها ثانية، وأحاط رقبتها بذراعه مجدّدًا، لكنّه ضمّها إليه أكثر هذه المرّة، بما يكفي لتصل أنامله إلى مفصل ثديها فوق الكتف. «اللعنة عليهم!» قال مشيرًا إلى المسيحيّين الأبرار «كانوا يؤمنون بالربّ حقًّا، ها؟»

«بالتأكيد!» ردّت وهي متأثّرة لأنّها شعرت أنّه يشاركها الإحساس نفسه. أخفض تومّازو أصابعه، وبدأ يتلمّس لحم ثديها.

وفي تلك اللحظة، جاء أبٌ وأمٌّ وأولادهم الأربعة ليجلسوا خلفهما: ثلاثة ذكور وأنثى. جلست الأنثى خلف إرينه بالضبط.

"اللعنة عليهم ما أغلظ قلوبهم!" قال تومّازو في سرّه، وصَرَّ أسنانه ممتعضًا. توجَّبَ عليه أن يكفّ عمّا كان يتلمّسه بأنامله، وسحب يده قليلًا من على كتفها. ثمّ قرّر أن يُرجِعَ يده إلى مكانها، مضمومةً بيدها على فخذها. أمّا الثديين، فكان سيكتفي باستراق النظر إليهما بطرف العين من على بُعد أربعة سنتمترات عن منخاريه.

وها إنّه ازداد إثارةً، على الرغم من متابعته الفيلم باستمتاع، وعلى الرغم من وجود عائلة بأكملها خلفه، حاول أن ينقل يده المضمومة بيدها من فخذها إلى فخذه. تمنّعت إرينه، وقاومت مرّة واثنتين وثلاث. حتى استبدّ الغضب بتومّازو فعلًا. "أيّتها الحقيرة!" فكّر وهو يواصل ما يفعله "أتظنّين أنّكِ عثرتِ على رجلٍ بليد؟". أذعنت إرينه أخيرًا، ودفعةً

واحدة، واستطاع تومّازو أن يضغط يدها على فخذه. "أيّتها الحقيرة!" حدّث نفسه ثانيةً "ها، ألم تكوني على علمٍ بأنّكِ ستوافقين؟".

الآن وقد صارت يد إرينه على فخذه، أخذ يسحبها برفقٍ إلى أعلى، وقد أخرج يده الأخرى من جيبه، وحطّها على المعطف، وألقى نظرة حوله لمزيدٍ من التغطية. كان يرتدي لباسًا بنيًّا بخطوطٍ بيضاء رفيعة، لا يلبسه إلّا في المناسبات، لكنّه بات قديمًا وتكاد رائحةُ العفن تفوح منه. وهذه حال الجوارب والحذاء، التي اشتراها قبل عام من زيميو الذي سرقها بدوره من شابٍّ لوطيّ. إلّا أنّ الظلام كان طاغيًا حينها، ولا أحد كان سيراه. وحين وصل باليدين المضمومتين إلى أعلى الشيّال بقليل، بدأت إرينه تخلّص يدها. "وماذا تفعلين الآن؟" فكّر تومّازو متوعّدًا ومعاندًا، وقد احمرّ وجهه من الضغط "هل تندمين، الآن؟"

وما زالت إرينه تحاول تخليص يدها بتصميم. فاضطر تومّازو إلى الشدّ عليها بكلّ قوّته، وكاد ينهار. وعندما تعبت إرينه وسلّمت أمرها، غُمِرَ تومّازو بسعادةٍ دامت قليلًا إذ ثبّت يدها عند ركبته تقريبًا. واستأنفا مشاهدة الفيلم بهدوء.

وفي الأثناء اكتظّت الشرفة بالمشاهدين شيئًا فشيئًا، وكان بعضهم واقفين على الأقدام، متراصّين كالسردين، فانبعثت روائح العرق الكريهة. أحد الأولاد في الخلف، أصغرهم، كان يبكي بصوت منخفض، منتهزًا غفوة أبيه الذي كان مصفرّ الوجه من السُّكر.

وهكذا إلى أن مرّ مشهدٌ مهمّ، تظهر فيه إحدى أرستقراطيّات روما القديمة، في قصرها، محاطة بالعبيد الذين يعزفون على القيثارة، استأنف تومّازو محاولاته.

لفتت إرينه رأسها نحوه وقالت له: «لا أريد. كفّ عن هذا يا تومّازو!»

«ولكن، لماذا؟» سألها.

«لا وكفى» أجابت بنفيٍ حازم، وعادت تخلّص يدها من براثنه.

"اللعنة على أمواتكِ!" فكّر تومّازو غاضبًا "كم أودّ أن أصفع وجهكِ الآن"، ثمّ قال لها: «ما المشكلة؟ فنحن لا نفعل شيئًا خطيرًا!»

«دعني وشأني» غمغمت «حذار وإلّا لن آتي معك إلى السينما مرّة أخرى!»

«ما المشكلة؟» ردّد تومّازو، وازداد وجهه احمرارًا من الجهد في الإبقاء على يدها. وقال في سرّه: "وما همّني إن لم تأتِ معي ثانيةً إلى السينما! يكفي أنّكِ أتيتِ اليوم، أيّتها الحقيرة! وطالما أنّكِ الآن مع تومّازو، فلا تتصرّفي بهذه التفاهات، رجاءً!".

ضغط بقوّة أكبر، حتى كاد يهرس عظام يدها الغليظة تلك. عبّرت إرينه بتكشيرة ألم، وكفّت عن المقاومة. كانت ثابتةً تنظر نحو الشاشة، مكتئبة، وعيناها تلمعان.

"فهمتِ الآن، ها؟" فكّر تومّازو حانقًا. وأخذ يزحف بيده كما يحلو له، لكنّها لم تكن موافقة البتّة. «هيه يا تومّا!» قالت بنبرةٍ مختلفة «لم أكن أظنّ أنّك هكذا! لو كنتُ أعرف ما أتيتُ معك إلى السينما!» وعادت تخلّص يدها. استشاط تومّازو غضبًا كالوحوش: «ما المشكلة في هذه الألعاب!» قال لها وكاد يصيح. ثمّ شدّ يدها بعنف، إلى أن ذهب بها حيث يجب عليها أن تذهب. لكنّ إرينه ما زالت تمانع بعنادٍ كبير، وتسحب يدها إلى الجهة الأخرى. "أيّتها الساقطة القبيحة،

يا بنت الداعرة الفاجرة!" كان تومّازو يفكّر حتى شعر أنّ شرفه كلّه بات على المحكّ "لماذا دفعتُ لكِ تذكرة السينما برأيكِ؟ سعرها ثلاثمائة ليرة، ليست زهيدة!". «هاتي يدكِ!» أضاف وشدَّها بعنفٍ غاضب. "ثلاثمائة ليرة!" ردّد في نفسه ناقمًا "ما هي بالنسبة إليكِ؟ لا شيء! ولماذا؟ كي تجلسي هنا وتشاهدي الفيلم يا حلوة! اللعنة على أمواتكِ!". "حتّى البذر دفعتُ ثمنه من أجلكِ!" فكّر في ذلك بغضبٍ على غضب "خمسون ليرة! سحقًا!"

ضغط اليدَ المتشنّجة.

«دقيقة واحدة» قال لها «دقيقة واحدة فقط، أقسم لكِ بأمّي، المتوفّاة!». وفي تلك اللحظة تحديدًا رأى في وجه إرينه وعينيها ما يشبه الإذعان. فأضاف بنبرة ودودة ومرحة: «يحقّ للرجل أن يُشبِع رغباته، أليس كذلك؟»

وهكذا، صارت إرينه تتراخى شيئًا فشيئًا، وهي تشاهد الفيلم، وتترك له يدها، كأنّها ليست لها، فأخبرها بإصرارٍ هذه المرّة: «كم أنتِ فاتنة يا إرينه! ألا تعلمين أنّكِ تعجبينني حقًّا؟» ثمّ أضاف أيضًا: «يا إرينه، أنا أودّك، لا أعبث معكِ، إنّي أودّكِ، أُقسِم لكِ!»

انكمشت إرينه على نفسها في المقعد، صموتةً كالظلّ، والأسفُ بادٍ على كلّ أنحاء جسمها، من ذقنها إلى ثدييها ومن ثدييها إلى فخذيها، وما انفكّت تتابع الفيلم بعينين تلمعان دمعًا.

كان فيلم "إلى أين ذاهب؟" طويلًا جدًّا، وحينما انتهى وخرج تومّازو وإرينه من صالة غارباتيلا، كان قد حلّ ظلامٌ لكأنّه وقتٌ متأخرٌ من الليل.

المقهى الصغير في الفسحة قبالة السينما يتلألأ مثل خاتم الخطوبة، بأضواء النيون، فيما كانت منطقة غارباتيلا تبدو كومةً من الأضواء المبعثرة في الليل. تزايدت جماعات الفتية، منهم مَن يمتطي درّاجة ناريّة ويحضّر نفسه للتوجّه إلى وسط روما، وآخرون عائدون من هناك، وجميعهم يُحدِثون دوشة كبيرة.

وكان الظلام يخيّم كلّيًا على الطريق حيث انعطف تومّازو وإرينه نحو شارع إنريكو كارفيرو، لولا فتحات النوافذ وبعض القناديل. كانا يمشيان وسط الشارع، على ما يشبه حسكة السمك من الإسفلت المتفتّت، وما يحيطه من شجيرات ضامرة. تومّازو يسير صامتًا ويداه في جيوبه، وإرينه خلفه قليلًا تشبك ذراعه. يمشيان في صمتٍ كأنّهما مخطوبان منذ مدّة طويلة، ليس لديهما شيءٌ يتقاسمانه مع بقيّة الناس، سارحين في أفكارهما، وليس لديهما حتى ما يتحادثان بشأنه، وكأنّ كلَّ شيء بينهما قد قيل، باستثناء بضع كلمات موجزة، بسسسس، بسسسس، نعم، لا، منطوقةً بوجهٍ متودّد، ومكتئب ومليءٍ بأشياء كثيرة لم تُقَل.

حتى وصلا إلى ساحة الكنائس السبع، هناك حيث بعض المقاهي والحانات التي تتلألأ بدورها على المروج الخاوية، وفي العمق يتبدّى طيف المستشفى الضخم في طور التشييد وأضواء كريستوفر كولومبس: انعطفا نحو طريق أشدّ ظلمة، ليس فيه أيّ عمود إنارة، وقد بدأت فيه أشغال الإعمار توًّا.

وهناك كانا يتوقّفان بين الفينة والأخرى لتبادل كلمتين كئيبتين، بسسس، بسسس، لا، نعم، ويتبادلان قبلتين لا أكثر، لأنّ تومّازو كان

يشعر بأنّه أزاح عن كاهله عبئًا بعد أن أبلى بلاءً حسنًا في السينما. وهكذا وصلا عابسين إلى رأس الطريق المظلمة، عند حدائق ساحة سانتا يوروزيا، حيث تفارقا، روحًا وقلبًا، كما كان متّفقًا عليه. حدّدا موعدًا تاليًا، بصوت منخفض، وتودّعا همسًا، ونزلت إرينه بجانب سياج الحدائق على الحصى، تُسرّع خطواتِها تارة، وتهرول تارة أخرى.

رآها تومّازو تبتعد، أخرج سيجارةً وأشعلها وهو ينزل على مهلٍ نحو موقف الترام، كالأوباش.

*

وصل تومّازو إلى بيترالاتا بكبرياء مَن أمضى أوّل يومِ أحدٍ له صحبة فتاة. وحالما وصل، أوقفه زيميو وكاغوني وثلاثة آخرون من العصابة، وسألوه إن كان يروقه أن يذهب معهم إلى أنغويلارا لسرقة الدجاج. فقال لهم: «طبعًا، وكيف لا؟!». كان الليل قد حلَّ، فانطلقوا على متن فيات-ألف ومائة سرقها الآخرون خلال الظهيرة.

تمّت غزوة الدجاج على أنغويلارا على أكمل وجه، وتبعتها أخرى في اليوم التالي، في تيفولي، ثمّ أخرى في فيلالبا، ثمّ أخرى في سيتيكاميني، بالقرب من روما دائمًا. وفي سبت النور، لم يشاؤوا تكبُّد جهودٍ مضنية في الذهاب بعيدًا، فأتمّوا عمليّة السرقة في بونتي مامولو، على مقربة من هناك، خلف نهر الآنييني.

فلنضع الهزل جانبًا، لقد جرت الأمور بهذا الشكل. كاغوني وزيليروني، كاتزاتيني وبوذا، غريشو وشاكالو وناتزارينو، إضافة إلى الرفاق الأصغر سنًّا كتومّازينو وزيميو وزوكابّو – الذي أضحى مكتنزًا خلال الوقت – ذهبوا جميعًا إلى تيبورتينو لاستئجار شاحنة صغيرة،

لأنّ المَهمّة كانت في مكان بعيد، قرب تشامبينو: كانوا بصدد سرقة أربعة قناطير من البرونز. وكانت السماء تمطر. وصل الرفاق جميعًا إلى تيبورتينو مبلّلين حتى النخاع، وتوقّفوا عند نافذة إحدى البنايات المطلّة على الريف. خرج كارلو إلسوردو/الأطرش إليهم عند المدخل المستور، وحينما اقترحوا عليه أن يعطيهم الشاحنة، أخذ يرفض ويقول لا:

«كلا، كلا، كلا، لن أعيركم الشاحنة أبدًا! لقد سبق وأعرتُها ثلاث مرّات، وفي كلّ مرّة يخدعونني!»

«لكنّنا لسنا أولئك الذين خدعوك يا رجل!» قالوا له.

«حسنًا» قال كارلو إلسوردو «أعطوني خمسة آلاف ليرة حالًا، وأؤجّركم الشاحنة!»

«ولكنْ ليس لدينا هذا المبلغ!» قال الرفاق.

«فأنا أعتذر إذن يا شباب، لن أعطيكم الشاحنة!»

«اسمع» قالوا له «إنّك تخيّب ظنّنا. غدًا عيد الفصح، وبعد غدٍ اثنينُ القيامة. فكيف نتدبّر أمرنا بدون ليرة واحدة؟»

«تعال معنا أنت أيضًا» اقترح عليه شاكالو «إن لم تكن تصدّقنا!»

«كلا، كلا» قال كارلو «فأنا صاحب أسبقيّات كثيرة، وقد يُحكَم عليّ بالسجن طويلًا إذا وقعنا في الفخّ!»

«سنترك لك المعطف!» ردّد كاغوني.

«وماذا أفعل بالمعطف؟» أجاب كارلو «غدًا عيد الفصح، أريد أن أقضيه بسلام، لا أريد أن أبقى طوال الليل سهرانًا أهجس بمصير الشاحنة!»

وهكذا في النهاية، ليلة سعيدة، ليلة سعيدة، انصرفت الشلّة خاوية الوفاض. كاغوني وزيليروني وشاكالو وبوذا وغريشو وناتزارينو ذهبوا إلى حانة "ألفين"، قبالة جبل بيكورارو، في تيبورتينو. وظلّ الشبّان الثلاثة في الطريق، قبالة بناية كارلو إلسوردو، لم يقرّروا الانصراف بعد.

«ليس بوسعنا شيء» قال زيميو محبطًا.

«وهل أنت أحمق وتنوي الذهاب إلى النوم؟» قال زوكابّو «فلنفعل شيئًا، فلنتحرّك لفعل شيء ما: يجب أن نتدبّر المال حتمًا لا محالة!»

«لكنّك تعلم كيف تكون العاقبة وخيمة عندما نقوم بفعل أشياء كهذه بدون خطّة محكمة!» قال تومّازو وقد أصبح جشعًا أكثر من الجميع منذ أن ارتبط بإرينه.

«غدًا عيد الفصح، أفضّل أن أقضيه في السجن على أن أكون مفلسًا بلا قرشٍ واحد!»

«لا يمكننا حتى أن نسرق الغسيل» لاحظ زيميو تعسًا «لأنّ السماء تمطر؛ فمَن سينشر غسيله على الشرفة!»

تغلّفَهم الصمتُ لحظات، والنقمةُ تفترس وجوههم، وكان السكون من حولهم شديدًا لا يُسمَع من خلاله سوى قطرات المطر المتساقطة.

وفجأة سمعوا صياح ديك: ديك كارلو الأطرش.

«هل ننهب قنَّ دجاج الأطرش؟» قال زوكابّو بعينين تلمعان «لأنّ ابن الساقطة رفض أن يؤجّرنا الشاحنة، فهكذا نرسله إلى الخراء!»

«أوه، بمناسبة الدجاج» قال زيميو الذي ما زالت رائحة سرقات الدجاج تنبعث منه ومن تومّازينو «هلّا أتيتم معي؟ خطرت في بالي الآن فكرة: هناك في كنيسة بونتي مامولو، عند الخوارنة، ثمّة قنٌّ للدجاج.

أنا أعرف أين الدجاجات، فلقد ذهبتُ لسرقة البيض، منذ بضعة أعوام. اللعنة، لديهم ما يكفي ويزيد!»

«كم دجاجة لديهم؟» سأله تومّازينو.

«مئتان، ثلاثمائة!» هتف زيميو.

«هيّا بنا إذن، العدد يستحقّ» قال تومّازو «خمسمائة ليرة سعر الدجاجة الواحدة، ما يعني مائة وخمسون ألفًا!»

«وأين نخبّئها؟» قال زوكابّو مهتمًّا.

«لديّ بطانة الفراش» قال زيميو متجهّزًا «والدتي نجّدت الصوف. تتسع البطانة لكلّ الدجاجات. بإمكاننا أن نُدخِلَ حتّى القَنْدَلَفْتَ[15] فيها!»

وهكذا انطلقوا متفائلين جميعًا. ذهبوا عبْر تيبورتينا، متقوقعين على أنفسهم تحت المطر، وقد تبلّلت فراء شعرهم، ووصلوا ما بعد شارع فيورنتيني، أمام كوخ زيميو، المتكّئ على المرج، خلف مكبّ نفايات. انتظر تومّازو وزوكابّو في الخارج، بينما دخل زيميو إلى بيته ليأخذ اللوازم: عتلةٌ تزن ثلاثين كيلوغرامًا، ومثقابٌ منشاريّ ومصباحٌ كهربائيّ. لكنّه عند دخوله لمح قنّينة نبيذ على الدُّرج، فأخذ يزدرد منها ويجترع، يزدرد ويجترع، مرّةً ومرّة، هكذا حتى خرج مترنّحًا سكرانًا.

عادوا إلى تيبورتينا صحبة الحدائد المبرومة داخل بطانة الفراش، وركضوا كيلومترين أو ثلاثة بسرعةٍ لغاية بونتي مامولو. بدا الشارع نهرًا في ظِلمة الريف، بينما كان الأفق من حوله يتلألأ بأضواء القرى.

قطعوا الجسر على نهر الآنييني. عليهم أن يتقدّموا قليلًا حتى

---

15 «Sagrestano» القندلفت هو خادم الكنيسة وأمين شؤونها. المترجم.

مطعم البيتزا، ثمّ ينعطفون شمالًا إلى شارع كازال دي باتزي. ما زالت تلك المنطقة بلا إنارة، مثلها مثل القرية بأكملها، المكوّنة من بيوت صغيرة مبنيّة من الجصّ الأبيض، أو فلنقل شبه مبنيّة؛ وفي البعيد ثمّة ناطحات سحاب متفرّقة هنا وهناك. كانت الكنيسة تقع في منتصف شارع كازال دي باتزي الحصويّ، وبيتُ القسّ بجانبها. أمّا الطرف الآخر من الشارع فكلّه مزارع ومروج، وفي نهاياته تبرز أضواء مونتيساكرو.

هنالك سورٌ حول الكنيسة وبيت القسّ. تسلّقه الثلاثةُ وقفزوا خلفه، حيث قنّ الدجاج. كان الدرب المحاذي للسور جدولًا من الطين، فبدت البيوت الجديدة والقليلة حوله أشبه بالأطلال. وما زالت تمطر. تقدّم زيميو بالعتلة والمثقاب المنشاريّ، بينما أنار تومّازو طريقه بالمصباح. أمّا زوكابّو فقد لطى عند زاوية الشارع في العمق. كان زيميو يطرق بشدّة، دون أيّ اعتبارٍ أو قلق: أحدث فجوةً بما يقارب خمسين سنتمترًا بوقتٍ قياسيّ. وحينما كاد ينجز عمله، أنير ضوءٌ من حيطان أحد البيوت.

«احذرا، احذرا!» أقبل زوكّابو يقول.

فلم يلتفت زيميو إليه أبدًا: «ما همَّ أَيْ**!» قال «ذاك والد الثور، وهو لصٌّ أكبر من علي بابا. فإن رآنا يعني أنّه يريد حصّته هو أيضًا!»

كان زيميو يعرف كلّ تلك الأشياء لأنّ خطيبته من بونتي مامولو، وكان يتردّد إليها منذ أكثر من عام.

«هيّا إذن، هيّا!» قال تومّازو.

عندما أنجز الفجوةَ، استدار زيميو نحو تومّازو وقال: «الآن وقد أحدثتُ الفتحة، سأغطّي عليك لتدخل أنت، لأنّ رأسي تؤلمني، فلقد

شربتُ كلّ النبيذ!»

«أيُّ هراءٍ تتفوّه به!» قال زوكابّو «لماذا يدخل هو؟ ادخل أنت، فأنت خبيرٌ بنهب الدجاج! بالمناسبة، أليس للدجاجات نقيق؟»

«كلا» ردّ تومّازو «هذه الدجاجات لا تنقنق. في الظلمة لا تنقنق. إذا أشعلنا الضوء ستنقنق بطبيعة الحال. لكنّها تحت الظلام تهمس كوكو كوكو، بصوت خفيض. ثمّ إنّها دجاجات مسيحيّة، كاثوليكيّة – بمعنى أنّها مطيعة!»

دخل زيميو متمسِّحًا ببطنه: وبعد أن صار في الجانب الآخر، ولج تومّازو في الفجوة ومشى خلفه. وحين صارا داخل القنّ، أضاءا المصباح.

كان في القنّ تبنٌ كثير، وزوجٌ من السلال الفارغة ومشجبٌ لتعليق القدور؛ أمّا الدجاج فلم يكن هناك أثرٌ حتى لرائحته. الشبك الحديد والسياج والقفل في عمق القنّ، والحائط الآخر من طوبٍ مجوّف.

«هل تراهِنُ أنّ الدجاجات في تلك الحجرة الصغيرة؟ ألا تسمعها؟ ألا تسمعها؟» قال زيميو.

«اللعنة على أمواتك!» قال تومّازو بضراوة «كنتَ تسمعها منذ قليل أيضًا!»

بأيّ حال، هدموا حائط الطوب، وذهبوا إلى الجانب الآخر، إلى الحظيرة الأخرى. وهناك، خلف مشجب آخر، ثمّة دجاجة واحدة فقط. أشعلوا المصباح ثانيةً، فوجدوا بيضة في سلّة. وسرعان ما اختطفها تومّازو وشربها برشفة واحدة. حاول زيميو أن يوقفه: «أعطني منها شفّة!» قال غاضبًا «اللعنة على أهلك!». لكنّ تومّازو

أشار إلى الدجاجة وقال له: «أوغِلْ إصبعك في دبرها، وانظر إن كان فيه بيضة أخرى!»

ثمّ اقترب بنفسه من الدجاجة وأمسك بها. استسلمت الأخيرةُ بسبب الظلام، واقتصرت على نقنقة طفيفة، وراح تومّازو يشدّ عنقها بشدّة حتى كادت رأسُها تنفكّ بين يديه: «لماذا قتلتها أيّها الأحمق؟» قال زيميو «كان بوسعي أن آخذها وأضعها في حديقتي، لتمدّني بالبيض يوميًّا!»

كان تومّازو غاضبًا لدرجةٍ لم يفضِّلْ فيها أن يردّ عليه. إذ كان الهدوء طاغيًا، وقطرات المطر تُسمَع من الخارج. الشبك الحديد لتلك الحظيرة كان مفتوحًا: لم يكن هناك أيُّ داعٍ لهدم الحائط والدخول من ذلك الجانب. انتبه زيميو للأمر، وانتابته سعادة بالغة: «لا بدّ أن يكون هناك دجاجات!» قال وهو ينعر الشبك بكتفه. وهكذا انتقلا إلى الحظيرة الثالثة، فوجدا فيها أربع دجاجات. أخذاها وقتلاها. «فلنهدم هذا الجدار أيضًا!» قال زيميو بعدئذ، خائب الرجاء لأنّه لم يجد سوى أربع دجاجات «أين اختفت الدجاجات النجسة؟!»

«فلنذهب من هنا» قال تومّازو حانقًا «فبعد قليل سيبدأ الخوارنة بخطبة الفصح، سيستيقظون باكرًا!»

خرجا من القنّ، فلم يجدا زوكابّو.

«فلنذهب، فلنذهب، هيّا!» قال زيميو «ولكن أين زوكابّو، إلى أين ذهب بحقّ السماء؟» راحا يضعان الأغراض كلّها داخل البطانة: العُدَّة والدجاجات، وها هو زوكابّو يظهر. «لا شيء!» قال وهو يقترب منهما «لقد رأيتُ أحدهم، فلحقتُ به لأرى إلى أين كان ذاهبًا!» ثمّ دنا

من البطانة، وقال وقد اصفرّ وجهه من الخيبة: «ولكن، الدجاجات؟»

«أين الدجاجات؟» ردّد والخيبةُ تترقرق في عينيه.

فأجاب تومّازو وقد استبدّت به نوبةٌ عصبيّةٌ ترجرَجَ صوتُه على إثرها: «أيُّ دجاج، أيُّ دجاج، لا وجود حتى للفراشات هنا!»

لم يستطع زوكابّو أن يثني نظره عن زيميو الذي كان منكبًّا على الحدائد يرتّبها.

«ولكن كيف؟» قال متوجّهًا إليه، غيرَ قادرٍ على تسليم أمره، لا بل وازداد خيبةً وأسفًا «لقد أخبرتَنا عن وجود مائتين ثلاثمائة دجاجة، فأين هي إذن؟ أنت تريد اقتيادنا إلى السجن لا إلى الدجاج!»

«السافل!» أضاف تومّازو بصوتٍ مرتجف وغاضب.

«السافل هو أنت!» انتفض زيميو متناسيًا شأن الحدائد «لماذا؟ في المرّة السابقة عندما اقتدتكم إلى نهب الزيت، وجرى كلّ شيء على ما يرام، لم أكن سافلًا! ولم يكن هناك خطورة أو سجن!»

جثا على ركبتيه في الوحل بجانب البطانة، وسكت قليلًا ثمّ أنهض كتفيه وغمغم في نفسه: «لم نتوفّق، هذا كلّ ما في الأمر!»

كان تومّازو يحدّق إليه متشنّجًا بعينين تطفحان بالنقمة، وحدقتاه تضيقان أكثر فأكثر. وانفجر في النهاية: «في المرّة القادمة، عندما تصيب رأسَك لوثةٌ كهذه، ابحثْ لنفسك عن شخص آخر! انظر إلى العذراء! غدًا عيد الفصح، يليه اثنين القيامة، وأنا عليَّ أن أخرج مع صاحبتي فلا ينبغي لنا أن نكون في الحضيض!»

فاه بتلك الكلمات الأخيرة والدمعُ يغرورق في عينيه كأنّه طفلٌ صغير. خرسَ الثلاثةُ معًا؛ وتوقّف المطر، وتفرّقت الغيوم في العلا

مخلِّفةً بعض الصفاء هنا وهناك ليظهر ضوء القمر، وهبّت نسائمُ باردةٌ تُلصِقُ الثياب على الأجساد.

«أوه» قال زيميو بصوتٍ أجشّ «لن تكون في الحضيض نهائيًّا، ستأكل دجاجة! احمد ربّك أنّنا طلقاء!»

عندما سمع زوكابّو هذه الكلمات لم يعد يرى بعينيه، تصدَّعت أعصابه وارتجف بدنه، فأمسك بالدجاجات ورماها على زيميو وهو يصرخ: «بل كلْها أنت، هذه الدجاجات، أيّها الشحّاذ! فأنا لديّ في بيتي ما آكله».

وبعد أن ارتطمت الدجاجات على وجه زيميو، سقطت على الأرض الموحلة بأجنحةٍ مفتوحة، عند قدمي تومّازو. فما كان من الأخير إلّا أن استجاب لنوبة الغضب هو أيضًا وركلها بحيث جعلها تتشقلب على المرج. ثمّ استدار وخرج إلى الطريق دون أن يلتفت إلى الآخرَين بنظرة ليرى ماذا يفعلان. ومشى في دربه قليلًا، مخضرّ الوجه من شدّة الغيظ والبرد على حدٍّ سواء، لأنّ الريح بدأت تهبّ بقوّة، تهرول فوق العشب والريف المخضَّل بالصقيع. ثمّ التفت برهةً ليرى. كان زوكابّو يتجادل مع زيميو الذي أمسك به من ثيابه. «دعه وشأنه!» صاح. فتنحّى زوكابّو عن زيميو بخضّة عنيفة، وجاء راكضًا نحو تومّازو مبلّلًا كالفرخ. «كيف أتدبّر أمري غدًا مع إرينه، ها؟» كان يتحدّث مع نفسه «فلنأمل أن يساعدنا المسيح، فلقد ضقتُ ذرعًا بهذه الحياة الصعبة!»

تولّته نوبةُ غضب جديدة ترافق هذه الكلمات، فتوقّف واستدار تجاه زيميو وعاد يصرخ: «يا بن الداعرة! أردتَ أن تجعلنا أثرياء، اللعنة عليك!»

رفع زيميو رأسه من البطانة التي كانت تتدحرج، وصرخ هو الآخر، متأهّبًا، دون أن يستشيط غضبًا، إذ كانت الكلمات جاهزةً في فمه: «لا تصدِّع أيْ** أيّها المخبر!»

ولكن في الصباح التالي، فكّر كلٌّ من تومّازو وزوكابّو في الأمر، على رويّة. وكان تومّازو مبتهجًا، فالذكيّ يصمد دومًا طالما هناك حيلة. وبالفعل، رضي عنه أحدُ القدّيسين، وجعله يعثر مصادفةً على آلة تصوير ومغفّلٍ من الشمال يؤدّي الخدمة العسكريّة في ثكنة الفورتي، إذ قال له: «هلّا التقطتَ لي صورة من فضلك؟». «طبعًا، طبعًا!» ردّ تومّازو. ولم يكد الرجل يستدير ليتّخذ وضعيّة مناسبة، حتّى فرّ تومّازو بسرعة الريح.

وهكذا تدبّر ألف ليرة: وبات بإمكانه الذهاب إلى موعده مع إرينه فرحًا ورائق البال. ألف ليرة، أرأيت، لقد وضعت الأقدار في جيبه ألف ليرة.

قال زوكابّو: «لماذا نترك كلّ الدجاجات لزيميو؟ ماذا لو تقاسمناها بيننا؟ فما من أحلى من قضاء عيد الفصح، ودجاجةٌ في بطنك!»

كان ذلك الصباح جميلًا بما فيه الكفاية، وأشعة الشمسُ تضرب من بين الغيوم. يسكن زيميو خارج بيترالاتا بمسافة قليلة، في أحد تلك المنازل على طريق تيبورتينا، خلف المزارع، باتجاه القرية السكنيّة الجديدة تحديدًا «مساكن إنا»[16]، التي كانوا يماطلون ببنائها منذ مائة عام، وحتى اللحظة الراهنة لا يظهر منها سوى نوافذ صغيرة وأسطُح مدبّبة وملاحق.

---

16 «Istituto Nazionale delle Assicurazioni»: "المؤسسة الوطنيّة للتأمينات" التي ساهمت مع الدولة الإيطاليّة بوضع مشروع للإسكان ما بعد الحرب العالميّة الثانية. المترجم.

وصل تومّازو وزوكابّو إلى بيت زيميو وناداياه. كان زيميو نائمًا. فبما أنّ خطيبته، التي من بونتي مامولو، كانت هي وحماته كاثوليكيّتين متديّنتين، اضطرّ زيميو إلى الاستيقاظ مبكّرًا والذهاب إلى بونتي مامولو معهما لحضور الخطبة ميّتًا من النعاس.

ثمّ كان قد عاد، منذ نصف ساعة تقريبًا، واضطجع في سريره ونام سريعًا. فأيقظه تومّازو وزكابّو. «أين الدجاجات؟» سألاه «ألا تعطينا حصّتنا؟»

«أعطيتُ دجاجتين لأمّي» قال زيميو متنفّخًا من شدة النعاس، وقد اكتسى وجهه بملامح غريبة ولونٍ قاتم، «والدجاجتان الأخريان، تركتهما في شارع كازال دي باتزي!»

نظر إليهما وكانت جلدة عينيه تبادر إلى الضحك شيئًا فشيئًا. «بالمناسبة...» قال وانفجر ضاحكًا مثل المعاتيه «بالمناسبة، هل تعرفان ما قاله القسّ في الخطبة؟»

وكاد يتمزّق من الضحك فلم يعد قادرًا على نطق كلمة واحدة. كان الآخران يعلمان أنّه ذهب إلى تلك الكنيسة تحديدًا حيث كانوا يسرقونها قبل ثلاث ساعات، فنظرا إليه والمرحُ يغمرهما أيضًا حتّى تضرّج وجه كلٍّ منهما.

وحين هدأ زيميو قليلًا، أخذ يروي: «قال إنّه في الليلة الماضية سُرِقَت منه ثلاثون دجاجة! قال إنّ اللصوص الكفرة تسلّلوا إلى قنّ الدجاج هذه الليلة، وإنّهم – ويا لأرواحهم الضالّة – نهبوا منه ثلاثين دجاجة، سرقوه وهو الذي يعيش من مال المحسنين! ثلاثين دجاجة، قال، ابن الساقطة!»

أُسعِدَ قلبُ كلٍّ من تومّازو وزوكابّو، ولمعت أعينهما، لأنّ أحدًا تحدّث عنهما في الكنيسة أمام ذلك الحشد الغفير من البشر.

«أوه يا تومّا» قال زوكابّو «هل سمعت؟ نحن أشهر من تينيا!»

«أوه» قال تومّازو «هل نذهب إلى الكنيسة لنستمع؟»

«فلنذهب، هيّا!» قال زوكابّو متحمّسًا.

«هيّا» قال تومّازو لزيميو «تعال معنا أنت أيضًا!»

وهكذا ذهبوا مشيًا على الأقدام إلى بونتي مامولو، ولم يكفهم الإصغاء إلى الخطبة الثانية فحسب، بل والأخيرة أيضًا، خطبة منتصف النهار. وما زال القسّ يتحدّث عنهم، عن أولئك اللصوص، ذوي الأرواح الضالّة، الكفرة السرّاقين، وكيت كيت... ملأوا أسماعهم من الخُطَب فعوّضوا ما فاتهم منذ أن دخلوا الكنيسة آخر مرّة، منذ عشرة أعوام على الأقلّ، منذ المناولة الأولى، بحيث إنّهم ما عادوا يذكرون مَن خلق الكون.

ثمّ أخذهم السرور ليتسكّعوا تحت الشمس الساطعة التي شتّتت الغيوم وصارت تتألّق ببهجتها على بيوت القرية البيضاء المبعثرة في الريف المغسول.

تناولوا الكابوتشينو وحلوى الماريتوتزو تقدمةً من زيميو، في مقهى صغير في شارع سيلمي، يعجّ بالفتية الصغار المتأنّقين بهندام جميل، فبدت عليهم جميعًا نعمةُ الله. لكنّ صبر تومّازينو كان يتأجّج، فانصرف مسرعًا؛ إذ كان لديه ما يقوم به، فهو ليس كأولئك التنابل الذين لا شغل يشغلهم ولا أملَ يحدوهم – مثل زيميو وزوكابّو – الذين لا يصلحون إلّا لعمليّات النصب والسطو، ولا يطلع عليهم نهارٌ إلّا إذا

سرقوا أو ارتكبوا فعلةً شنيعة. أمّا هو فكان يشعر أنّ وجدانه مفعمٌ بالسلام والمسرّة، لدرجة أنّ بطنه تدندن على وقعهما، سعيدًا بما كان سيُقدِم عليه. وهكذا ودّعهما على عجل، وتمنّى لهما فصحًا مجيدًا، واستقلّ الحافلة من القرية، للذهاب إلى غاربانتي، إلى موعده مع إرينه، ملؤه غرامٌ واشتياق.

4 - معركة بيترالاتا

أقبلت العطلةُ فيما كان تومّازو ورفاقه – كاغوني وزيليروني وشاكالو وبوذا وغريشو وكاتزاتيني وزيميو وزوكابّو – مفلسين، فلم يبرحوا من بيترالاتا. كانوا يرتدون ثيابًا جديدة، جميعهم تقريبًا؛ صحيحٌ ولكنْ ما الذي يفعلونه بالثياب الجديدة في وسط روما ما لم يكن في حوزتهم قرشٌ واحد؟ اجتمعوا في الصباح عند المقهى المقابل لموقف الحافلة، بطاولاته التي على الرصيف، وأمضوا الوقت في المشاكسة والتجادل حول مباريات كرة القدم. وحوالي الحادية عشرة، سئم زيليروني وغريشو من البقاء هناك فانصرفا. ولم تخطر في بال الآخرين أيّ فكرة، فظلّوا في المقهى، مسترخيين على المقاعد يلهون بما بين أفخاذهم.

ثمّ حلَّ مكانَ زيليروني وغريشو آخرون: مينكيا، فريغينو، تشانيتو، كابينيرا، نياتشا وغيرهم.

وبالرغم من أنّه أحد أيّام أبريل، كان الطقس أبرد من أعياد الميلاد: السماء غائمةٌ كليًّا، تتخلّلها بعض الخطوط البرتقاليّة هنا وهناك. فبدت المدينة بأكملها تستمدّ الضوء من شمعة واحدة، لكأنّ بيترالاتا بحيرةٌ من طين. غير أنّ الجميع تذرَّع بقدوم الربيع، فارتدوا ملابس جديدة وخفيفة من أقمشة البوبلين، وقمصانًا صفراء أو على

طراز الكوبوي. وثمّة صفوفٌ من الناس تغدو وتجيء، من تيبورتينو وبونتي مامولو؛ ناهيك بزحام المنتظرين الحافلة للتوجّه إلى وسط روما. أمّا أولئك الذين على شاكلة كاغوني وأشباهه، فكانوا في الحضيض، مُعدَمين، بلا ليرة، يتسكّعون في أرجاء قرية الصفيح، متباهين بكنزاتهم الجديدة.

فإذًا، كان كاغوني وأصحابه في المقهى حينما رأوا ثلاثة أشخاص بزيٍّ مدنيّ يتقدّمون في شارع بيترالاتا؛ إلّا أنّهم عرفوا حقيقتهم سريعًا: اثنان منهم شرطيّان، والثالث أحد رجال مخفر القرية، بزيٍّ مدنيّ هو أيضًا. توقّفوا لشراء صرّة فول لكلّ واحدٍ منهم من إحدى البسطات على أعتاب القرية، ثمّ تقدّموا خطوة بخطوة وهم يتناولون الفول باتجاه المقهى.

تهامز البؤساء الجالسون إلى الطاولات، بأعينٍ تعسة أو بتمرير ألسنتهم المتثاقلة على أسنانهم أو بتثاؤبٍ طفيف. وغمغموا: «ماذا هناك؟ ماذا هناك؟ دوريّة؟» كانوا جميعًا أصحاب سوابق، فقد يأتي رجال الدَّرَك لاعتقال أيٍّ فرد من العصابة بلا استثناء. لذا لم يتحرّك أحد، بل تابع الجميع الثرثرة وإلقاء النظرات الماكرة في الأرجاء.

دخل رجال الشرطة بين المقاعد والطاولات، بهدوءٍ تامّ. حملق كاغوني بهم وظلّ جالسًا كما كان، يتساءل بمزيجٍ من التشكُّك والتخوُّف، بينما تلمع عيناه هانئتين بالنظر إليهم: «تُرى مَن سيعتقلون؟ أنا، أم هو أم الآخر؟ لا بدّ أنّهم جاؤوا لاعتقال أحدٍ منّا!»

اقترب رجال الأمن من طاولة العصابة بالفعل، فيما كان الخبر يشيع من حولهم بلمح البصر: الناس الذين عند موقف الحافلة،

النساء اللواتي يجلن في المنطقة لشراء الأغراض، زُمَر الأولاد، زبائن المقهى الآخرين الذين اشتمُّوا الحركة الغريبة بأنوفهم.

تظاهر الحرسُ باعتياديّةٍ تامّة فذهبوا إلى طاولة كاغوني؛ وباعتياديّةٍ تامّةٍ أيضًا وقف أحدهم من هنا والثاني من هناك والثالث خلف مقعده. وكانت الممازحة تطغى على أسلوبهم، وأوّلُ جملة قالوها: «جيّد! منذ زمنٍ لم نلتقِ، ها!»

ظلّ كاغوني يراوح مكانه: بفكّيه الرماديّتين، وخصلات شعره المتدليّة على عنقه وعينه الناعسة. وكان من الواضح أنّ يديه المشبوكتين بعضهما ببعض كانتا ترتجفان.

أمّا الحرسُ فلم يتوجّهوا بكلامهم إليه، إنّما إلى كاتزيتيني، الذي كان بجواره، بل وقد طبطب أحدهم ودّيًّا بكفّه على خدّه. ثمّ التفتوا إلى كاغوني فجأة، وقالوا له، بنبرة هادئة: «تعال معنا، هيّا!»

ظلّ كاغوني مترقّبًا، لأنّه في تلك الفترة تاجر بالممنوعات كثيرًا، وما زال لديه بضاعةٌ في البيت في تلك الأيّام تحديدًا. لذا لم يكد أحد رجال الشرطة يفتح فمه، حتّى انفجر بهم قائلًا: «كلا! لن آتي معكم! لماذا يجب عليَّ أن آتي معكم؟»

وكان قد نهض متحفّزًا، مؤملًا أن يساعده أصدقاؤه بالفرار. وقد بدأ الناس بالتجمُّع حولهم للمشاهدة، وأخذوا يتحادثون: «أوه، ما الذي يجري هنا؟» «يريدون اعتقال كاغوني!» «هذا الغبيّ، أيُسَلِّمُ نفسه بسهولة؟». أحدهم قال كلمة، والآخر قال أخرى، حتى وقعت بلبلةٌ كبرى: «ولكن ماذا فعل؟ ماذا فعل؟» قال أحد الناس لكاغوني بعد أن عاد وجلس شاحب الوجه مثل شمعة: «انجُ بجلدك!» ينصحه. وآخر:

«إيّاك أن تهرب أيّها الأحمق، وإلّا لن يعتقوك أبدًا!»

كان المتجمّعون يحتشدون أكثر فأكثر، لاسيّما النساء: اللواتي كنّ يتجوّلن في المنطقة، فضلًا عن اللواتي يسكنَّ في الأكواخ المجاورة، وخرجن لمشاهدة المعمعة. نسوةٌ بائساتٌ من أهالي قرية الصفيح، ذوات الشَّعر الأشعث، والأردية المنزليّة السوداء، المتّسخة والممرّغة بالدهن، وينتعلن الأخُفَّ بأقدامهنّ.

صاح رجال الشرطة: «تنحّوا! تنحّوا! وسِّعوا! وسِّعوا!» لكنّ النساء تكدّسنّ حولهم، متراصّاتٍ، بل وبدأن بالصياح بأصواتٍ متوسّطة ضدّ الحرس: «ظُلّام! أوغاد! العار عليكم!». صارت وجوههنّ تميل إلى البكاء، تتضرّج وتتجعّد، وشَعرهنّ منسدلٌ على جباههنّ وضفائرهنّ شبه محلولة.

وهكذا، حرصًا على عدم إضاعة الوقت، أمسك شرطيّان بكاغوني كلٌّ من إبطٍ ورفعاه بقوّةٍ في محاولةٍ لجرّه بعيدًا، واقتلاعه عن المقعد حيث تشبَّثَ بأطرافه كالأخطبوط. وكان قائدهم رجلًا متعجرفًا، من نابولي، في الأربعينات من عمره، صرخ بصوتٍ سرطانيٍّ ينبثق من منخاريه: «أفسحوا الطريق! لا تصدِّعوا أيْ**!»

لكنّ كاغوني لم يستسلم، وحاول أن يفلت منهم كالممسوس: وقد تمزّق قميصه وكنزته، وما فتئ يتشبّث بالمقعد، في حين أطبق الشرطيّان على ساعديه، فأخذ يخضُّ بحوضه كي يتسنّى له الخلاص، كأنّ رِدْفه يتلظّى بالنار. وكان أصدقاؤه هناك واقفين، مكتوفي الأيدي. بل تراجعوا خلف الطاولة: ففي تلك النقطة لن يجرؤ أحد على المساس بهم، وهكذا كانوا يراقبون الوضع عن كثب، على بُعد نصف

متر من رجال الشرطة. وفي الأثناء توافد الناس تجذبهم ضجّةُ الشجار. قرابة المائة شخص وقفوا بين موقف الحافلة والمقهى الصغير، ذلك أنّه يوم عطلة، وكان معظمهم يتنزّهون في الطرقات. آثرَ الرجالُ، لاسيّما الشبّان، الوقوف في الخلف بعيدًا عن المشكلة. أمّا النساء فكُنَّ يفتحن الطريق بين الحشد ويتقدّمن، وقد قرّرن أن يُسْمِعنَ أصواتهنّ، تضامنًا مع كاغوني. تمكّن الشرطيّان أخيرًا من إنهاض كاغوني عن المقعد: لكنّه كان ملتصقًا بكلتا يديه بأرجُل الطاولة، فإذا أرادوا جرَّه، عليهم أن يسحبوا الطاولة معه أيضًا. باشرت صاحبة المقهى بالصياح مذعورةً: «ستحطّمون كلّ شيء! ستحطّمون كلّ شيء!»، بغضبٍ متصاعد، والنقمةُ تكوي صوتها، فأخذت النساءُ الأخريات يزايدن عليها ويرفعن صراخهنّ أكثر.

ضاق الحرسُ ذرعًا بتلك العريدة، فقرّروا أن يحسموها. انخفض أحدهم ليقيّد معصمي كاغوني، وحاول أن ينتزع يديه عن أرجُل الطاولة. لكنّ كاغوني انتهز نوبة غضبٍ حيوانيّ، فما إن رأى معصم الشرطيّ قريبًا من فمه، حتّى غرس فيه أسنانه بضراوة.

لكنّه لم ينجح تمامًا، بسبب كُمّ القميص وما تبقّى. نزع أسنانه، وعوج فمه وبصق، ثمّ عضَّ من جديد، أعلى هذه المرّة، عند اليد المشعرة. اقتلع ما استطاع من جلده، وأنفُه يتكشّر فوق أسنانه المكشوفة التي تعضّ ويسيل منها اللعاب؛ إلى أن امتزج اللعاب بالدماء.

جُنّ جنون الشرطيّ من الوجع، فدفع كاغوني بقوّةٍ أزاحته عن الطاولة نهائيًا، فتدحرج الأخير على الأرض مهروسًا ومنتفضًا. لم يتحرّك الآخرون من حوله، وما زالوا يتابعون المشهد بهدوءٍ مطلق.

كاغوني معلّقًا في الجوّ، إذ حمله الشرطيّان كلٌّ من ذراع، وما زال يتخبّط ويرفّس. اضطرّ أحد الشرطيّين اللذين يمسكان به إلى استخدام يده لفتح الطريق، لأنّ الفتية لم يتزحزحوا سنتمترًا واحدًا، والنسوة يضيّقن الحلقة عليهم. فاستطاع كاغوني أن يخلّص نفسه قليلًا مرّة أخرى ليتشبّث بطاولة ثانية، وبطنُه تتمسّح بالرصيف الموحل.

التصق بتلك الطاولة بشدّةٍ أكبر من المرّة السابقة: وإن حاول الشرطيّان أن ينزعا يديه ركلهما بقدميه، بعنفٍ رهيبٍ أودى بكلّ المقاعد أرضًا. وإن ضغطا على جسمه فقدا القدرة على إزاحته عن الطاولة. إلى أن دفعه الشرطيُّ إيّاه بمعصمه المخضّل بالدماء، وأزاحه. فوجد كاغوني نفسه فجأةً مستلقيًا على ظهره الغائص في الطين، مشدود الوثاق من ساقيه.

فراح يتلوّى كسمك البنيّ: وانقلبت عيناه، واصفرّ وجهه حتى بدا أنّه سيلفظ الرمق الأخير ويموت. وكان يصرخ باكيًا أو يكاد: «ماما! أمّاه! النجدة! اتركوني!»

بلغ سخطُ النساء حدَّ الإعياء، وتبدّد النور من أعينهنّ: «ملاعين!» يصرخن. «رفقًا به!»، «اخجلوا من أنفسكم فهو ليس إلّا فتىً مسكينًا!». «هيّا! ابتعدوا! تنحَّوا!» يصيح الحرس بالجمع. لكنّ امرأةً أحكمت قبضتها على ذراع أحد الحرس بكلتا يديها، وشدَّته وهي تصرخ: «دعه وشأنه، أيّها المجرم!»

مرّت حجرةٌ فوق الرؤوس بسرعةٍ قصوى، وتهشّمت على جدار المقهى، فتعاظمت صيحات النساء: «خونة! تتنكّرون لأصلكم!»

تلوّى كاغوني على الأرض، وتمسّك بأرداف الشرطيّين، فكلّما جرّاه خطوتين، انقضّ عليهما يعضّ وينهش فيهما كأنّه كلبٌ مسعور. ما أرغم الشرطيّان على وضع حدٍّ للمهزلة: رفع أحدهم قبضته وانهال بها على كاغوني فأغمي عليه، وحين فتح عينيه بات خائر القوى، لا يقدر إلا على النحيب كأنّه يحتضر: «ماما! النجدة! ماما! أنقذوني!»

لكنّ الشرطيّين استطاعا جرَّه وإفساح الطريق بين الجمع، لكثرة ما صنعاه من ضربٍ ودفع. فقامت النساء بتضييقِ الخناق عليهم، يحفِّزهنّ الرجالُ من الخلف. «اضربنهم! اللعنة عليهم!» تصيح النسوة الأبعد. «رفقًا به، أيّها الملاعين!» تصيح أخريات بنبرة عطوفة «دعوه وشأنه، إنّه يعاني نوبات الصرع!»، «ليس له أبٌ ولا أمّ!»، «يتيمٌ مسكين، ومريضٌ أيضًا!»

«اضربنهم! عليهم اللعنة!» تردّد النسوة الأشدّ حقدًا من الخلف، لأنّهنّ جميعًا كُنَّ أمّهاتٍ لأبناءٍ إمّا في السجن أو مطلوبين أو عاطلين عن العمل منذ أعوام وأحوالهم في الويل.

رفعت إحداهنّ فردة قبقابها وهجمت باكيةً تقرع بها أحد رجال الشرطة. ومن خلفها تشجّعت أخريات وهجمن معًا. وحين رأى الدّرَكُ الموتَ بأعينهنّ، تعيَّنَ عليهم أن يتركوا كاغوني في حال سبيله، إن كانوا لا يريدون أن يتمزّقوا إربًا. ظلّ كاغوني هناك حيث أطلقوه. «لقد قتلوه!» صرخت إحداهنّ بأعلى صوتها. «ينزف دمًا غزيرًا من رأسه!»، «هيّا! فلنقتلهم أيضًا! اللعنة على أمواتكم! سنجبركم على لعق دمائه بألسنتكم!»

صدَّ الحرسُ الهجمة بالأصفاد وهم يصرخون: «توقّفن أيّتها

النذلات! مجنونات! سنعتقلكنّ جميعًا!». حتّى خرج أحدهم عن طوره وصاح: «توقّفن وإلّا أطلقنا عليكنّ النار!»

ومَن كان بوسعه أن يتخيّل ما حدث؟ احتشدت جميع النساء عليهم وأخذن بركلهم وعضّهم. وكُنَّ يدفعنهم من الخلف، من خواصرهم. فسقط أولئك أرضًا مرّتين أو ثلاثة، على رُكبهم أو ظهورهم، بينما كانت النساء من حولهم يدسن عليهم ويبصقن. فلاذوا بالفرار من بينهنّ وهرولوا فركضوا بسرعةٍ أكبر. والنساء من خلفهم يرمينهم بالبلاط والطوب والأخشاب. ثمّة امرأة على قارعة الطريق، تحتضن طفلها بين ذراعيها، جالسةً بجانب دلوٍ معبّأ بالحطب وقد أشعلتْه نارًا.

«احرقيهم يا مصلوبة!» استنجدت بها بعض النساء.

فلم تتلكأ المصلوبة، بل وضعت طفلها جانبًا، وأخذت ترجم رجال الشرطة بالجمر الملتهب. ولم يُشفَ غليلُها بذلك، فأمسكت بكلتا اليدين الدلوَ الذي كان الشرر يتطاير منه، وقذفته على أقدام الحرس، فاستعر الجمرُ على الأرض وأحدث انفجارًا مصحوبًا بهبّة رمادٍ ودخانٍ وأجيج.

وفي الأثناء، ما زال كاغوني ملقىً على الأرض كجثّة، فتح عينًا ثمّ أغمضها، ثمّ فتحها ونظر حوله لامباليًا. كان شاكالو مفرج الساقين فوقه، ينظر صوب مونتيساكرو، وقال كأنّه يحدّث الريح: «اهرب إلى بيتي».

نهض كاغوني شيئًا فشيئًا في خضمّ تلك المشاجرة، وهُرِع برشاقة الثعلب ليندسّ بين البيوت، ويركض في تلك الدروب، ويقفز فوق برك الطين، إلى أن أشرف على الريف نحو ميسي دورو، حيث تسلّق فاصلًا

شبكيًّا، وتوغّل في إحدى المزارع زاحفًا في حقل شمّرة، ووصل إلى كوخٍ صغير، قديمٍ ومتهالك، مثل أطلالٍ بائدة. فيه حوشٌ يغصّ بقمامة الزبل المبعثرة، وعنبران ونافورة: وبجانب البيت القديم، بُني بيتٌ جديد بمثابة مستودع، قبالة النافورة تحديدًا. نبش كاغوني في حفرةٍ تحت النافورة تمامًا، وكانت مثلّمةً ومتّسخة بالسلفات والعلف، واستخرج مفتاحًا، وفتح به باب المستودع المهترئ.

كان شاكالو يعيش في ذلك المكان بمفرده حينذاك، لأنّ والده كان في السجن. مطبخٌ كبيرٌ متّسخ بأكمله، وفيه سريرٌ صغير ودُرج وراديو، وأعقاب السجائر متناثرة هنا وهناك: وعلى الدُّرج علبةُ تبغٍ كانت لوالد شاكالو. أمّا على الحائط ثمّة سيجارة، وطنيّة، معلّقة بمسمار، حيث ثبّتها هناك أحدُ رفاق شاكالو حينما أقسم الأخير على الإقلاع عن التدخين. في الزاوية الأخرى هنالك مجفّفُ غسيل وطاولةُ نجارة والمشابكُ مثبّتةٌ على جوانبها وفوقها أغراضٌ من شتّى الأنواع. وعلى الجدار، قرب الباب، ثمّة غسّالة صغيرة، والملابس فيها مغموسة بالماء، لأنّ شاكالو كان يغسل ثيابه بنفسه.

دخل كاغوني والتقط أنفاسه، واتّجه بسرعة ليبحث عن شيء يأكله: لكنّه لم يجد شيئًا. فاستلقى على السرير ووضع عقب سيجارة في فمه، وانتظر.

جاء شاكالو بعد قليل، حاملًا صرّة من اللحوم المجفّفة وشطيرتين أو ثلاثة. وراحا يلتهمانها كالموتى من الجوع في أثناء حديثهما عن كلّ ما جرى. ووصل أصدقاء آخرون حوالي الثانية ظهرًا. وبما أنّ القاعدة في تلك الأرض تنصّ على أنّ ما حدث قد حدث، ومَن يتراجعْ فما هو

إلّا جبانٌ رعديد، سرعان ما تناسوا الأمر وهبّوا إلى ورق اللعب المتفتّت الذي كان لوالد شاكالو.

بعد الظهر، الشمس مبهرة، وأصوات الراديو الذي يبثّ المباراة تنتشر هنا وهناك. أولاد القرية، بثياب سوداء، ثياب العيد، يلعبون بالباحة تحت السقائف العفنة والمكنوسة كيفما اتّفق، والدمى بين أذرعهم، وكانوا مع معارف لهم، صغار أيضًا، يعملون في المزارع المحاذية لبونتي مامولو. وكان هناك جنوبيّون أيضًا، أجلاف وبؤساء يعملون تحت تصرُّف الفلاحين بأجور بخسة، يقضون العطلة هناك، ويدردشون على الطين.

الرفاق في مطبخ شاكالو مندمجون بلعبة زيكينيتا، فإذا بهم يسمعون صوتًا من الخارج: «كاغووووا!»

كان كاغوني بلباسه الداخليّ، لأنّه كان يخيّط بنطلونه الذي اهترئ، ممسكًا بالدبّوس بين أصابعه، بينما يلعب الآخرون الورق.

«ينادونك في الخارج يا كاغوا!» غمغم شاكالو. ذهب كاغوني إلى الباب، والبنطلون بين يديه، وفتح ببطء وهو يفكّر: "والآن، مَن جاء ليصدّع أيْ**؟!"

أطلّ برأسه فرأى واحدًا لا يبدو وجهه مألوفًا؛ فأراد أن يغلق الباب بسرعة وهو يقول لنفسه: "من وشى بي يا تُرى؟!"، لكنّ الشخص وضع قدمه بالباب، وأمسك بعنق كاغوني وجرّه نحو الخارج. وهناك سدّد له لكمةً على رقبته فجعل رأسه يرتطم بطرف الباب. هوى كاغوني مغمىً عليه، حقًّا هذه المرّة.

وصل الشرطيّان الآخران في الأثناء، اقتاداه بسهولة إذ كان وقد

خارت قواه يترنّح من جهة إلى أخرى. سحلاه من إبطيه فوق الطين والعلف، على مرأى الأولاد الذين سكتوا، كأنّهم لم يروا شيئًا، ووضعاه في الشاحنة الصغيرة.

*

في الثالثة ليلًا، كان زيميو نائمًا في بيته. كان غارقًا في النوم حين سمع طرقًا عنيفًا على الباب. وكان في منتهى النعاس حتى إنّه استصعب فتح عينيه، كأنّهما مخيَّطتان بالإبرة. «اللعنة على أمواتهم!» كان يفكّر متذمّرًا. وبما أنّه كان تحت المراقبة القضائيّة مدّة عام، توجَّب عليه شخصيًّا أن يقوم ويفتح الباب، فإذا بالشرطة على الأعتاب.

رفع رأسه عاليًا وكان يوشك على التقيّؤ. اصفرّ وجهه كالموتى، كأنّ دماءه كلّها قد تجمّعت في أسفل جسمه، وشعرُه على مسام جبينه المحمرّ والمتجعّد كجباه العجزة. نهض متأرجحًا وهرع إلى الغرفة الضيّقة، نحو الستارة التي تقسم الوكر الذي يسكن فيه مع والدته وأخته إلى قسمين. استيقظت هاتان أيضًا، على الفُرُش الموضوعة بجانب فراش زيميو، وكانتا تنظران بأعين جاحظة. لم يكن لديهم ضوء: يستمدّون القليل منه ممّا يتسرّب عبر النافذة التي في الحائط الخشبيّ. وفي الخارج ما زالوا يطرقون على الباب كالممسوسين، حتى كاد يُخلَع بسبب اهترائه أساسًا. «ارتدِ ثيابك أيّها الخنزير!» يصرخون عليه. لكنّ زيميو كان مشدوهًا كالأخطل، لا يستر جسمه سوى سروالٍ داخليٍّ رخوٍ ورخيص.

«لماذا؟ ما الذي حدث؟ ماذا فعلتُ؟» كان يسأل وهو يبحث عن لباسه وحذائه، بين الطستين المبعثرين على الأرض. «هذه المرّة لا

وقتًا نضيِّعه! ارتدِ ثيابك واخرج إلينا!». «إنّي ألبس!» قال زيميو. وجد بنطلونه، فارتداه على مرأى والدته وأخته الفزعتين، وقد جلس ثانية على فراشه القذر. كان يلبس مرعوبًا، وخلفه الحائطُ الخشبيّ المكسوّ بورق الجدران الذي تظهر فيه رسمةٌ لعربيّين وجملٍ يحطّان الرحال بجانب واحة.

حاول الذين في الخارج خلع الباب. ذهب زيميو ليفتح والحذاءُ بيديه. ولأنّ الغسيل كان منشورًا على امتداد المطبخ الضيّق، في الجانب الآخر من الستارة، وكان زيميو يمشي دون أن يبصر أمامه، اصطدم بأرجُل الحوض الممتلئ بالماء المتّسخ، فأوقعه أرضًا. ففتح الباب وهو يجدِّف، وكاد يسقط مغمىً عليه هو أيضًا.

كان رجال الشرطة أربعة أو خمسة، مسلّحين جميعًا، بكامل عتادهم، يعتمرون الخوذ المعقودة على ذقونهم، بعضهم يحملون البنادق على أكتافهم وآخرون بين أيديهم. تراجع زيميو بضع خطوات إلى الوراء مذعورًا، شبه ميّت من هول ما رأى، حتى صار وسط المطبخ النتن أمام الفرن القديم والكبير الذي تعتليه جرّةُ الغاز، وظلَّ هناك محبوس الأنفاس. دخل العناصر وبنادقهم مصوَّبة، وألقوا نظرة خلف الستارة، على المرأتين اللتين وقفتا في تلك الأثناء. ثمّ دفعوا زيميو وقالوا له: «تعال معنا!». انحنى زيميو صامتًا ليعقد أربطة حذائه، بل فردة حذائه، لأنّ الفردة الأخرى ما زالت هناك على الأرض، بجانب الحوض المقلوب.

لكنّ الرجال لم يضيّعوا وقتهم في انتظاره، بل أمسكوا به، اثنان من هنا واثنان من هناك، وحملوه من إبطيه، بينما كمَّم الخامس فمه.

وجرُّوه إلى خارج الكوخ، فيما كانت أمّه وأخته من خلفه، شبه عاريتين، يحملان الفردة الأخرى ويصرخان بصوتٍ باكٍ: «فردة الحذاء! فردة الحذاء!»

جرّوه إلى المسقوفة المجاورة، بأرضيّتها الطينيّة، وفيها أربعُ ألواح معلّقة على الحيطان وقطعةٌ خشبيّة، وسقفُها من صفيحة معدنيّة، وتحتوي على خِرَقٍ وحدائد وأدراجٍ بالية وأربعة إطارات سيّارة قديمة، ولحافٍ ملطّخ بروث الكلاب، وقرابة اثنتي عشرة قطعة قرميد متكدّسة، وخزّان مياه محطّم: هذه هي كلّ ثروة عائلة زيميو. جرُّوه من هناك، ثمّ على امتداد الوحل في الدرب.

في أرجاء قرى الصفيح الأخرى، كان هناك ما يقارب الأربعين عنصرًا من قوى الأمن، بكامل عتادهم: الخوذ وأحزمة الخراطيش والبنادق. منهم مَن يطرق أبواب الأكواخ، خلف المزارع، ومنهم مَن يعتقل الشبّان وبعض النساء أيضًا. وآخرون يسلّطون الكلاب في المزارع، تحسُّبًا إن كان أحد المطلوبين قد فرّ من نافذة خلفيّة؛ وآخرون يضيئون المحيط بالمشاعل اليدويّة. الكلاب تنبح بأعلى صوتها، والنساء يصرخن داخل البيوت والملاحِق.

كان بوذا نائمًا أيضًا في سلام، بثيابه لأنّه كان متعبًا، ففي المساء كان قد عبَّ من الخمر كثيرًا. كان بلباس العمل، والطاقيّة على رأسه على الطريقة النابوليّة، بحيث تغطّي الحاجبين، وشعره منتصب كأشواك القنفذ. هكذا كان نائمًا، في سريره الكبير، ذي الأرجل، مستلقيًا بالطول، مع زوجته وولديه. ووالدته نائمة على الفراش الآخر المبسوط على الأرض.

كان يقطن في كوخٍ بجانب التجمّعات السكنيّة، عند أوّل الريف باتجاه نهر الآنييني، منطقة ميسي دورو. ليس في أرضيّة بيته بلاطٌ، لأنّهم باعوه. وفي الغرفة الكبيرة ليس هناك سوى ذينك السريرين، أحدهما على حائط والآخر على الحائط المقابل، ومقعدين لنشر الغسيل، ولا شيء غير ذلك. كلّ خطوط الضوء مقطوعة، وهناك شمعدانان على الكراسي المجاورة للأسِرَّة، لأنّهم ما زالوا يعيشون على ضوء الشموع.

دهموا بيتَ بوذا مباشرة، فالباب كان مفتوحًا. بمشاعلهم، وبنادقهم المسدَّدة، طرحوا سؤالًا: «هل فرجينيو بوستيليوني يسكن هنا؟». أفاق بوذا، فرك عينيه، رفع طاقيّته وأخفضها مرّتين أو ثلاثة وحرّكها على رأسه ثمّ أعاد وضعها على جفنيه، فلكي يبصر ينبغي له أن يرفع ذقنه عاليًا. «لا» قال «هنا لا يسكن بوستيليوني. إنّما جوفانّي دي سالفو...». «زوجتك، ما اسمها؟» سألوه وهم يوجّهون كلّ أسلحتهم نحو زوجته.

«تيريزا سبيتزيكيني» قال بوذا «مَن تبحثون عنه ليس هنا، ليس هنا!». «ماذا؟ ماذا قلتَ اسمَك؟» سأله ملازمٌ شابّ. «جوفانّي دي سالفو» ردّد بوذا. نظر إليه الملازم قائلًا: «تعال، تعال أنت أيضًا!». «لماذا؟» ردّ بوذا بنبرةٍ ناعسةٍ وبريئة. فإذا بعنصرين يحملانه كلٌّ من جانب، فأذعن بوذا. التفت نحو زوجته، وكانت تشاهد ما يحدث له، هي والطفلان إذ استيقظا. وقال لها: «ليلة سعيدة يا عزيزتي!»

وأمام بيت بوذا، المحاذي لآخر التجمّعات السكنيّة في القرية، كان هناك فرقةٌ كاملة من الشرطة والكلاب والمشاعل والبنادق والشاحنات الصغيرة.

زوكابّو الذي كان يسكن في الماضي في شنغهاي الصغيرة مع تومّازو وليلّو والآخرين، كان آنذاك يسكن في وسط بيترالاتا بالضبط، بالتجمّع رقم 2، في أحد الدروب الموازية للشارع الرئيس الذي يمتدّ إلى آخر القرية. حتّى زوكابّو كان تحت المراقبة. كان نائمًا. وحين طرقوا الباب، اضطر هو أيضًا ليفتح شخصيًّا، مترنّحًا من شدّة نعاسه وتوقه للنوم، بنصف ثيابه. فتح الباب واقتحمت الشرطة منزله. دخلوا لكنّهم لم يستطيعوا التقدّم أبعد من المطبخ. إذ كان هناك فاصلٌ من ستارة قديمة تحُل محلّ الباب. تجمّعوا هناك، وبنادقهم مسدّدة نحو برميلٍ يشبه ما يُشوى عليه الكستناء، حوضٍ مليء بالثياب المتّسخة، وطاولة مكتظّة بمرطبانات الطماطم، وخوانٍ ذي واجهةٍ من الزجاج الأحمر والأزرق مطوَّقةٍ بما يشبه رقعة الشطرنج. ليس باستطاعتهم التقدّم أكثر من ذلك، لأنّ ما خلف الفاصل مساحةً لا تتجاوز أربعة أمتار مربّعة، وفيها ثلاثة أسِرَّةٍ بالطول وفراشان وسرير معدنيّ كبير، بحيث إنّها تُشكّل سريرًا واحدًا، بعقدة شراشف وأغطية نتنة.

ينام في ذلك المكان قرابة العشرين فردًا: والد زوكابّو ووالدته، وجدّته، وشقيقاته الخمس، وقبيلة من إخوته الصغار. أطلّ أحد الضبّاط برأسه إلى الغرفة، وألقى نظرة إلى حثالة الشحّاذين شبه العراة، الذين كانوا هناك مسفوحين كالحشرات ينظرون إليه.

«أنتما الاثنتان!» قال الضابط مشيرًا إلى فتاتين في السابعة عشر عامًا، وقد تشعّث شعرهما «انهضا!»

نظرت إليه الفتاتان مرعوبتين وهما جالستان على الفرش. تقدّم زوكابّو وهو يقول: «كيف؟ لماذا؟ ما الذي حدث؟ كيف تسوّل لكم

أنفسكم؟»

«هيّا، أنتما الاثنتان!» قال الضابط.

أمّا زوكابّو فقد جرّوه إلى الخارج عبْر المطبخ الصغير، يحمله كلٌّ من ذراع، واقتادوه من خلال الملحق المجاور المكتظّ بالمهملات. وثبّتوه هناك، عند أحد الدروب التي تتقاطع من هنا وهناك بالشارع الرئيس. تمَّ تمشيط كلّ البيوت القريبة وقلَبَ رجالُ الشرطة عاليها أسفلها. وكان من بينهم أربعةٌ هنا، وعشرةٌ هناك، لم يرهم أحدٌ إطلاقًا مجتمعين يصولون ويجولون ويلقون الأوامر. وكانت أضواء المشاعل تومض على الجدران المحطّمة، والخِرَق القماشيّة الملطّخة بالزفت، والصفيح المتدلّي من الأسقف، والحيطان المقشَّرة، والأعمدة، والأفنية البائسة. الكلاب تنبح كمن تلبَّسَه الجنّ، والصياح والتجديف والأوامر تدوّي في كلّ مكان. بعد أقلّ من دقيقتين من تثبيته من ذراعيه هناك، رأى زوكابّو شقيقتيه تخرجان بين رجال الشرطة، شبه عاريتين، تنتعل كلٌّ منهما حذاءها كما لو كان خفًّا، والجوارب متدليّة، وشعرهما مهمَل. وكانتا تبكيان. «ولكن، ما ذنبهما؟ ماذا فعلتا؟ دعوهما وشأنهما!» كان زوكابّو يصرخ. دفعوه وجرّوه ولم يأبهوا بتوسّلاته؛ بينما كان الآخرون يجرّون شقيقتيه. وهكذا قطعوا بهم مائة متر، عبْر أزقّة ضيّقة غارقة بالوحل تارةً ومعبَّدةً بحجر الطقّة تارة أخرى، تحت حبال الغسيل، وبين الأسوار المهدّمة. وكانت الفوضى تعمّ الأرجاء. إلى أن دلفوا الشارع الرئيس، الممتدّ من المقهَى الصغير قبالة موقف الحافلة وحتى أسفل الكنيسة.

الشارع محاطٌ من جانبيه بفوجين من سيّارات الجييب، قرابة المائة سيّارة في كلّ جانب، مصفوفة كأنّها في مرأب، واحدة خلف الأخرى

من طرف الشارع وحتى طرفه النقيض. ودوريّات فصائل الشرطة تروح وتغدو في كلّ مكان، فإمّا يسحلون أحدًا، أو يذهبون لاعتقال أحد آخر، والبنادق على أكتافهم والكلاب رفقتهم. أصعدوا زوكابّو على متن شاحنة، وشقيقتيه على متن أخرى. وصاح ملازمٌ: «اشحنوا أكثر ما استطعتم، واحملوهم بعيدًا!»

وما لبث زوكابّو يصرخ بكلمة لشقيقتيه ويودّعهما، حتى انطلقت الشاحنة التي تحملهما، متبوعةً بسيّارة ألفا بأضوائها المبهرة.

كانوا يشحنونهم من كلّ زاوية، على متن الشاحنات وسيّارات الجييب والعربات الحمراء، وسيّارات المائة ألف، بل وحتّى في سيّارات الألف وتسعة. يشحنونهم وينطلقون بهم. وكلّ عربة تسلك طريقًا مختلفًا، ربّما كي لا يتنبّه الناس في العشوائيّات المجاورة إلى ما يجري.

ثمّة أربعة حواجز تفتيش، مكوّنةً من سيّارات جييب مصفوفة على مداخل القرية الأربعة، باتجاه مونتيساكرو وباتجاه تيبورتينا. وصفّان آخران من الجييب، طويلان كالفوجين على جانبي الشارع الرئيس، كانت موزَّعةَ بين هنا وهناك في قرية الصفيح، ومتمركزة خلف المزارع.

زوكابّو رأى زيميو في شاحنته وكان بفردة حذاء واحدة؛ وكانت أمّه وأخته في أسفل تلوّحان بفردة الحذاء الأخرى، وتحاولان تمريرها إليه، لكنّ الدَّرَك كانوا يبعدونهما إلى الخلف، وسط معمعة من النساء والأولاد في نحيبٍ وبكاء.

«فردة الحذاء! فردة الحذاء!» تصيح والدة زيميو. «إيييه، سيتدبّر أمره بدونها هذه الليلة، سيذهب حافيًا!» يجيبها شرطيٌّ نابوليتانيّ.

غير أنّ زيميو أصابه الخرس من شدّة غضبه وتجهُّمه. إلى أن مرَّ ضابطٌ من هناك، ورأى المرأتين تحاولان الاقتراب لإعطاء الفردة لزيميو، فاجتاحته نوبة غضبٍ فصرخ: «خذوا هاتين أيضًا، واشحنوهما بسرعة!»

ألقي القبض عليهما واقتيدتا إلى شاحنة أخرى في الأمام، وهما شبه عاريتين، أمًّا وابنتها. فتهيّأ زيميو، واللعاب يسيل من فمه، للقفز من حافة الشاحنة والانقضاض بقدميه وأنيابه على الشرطة، لكنّ الآخرين الذين كانوا على المتن أوقفوه. «ما بك أيّها الأحمق؟ أترمي بنفسك إلى الهلاك؟ ألا ترى ما الذي يجري هنا؟»

ولكي يعدِّلوا مزاجه، أروه كاتزاتيني الجالس ذليلًا على أحد مقاعد الشاحنة. كان عاريًا كليًّا إلّا من سروالٍ بنيّ سميك، مدموغًا بختم الإعانة البابويّة.

وكانت سيّارة الفهد متمركزةً خلف كلّ العربات التي تغادر من هناك، بأضوائها المبهرة لإنارة الداخل: في الشاحنات خمسة عشر دركيًّا لكلّ عشرة موقوفين. لكنّهم كانوا ينيرون الطريق خلال المسير في أحياء القرية، خشية أن يقفز أحدهم ويلوذ بالفرار.

وفي خضمّ تلك الزحمة، والأضواء الكاشفة ودوريّات النمور[17]، بدا أنّ القرية تحيي حفلةً كبرى، لا ينقصها سوى الألعاب الناريّة.

كاتزاتيني يرتعش بردًا ويلتزم الصمت. «أوه، جاءت قريبتك» قال له شاكالو الذي ألقي القبض عليه وهو في كامل هندامه بينما كان عائدًا من روما.

---

17 سيّارة الفهد والنمر مسمّيات شعبيّة لسيّارات المهمّات الخاصّة والتدخُّل السريع والمطاردة لأجهزة الشرطة وقوى الأمن الإيطاليّة. المترجم.

أقبلت قريبته نصفَ عارية لتعطي كاتزاتيني سترة: «خذ وارتدِ هذه السترة!» صرخت وهي تمرِّرها إليه بنجاح، وقد انتهزت لحظة شرودٍ استبدّ بأولئك الدَّرَك المساكين الذين كانوا مشدوهين وسط تلك البلبلة. ثمّ جاءت زوجته بعد قليل. كانت تندب وتولول، وهي تفتح الطريق بين الحرس؛ وتحمل على صدرها ثيابًا وتركض، وتركض. «توقّفي، توقّفي!» صاح زيميو والآخرون إليها. «توقّفي وإلّا اعتقلوكِ أنتِ أيضًا!». ولكن عبثًا. تقدّمت إلى أسفل الشاحنة وأعطت الثياب لزيميو، وهي تشهق وتزعق: «خذ يا ماريو، خذ!». «عودي فورًا» صاح بوجهها «عودي إلى البيت أيّتها الحمقاء، فالطفل في البيت! مَن سيعتني به؟!»

دنا منها بعض العناصر وسألوها اسمها وكنيتها؛ فصاحت ويداها مضمومتان على صدرها الهزيل: «لقد أتيتُ لأعطي الثياب لزوجي لأنّه كان عاريًا!». «مَن كان عاريًا؟ مَن كان عاريًا؟» قالوا «هيّا، تعالي أنتِ أيضًا!». أخذت تملص من بين أيديهم وتنتفض غاضبةً. «اتركوني، اتركوني!» تصيح «فطفلي الصغير في البيت!». «اتركوها» صاح المحتَجزون في الشاحنة «فطفلها في البيت وعمره أربعة أشهر فقط!». «سنعتني نحن بالطفل!» أجاب الحرس، واقتادوها وهي تتهاوى أرضًا ويغمى عليها، وشحنوها بسيّارة جييب.

وكان الضابط، الذي جاء في الظهيرة مع الشرطيّين للقبض على كاغوني، كان آنذاك يؤشّر على بيوت النساء اللواتي أشعلن كلّ ذلك الهرج والمرج: كان عجوزًا مقزِّزًا يشرب لترين من الخمر يوميًّا، له صوتٌ أجشّ يصدر من منخاريه. كان يؤشّر على البيوت، فيقتحمها رجال الأمن، ويلقون القبض على ربّات الأُسَر، والفتيات اللواتي في مقتبل

العمر، وبائعات الهوى العجائز.

تخرج النسوة وسط البنادق والكلاب، والمشاعل تغشي أبصارهنّ. فيتمّ تجميع بعضهنّ، فيما تُرسَلُ بعضهنّ إلى قسم الشرطة المركزيّ في ساحة نيقوسيا. وأخريات يصلن تباعًا، من كلّ حدب وصوب، مذعورات كأنّهنّ محكوماتٌ بالموت أمام فرقة تنفيذ الإعدام.

وكانت جدّة شاكالو تتمشّى بمنتهى الرويّة بين أولئك الرجال المسلّحين، وبدت أنّها أصغر عمرًا، كحشرة البقّ، كدودة، ويداها مضمومتان كأنّها تصلّي، تجول بعينيها السوداوين، تشعر بالحياء كأنّها تطلب المعذرة من الآخرين، مثل صبيّة صغيرة. كانت تمشي وهي تسحل خفّيها على الطين، بثوبها الأخضر، وشعرها الشائب والكثيف، مسرِّحةً إيّاه كيفما اتّفق، ليطوّق وجهها الأسود كالفحم، تتبسَّم بفمها الذي بلا أسنان، كما لو أنّها في مسيرة.

وفي وسط دوريّة أخرى، برزت آنّا، التي تعمل شيّالةً في السوق، أمٌّ لسبعة أولاد هائمين في الأرض. هذه المرأة كفءٌ حقًّا. كانت تضع أحمر الشفاه حتى تحت أنفها، وتتجمّل بالمساحيق التي تسيل مع العرق على وجهها؛ كما أنّ أسنانها منخورة وصفراء ومتّسخة على الدوام؛ لكنّها كانت منكوحة شهيرة، وعيناها مطوّقتان دومًا بهالة زرقاء تحت الشعر المصبوغ بكلّ الألوان، إذ كانت غالبًا ما تغيِّر الصُبغة، ففيه الأسود والكستنائيّ والأشقر والأحمر، وكلّه محروق حتى لَيبدو مثل زغب الألمانِ أو مُشاقة اللِّحام.

فمن كان سيصدّ واحدةً مثلها إذا أحسَّت بالخطر على فلذات كبدها! كانت تجدِّف كاليهود، وتشتم الحرس الذين يلقون القبض

عليها: «يا ذوي القرون! اللعنة عليكم وعلى كلّ القرون المركّبة على رؤوسكم! يا لصوص الخبز! اذهبوا وانكشوا في البساتين أيّها المحرومون! اذهبوا وفتّشوا عن زوجاتكم الشراميط! اذهبوا هيّا، هيّا!»

وكان خلفها دَرَكٌ آخرون يعتقلون والدة ناتزارينو. حتى هي لم تتمكن من ارتداء ثوبها: كانت تمشي باكية، وشعرها الأملس قد تشعّث وتناثر على عنقها، وتدلّت ملاقط شعرها فتساقطت من كلا الجانبين. كان وجهها ممتلئًا لكنّه شديد الشحوب، وأسفل عينيها هالاتٌ سوداء. وكان ثوبها ممزّقًا من قدّام، حتى فقد جزءًا منه، لأنّها كانت مبلّلة دومًا من كثرة الغسل، وتفركُ جسمها بالمغسلة والصنبور وأشياء أخرى. وهكذا كان بطنها ظاهرًا، بكنزة عسكريّة داخليّة. وقد سترت كتفيها بسترة صوفيّة حمراء مدعوكةً برمّتها، تصل إلى منتصف ظهرها. فكانت بتلك الحال المزرية تتقدّم بين رجال الشرطة وهي تجهش باكية بأنفاس مقطوعة.

وخلفها، من هنا وهناك، وسط الدَّرَك، ثمّة كثيرٌ من النساء الأخريات، شابّاتٍ وعجائز، اعتُقِلن من كلّ بيوت القرية. واحدةٌ تعترض، وأخرى تبكي، تتشح بالخِرق البالية، كأنّهنّ حيوانات قد انتُشِلَتْ من الجحور.

كانت الليلة توشك على نهايتها. وخيوط الفجر تتبدّى فوق سان بازيليو، وعلى الغيوم، البنفسجيّة، والسماويّة، ذات الأطراف باهتة اللون، فيُخيَّلُ أنّ النهار عوضًا عن الإشراق كان في غروب. ثمّ بدأ الجوّ يُدمَغ بالضوء شيئًا فشيئًا، والضوء يلتصق بكلّ شيء، ولكنْ من دون شمس. كان ضياءً سمجًا وهشًّا، يربض على الوحل، وعلى الوجوه

المنهكة، وعلى الأضواء التي ما تزال مشتعلة.

حتى رجال الشرطة أخذوا ينصرفون تباعًا: باتت سيّارات الفهود والنمور تتجوّل بتردُّدٍ أقلّ، كما تناقصت أعداد الشاحنات الكبيرة، بينما كانت الشاحنات الأخرى شبه خاوية، وسيّارات الجييپ أيضًا، بمجموعاتٍ لا تربو على ثلاث سيّارات أو أربع، تلك التي في الصفوف الخارجيّة أوّلًا، وخلف المزارع، ثمّ تلك التي في الصفوف الممتدّة على جانبي الشارع الرئيس في القرية، انطلقت كأنّها تجدِّف بالآلهة.

كان بعض العناصر يقومون بآخر حملات التفتيش، وكادوا يموتون من النعاس؛ فإذا بفتى في شارع فيرونيا، كان قد نهض ليذهب إلى عمله، وهو يحمل زاد الطعام بيده، فاستوقفوه وجرّوه بعيدًا. فبكى وصرخ: «ولكنْ عليَّ الذهاب إلى العمل!»

«ستأتي معنا الآن» أجابه الدَّرَك، وهم يشهقون أنفاسهم من التعب أيضًا.

«مفاتيح المستودعات بساحة فيتوريو في حوزتي» ردّد الفتى باكيًا، تحت ضوء الشمس المبتهجة «لن يعمل الآخرون ما لم أفتح لهم الأبواب»

«لا تشغل بالك!» قالوا له، وشحنوه في إحدى سيّارات النمور.

أضحت الشمس في العلا، ترسل أشعّتها لتضيء بيترالاتا التي بدت كما كانت عليه في زمن الحرب. حيطان البيوت صامتة، فالحيطان تصمِت أيضًا. لكنّ عجلات السيّارات وأقدام أولئك الملاعين الذين ساروا طوال الليل ذهابًا وإيابًا، ما زالت آثارها منقوشة على الأرض الموحلة.

*

كان تومّازينو غائبًا طوال الحملة. لم يكن يعرف شيئًا عمّا جرى. لأنّه منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع، منذ أن كان مع إرينه، وتركها في غاربانتي، استوقفه صديقه بائع السمك الذي يدعى سيتيميو، وأنزله في بيته. وبما أنّهما كانا مفلسين، في الحضيض، ذهبا معًا إلى روما لقضاء يومٍ كامل في البحث عن أجانب.

وعندما عاد إلى القرية، وحيدًا، كانت الشمس تُبدي كلّ نواياها في الغروب، داخل فراشٍ رماديّ من غيومٍ صغيرة ومشتّتة، بعد أن تألّقت على الوحل طوال النهار رغمًا عنها.

لم تُشعَل الأضواء بعد في القرية، لكنّ الوقت كان يقترب. وكان السكون والهدوء يخيّمان على الأرجاء كلّيًّا.

كلّ امرئٍ منكبٌّ على مشاغله، في البيت أو في تلك المداخل الضيّقة. كانت النساء إن تكلّمن تحدّثن بصوت خفيض، عبْر النوافذ وعند النافورة، كأنّ قريبًا لهنّ قد مات. لا حياة في الحانة، والستار المعدنيّ مغلقٌ على نصفه.

كان تومّازينو وأولئك الذين نزلوا معه من الخطّ 211 حوالي الرابعة، الرابعة والنصف، ولم يكونوا على دراية بشيء، كانوا ينظرون حولهم بأشداقٍ فاغرة مشدوهين، ويتناوبون النظر إلى وجوه بعضهم بعضًا.

اتّجه معظمهم إلى بيوتهم بسرعة وهم يتخيّلون أفظع المآسي؛ لكنّ آخرين توقّفوا ليسألوا في الطريق عمّا حدث. وكان تومّازينو من بين هؤلاء. وما لبث أن أدرك الموضوع. «إنّها النهاية!» فكّر وساقاه ترتجفان

«إن كانوا يبحثون عن كاغوني، فلا بدّ أنّهم بحثوا عنّي أيضًا!»

غشى عينيه ما يشبه الضباب، وأخذت رأسه بالدوار، وكان يشعر بوجود قطعة فولاذ في باطنه.

ركض نحو البيت ولم يعرف إلى أين كان ذاهبًا. لم يكن يرى ما حوله: واجهات المباني الكئيبة، برك الماء، بلاط الرصيف المتكسّر، الناس الذين يتحادثون حوله، وقد أحرقهم البرد، بجلودهم البيضاء المشدودة، وشالاتهم المتّسخة والملفوفة على أعناقهم.

لم يكن يفكّر إلّا بتلك الكلمات نفسها: «إنّها النهاية!» ولا شيء سواها، كمن اختلّ عقله. بتلك الفكرة التي لا تفارقه، وصل راكضًا إلى تخوم شنغهاي الصغيرة. لم يكن يعود إلى البيت في تلك الساعة قطّ، ومن يدري منذ متى: هو نفسه لم يكن يذكر. ربّما منذ أن كان فتيًّا، حين كان يعود من المدرسة.

كان يتوقّف بالعادة في القرية مع الأصدقاء: كاغوني طبعًا، وزيميو وزوكابّو وليلّو والآخرين. وإن كان هؤلاء غير موجودين توقَّفَ مع غيرهم ممّن يعرفهم مجرّد معرفة. كان يجلس في الحانة، حتى لو كان مفلسًا، دون أن يضيّع شيئًا، لا بأس فصاحب الحانة يسمح له بذلك. أو كان يبقى في الطريق، لاسيّما إذا كان الطقس صحوًا. لم يكن يعود إلى البيت إلّا باكرًا، ليأكل لقمةً بعجالة، ويخرج ثانيةً؛ أو يعود في وقت متأخّر جدًّا من الليل، إذ تترك له والدته إناءً من الحساء البارد وكسرة خبزٍ على الطاولة.

كان يعتريه انطباعٌ غريب حينما يعود في تلك الساعة، إذ إنّه يميّز – إبّان الغروب – أشجار اللوز والدرّاق اليابس في المزارع، وأعواد

القصب؛ وبعدها يأتي جسر مجاري الصرف، فوق نهر الآنييني الذي يجري متجمّدًا ومظلمًا.

يداه في جيوبه، عبْر المسالك التي تتفجّر فيها قشرة الوحل مِن وقْع خطاه، لتستحيل طينًا زلقًا بحيث لا يمكن المشي عليها، سار تومّازو في الطريق كلّها للوصول إلى شنغهاي الصغيرة، مثل العميان.

وكانت شنغهاي الصغيرة القابعة في أسفل المنحدر الطينيّ ذي الأحشاء المجوَّفة، تتعذّر رؤيتها من شدّة القتامة والفوضى في ذلك المشهد الموحل.

كانت ترزح هناك، متوارية، عند منعطف الطريق الذي يوازي انعطاف النهر: كأنّها حفرةٌ غائصة في ظلامٍ مكين، بينما الضفّة الأخرى للنهر، حيث الحقول الممتدّة، تتخلّلها بعض البيوت الصغيرة هنا وهناك، باتجاه بونتي مامولو، كانت غارقة في نورٍ أصفر مريب، كأنّما تحاصرها أضواءٌ كاشفة بعيدة.

«سأصل إلى هناك» كان تومّازو يفكّر محبطًا «فإن رأيتُ أنّ الأمور تنحو منحىً سيّئًا، تدحرجتُ على هذا المنحدر صوب النهر، ورميتُ نفسي بين أعواد القصب، ولن يراني أحد! سيكون مجرّد حمّامٍ بسيط! أصل إلى الضفّة الأخرى، ولن ينال منّي أحد! إنّهم يحلمون بالإمساك بي! فليمسكوا بأيري إذن!»

إلّا أنّ الساحة المركزيّة لشنغهاي الصغيرة، التي تتكوّن من قرابة الثلاثين كوخًا، بعضها من خشب وبعضها من قرميد، كانت خالية إلّا من قلّةٍ من الأولاد الذي يلعبون وقلّة من العجائز اللواتي يثرثرن، وأقدامهم جميعًا غائصة في الطين.

الأجواء هادئة، حتى في بيت تومّازينو: كانوا يتناولون العشاء.

وحين رأوه داخلًا، وعلى الرغم من كونهم مشدوهين وأعصابُهم متوتّرة، لم يقولوا أيّ كلمة، بل تابعوا طعامهم، صامتين كما من قبل.

والده جالسٌ إلى الطاولة، تيتو وتوتو على جانبيه، صامتون كذلك، يتناولون ما في أطباقهم بالملاعق. شقيقه الأكبر يأكل جالسًا على حافّة المقعد بجوار الباب، وبعضُ الضوء يطاوله، والوعاء بين ركبتيه. أمّا والدته فكانت تأكل واقفةً على قدميها بجانب فرن الفحم الصغير.

وما لبثت أن قالت له: «ما الذي أتى بك في هذه الساعة؟». رفع تومّازينو كتفيه وازداد جمودًا في صدره أكثر ممّا بدا على مظهره، وقال: «أفٍّ يا أمّاه...». لم تضف والدته شيئًا وحضّرت له وعاء من وجبة الفاصوليا وجلد الخنزير التي فاحت رائحتها. جلس تومّازو إلى إحدى الزوايا الخاوية من الطاولة، وبدأ يأكل. لكنّه لم يستطع مضغ شيء، بل كاد يتقيأ. أكل أربع لقمات من الحساء، مشمئزًا، ثمّ نهش الخبز اليابس. قالت له أمّه: «انتظر!» ووضعت على الخبزة ملعقتين من القنّبيط الأخضر البارد. استعاد تومّازو خبزته وأكلها بتلك النكهة، على مَهَل، محاولًا أن يغلب تقلُّبات بطنه.

أنهى شقيقه طعامه وانصرف. وأخواه الصغيران، بعد أن انتهيا، راحا يطوفان في الغرفة الصغيرة بلا غاية، مثل الحولان. «ألا تنيِّمين هذين الولدين؟» قال الأب. «دعني أخلي الطاولة أوّلًا!» أجابت السيّدة ماريّا. تابع الوالد غمغماته وذهب ليستلقي على السرير.

اتّكأ تومّازينو على جذع الباب، متوخّيًا عدم الاتّكاء بكامل ثقله عليه وإلّا خلعه. ظلّ هناك يتنعّم بالطمأنينة، يداه على رأسه، يراقب ما

يفعله الجيران من حوله. كانوا في أحد الأكواخ يتصايحون مبتهجين: ومن يدري، لعلّهم يحتفون بتعميد طفل أو بقدوم قريبٍ لهم من البلد. ثمّة قلّة من الناس يتحرّكون هنا وهناك في الساحة الصغيرة: خصوصًا من الشبّان المتجهين إلى مونتيساكرو. وكانوا في مرورهم أمام الجارات يودّعونهنّ: «ليلة سعيدة سيّدة لينا! ليلة سعيدة تيريزا!». أو يلاطفونهنّ: «ألا تخرجين للهواء المنعش؟»، «إيه، هنيئًا لكم!» تردّ عليهم الجارة، ثمّ ينعطفون إلى الطريق الزلق، أيديهم في جيوبهم، متشنّجين في ملابس العمل، بستراتٍ قصيرة وخفيفة، كأنّها صيفيّة، وأحذيةٍ مهترئة.

كان تومّازينو يحاول أن يثبت وجوده، بالهدوء الذي طغى عليه، أمام باب البيت. ويحاول أن يُظهِرَ أنّه لا يتسكّع، في الليل، أو ذلك المساء على الأقلّ، وأنّه ينام باكرًا ولا يرتكب الحماقات: أنّه فتىً عاقل، خلاصة القول.

خرجت امرأة من كوخها لتأخذ الغسيل المنشور على الحبل أمام بابها.

«مساء الخير، سيّدة آديلي!» قال تومّازو فورًا. «مساء الخير، تومّا!» ردّت عن طيب خاطر: كان كلٌّ منهما يشعر بنفسه شخصًا رزينًا، أصيلًا، يقوم بما عليه فعله ولا يقصد أشياء أخرى.

«إيه يا سيّدة! ما تزالين على رأس مهامكِ!» قال تومّازو.

«قل هذا لزوجي لعلّه يعي!» ردّت، وهي تضغط ذقنها على عنقها.

«هل صحيحٌ أنّ السيّد أرماندو سيشتري لكم تلفازًا؟» سألها.

«أجل، التلفاز الخفيّ!» قالت المرأة.

«إيه» تنهّد تومّازو ماكرًا «أعور مثلكِ!»

أثناء ذلك، جمعت آديلي الغسيل الذي كان متجمّدًا، ودخلت البيت وهي تقول بعجالة: «ليلة سعيدة، تومّا!»

«ليلة سعيدة سيّدة آديلي!» قال تومّازو، وأخرج من جيبه عقب سيجارة وأشعله، دون أن تتلاشى أماراتُ الرزانة والوقار من وجهه.

أطلّ تيتو وتوتو برأسيهما، بعد أن تعبا من الطواف في الغرفة. وما لبث توتو أن ألقى بنفسه خفيضَ الرأس تحت مقعدٍ متهالك ومحطّمٍ، كان في الملحق المجاور للكوخ: تربعَ جيّدًا تحته، على الطين الأسود والمتجمّد، وأمسك بمرطبانٍ وجعل يفرك جانبه الحادّ بالمقعد.

لم يكن تيتو ينظر إلى أخيه. جال قليلًا في الفِناء الضيّق المفعم بالطين، يرمي برأسه يمينًا شمالًا، وكان في منتهى السعادة، باسمَ العينين، يهتف مسرورًا بين حين وآخر. ثمّ تربع هو أيضًا، ردْفه مكشوف وبطنه ظاهر، ومن الواضح أنّه تغوّط منذ قليل، ولا أحد غيّر له الحفاض. كان يحدّق إلى شيء ما في الطين: ثمّ نهض فجأة وأخذ يدوس ويهرس بقدمه الصغيرة ذلك الشيء الذي رآه. يخبط بكعبه، بقوّةٍ شديدة حتى كاد يقع مرّتين أو ثلاثة. وحين انتهى، هتف بصيحة أخرى كأنّه يقول: "اللعنة عليك!"، وراح يركض في أرجاء الفناء أمام البيت وهي يصرخ: «ررر، غرررر، نياووووا»، لأنّه لم يكن قادرًا بعد على لفظ كلمة ماما، لكنّه كان بارعًا بالتظاهر بامتطاء ظهر روميّ، وكيف لا.

خرجت السيّدة ماريا من البيت على حين غرّة، نعرت تومّازو بكتفها وذهبت مباشرة إلى تيتو الذي كان يتشقلب هناك، وأخذته بين ذراعيها، ورفعته وحملته إلى الداخل، وسرواله على ركبتيها والخِرق الأخرى تحت إبطيها. ثمّ عادت بعد دقيقتين، وفعلت الأمر ذاته مع توتو الذي كان ما

يزال يفرك رأس المرطبان بالمقعد، لكنّ هذه المرّة لم تكن سهلة: فما إن أمسكت به أمّه حتى فتح فمه العريض وأجهش بالبكاء. «ترفَّقي بهذين الطفلين!» قال تومّازو صارمًا. «التهِ بشؤونك!» ردّت الأمّ، مشغولةً بجرّ توتو إلى الداخل، وقد استحال فمًا مفتوحًا. وكان تيتو قد غفا في مرقدٍ مُجهَّزٍ تحت الطاولة. أمّا توتو فكان ينام داخل صندوقٍ صغير، ممتلئ بأغراض البيت وملابس الصيف والأغطية، تعتليها وسادةٌ قذرة ومهترئة. لم يصمد المسكين طويلًا، وسرعان ما غلبه النعاس هو أيضًا، فوضعته أمّه في صندوقه، لينام مطمئنًّا كجروٍ صغير.

خيّم الليل في الخارج على الرغم من أنّ الساعة لم تتجاوز السابعة مساء. لا صوت إلّا لأولئك الذين يلهون على بُعد كوخين أو ثلاثة؛ فيما كانت القرية برمّتها تائهةً في صمتٍ عميق. لم يقرّر تومّازو النوم بعد، مع أنّه تحوّل إلى قطعة جليد. غير أنّه كان بمعنويات عالية بما فيه الكفاية، وبدت له معجزةٌ أنّ الأمور تسير على ما يرام حتى تلك اللحظة؛ لم يكن هو نفسه يصدّق ذلك. «ما أدراني!» قال في سرّه. كان ينظر حوله، متظاهرًا بأنّه الفتى العاقل الذي يدخّن سيجارته الأخيرة قبل الخلود للنوم. لا أثر للشرطة على الإطلاق. كانت الأكواخ المتراكمة غائرة في ظلام دامس، لا يميّزها من سفح التلّ التي تربض أسفله. بعضُ الشقوق تتلألأ، هنا وهناك، كبرك المياه بين كتل الطين الأسود. والضوءُ الوحيد هو عمود الإنارة الكهربائيّ في شارع مونتيساكرو المتفتّت.

كان الظلام يكتنف حتى المروج خلف النهر، الذي يجري أسفل المنحدر: ما زال هناك ما يشبه ذرّات الغبار الصفراء، الناجمة عن

انعكاس الضوء الذي ظلّ يدهسها حتى بعد الغروب. ربما لأنّ ما فوقها ليس سوى السماء، والسهلُ يمتدّ حتى تلال تيفولي على امتداد النظر.

كان الغيم يتلبّد في الأعلى، سُحُبًا بيضاء؛ والصحوُ ليس أكثر من شراذم متفرّقة، والقتامةُ راسخة. وفي إحدى تلك الشراذم – تحديدًا فوق سطح الصفيح والورق المقوّى لخربة السيّدة آديلي – عند أطراف غيمةٍ تتحلحل: هناك نجمةٌ تتلألأ وحيدةً. وفي أرجاء تلك الأكواخ المتكدّسة الشقيّة يحوم صمتٌ، وسكونٌ، وعزلةٌ، تدسّ الرعبَ في القلب. بعد قليل، بينما كان هناك وحيدًا ومنكسرًا، ومن دون حتى أن ينتبه إلى نفسه، أحسَّ تومّازو بدمعةٍ تضطرم في فؤاده. فسارَعَ إلى إخمادها.

5 - أغاني الحياة

خلال الهواء المعطّر بشذى الأزهار، ركض تومّازو وبلغ زيميو وكارليتّو حين كانا في الطريق إلى موقف الحافلة.

«كارلي!» قال عندما بلغهما «اسمح لي، عليَّ أن أخبرك بأمر!»

توقّف كارليتّو يرنو إليه، منتظرًا، عن طيب نيّة. وتنحّى زيميو جانبًا، وهو يغمغم، وصارت نظراته ماكرة على الفور، وهو يمضغ العلكة الأمريكيّة.

«هل ستستقلّ الحافلة؟» استفسر تومّازو.

«لا» قال الآخر بنبرة ودودة، يؤلّبه بعضُ الفضول.

«اسمعني يا كارليتّو» بادر تومّازو حينها، عجولًا ومُسِرًّا «أحاول أن أحظى بفتاة... هناك فوق، في غارباتيلا... فتاةٌ حسناء فعلًا، من أجمل ما رأيت...»

«عليك اللعنة!» نغَّمَ زيميو إذ كفَّ عن مضغ العلكة قليلًا.

«اسكت يا زيميو» قال تومّازو بملامح ضارية، لكنّ الضحكة تكاد تفلت من فمه «لا تصدِّع رأسي!». «ها» عاد إلى كارليتّو «كنت أقول... تلك الفتاة، أريد أن أنالها بأسلوبٍ رفيع، وعليك أن تساعدني! أودّ تحضير سيريناتا[18] في الغد: نجتمع تحت بيتها، وننظّم أروع سيريناتا، كالتي تجيدها أنت ببراعةٍ لا تضاهى!»

---

18 «Serenata» قالب موسيقّي وغنائّي واستعراضّي، مشهورٌ جدًّا، يقوم على الغناء والعزف بالغيتار أو آلة مشابهة تحت شرفة المحبوبة أو نافذة غرفتها تغزُّلًا بها وتودُّدًا لها. المترجم.

«ها ها ها» قهقه زيميو وكاد يتفجّر ضحكًا، بساقيه المنفرجتين وبطنه البارز.

«كفَّ عن هذا يا زيمّي!» أمره تومّازو، مكشِّرًا بفمه لئلا ينفجر من الضحك هو أيضًا. لكنّ الصرامة لم تفارق عينيه.

«فما رأيك؟» قال ملتفتًا إلى كارليتّو.

«موافق» قال كارليتّو «ولكن علينا أن نرى...»

«ماذا، ماذا؟ ماذا علينا أن نرى؟» سأله تومّازو.

«أوه، إنّي مفلس، في الحضيض! والجيتار، رهنتُه في المركز الخيريّ. ومَن يدري متى أعزف عليه ثانيةً!»

«نستعير غيتار بامبينو إذن!» هتف تومّازو متفائلًا.

«أف!» قال كارليتّو «ومتى سيعيرك إيّاه! إنّه أبخل من جرذ. ألا تعرفه؟»

«ولاستعادة غيتارك؟ قل كلمتك: كم ينبغي؟» سأله تومّازو.

«أربعمائة ليرة، كحدٍّ أقصى!»

«هيه؟ ماذا؟ ألن نستطيع تدبُّر مبلغٍ كهذا؟»

«هذا شأنك. أمّا بالنسبة إليّ فسآتي إلى غارباتيلا لعزف السيريناتا من أجلك، ما همَّني!»

كان المساء يهبط، وزيميو يهمّ بالركض.

«هيّا كارلي، فلنذهب!» قال وهو يهرول. لكنّ كارليتّو أراد أن ينجز الصفقة مع تومّازو أوّلًا.

«علام اتفقنا إذن؟» سأل.

«أوه، في صباح الغد نلتقي وأعطيك هذه الأربعمائة ليرة. أليس

حلًّا، ها؟»

«كيف لا» قال كارليتّو «سأكون في انتظارك، فتعال!» وانصرف ملتحقًا بزيميو.

أنيرت الأضواء، وتلألأت على الوحل، مع ضوء الغروب الذي كان ينعكس في مستنقع كبير فعلًا، هناك عند موقف الحافلة، حيث بسطة السيّدة أنيتا. بعد أن جرى لابنها ليلّو ما جرى، لم تعد على حالها: كانت هناك، متشحة بالسواد كلّيًا، شفتاها متهدّلتان، مكفهرّة الوجه، تتفحّم غضبًا بسبب أيّ شيء وكلّ شخص، وتذوي في صمتها.

أخرج تومّازو ما في جعبته من عملة حديديّة وأحصاها:

«سبعون ليرة، تبًّا!» غمغم بأسنان مشدودة «ستكفيني كي أذهب، ثمّ سأتدبّر عشر ليرات للعودة، لا بأس!»

استقلّ الخطّ 211 لغاية بورتوناتشو، ومن هناك أخذ الخطّ 9 ووصل إلى المحطة.

أشعل سيجارة، هذا قبل كلّ شيء. ثمّ أقدم برشاقة لقطع ساحة ألف وخمسمائة، رغم أنّه كان يمشي بتؤدة كمن ينشغل بشؤونه الخاصّة.

كانت الحياة تبتسم في وجهه، مرّةً واحدةً على الأقلّ. فبالنسبة إلى ليلّو، الذي كان في المستشفى، لم يفشِ أحدٌ بسرّه حتى اللحظة. وأمّا كاغوني، الذي كان في السجن، فقد أغلق فمه نهائيًا: اضطرّ إلى الإقرار بحقّ رفاقه الفاشيّين، الذين يجتمعون في درب النور، لأنّه وُوجِهَ بالأدلّة؛ لكنّه لم يُدلِ بأيّ اسم، إطلاقًا، ذلك لأنّه كان يمثّل أيضًا، يتظاهر بأنّه يصاب بنوبات صرع، داخل الزنزانة، وقد قطَّعَ شرايين

معصمه بالشفرات مرّتين أو ثلاثة. وحتّى سالفاتوري، وماتّو، وأوغو، لم يتغوّط[19] منهم أحد حينما ألقي القبض عليهم، ولعلّهم نسوا أمر تومّازو بوتزيلّي تمامًا.

لقد قطفوهم بعد وقتٍ قصير من تلك الحادثة، واحدًا تلو الآخر، مثل حبّات الكرز. كان سالفاتوري في الساحة الصغيرة يقطّع الصبّار عند إحدى العربات. دنوا منه وسألوه: «كيف تمضي أوقاتك؟ هل تعمل؟ أم إنّك ما تزال تتسكّع؟». «إنّي أعمل!» أجابهم. «هلّا أتيت معنا خمس دقائق إلى المخفر؟». «أيُّ خمس دقائق! خمس دقائق حقيقيّة أم خمس دقائق على طريقتكم؟» قال. «لا، لا، لا. الضابط المسؤول يودّ القيام بإجراء شكليّ بسيط معك. كن مطمئنًّا، فنحن نعرف والدك!» قالوا له. وحينما دخلوا من البوّابة، لاحظ سالفاتوري أنّهم عوضًا عن اقتياده عبْر سلالم المكتب، كانوا يأخذونه في ممرٍّ يؤدّي إلى القاعة الأمنيّة. وما لبث أن أدرك الأمر: "يريدون الزجّ بي في السجن!". فانتفض واستدار وفرّ هاربًا. وعند الباب ثمّة رجلٌ أرعبته الركضة فتنحّى جانبًا. ركض سالفاتوري ما استطاع، وكان أولئك يلاحقونه ويصيحون، وقد انضمّ إليهم رجلٌ بزيٍّ مدنيّ، يمرّ من هناك بسيّارته. غير أنّه لم يستطع إيقافه، مع أنّه ظلّ يسير بموازاته: فكلّما دنا منه صعد سالفاتوري على الرصيف فيفلت من أيدي السائق مرارًا. وعندما وصل بجوار مدرسة داخليّة للراهبات – الراهبات المشقوقات ربّما، بارك الله فيهنّ – خارت قواه، وانقطعت أنفاسه، فحاول اعتلاء السور، لكنّه لم يستطع فيما كان المدنيُّ يقول له: «قف عندك، قف

---

19 "التغوّط" هنا مجازيًّا، بمعنى «الاعتراف»، بحسب التعبير السائد والسوقي في لهجة أهالي روما في ذلك العصر. المترجم.

عندك، يا فتى، ما الذي اقترفتَه؟». تمكّن سالفارتوي من القفز عن السور بالرمق الأخير في حين كانت قوى الأمن تبلغه، فوجد نفسه في بستان؛ وظلّ هناك محتارًا، ينظر يمنة وشمالًا: رأى عمّال بناء يعجنون الجصّ ويرمون الحصى بالمجرفة، فقالوا له: «ماذا فعلتَ، ها؟». وثب سالفاتوري حينذاك إلى بابٍ صغير، وولج فيه، فرأى أعتاب سلَّمٍ لا شيء وراءه، سوى بابٍ من هنا، وباب من هناك، مفتوح، فاختار الباب الثاني ودخل ممرًّا طويلًا طويلْ، حيث كانت الأصوات تصدح بالغناء في عمقه. ركض ووصل إلى آخره، فوجد نافذة واحدة وأبواب القاعات. كان للنافذة قضبان ولا يمكن الخروج منها، فاستدار سالفاتوري وتأهّب للركض من جديد عبْر الممرّ، لكنّ أصوات الدَّرَك تناهت إلى مسمعه من عمق السلالم وهم يصعدون. ففتح الباب الأوّل، وهناك وجد فتيات صغيرات يرتّلن أناشيد الكنيسة في جوقة "السلام عليكِ يا مريم". وعندما رأينه يدخل خرسن جميعًا. ولكنْ قُضِيَ الأمر، وبات في قبضة الشرطة، وما باليد حيلة.

أمّا ماتّو فكان ذاهبًا بالسيّارة للسهر في الليلة التالية، صحبة أصدقائه الآتين من عشوائيّات ترولّو. وبينما كانوا مسرعين، كانت سيّارة الفهد متمركزة خلف قوسٍ عتيق في بورتا ماجوري. وسرعان ما انطلقت تطاردهم وصافراتُها مدوّية: «وداعًا، الشرطة خلفنا!» كانوا يصيحون. زوّدوا سرعتهم وغطسوا في النفق بكلّ قوّة، وهم يسلكون المنعطفات بمائة كيلومتر في الساعة، لئلا يصطادهم الفهد، قاصدين إضاعة أثرهم في أزقّة سان لورنزو. لكنّهم صادفوا الطريق الدائريّ الأحمر – المخصّص للترام – في وجههم، واضطروا إلى مواصلة السير

عبْر شارع ديلو سكالو: فانعطفوا نحوه بسرعةٍ جنونيّة، ولم يقطعوا منه أكثر من مائتي متر، فإذا هم يصطدمون بشجرة في أقلّ من هنيهة. تحطّمت السيّارة، وأُخرِجَت الجثثُ أشلاءً. وكان ماتّو قد مات.

أمّا أوغو فكان يحمّم شعره بالشامبو عند حلّاقه، وكانت الرغوة تزبد على رأسه المغمورة في المغسلة. دخل الدَّرَك إلى الحلّاق، قرب فونتانوني، وسأل واحدٌ منهم: «هل ستطول حلاقة هذا؟». «تفضّل!» قال الحلّاق «خمس دقائق!». «أسرِعْ إذن، فهو يهمّنا!». فأدرك أوغو الوضع فورًا، ونظر إليهم بطرف عينه من خلال المرآة وقال: «مَن ذا الذي يرسل إليَّ تحيّاته القلبيّة؟». أنهى حمَّام الشامبو، وبات وسيمًا نظيفًا ولحق برجال الشرطة نحو المخفر، من أجل المحضر الرسميّ، وعرض عليهم القهوة أيضًا. وحين وصلوا إلى بوّابة ريجينا كويلي، وكانوا يدلفون لصعود الأعتاب، بكبرياء مَن يتفاخر بالقبض على المجرم بسهولة، أخذ أوغو يغنّي بأعلى صوته:

أيّها الصعلوك، الغالي على قلبي...

وهكذا دخل وهو يغنّي.

كانت شجيرات ساحة ألف وخمسمائة تتمايل مع هفهفة النسائم، وتُطَيِّرُ الأوراق تبعثرُها هنا وهناك على بلاط الساحة وأمام مواقف الحافلات. فاحت الرائحة الطيّبة التي تتنشّط في أوائل أمسيات الربيع، عندما بات الجميع يتنزّهون بلا سُتَر، وربّما لا يرتدون إلّا قميصًا

خفيفًا، لأنّ الهواء دافئ، ويكاد يصير لافحًا. فترسَّخَ معنى العطلة الذي يميّز ليالي الصيف.

ذهب تومّازو متّجهًا إلى حدائق ساحة إزيدرا. وافتتح مشواره بالنزول إلى المراحيض العامّة. وكانت تقاسيم وجهه جادّة، أقرب إلى العبوس، إذ ما من أجمل من تفريغ المثانة. المراحيض تحت الأرض، مزدحمة، تتعذّر فيها الحركة تقريبًا. يتعيّن الوقوف في الطابور أمام أفرغ المبولة. وكان العساكر يشكّلون الغالبيّة العظمى، لأنّ ثكنات ماكاو مجاورة للساحة، وكانت الترامات تنطلق من هناك باتجاه الثكنات الأخرى التي في الضاحية، وقد حانت ساعة الانصراف.

وهناك آخرون أيضًا: قرويّون، وعمّال أو موظّفون يتأبّطون حقائبهم إذ كانوا في طريقهم لركوب القطار المتجه إلى المحطة الكبرى تيرميني.

كان هؤلاء جميعًا يدخلون المراحيض ويتبوّلون بسرعة، وهم يتنادون ويدردشون. إلّا أنّ تومّازو لاحظ أنّ بعضهم يستغرقون وقتًا أطول، بتوقُّفهم أمام رخام المبولة بين الفاصلَين الرخاميّين الصغيرين. من بينهم رجلٌ كان هناك منذ مدّة، وكان كهلًا في الخمسينات من عمره، طويل القامة، وقد عصف الشيب بشعره، يرتدي معطفًا، وله وجهٌ كلبيٌّ وعينان تحرقان أيَّ نقطةٍ تنظران إليها.

وكان محتقنًا، محمرّ الوجنتين، لعلّه سكران أو مصاب بمرض القلب. وابتسامته القذرة تغطّي وجهه بأكمله وتضيِّق على عينيه. شغر مكانٌ بجواره تقريبًا، في الصفّ، فتقدّم تومّازو ليشغله وهو يفتح بنطلونه بجدّيّةٍ وشرود. سدّد الكهل نظرة إليه من مكانه جهة اليمين،

فبادله تومّازو بمثلها، بمحض الصدفة، وسرعان ما رفع نظره إلى أعلى، نحو دعاية المراهم.

أمّا الرجل فما انفكّ يحدّق إليه، بنظرةٍ ثاقبة ولحوحة، كأنّه شيطانٌ عجوز بلا قرنين: رماه تومّازو بنظرة أخرى، ثمّ رفع سحّاب بنطلونه واتّجه مباشرة إلى السلالم من دون أن يلتفت إلى الخلف إطلاقًا.

وحين خرج، توقّف بكلّ جدّيّة تحت شجرة دلب على الرصيف الذي تجتاحه موجةٌ من الناس في طريقها إلى المحطة أو موقف النقل الداخليّ. استند إلى جذعها ودسّ يديه في جيبه كما لو أنّه سيطلق النار على أحدهم.

بعد قليل، ظهر العجوز من السلالم إلى أعلى وتقدّم خطوتين على الرصيف. رمق تومّازو وتابع طريقه، وكان تومّازو ثابتًا كالتمثال. ثمّ التفت العجوز بعد خطوتين، ولم يكن تومّازو ينظر ناحيته، إنّما كان يشاهد الرصيف الآخر، في الطرف الثاني للشارع، الذي كان أشدّ اكتظاظًا بالمارّين تحت واجهات المحال اللامعة وبجانب عربات الفواكه. ولكنْ، كانت وقفته ونظرته تشيران بوضوح إلى وضعه الحرج، وأنه يترصّد نقلةً خاطئة من قِبَلِ ندّه. وفي تلك اللحظة، مرّ جنديّان أمامه وأمام الرجل: وكان لكلٍّ منهما جسدٌ مربع، بمثابة صخرة، وبنطلون مربوط بشريطةٍ تصعّب عليهما السير بطلاقة. نزلا السلالم حينما رأيا المراحيض العامّة، واختفيا في أسفل. فلحق بهما العجوز، وهو يمرّ أمام تومّازو كأنّه لا يراه.

بقي تومّازو متسمّرًا هناك كالبليد، محتارًا، ووجهه يغالب البكاء

مثل طفلٍ صغير.

ظهر الجنديّان بعد قليل، وقطعا فسحة طاولات الكشك المجاور، واتجها نحو المحطة. وصعد العجوز مرّة أخرى، وتعقّبهما.

نعر تومّازو جذع الشجرة بكتفه، وابتعد عنها وهو يَصِرُّ بأسنانه ويغمغم: «سحقًا لهذا الرجل عديم الشرف!». وعاد يصفّر في طريقه إلى الحدائق. ثمّ فكّر بغاربانتي وانفرجت أساريره، فوضع يديه في جيبه وراح يغنّي نكايةً بالبشر:

غنوتي ستتوه ما بين أوراق الشجر...

لم يكن أحدٌ هناك في تلك المنطقة، ما عدا بعض العائدين من العمل. ما زال الوقت باكرًا. أجل، رأى فتاتين بجانب كشك الجرائد، يحتدم النقاش بينهما، وما لبثتا أن انصرفتا على استعجال.

«سأذهب إلى جسر غاريبالدي، هيّا!» قال تومّازو لنفسه «فهنا لا أجد أحدًا! لعلّ بعض الوقت يمضي بينما أتمشّى قليلًا!»

بادر إلى النزهة برغبة شديدة، فدلف إلى شارع ناسيونالي، وساره فيه إلى آخره، ثمّ اجتاز ساحة البندقيّة وانعطف نحو شارع بوتيغي أوسكوري. وبعد نصف ساعة تقريبًا، وصل إلى جسر غاريبالدي، منهكًا لدرجةٍ كاد يغطّ في غفوةٍ عميقة.

«اللعنة!» قال إذ ألقى بنظرة عامّة، باشمئزازٍ يسيل من منخاريه إلى ذقنه «ما الذي يحدث؟ هل أضاع الناس طريقهم هذا المساء؟»

بالفعل، فعند زاوية شارع أرينولا وكورنيش النهر، لم يكن في حانة

مانتشينيلّي أحد، حتى روّاده المعتادون: أولئك المعدمون الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشر والعشرين عامًا، الذين يقصدون المحلّ كلّ مساء بغية انتظار اللوطيّين: الأصهب المنمّش، شبه المغفّل، الذي يتشبّث بأرجُل الذين يأتون إلى المنطقة للزنا، ولا يكفّ عنهم إلّا إذا تدبَّرَ منهم عشر ليرات أو سيجارة على الأقلّ؛ الفيتون/ صاحب القدمين الضخمتين، الجلف طويل القامة الذي تمشي قدماه بمفردهما، وينساب شعره على وجهه النجس وفمه العريض الخالي من الأسنان الأماميّة، الضحوك دومًا؛ فضلًا عن ثلاثة آخرين، تنبعث الرائحة الكريهة من ثيابهم لأنّهم لا يغسلونها أبدًا، حتّى عندما ينامون، ذلك أنّهم ينامون في العراء، تحت جسرٍ أو داخل كهف.

إضافة إلى هؤلاء، غالبًا ما كان بعض الفتية الوسماء من تراستيفيري أو كامبو دي فيوري، يأتون بروميّاتهم، متأهّبين للانغماس في المقتلة، وويلٌ لمن يقع بين براثنهم.

أمّا بائعات الهوى، فكُنَّ يقفن بالجوار في العادة، تحت الظلّ، خلف موقف الترام، بين بائع الأزهار وبائع الوقود، على كورنيش النهر بموازاة ساحة جوديا.

ولكن لم يكن هناك أيّ أثر لهنّ أيضًا. «ما أدراني!» فكّر تومّازو. كانت المصطبة في حانة مانتشينيلّي، المقفر من الزبائن تقريبًا، تعجّ بالحلويات، فيما كانت المحاسبة البدينة الصهباء مسترسلة في قراءة جريدة ميساجيرو.

اقترب تومّازو فلمح في عمق الحانة شرطيّين غارقين في الصمت.

«انجُ بجلدك!» قال تومّازو لنفسه.

اجتاز التقاطع المزدحم بالناس العائدين إلى بيوتهم في ساعة العشاء، وفرَّ على كورنيش النهر، متمسِّحًا بالسور، نحو جسر سيستو.

وها هو يصادف كليمنتينا تطلّ برأسها من خلف شجرة.

كانت تطلّ برأسها الضخمة التي يعتليها مثبِّتُ الشعر القذر ليجعل منها قطعة واحدة، وتحدِّق مباشرة نحو حانة مانتشينيلّي.

وكانت ترتدي السواد، حدادًا على رحيل أحدهم منذ فترة قصيرة: الكنزة سوداء، والجوارب سوداء، والجزمة مهترئة بالكامل.

كانت تحدِّق مركِّزةً على تحرُّكاتٍ تشتبه بها، متوارية مثل طفلة جرباء: تمسك حقيبة سوداء بيدها التي احمرّت كالنار بسبب صقيع الشتاء؛ وتشدّ عليها بقوّة تحسُّبًا من ابن ساقطةٍ لعين سيّئ النوايا قد ينتزع الحقيبة من يدها وهي التي لا تحوي إلا بضع قروشٍ أمَّنتْها بشقّ الأنفس.

وبينما كانت في تلك الحال، تراقب تحرُّكات الشرطيّين، اضطرت إلى التنحّي قليلًا، فرفعت قدمها وكان من الواضح أنّها توجعها، فكشَّرت بفمها وكادت تهوي على جذع الشجرة وهي تعضّ شفتيها. لا شكّ أنّ هذا كلّه كان يذكّرها بالمتوفّى، ويؤلمها كثيرًا لدرجةٍ توشك فيها على البكاء.

«لن أستطيع تحصيل فلس واحد هنا! اللعنة على اللعنة!» كان تومّازو يفكّر «كم لديّ؟ عشرون وعشرون أي أربعون. يتبقّى أمامي جمع ثلاثين ليرة، اللعنة على اللعنة! سأشتري سيجارتين وطنيّتين، هيّا! فإنّي أكاد أختنق من عدم التدخين!»

دخل إلى بائع تبغ عند جسر سيستو، واشترى سيجارتين وطنيّتين.

«أربعمائة ليرة من أجل غيتار كارليتّو ابن الساقطة، فلتُفتَقْ

سرَّتُه! في المركز الخيريّ، نعم، في المركز الخيريّ، عسى أن يعلّقوه على الحائط بمسمارٍ في المركز الخيريّ، مثل غيتاره، ويعاشروه! اللعنة على أمواته! أربعمائة ليرة من أجل غيتار! لتران من الوقود، فلنقل ثلاثة، ما يعني أربعمائة ليرة أخرى. فكيف أتدبّرها؟ سأجعل أحدهم يذرف الدمع هذا المساء! لن يهمّني شيء!»

ساقته قدماه اللتان توجعانه حتّى البكاء إلى كامبو دي فيوري، ثم ساحة نوفانا، ومنها إلى كورسو، وعندما وصل إلى معراج ساحة إسبانيا كان الليل قد ألقى بظلاله، وباعة الأزهار يغلقون أكشاكهم.

جلس على الأعتاب ليلتقط أنفاسه، وليرى إن كان هناك شرطة. لا أحد. نهض وصعد أعتاب المعراج.

ثمّة أجنبيّان أو ثلاثة جالسون على الدرجات الأولى. وهناك بعض الفتية يلعبون الكرة في الأعلى، عند تلك الفسحة التي في منتصف الصعدة، تحت السياج، وكانوا يصرخون وقمصانُهم ممزّقة جميعًا.

صعد تومّازو ناقمًا، عتبة تلو عتبة، ووصل إلى القمّة، وألقى نظرة على المباراة الصغيرة، إذ كان الحارسان يقفان تحت أعمدة الإنارة وينظران بتركيزٍ شديد، والآخرون يتكوّمون على الكرة، يتصبّبون عرقًا ويضحكون ويملّخون قمصان بعضهم بعضًا في حالة الخسارة. وصلت الكرة إلى تومّازو، فصدّها بحركة فنيّة كي لا تتدحرج إلى أسفل المعراج. وبعد ذلك، توجّه محمّر الوجه، على مَهَل، نحو نفرٍ رآهم جالسين على المصطبة.

وفي تلك اللحظة، نزل خوريّان من كنيسة ثالوث الجبل في الأعلى، وكانت ملابسهما ترفرف جدًّا.

«مممم، الخوريّات!» بعينين متراقصين وصوتٍ يعلو، قال واحدٌ من الذين رآهم توماّزو جالسين على المصطبة.

دنا توماّزو، فوجد في الجوار ابن ساقطة مثله، يجلس على انفراد، بسترة سوداء فوق بدلة العمل، ويقرأ «إعصار»[20] تحت ضوء المصباح.

وهناك أبناء ساقطة آخرون: شابٌّ بدين، غرّةُ شعره بطول عشرين سنتمترًا؛ وآخر هزيل، يداه في جيبه، كانا واقفين بجانب المصطبة.

أمّا الجالسون: الشابّ الذي قال «مممم، الخوريّات!»، وقد اتّخذ حينذاك هيئةً متعالية، رافعًا ذقنه فوق كتفه، كأنّ أحدًا يلتقط له صورة فوتوغرافيّة؛ والآخران اللذان كانا متعجرفين ومتكبّرين أيضًا، بجلوسهما على المصطبة المرتفعة لكأنّهما يهيمنان على المشهد بلامبالاة؛ وهناك شابّان آخران كذلك، لكنّهما كانا مستندين بظهريهما إلى المصطبة يتحدّثان إلى الأوّلين.

واحدٌ من بينهما، أشقر الشعر مسرَّحًا على طريقة الممثّلة جينا لولّوبريجادا، وربّما يكون امرأة. كان توماّزو ينظر إليه محتارًا، وكذا فعل الأشقر، حدَّق ناحية توماّزو دون أن ينقطع عن حديث رفاقه، مسدِّدًا إليه نظراتٍ مباشرة وعرضيّة في آنٍ معًا، متظاهرًا بأنّه لا يصوِّب نحو توماّزو بعينه إنّما إلى شيء ما خلف ظهره.

لم يكن الأشقر هو الذي يتكلّم، إذ تولّى زميله هذه المَهمّة مُصدِرًا دوشة كبيرة. أمّا ذاك فكان صامتًا، يكتفي بإيماءات الموافقة، وكلّما أراد التعبير عن قبوله، لا يخفض رأسه فحسب، إنّما كتفيه أيضًا، وسائر

---

20 «Typhoon» نوفيلا من تأليف جوزيف كونراد. صدرت عام 1902. المترجم.

جسمه، كأنّ كعبيه تغوصان في مستنقع، تمامًا مثلما تفعل الوصيفات في الأفلام عندما ينحنين إجلالًا للملك.

وحين يستعيد وضعيّته الطبيعيّة، يختضّ بجسمه على سبيل التحدّي، بكبرياءٍ واضحة، سوى أنّه يتكتّم على ضحكةٍ تتفلّت من فمه وعينيه. ازدادت نظراته المتحريّة نحو تومّازو، وكان الأخير يدنو قليلًا، بتنقُّلٍ متمهّل، وانتفاخٍ شديد، وهو يشعل سيجارة.

صار الآخر يطيل نظراته التي باتت مركّزة: كان حاجباه حليقين ومرسومين من بعدُ بالقلم الرصاص، ورموشه طويلة بقدْر إصبع، كرموش الممثلات، ووجنتاه ناعمتان كدرّاقة مفعمتان بمساحيق الوجه وأحمر الشفاه. كان يتمتّع بآيات الحسن السبعة كلّها حقًّا. شعره المسرَّح على طريقة لولّوبريجادا منثورٌ على الياقة العالية لسترته المخمليّة.

حتّى الآخر الذي يثرثر كأنّه مذياع، مع الشابّين اللذين كانا يصغيان بصمتٍ مطبقٍ وجديّة تامّة، بدأ يلصق طوابع نظراته على كلّ ناحيةٍ من جسم تومّازو.

كان مستاءً للغاية بشأن تلك الحادثة التي يروي تفاصيلها، لكنّه حالما نظر إلى تومّازو انقشعت عنه غمّة الاستياء. وكأنّ له أربع عيون، اثنتين يتحدّث بهما عن الأمر الذي كان محقًّا فيه، واثنتين يرمي بهما أنظاره هنا وهناك.

- قطع حديثه فجأة وقال متوجّهًا نحو تومّازو: «من يكون هذا الذكر؟ لم نره إطلاقًا في هذه الأرجاء! اللعنة ما أجمله!»

قهقه تومّازو، حاملًا السيجارة إلى فمه، ثمّ نفخ الدخان في وجه

المنحرف الذي تكلّم. «فلنتعارف، طالما أنّنا هنا، ألا يطيب لك؟ هيه، أقول إنّنا هنا بين أناس متحضّرين، أليس كذلك؟». وبقوله أخفض ذقنه تحت كتفه وتبرَّمَ كلّيًّا، ثمّ مدّ يده نحو تومّازو قائلًا: «أنا بوبولانا! تشرّفنا!». دخل تومّازو في حلقتهم. وما زال المنحرف الصامت ملتزمًا صمته، لكنّه رمى تومّازو بنظرةٍ صاعقة.

«من أين أنت؟» سألته بوبولانا بنبرة رقيقة.

«من بيترالاتا» ردّ تومّازو بصوت أجشّ.

«مممم!» هتفت بوبولانا وهي ترمقه باهتمامٍ من طبيعة مختلفة، وإحساسٍ بقشعريرة رهبةٍ محبّبة تهزّ ظهرها فتتلوّى على إثرها.

«ماذا؟ ألا يروقك؟» سأل تومّازو.

«يروقني، طبعًا، يروقني، أيّها الفتى الوسيم!» قالت بوبولانا بصوتٍ صادح.

«أوه، هل أنتِ حامية هذا المساء؟» قال أحد الجالسين منفردًا على المصطبة.

كانوا يتكلّمون كالمتشبّهين بالإناث جميعًا، تطغى اللهجة النابوليّة على نبراتهم، وأصواتهم كأصوات الجواري، حتّى لَيبدو أنّهم قد دسّوا حبّة فاصوليا في حلوقهم.

«بل أشعر بنفسي أنّني إمبراطورة!» قالت بوبولانا، وهي تضع يدًا على خاصرتها، متوجّهة نحو زملائها. ثمّ عادت إلى تومّازو قائلة: «ها، هل أنت وحشيٌّ؟» استفسرت برقّةٍ وإثارة.

«أهشّمك تهشيمًا!» قال تومّازو مقهقهًا.

اختضّت بوبولانا وقالت مرّة أخرى: «مممم». ثمّ تجاهلت

المقدّمات ودخلت صلب الموضوع: «هيّا، أرني!». وما زالت تمسك بيسراها السترةَ لتحافظ على انكشاف كتفيها، وباليمنى راحت تتحسّس تومّازو خلسةً، دون أن تنظر إليه، بسرعة الطعنة.

بعد ذلك، استأنفت حديثها مع الذكرين الآخرين، شيتشو وسيكو، دون أيّ اكتراث بتومّازو.

وما زال المنحرف الصامت صموتًا. كان هائمًا في نشوة الطمأنينة، معلّقًا في الحياة كالشبح، واضعًا يديه في حضنه، ممسكًا بأهداب سترته كما لو كانت فستان سهرة، والسترة مقلوبة إلى الخلف على السياج.

كان يبدو أنّه عازمٌ على تخليد حالة الهناء، التي قد تنقطع إذا هو تكلّم. كان يشارك في هذا العالم عبْر التلويح بيديه، ولَفَتاتِه، وطريقته في الجلوس: هذا يكفي، لا بل إنّها المشاركة الأكمل. إنّها حُكْمٌ على هذا العالم أيضًا: «فليكن مباركًا بين الذكور!»

دنا تومّازو من بوبولانا وهي تتكلّم، واستند إلى السياج هو كذلك.

«ها، يا شابّ» قال «هل تسمح لي بكلمة؟»

«نعم» قال الآخر، وهو يلوّح برأسه المؤطّرة بالياقة.

«فلننعزل قليلًا» قال تومّازو بسلاسةٍ وحذر.

«ولماذا؟ نحن بخير هنا!» قال المنحرف.

«أودّ التحدّث إليك فقط» قال تومّازو مغتاظًا «لماذا برأيك؟»

أبدى الآخر عدم اهتمامه. لكنّ تومّازو أمسك بذراعه وسحبه نحوَ العتبة الثانية من المعراج. تحرّك المنحرف فإذا هو معاقٌ، أعرج، له ساقٌ أقصر بنصف متر عن الأخرى، وحين مشى بدا أنّه يدور دورةً كاملة حول نفسه في كلّ خطوة.

وعندما باتا بعيدين قليلًا، في مكان آمن نوعًا ما، أخذا يدردشان بعض الوقت، والتوتُّرُ يسودهما. ثمّ عاد تومّازو في النهاية نحو المجموعة واجمًا، يدخّن بشراسة. ظلّ المعاق في الخلف، واستغرق خمس دقائق في الإبحار حول نفسه على البلاط، لاستعادة مكانه بين الآخرين.

مرّر يده على شعره، وضحك لزملائه بمزيجٍ من الرقّة والمرارة، متظاهرًا بالضجر. حطّ أحدهم يدًا على كتفه، وجذبه إليه ليصبحا خدًّا على خدّ.

«ماذا أراد منك؟» سألته بوبولانا بغيظ.

«اسأليه!» قال المنحرف.

«المال!» ردّ تومّازو «وإلّا ماذا؟»

لم تجب بوبولانا على كلامه. بل أوْلته ردفيها، وانكمشت في سترتها، ونهضت على رؤوس أصابعها، وتبخترت، ودارت حول نفسها مثل البلبل الدوّار، بساقٍ مرفوعة كاللقلق. ثمّ توقّفت فجأة، بفسخٍ عرضيّ، تحت أنف تومّازو.

رفع شيتشو ساقه وقال: «انتباه!» وأطلق ريحًا.

فضحك الجميع وقالوا له: «أيّها القذر، كيف تقوم بهذه الأشياء أمام السيّدات؟»، فانتهز تومّازو فرصة هذه البهجة ليذهب في حال سبيله.

نزل برفقٍ عتبةً عتبة وهو يهجس: «اللعنة عليكم وعلى أمواتكم! ينبغي أن يضعوكم في صفٍّ أمام جدار ويعدموكم! ما الجدوى من وجودكم على هذه الأرض؟»، وبعد: «والآن، كيف أتدبّر الثمانمائة ليرة

هذه، كيف؟». كان يائسًا، ومتشائمًا حقًّا.

وفي الأثناء هبّت نسماتٌ منعشة، مصحوبة بفورة حَرٍّ فريدة من نوعها. حملت النسائمُ في أسفل المعراج روائحَ معيّنة، مَن يدري ما هي: حشائشُ رطبة، حطبٌ محروق، أزقّةٌ يتشقّق طينُها.

وتومّازو يمشي. وحذاؤه أصبح كالكمّاشة. أصابع قدميه تفتَّقت فيها المساميرُ. وكعبه الأيسر أضحى جرحًا عميقًا. لا بدّ أنّ جلدة الحذاء البالية التي تقسَّت بفعل الشمس والمطر ازدادت صلابةً بما يفوق الحديدَ. وصارت من الخلف تهرش جلد القدم التي تعلو وتهبط داخل تلك المطحنة المزفّتة ذات اللون البصليّ. كما أنّ الأربطة لم تنحلّ منذ أشهر حتى أمست وحدةً واحدةً بجلدة الحذاء.

سلك تومّازو شارع دوي ماتشيلي كلّه، وهو يسحل تينك القدمين المسكينتين، ودلف ساحة باربيريني، ثمّ شارع بيسولاتي، وعاد إلى المحطة، عند حدائق ساحة إزديرا. ما زال في جعبته عشر ليرات، فذهب إلى حانة ليشتري السيجارة الوطنيّة الأخيرة، وكاد يختنق في مروره بجانب واجهة محلّ الحلويات، فلعلّه لم يتناول أيّ طعام منذ ليلة أمس.

كانت الساعة الحادية عشرة أو تكاد، إلّا أنّ الناس ما زالوا في الحدائق، وحول النافورة في أسفل أيضًا، حيث برك المياه المضاءة تبدو كالجليد. كانت تلك أوّل أمسية دافئة في العام، ثمّ إنّ المحطة والموقف الرئيَس لخطوط النقل الداخليّ في الجوار تدفع الناس للحركة هناك. وما زال الأشخاص ينزلون إلى المراحيض العامة ويصعدون منها، مع انعدام الضرورة إلى الوقوف في الطابور.

نزل توماّزو، واتّخذ ملامح جادّة وعابسة مع أنّه لم يكن بحاجتها. لم يجد أحدًا، فصعد.

عند مقعدٍ في الجوار، بعيدًا عن متناول اليد، كان هنالك بعض الأشخاص جالسين بجانب فسحة خضراء، وبعضهم واقفين.

اقترب توماّزو متجهّمًا ليلقي نظرة. لا بدّ أنّ الجالسين كلّهم ذكور، والواقفين ثلاثة شواذّ، يتهيّؤون لإخلاء المكان. وبالفعل، ما إن دنا منهم توماّزو، حتى قالوا: «وداعًا، وداعًا!» وانصرفوا مستعجلين، كأنّهم ثلاث بنات تنتظرهنّ أمّهنّ في البيت وتتوعدّهنّ بالعقاب.

أحد الجالسين منحرف أيضًا، ولكن لم يكن باديًا عليه. كان له وجه ابن ساقطة، وشعره المجعّد القذر على ياقة معطفه الرماديّ، الذي بهت حتى صار لونه غير مفهوم، نظرًا إلى عمره المتقدّم. كان الرجل يلقي خطابًا على رفاقه الذين يستمعون إليه بعين، من باب الاحترام، وبالعين الأخرى يستخفّون به وينظرون إلى جهة أخرى.

كان المنحرف يلقي خطابًا جديًّا: وضع كفّه على قلبه، وهو جالس على طرف المقعد، بردفٍ واحد، لكي يتسنّى له النتوء بصدره وشخصيّته إلى الأمام.

وكانت عيناه تقدحان عنجهيّةً، لكنّه يدّعي التواضع: «أنا لا أحد» يقول «لأنّي لا أحد. لكنّي لطالما أدّيتُ واجبي!»

نظر حوله وهو يضغط ذقنه على عنقه، وتبدّت عليه أمارات التأثّر من إحساسه بالواجب: «لقد عملتُ منذ أن كنت في التاسعة من عمري، أتدري!» استأنف خطابه «منذ أن توفّي والدي، وتعيَّنَ على أمّي إعالة ثمانية أطفال، لا واحد... عملتُ حلّاقًا، وميكانيكيًّا، وملمّع

أثاث، ونجّارًا، وحمّال حقائب... ومساعد في الورشات... كلّ المهن كانت مهنتي، لذا فعندما أكون بصدد العمل لا أتلكأ أبدًا!»

استشاط غضبًا وضيَّقَ عينيه، وندب بكفّه على صدره مرارًا، وتابع قائلًا: «لكنّ الداعي، لطالما كان ثابتًا على مبدأ معيّن، لا يحيد عنه أبدًا! أنا لست من أولئك الذي يطالبون بالخبز والعمل، ثمّ يتجاهلون العمل ويسرقون الخبز! أنا أشعر بأنّني إيطاليٌّ مائة بالمائة! ولكن، كم إيطاليًّا موجودٌ في أيّامنا هذه؟ أقصد إيطاليّين حقيقيّين، راسخين على مبادئهم المثلى، المبادئ التي علَّمتنا إيّاها إيطاليا بنفسها؟»

لم يجب أحدٌ، ولكن في تلك اللحظة جاء رجلٌ أشقر من أقصى الحديقة، وكانت السعادةُ تتجسّد فيه: عيناه ضاحكتان، يدخّن سيجارة أشبه بالموقد، وبدا أنّه يأكلها بنيرانها وكلّ ما فيها لكثرة ما كان هانئًا وراضيًا.

تناهت إلى سمعه كلمات المنحرف الأخيرة فقال: «كفّ عن هذا يا رجل، لم يعد لديك أنفاسٌ حتى لإطلاق الرّيح!»

اقترب تومّازو بجدّيّة وحدّة، والسيجارة المطفأة في يده قائلًا: «هيه، هلّا أشعلتَ لي أيّها الشابّ؟»

أعطاه الأشقر سيجارته من دون أن ينظر إليه، إنّما كان ينظر نحو المنحرف، بفرحةٍ عارمة كادت تطير به. لم يأبه الأخير بكلماته، بل تابع حديثه بثباتٍ يشبه تمثال آنيتا غاريبالدي: «ذلك لأنّي، أنا المدعو بليباني لوتشانو، أستم** على الشيوعيّين!»

لم يكن تومّازو يصغي إليه البتّة: كان يدخّن كأنّه يمضغ سمًّا، وينظر حوله. لم يعد يكترث لأيّ شيء. اللعنة اللعينة، كلّهم من نفس

الطينة! مَن كان ليجبره على أن يكون يمينيًا أو يساريًا أو ما شابه: إنّه مواطنٌ حرّ، أناركيٌّ حتى الموت، وكفى.

«أوه» قال الأشقر آخرُ الواصلين، كما لو كان لا يطيق الاحتفاظ بالنبأ السارّ لنفسه «الفقمة هنا!»

«كم ترك لك؟» قال أحد السامعين وهو يتثاءب، خارجًا عن حياديّته.

«أعطاني سبعمائة ليرة!» ردّ الأشقر، وانصرف بسعادةٍ قصوى مصطحبًا معه الحياة التي ابتسمت في وجهه في ذلك المساء، وهو يدخّن مثل الباشوات، حاملًا السيجارة بين أصابعه التي ترتجف قليلًا.

نهض الذي سأله "كم ترك لك؟"، وتمطّى وأنهى تثاؤبه، وانصرف بهدوء نحو ساحة إزديرا.

جلس تومّازو في محلّه، على حافّة المقعد.

«قل لي» سأل أحد الفتية رفيقه «سابرينا؟ ما الذي حلّ بها؟»

«ماذا؟» ردّ الثاني منتفضًا كأنّه تلقّى رفسة من الخلف «ألا تدري ما حلّ بها؟ ألا تقرأ الجرائد؟»

«لا أقرأها، الجرائد!» أقرّ الغرُّ وهو يشعر بالخزي.

«تبًّا» قال الآخر محتدًّا «لقد نجمت عنها فضيحة!». وبقوله هذا، لوَّح بكفّيه الصغيرتين أمام وجهه، ورمى عينيه إلى السماء. «فضيحة!» ردّد «تصوّر أنّهم وجدوها مع رجل آخر، متنكّرًا بزيّ امرأة، بمعطف نسائيّ وتنوّرة اسكتلنديّة، بسيّارة صالون في حيّ تريونفالي! وقد أرفقوا صورة لهما في الجريدة! يجب أن تراها حتمًا!»

وفي تلك اللحظة وصل الشهير الملقّب بالفقمة. كان جسده مكتنزًا

ووجهه محروقًا ورأسه أملط: بدا كأنّه ولدي نيرون. يرتدي كنزة خفيفة فوق البنطلون، تكشف عن الزغب الذي يغطّي صدره.

جاء قبالة المقعد، مستعجلًا في أمره، ولون وجهه وعينيه مصفرّ: حيّا مَن يعرفهم بعجالة، وصافحهم بقوّة. كانوا ينظرون إليه بودّ، يتهيّؤون للانصراف معه. وفعلًا، قال: «هلّا ذهبنا؟»، وهو يتوجّه حيث ركَنَ السيّارة.

بذل تومّازو ما بوسعه ليبرز وجوده، وهو يدخّن بهدوء وينظر إليهم بطرف عينه.

لكنّ الفقمة كان ينصرف مستعجلًا، بدا أنّه ضابطٌ ما جاء إلّا لاقتياد ثلاثة من جنوده إلى حلبة السباق. نهض الثلاثة ولحقوا به. وفي تلك اللحظة عاد الرابع، الذي كان قد ذهب منذ قليل ليتأكد من وجود سيّارة الفقمة في ساحة إزيدرا، وكاد يبقى هناك. رآه الفقمة وقال له: «فرا، هيّا بنا!». التحق فرانكو هذا بالقافلة سعيدًا ومبتهجًا، وكانوا يسيرون نحو النافورة بطابورٍ وعلى رأسهم الفقمة.

حتى المنحرف، الذي بقي وحيدًا، نهض ومدّ يده إلى تومّازو باحترام، وقدّم نفسه وانصرف وهو يغنّي ويرفع ياقة تلك السترة التي بهتت حتى صار لونها مجهولًا.

ظلّ تومّازو بمفرده على المقعد.

تأخّر الوقت. وكلّما تقدّم الليل راق النسيم وبات عذبًا، بالتوائه بين الأشجار وأعمدة الإنارة في الساحة التي أقفرت من الناس إلا قليلًا.

نهض تومّازو، ونزل سلالم المراحيض العامة وصعدها ست مرات أو سبع. انتصف الليل تقريبًا، ولم يجد تومّازو أحدًا، ما عدا قلّة كانوا

يغادرون ولا يكترثون لأمره أبدًا.

فاتجه إلى المحطة، التي لطالما كانت أفضل مكان في أيّ وقت. تجوّل فيها جيئة وذهابًا أكثر من نصف ساعة، في الداخل، والخارج، وفي الملاحق أيضًا.

كان هناك عددٌ هائل من الناس، في جهة وصول القطارات، وأكوامٌ من الأشخاص النائمين على المقاعد الرخاميّة: كلّهم بؤساء معدمون، يحتضنون صررًا تفوح بروائح الماعز والجبن المتعفّن. وهنالك أناسٌ يتسكّعون هنا وهناك، مثل تومّازو، لكنّ غالبيّتهم لصوصٌ وقوّادة: وبالفعل، كان هناك جمعٌ كبيرٌ لبائعات الهوى عند المخارج، سواء من جهة شارع مارسالا أم من شارع جوليتي. أمعن تومّازو نظره بهنّ واحدة تلو أخرى أثناء مشيه، ولاسيّما إحداهنّ التي كانت تتمنّع عن عجوزٍ بالكاد تحمله قدماه، بجانب حائط المراحيض.

كانت صغيرة، تحمل ثديين يكبرانهما حجمًا، وردفين يسقطان على كعب حذائها العالي، وملابسها حمراء كليًّا.

كانت تطوف حول العتبة النازلة إلى تحت الأرض، وكان الجدّ يلاحقها والمخاطُ يسيل من أنفه. إلى أن ذهبت نحو القناطر في العمق خلف الشارع، وتوارت في الظلّ. نظر الجدّ حوله فزعًا، ثمّ راح يقطع الشارع هو أيضًا، هزيلًا بحيث إذا هبّت الريح قد تطيّره معها.

الثانية عشرة والنصف، ثمّ الواحدة ليلًا. دهمت دوريّات الشرطة المكان، واستطاع تومّازو أن يلوذ بالفرار. وبعد نصف ساعة، أطلّ برأسه إلى المحطة، وكان منهكًا جدًّا في تلك الليلة.

صمتٌ مطبقٌ يهرس صفير القطارات وهمهمة القادمين والمغادرين،

لكأنّهم قد ركّبوا كاتم صوت على أفواههم.

من فرط الإرهاق والجوع، تغبَّش بصر تومّازو. وتعيَّنَ عليه آنذاك أن يعود سيرًا على الأقدام حتى بيترالاتا.

خرج من المحطة بخطوات متثاقلة، وهو يمشي على الأرضيّة المطاطيّة، وأشعل الربع الأخير من سيجارته من ولاعة شيّال يصارع النعاس على عربته، ثمّ دلف شارع مارسالا.

كان هناك بعض المفسدين. لكنّ تومّازو ولج الأزقّة الخلفيّة، باتجاه سان لورنزو، لتقليص المسافة، ولم يصادف فيها أيّ أحد.

كان لا يسمع إلّا خطواته، خطواته الخافتة، بقدميه المتعبتين.

وها إنّه يصطدم بطيف امرأة، بغتةً، عند زاوية أحد الدروب؛ وسرعان ما عرفها، بسبب معطفها الأحمر الذي على شكل الجرس. كانت هي تلك القصيرة القامة التي جذبت العجوز، وآنذاك بعد أن تخلّصت منه كانت تنصرف مسرعة نحو بيتها، حريصةً على احتضان حقيبتها السوداء.

«انظر إليها!» قال تومّازو في نفسه، فأسرع خطواته وبلغها تقريبًا. التفتت إليه ورمته بنظرةٍ حمقاء، وما زالت تمشي، وتسرع أكثر فأكثر. وكاد تومّازو يفترسها وهو يتقدّم بسرعة أيضًا.

«يا لأردافها القبيحة!» يكلّم نفسه «تبدو خليطًا من المرطبان والكستناء! ها، أردافها خفيضة، ومن المعروف أنّ الأرداف الخفيضة دلالةِ على الفاحشة... تُرى إلى أين ذاهبة؟»

كان يطاردها، منقطع الأنفاس، دون أن تحيد عن أبصاره لحظة واحدة. وكانت قد أدركت مراده، فهرولت نحو سان لورنزو متخذة

شارعًا مقفرًا ليس فيه أيُّ تعيس.

تألّب غضب تومّازو، واعوجّ فمه بتكشيرة تكشف عن أسنانه. «سأبصق!» قال وفعل. «إلى أين تذهب هذه الكافرة؟ فليصدمها الترام ولتدهسها العجلات، فإنّ الذين مثلها ينبغي ألّا يكون لهم وجودٌ على هذه الأرض! اللعنة على أمّكِ عديمة الشرف! اذهبي وضاجعي كبار السنّ، هيّا! يا قليلة الأصل! يا عديمة الأخلاق! يا بنت العار، يتقيّأ المرء كلّما رآكِ...»

غدا بموازاتها، وكان يكفيه أن يمدّ يده لكي يستولي عليها. وكانت تنظر إليه بطرف العين، ملؤها جزعٌ، تحرس حقيبتها بكلّ ما أوتيت من قوّة.

«آه، حقًّا!» فكّر تومّازو «تخافين مني، ها؟ أدركتِ أنّني سأجعلكِ تبكين بأيّ حال... فمن يخطئُ معي يدفعِ الثمن غاليًا! تمهّلي أيّتها الساقطة! إلى أين تركضين؟ إلى أين تركضين؟ تمهّلي، فإنّكِ لن تفلتي منّي أبدًا، وأنتِ تعلمين، عليكِ بالرضوخ تحت قدميّ!»

كان وجهه بتعبيرٍ مصدوم، لا يكفّ عن النظر حوله: ولا وجود لأيّ روح في كلّ ذلك الشارع.

«إيه، تبًّا لكِ!» صاح عندما بات بجانبها، وأمسك بحقيبتها وخضّها بكلّ قواه. لكنّها كانت تتوقّع ذلك فلم تنثنِ. تشبّثت بالحقيبة بكلتا يديها وانفجرت بالصراخ. فوجّه إليها تومّازو لكمة على فمها، وأتبعها بأخرى. سقطت على ركبتيها، من دون الاستغناء عن حقيبتها، بل وأحكمت قبضتها عليها. ركلها تومّازو على بطنها بينما كان يشدّ الحقيبة، لكنّه لم يجنِ سوى تعاظم صرخاتها. «اللعنة على أمواتكِ!» زعق بوجهها

«سأقتلكِ ما لم تكفّي عن ذلك!». غير أنّها ازدادت ممانعةً وعويلًا. فانحنى تومّازو وعضّ يدها اليمنى فاليسرى، وكاد ينهش من لحمها. فتراخت قبضتها هكذا وهي تصيح من الألم. انطلق تومّازو بأقصى سرعة إلى آخر الشارع، وانعطف إلى شارع الجامعة، مواصلًا ركضته حتى فيرانو. لم يكن يلتفت إلى الخلف إطلاقًا ليرى إن لحق به أحد. وفي فيرانو، خلع حذاءه خلف الأجمات، وحمله بيديه أيضًا، واستأنف الركض بمحاذاة السور الكبير. ثمّ انتعله مجدّدًا خلف الأجمات المطلّة على بورتوناتشو، ودفن الحقيبة في باطن سترته.

وهكذا وصل إلى محطّة الترام والحافلات المتجهة نحو القرية: كاد يموت وهو يسير حوالي خمسين مترًا، حتى نزل تحت جسر تيبورتينا، وسط أكوام القمامة.

جلس على الأرض النتنة هناك تحت الظلام، وفتح الحقيبة وأخذ ينبش فيها، فتملّكه شعورٌ بالرضا فاض في وجهه، والنمش يلمع كالجواهر على وجنتيه المنفوختين: «اللعنة على بائعة الهوى تلك، إنّها تعيش في بحبوحة، أوه!» كان يكلّم نفسه «في حوزتها ستة آلاف ليرة، ورغم ذلك كانت تتنقّل على قدميها! انظر لكلّ هذا الكنز الوفير! كأنّك عثرت على بئر نفط يا تومّا!». فضلًا عن المال، كان في الحقيبة مساحيق التجميل وأحمر الشفاه والولاعة ومحفظة النقود الحديديّة. وفيها بطاقات وهويّة شخصيّة أيضًا، تظهر فيها بائعة الهوى مبتسمة ومتألّقة ومتزيّنة بالطوق الأبيض وأقراط الأذن. لكنّ تومّازو تخلّص من هذه الأغراض ورماها في الطين، مع الحقيبة، وتبوّل عليها.

*

مساءً في بيترالاتا، هناك مَن تناول عشاءه وهناك مَن لم يتناوله بعد، لكنّ الجميع كانوا سعداء هانئين، يتنزّهون جيئة وذهابًا في طرقات القرية. النسائم عليلة، فما إن تهبّ الريح قليلًا حتى تتضوّع بنكهات السفرجل والجرجير المبلّل بالندى.

كان زيميو مفرج الساقين على متن درّاجته الناريّة الڤسپا، يمضغ علكة أمريكيّة بفمٍ مفتوح، وغرّةُ شعره الأملس على جبينه تتمايل أعلى وأسفل، وفقًا لِلَفَتَات وجهه.

كان ممسكًا حزامه بيديه المعقودتين، وتنعم ملامحُه بتعابير الطمأنينة والرويّة.

وكان تومّازو خلفه، وخلفه كارليتّو الجالس برِدْف ينأى عن السرج، والغيتار على كتفه.

وهناك ثلاثة آخرون بجانب هؤلاء، على متن ڤسپا أخرى.

«أيّها الملاعين!» قال أحد أولئك الثلاثة، بوجهٍ مشمئزٍّ يكاد يتقيّأ «أيّها الملاعين!» يردّد وهو يلوّح كفّه ذات الأصابع المتراصّة بصعوبة على مستوى عينه. كانت حدقتاه زرقاوين، وتكادان من فرط الاشمئزاز تصبحان بيضاوين وقد تتفجّران بعد ذلك. وجهه مثلّث، وأمرد، وشعره منتصبٌ وأشقر اللون. «ماذا؟ ألن تزوّدونا بالوقود؟» تابع منتفض الأعصاب «فنحن مفلسون!»

«لا تصدِّع أُيُ**** يا باينو!» قال تومّازو.

«هيّا!» ردّ باينو غاضبًا «هيّا!» وملص من بين رفيقيه، محاولًا أن يلقي بنفسه على المقود كي يشغّل المحرّك وينطلق معهما إلى حيث يذهبون.

«انتظر! اهدأ قليلًا!» قال واحدٌ منهما، فوميتو، وهو يرمق باينو بفمٍ يتفلّت منه الضحك «ما الذي دهاك؟»

«يا شباب» قال متوجّهًا نحو الآخرين «ماذا لو ذهبنا بمفردنا؟ لم لا يمكننا الذهاب بمفردنا؟»

فقد زيميو صبره فجأة، وضرب مدوس المحرّك بكعبه مرّتين، وانطلق متخبّطًا قبالة مقهى موقف الحافلة، حتى كاد يرمي رفيقيه اللذين على السرج أرضًا.

انطلقت الفسبا الأخرى خلفهم، مع أنّ باينو ما انفكّ يصيح: «دعهم يذهبون إلى الجحيم يا فوميتو!»

لم يكترث لتوسّلاته فوميتو الذي كان ناصع البشرة مثل دهن البالموليف. كان مصمّمًا على اللحاق بزيميو وهو يعضّ على شفتيه من شدّة الحرص الذي توخّاه بينما كان يتغلغل في زحام الناس والحافلات. وما لبث باينو أن تناسى غضبه، وعادت عيناه زرقاوين، وتلاشت التجاعيد الطفيفة من جبين الجرو الذي كان عليه، وراح يوبخ الناس ضاحكًا هنا وهناك.

وكان الثالث خلفه، الملقّب بالأمريكيّ، محافظًا على طابعه اللامبالي الذي كان متأصلًّا فيه.

كان فتى يافعًا، ذا أربعة عشر ربيعًا، غرّته تنبض على جبينه كما لو أنّها كائنٌ حيّ. شعره أسود ومتموّج، بضفيرة منتصبة على أحد الجانبين.

كان الهواء الدافئ يستبيح وجهه، وعيناه تضحكان.

انغمس زيميو كالمجنون نزولًا عبر شارع بيترالاتا، ومرّ أمام

سينما لوكس، وولج شارع تيبورتينا. هناك حيث طابورٌ من السيّارات والشاحنات والحافلات والباصات المترنّحة ليس له نهاية.

وكان تومّازو متشبّثًا به من الخلف بشدّة، يفكّر بمكرٍ في مسؤوليّاته كقائدٍ للحملة: «لا أفضل منّي في اختيار الجياد!» يقول في سرّه «انظر ما أعظم الصورة التي سيظهر عليها تومّازو الداهية!»

وكان الآخرون من خلفهم يتصرّفون كالرعناء. الأمريكيّ بكلّ أريحيّة أخذ ينتزع أغصان الدفلى التي تبرز ممزّقةً على الطريق، ويقذفها على البنات اللواتي يصادفهنّ. باينو يضع أصابعه بفمه ويصفّر كلّما أصاب الأمريكيّ فتاة. فوميتو يصيح عليه وهو يقود الدرّاجة: «اضربهنّ ثانيةً!»

قطعوا بورتوناتشو، سان لورنزو، سان جوفاني، ودلفوا بورتا ميترونيا، والممشى الأركيولوجيّ، وطافوا قليلًا حول بائعات الهوى، ثمّ استأنفوا رحلتهم بسرعة الصاروخ نحو باب سان باولو، مرورًا بالأسواق العامّة، حتى دخلوا غارباتيلا.

وهناك على مشارف غارباتيلا، على المروج القاحلة والخاوية وسط صفّين من البنايات المتشابهة وبعض ورشات البناء، ثمّة منزل مثل كلّ منازل قرية الصفيح تلك، يبدو كأنّه أطلال مدرّج قديم ومرمّم كيفما اتّفق. وبالجوار مطعمُ بيتزا بمواقد وسقائف، وحانةٌ صغيرة بمدخلٍ مظلّل بالعريشة.

وفي المحيط مدارج أخرى مرمّمة، زاخرة بالأزهار والقمامة، أحدها صغيرٌ جدًّا بما يشبه ضريحًا عائليًّا، وجميعها بلونٍ بنيّ، وبجوارها أكداسُ الأبنية الحديثة، البيضاء كالثلّاجات.

تجمَّع الشبّانُ سكّانُ تلك الدُّوُر في حانة غراتا، تحت العريشة.

وما إن ولج تومّازو ورفاقه إلى غاربانتي، حتى تراءى لهم أوّلًا ضوءُ نيون الحانة، ضوءٌ وحيدٌ وسط ذلك الظلام الدامس.

«ألا تتكرّم علينا بفنجان قهوة!» قال زيميو وهو يبصق العلكة الأمريكيّة.

«هيّا بنا!» قال تومّازو «هيّا بنا!»

فَرْمَلَ زيميو بغتةً فكاد فوميتو يصطدم به من الخلف.

تركوا القسبا أمام العريشة ودخلوا، وكان كارليتّو يحمل الغيتار معه.

«ها يا زير النساء، أليست ماشيرا هي التي دعتك للغناء؟» قال أحد الشبّان بصوت منخفض عندما رآهم يدخلون.

«أتدبّر نفسي! أفعل ما بوسعي» أجاب كارليتو بهدوء أيضًا، مثلما درجت العادة بين الأقوياء.

«شرط أن يكون صوتك جميلًا!» غمغم الآخر «غنِّ لنا أغنية دينيّة!»

وفي الأثناء ترجَّلَ فوميتو وباينو والأمريكيّ عن درّاجتهم ولحقوا بهم.

كان المدخل يزدهي في جانبيه بشجرة الوستارية؛ توقّف زيميو هناك وتثاءب، ورتّب حزامه وشدّه كما لو كان مصنوعًا من المطّاط، وما زال فاغر الفاه. ثمّ دخل الحانة.

الحانة صغيرة، فيها مصطبة دائريّة، وخلف المصطبة حانوتيّان، أحدهما متقدّم في السنّ والآخرُ في مقتبل العمر.

وهنالك أربعة رجال يلعبون الورق مهروسين على طاولة محاصرة بين المصطبة والحائط والصندوق.

رتّب تومّازو وزيميو وكارليتّو جلستهم في الداخل، والحماسة تذكّي قلوبهم، وهم يتمطّطون قليلًا، متبوعين على الفور بالثلاثة الآخرين، الذين جلسوا على انفراد، يحدوهم الفرح والعنفوان.

رفع أحد الرجال الأربعة الذين يلعبون الورق عينيه برهةً، رأى ما يجري، ثمّ أخفضهما على ملك الدينار الذي كان في يده، خاشعًا كأنّه قسّيسٌ يرفع عينيه ويخفضهما على كتيّب الصلوات، وقال هامسًا لأحد رفاقه الثلاثة:

«آه، هل تعرف إرينه؟»

«كلا، من تكون؟» قال ذاك، بفضولٍ ودود، وبنبرةٍ تنحو إلى المحادثات الدنيويّة.

«تلك التي تسكن بالقرب منا، فوق، في شارع آنّا ماريّا تاريجي...»

«وما بها؟» قال الآخر باهتمامٍ متعلّق بالجيرة، فيما ترتسم الضحكة على وجهه.

«يومَ الأحد، لمحتُها مع أشهَر المنحرفين. قيل لي إنّها ساقطة»

أعاد رأسه بين كتفيه راضخًا، ورمى الورقة على الطاولة.

تناهت كلماته إلى مسمع تومّازو وذلك لضيق المكان، فتضرّج وجهه كالديك الروميّ، وتظاهر بأنّه لم يسمع شيئًا، والتفت بوجهه الواجم إلى مَن كان على الصندوق: «ثلاثة هندباء حادّة!» قال بنبرة ممتعضة.

«ثلاثة كونياك» قال المحاسب للحانوتيّين خلف المصطبة: أخذ النقود التي أعطاها له تومّازو، ووضعها في الصندوق على مضض.

طلب الثلاثة الآخرون لترين صودا وثلاث كؤوس.

وفي غضون ذلك، دخل الحانة شابّان ممّن كانوا في الخارج، تحت العريشة، دخلا لشراء السجائر، فاكتظّت الحانة الصغيرة وغصّت بالزبائن.

«ها هو روبرتو مورولو[21]!» قال أحدهما وهو ينظر إلى الجهة الأخرى.

افتعل كارليتّو ضحكة لئيمة نوعًا ما، وهو يقترب من المصطبة حاملًا الغيتار بيده.

«أيّها الساقي! ألن تعطينا كؤوس الكونياك؟» قال تومّازو لإسكات العجوز الذي كان يستريح من المشقّة في تقديم الصودا. نظر الأخير إليه برهةً، بلّل شفتيه، وعاد إلى الخدمة وهو يروم بنظراتٍ ناقمة.

عاود الداخلان الجديدان الكَرَّة. قال الذي صاح منذ قليل: "ها هو روبرتو مورولو!": «أوه، هلّا عزفتَ لنا معزوفة، فعندي خمسون ليرة نقدًا؟»

كارليتّو الذي كان هدفًا لهما بسبب الغيتار، قال: «لست هابطًا إلى هذه الدرجة كي أبيع نفسي من أجل خمسين ليرة!»

انتفخ الآخر ضاحكًا: «أجل!» قال «فأنت تعطس من شدّة الجوع!»

فإذا بذلك الرجل الجالس يلعب الورق، الذي تكلّم عن إرينه منذ قليل، لم يتمالك نفسه فخبط الورقة بالطاولة وقال: «كفّ عن هذا، فإنّه مطرب النجوم!»

أمسك كارليتّو بكأس الكونياك وأخذ يشرب منها بعينيه اللتين

---

21 مطرب إيطاليّ شهير، وأحد الكبار الذين أدّوا الأغنية النابوليّة. المترجم.

تبتسمان بمرارة.

دخل آخران، من تورمارانتشو. اتجها إلى المصطبة لشراء خمس سجائر وطنيّة وإلقاء نظرة عامة، فعبّر أحدهما عن رأيه أيضًا: «آه، ها هم هنا وطاويط الليل!»

حدّق تومّازو إليهما، وطقطق بلسانه على سقف فمه، كأنّه يحسّ بالمرارة، وأومأ بنعم، ثم توجّه ببطء ناحية المصطبة، ممسكًا كأسه الصغيرة بين أصابعه.

كان الرجل الذي تحدّث عن إرينه يعمل ساعيًا للبريد: يرتدي بدلة سوداء، وطاقيّة برأس مدبّب على شعره الأشقر الطفيف. رفع عينيه ثانيةً عن الورق الذي بين يديه، ورمق تومّازو إذ كان يشرب، وقال: «هل تغرغرتَ جيّدًا؟ خيرٌ لك، فالفتاة نومها ثقيل!»

وجّه تومّازو نظرة باترة إليه. ظلّ صامتًا، وطقطق لسانه بجوف فمه مرة أخرى، كمن يصحو توًّا ويعاود النوم: «يا شباب» قال بصوتٍ عميق ومتألم «يبدو لي الآن أنّكم تبالغون...». نظر إليه ساعي البريد، فرأى أنّه ليس قويًّا بقدر ما يدّعي، فانبرى بضحكة مجلجلة.

كان باينو وفوميتو والفتى مستمتعين بالمشهد بلامبالاة؛ أمّا البيترالاتيّون الثلاثة فلم يروهم حتى، كأنّهم لم يعرفوهم في حياتهم أبدًا.

أنهى ساعي البريد ضحكته المفتعلة، وعاد بعينيه الباسمتين للانشغال في لعبة الورق. وقال بهدوء: «أحدهم هنا، تنبعث منه رائحة كريهة».

شرب زيميو كأس الكونياك واقترب من الصندوق. «أعطني عشرة

سجائر وطنيّة» قال لصاحب الحانة الذي كان شابًّا في الثلاثينات من عمره وقد بدأ الصلع ينتاب صدغيه. رمى علبة السجائر على الرخام الفارغ بجانب الصندوق وأخذ النقود. وفي الأثناء كان كلٌّ من توماّزو وكارليتّو، الذي يحمل الغيتارَ خطّافَ القلوب على ظهره، يتوجّهان نحو المخرج. التفت ساعي البريد إلى زيميو هذه المرّة، وما زال يلعب الورق، وقال على القافية: «من أين لك المال للجلوس إلى المائدة؟ أتسرقه من حقيبة الوالدة؟»

كان زيميو يخرج من الحانة، فإذا هو يخرج عن طوره، أعماه الغضب المستفحل فانقضّ كابن الحرام على ساعي البريد، وأحكم قبضتيه على ياقة قميص الرجل، ووضع وجهًا لوجه وقال له وهو يبصق عليه: «أوه، لقد ضقت ذرعًا بك، أتدري؟». أمسك الرجل بمعصمي زيميو، ولم يعد يتمكّن من الإفلات منه، فوضع يديه على عنقه محاولًا أن يدفعه إلى الوراء لكي يتخلّص من براثنه. انتفض الآخرون واقفين، فأوقعوا كلّ الكراسي، وراحوا يشدّون زيميو من كنزته، وانهالوا عليه بعدّة لكمات على خاصرتيه. هبَّ توماّزو وكارليتّو للدفاع عن رفيقهما، وكادا يمزّقان ثياب أصحاب ساعي البريد. إلّا أنّ الغلبة كانت لصاحب الحانة والساقي، اللذين وثبا من خلف المصطبة، ليثبّتَ كلٌّ منهما المتشاجريَن من كتفيهما، وهكذا استطاعا تفريقهما.

وما لبث زيميو أن حالوا بينه وبين الرجل، حتى ملص بسرعة كحصانٍ جامح، مستعدًّا للانقضاض على غريمه مرّة أخرى، وفعل الرجل مثله محاولًا أن يمرّر ركلتين من الأسفل بكلّ قوّة. وكان الساقي يشبكه بشدّة ويقول له برويّةٍ وأنفاس لاهثة: «ما الذي دهاك؟ تتعدّى

على من هو أضعف منك... إنّه لك! لكنّها ليست مبارزة عادلة، يا شانغاي... أنت لا تصارع رجلًا، إنّما فتىً صغيرًا!». في حين كان صاحب الحانة يشبك زيميو بدوره ويهمس له بحرقة: «أيّها الشاب، إنّه لا يستحقّ أن توسّخ به يديك! أنت لا تعرفه! بالكاد يقوى على الوقوف على قدميه! لا بل إنّك ترتكب جريمة إذا ما صفعتَه!»

هدأ روع المتشاجرَين عند سماعهما تلك الكلمات. وخمد غيظ مَن حولهما أيضًا. رقَّ صاحب الحانة فجأة وأصبح ودودًا ومعسول الكلام. كان من الجليّ أنّه ضليعٌ ذو إلمامٍ معمَّق بما يخصّ المشاجرات. «يا شباب» بادر قائلًا «ماذا دهاكم، أيُعقَل أن يؤذي بعضكم بعضًا بسبب مهاترة تافهة؟»

«من الذي بدأ؟» قاطعه زيميو محتدًّا وناقمًا.

«هل أنا مَن تهجَّمَ عليك بيديه أيّها الحقير؟» ردّ ساعي البريد. لوّح صاحب الحانة بيده كأنّه يبعد ذبابة عن أنفه وقال: «إيييه!». هدأ خاطرُ الاثنين حينما اقتنعا بتلك اللفظة: "إيييه!"، وسكتا، وهما يعدّلان ثيابهما ممتعضين.

«ماذا؟ هل شتم أمواتك؟» قال صاحب الحانة.

«كلا» ردّ زيميو وما زال واجمًا مثل سماءٍ بعد عاصفة، معربًا عن لامبالاته.

«فماذا إذن؟» تابع صاحب الحانة «ألا ترى أنّه كان يمازحك؟ لقد دخلتم إلى هنا مع الغيتار، متحمّسين لعزف السيريناتا، فمَن سيرغم هؤلاء على عدم التفوّه بطُرفةٍ حول هذا الموضوع؟ ألم تكن لِتفعلها لو كنتَ مكانهم؟»

«كلا!» ردّ زيميو متقزّزًا، مؤكّدًا على عدم مبالاته بالأمر، وهو يرمق الرجل، مستعدًّا للإدلاء بـ"كلا" ضدّ الجميع، واحدًا واحدْ. لكنّ صاحب الحانة نظر إليه كثعلبٍ خبير، وعبّر بتكشيرة هزليّة عن طيب خاطر كأنّه يقول: "هيّا بنا يا فتى، كنتَ ستفعل الشيء ذاته! تبًّا لك!". تراخى زيميو حينئذ، ونفض كنزته المخطّطة بالأسود والأحمر. اختتم صاحب الحانة حديثه: «هؤلاء شبّانٌ طيّبون جميعًا!». عبّر الشبّان الطيّبون بما ينمّ عن فظاظتهم وسماجتهم، وربّما صفّر أحد الذين في الخارج مستنكرًا.

«ونحن أيضًا» قال تومّازو «ونحن أيضًا شبّانٌ طيّبون!»

«فإذًا» قال صاحب الحانة «ما الذي نفعله!». اتخذ قرارًا ارتجاليًّا، فاقترب من زيميو بوجهٍ يقول: «أوه، أتحسَبنا أجانب؟ نحن وإيّاكم من الأصل نفسه! اسمع مني، اسمع مني جيّدًا فأنا الشهم، لا تكن أخرق!»، وضع ذراعه على كتفه، وبعينٍ هائمةٍ في البعيد قرَّبه إلى ساعي البريد وقد ربَّت على كتف الأخير أيضًا، بموثوقيّة عالية، وجذبه نحو زيميو.

«هيّا» قال بسرعة «جميعنا إيطاليّون! تصافحا وتسامحا!» وكاد يستشيط غيظًا هو أيضًا، فقد يسوَّد وجهُه إذا فشلت المصالحة.

ربّت تومّازو على ظهر زيميو وقال له: «هيّا، لا تعاندْ، صافحْه!».
رفع كلٌّ منهما يدًا بفتور، وتصافحا، بعد أن هزّا أصابعهما في الهواء كمن يسحب يده العالقة في الصمغ.

«سبعة فناجين قهوة!» طلب تومّازو من الساقي الذي عاد في الأثناء خلف المصطبة. وبينما كان يحضِّر القهوة، تعارف المتخاصمون

وتبادلوا أطيب الكلمات، وتناقلوا عناوين سكنهم ومهنهم وإلى ما هنالك من هذه الأمور الجميلة.

وفي النهاية طلبوا من كارليتّو أن يغنّي أغنية، فما زال الوقت باكرًا. أنزل كارليتّو خطّافَ القلوب عن ظهره، وأسند قدمه على طرف كرسيّ، وشدَّ أوتار الغيتار، واتّخذ ملامح المطرب جاكومو روندينيلا، وراح يغنّي «ماروتزيلا» بكلّ عواطفه.

*

تودّعوا وخرجوا من الحانة بعد نصف ساعة. امتطوا الفسبا وانطلقوا نحو وسط غارباتيلا.

وسرعان ما لحق بهم رفاقُهم الثلاثة الذين ظلّوا في الحانة بعض الوقت، وما انفكّوا يتصرّفون بعدم اكتراث.

«أوه» صاح باينو بوجهه المرح الشبيه بوجه النمر «هل تعلم ماذا قالوا عنكم ما إن خرجتم؟»

«سحقًا لك!» صاح تومّازو عليه.

«قالوا إنّكم ثلاثة سفلة، وإنّهم في المرّة القادمة سيوسعونكم ضربًا!»

«سحقًا لك!» ردّد تومّازو عاليًا.

«وهل تعلم ماذا قالوا عنك؟» ردّ باينو «قالوا إنّ وجهك يشبه طبق العدس!»

«سحقًا لك!» صاح تومّازو للمرّة الثالثة.

ما زال الوقت باكرًا. تجوّلوا قليلًا في تلك المواقع، من شارع كريستوفر كولومبس إلى الممشى الأركيولوجيّ، بحثًا عن بائعات الهوى.

ثمّ عادوا إلى أعلى، عبْر كولومبس، نحو شارع الكنائس السبع، مرورًا بتلك الفسحة الكبيرة بحجم بلدة، والتي كانت آنذاك غارقة في ظلام دامس، فبدت مثل بحرٍ مقفرٍ مطوَّقٍ بسلاسل الأضواء.

لم يكن في شارع آنّا ماريّا تايجي الخاوي أيُّ أحد. البوّابة المؤدّية إلى الأفنية الثلاثة المفتوحة على بعضها كانت خاليةً وصامتة، تحت حيطانها الصفراء الشاهقة كأنّها جدران الهاوية، والمكتظة بالنوافذ المغلقة.

دخل الرفاق إلى الفناء الأوّل، فالثاني، فالثالث: كان في وسطه ثلاث شجيرات يابسة؛ وفي محلّ الجنبة الخضراء هناك تربةٌ متصلّبة كالصخر. وسياجٌ حجريّ على جوانب الطوابق الأرضيّة والأرصفة المثلّمة. تركوا أغراضهم هناك، وجلس أحدهم على السياج، وآخر على حافّة الرصيف، وآخر ظلّ واقفًا.

كانت إرينه تسكن في الطابق الثاني، قرب صفّ نوافذ السلالم المضاءة.

أخذ كارليتّو الغيتار وضمّه على حضنه وركبته المرفوعة، ودوزنه. دن، دن، دن، كانت الأوتار المشدودة تدندن بمرح، بما يشبه الرعشة، وسط ذلك السكون. ثمّ عزف الأكوردات التي تبدّدت بسعادةٍ وإحساسٍ في المحيط. وكان تومّازو يترقّب واجمًا، مضرّج الخدّين، حريصًا أن تجري الأمور على ما يرام، ممسكًا السيجارة بيدٍ ترتجف. بعد الأكوردات، التفت كارليتّو، وما زال منحنيًا بخصره لكي يثبّت الغيتار جيّدًا بين صدره وفخذه، وسأل: «ماذا أعزف؟»

«سيريناتا!» قال تومّازو محمومًا، بفمه المكشِّر.

«اعزف لها "مسجون"!» قال زيميو «فهي أغنية الحياة!»

«صه» ردّ تومّازو ممتعضًا ورذاذ اللعاب ينتر من فمه «أهذا وقت "مسجون"؟! اعزف السيريناتا، هيّا!»

أخفض كارليتّو رأسه إلى الغيتار، كأنّه يتفكّر في الأمر قليلًا، ثمّ رفع رأسه ثانيةً وقد تغيّرت معالم وجهه، وأسدل حاجبيه، ليبدو كيسوع الطفل، وأخذ يغنّي:

أيّتها الحلوة النائمة

وتحلمين أنّني أقبّلكِ

سأجعل نومتكِ هنيئة

بأغنيةٍ رقيقة،

إذا كان شذى الأزهار

يُقلِقُ راحتكِ

فإنّ غنوتي ستتوه

ما بين أوراق الشجر...

كان صوته جميلًا ورخيمًا وقويًّا، يرتفع إلى أعلى الفناء، وينهمر على الجدران الصفراء والمتّسخة، ويتغلغل في النوافذ المضاءة، ويطوف الأسطح، ويتنقّل من فناء إلى آخر، وسط كلّ ذلك السكون.

بدا كأنّ شيئًا قد حدث، مصيبة أو حفلة، على حين غرّة: لم تكن مجرّد سيريناتا، إنّما نغمٌ مجهول، ينمّي الهواجس، لشدّة ما كان مرتجلًا وشاعريًّا، يتشتّت هناك، ويضلّ طريقه، ما بين الأفنية.

وسرعان ما تجمّع بعض المفتونين: شبّانٌ ربّما كانوا يلعبون الورق تحت الدَّرج، وفتية؛ وكبارٌ وفتياتٌ، عائدون من السينما أو مطعم البيتزا. احتشدوا تحت نوافذ إرينه التي ظلّت مغلقة كما لو أنّ كلّ مَن يسكن بيتها كانوا أمواتًا؛ وكارليتّو يغنّي، والناس من حوله ساكتون، يصغون باحترام، ويحاولون أن يفهموا مَن نظَّمَ هذه السيريناتا ومن أجل مَن.

تجهَّم تومّازو كثيرًا بسبب خفقان قلبه المتواصل، الأمر الذي كشف سريعًا أنّه هو الذي وراء كلّ هذا. والفتيات اللواتي كُنَّ هناك، خمسة أو ستّة، تكهّنت إحداهنّ أنّ إرينه هي المستهدفة، وتوقّعت أخرى أن تكون صديقتَها، السمراء ذات ذيل الحصان، ورشحّت أخرى فتاةً أخرى، وهلمَّ جرًّا. ثمّ ينصرف بعضٌ ويجيء غيرُهم. ما عدا الفتية الصغار، تمركزوا هناك، إمّا واقفين أو مستندين إلى السياج، يستمعون إلى الأغنيات، مصمّمين على البقاء حتى نهاية الأمسية.

وكانوا ملتزمين بالهدوء بما فيه الكفاية، سوى أنّ أحدهم بين حين وآخر كان لا يقاوم، فينضمّ إلى الغناء هو أيضًا، بحاجبين مُسدَلين، مرسلًا ذقنه إلى أعلى، ومحرّكًا رأسه كمن يقول كلا، كلا، ويداعب الهواء بكفّيه متأثرًا للغاية. ثمّ يتوقّف عن ذلك، بابتسامةٍ تجعّد جبينه، عائدًا إلى وقاره كأنّه يقول: "أنا لا أحد! أنا لا أحد!"

كان الحضور متكوّنًا من أولئك الثابتين، وأولئك المارّين، الذين يتوقّفون قليلًا ثمّ يغادرون للخلود إلى النوم، فهذا أهمّ بكثير. لاسيّما الأمّهات المتبوعات بيناتهنّ المؤرَّقات.

بعد السيريناتا، غنّى كارليتّو:

أيّها الباب بين الأزهار...

فاقشعرّت الأبدان من هول التأثّر. وبعد هذه الأغنية، دندن قليلًا ثمّ تأهّب، فصدح:

يا موجة البحر

إنّكِ جميلة وفاتنة أكثر من الحوريّة،

لكنّ الجنيّة العجيبة التي خلقتكِ

وهبتكِ كلّ شيء، وسلبت منكِ القلب...

وبعدها:

يا إلهي...

يا لصوتكِ الزاخر بالعبرات...

تجمهر الحضور من حوله بما يشبه الجلسة، مثلما يحدث في الأفلام عندما يلتقي اللصوص تحت جنح الظلام. غابت أصوات صافرات الشرطة التي كانت تدوّي في الغالب كثيرًا، وكان المنضمّون الجدد يدخلون الحلقة محافظين على الهدوء، كما يفعلون في كلّ الأمسيات الجميلة. لا صوت إلّا لقرقرة خفيفة في البطون، تحتويها سعادةٌ غامرة، كأنّهم في عيد الميلاد أو الفصح.

كانت جلستهم عشوائيّة، ووجوه بعضهم تنحو إلى الهزل، وآخرين إلى الملل، وحواجبهم مقوّسة تكاد تطاول فروة شعرهم السوداء. لكن التأثّر كان واضحًا على جلودهم المقشعرّة، تتجيّش عواطفُهم جميعًا، وهم يستمعون إلى تلك الأغاني. وفي اللحظات الجامحة من أغنية «يا

إلهي»، تفتّحت نافذة إرينه وتسرّب منها الضوء.

وبعد لحظات خَفَتَ الضوء، لكنّ دقّات النافذة تباعدت أكثر. الفتاة كانت هناك، كلّها آذانٌ صاغية. فاستخدم كارليتّو كلّ الهواء الذي في رئتيه حتى كاد يغمى عليه.

«قلبي يتقطّع عند سماع هذه الأغنية!» غمغم شابٌّ أشقر وجذّاب في الجوار.

اتّفق الجميع على ذلك. وكان كارليتّو يغنّي، والنشوةُ تسمو به، حتّى كاد يرتقي عن الأرض فعلًا، مثل حوّامة، ليحلّق عاليًا.

«يا ملاك الفردوس، يا حبيبتي، يا وردةً جوريّة!» يغمغم فتىً آخر، كأنّه يضع نفسه محلّ تومّازو، متوجّهًا نحو الفتاة. «من أجلكِ لَأُصلّيَنَّ من الفجر حتى الغروب، ولَأطلبنَّ الصدقة، لكي أجعلكِ ملكة!»

يا إلهي... يا لصوتكِ الزاخر بالعبرات... كان كارليتّو يردّد شاديًا، محمولًا على أجنحة الأغنية وجمالها المقدّس؛ وكان جميع مَن حوله يحلّق معه، مثل الحوّامات، في السماء، فوق الأبنية.

وحالما انتهت تلك الأغنية، توجَّبَ عليه أن يصلها بأغنية أخرى على الفور، فاللحظة كانت مواتية تمامًا، فإن أهدرها أفسد كلَّ شيء. فغنَّى أوّل أغنية خطرت في باله، طالما أنّ الأمور تسير على أكمل وجه، وكان سعيدًا هو والآخرون، رفاقًا وغرباء:

أتيتُ من الآباما
والبانجو على ركبتيّ،
وسأعود إلى الآباما،

لألاقي حبّي الحقيقيّ...

نشرت هذه الأغنية أجواءً من البهجة والحبور، وحين انتهت أتبعها بأغنية ثالثة سريعًا، بعد أن تمعّن في أمرها قليلًا ورأى أنّها خيارٌ صائب:

حبيبتي مولاتي،
القمر يضيء زجاج شرفتكِ
وأنتِ متوارية خلف الستائر،
إنّي هنا أغنّي لأقول لكِ: أحبّكِ!
أطلّي عليَّ لتسمعي أغنيتي...
حبيبتي مولاتي،
لم يحن وقتُ النوم بعد،
فإن كان قلبكِ يسمح لي
فإنّي أتيتُ إلى هنا لأغنّي
أغنية الليل...
فلم لا تطلّين عليَّ
إن كان هذا القلب ينبض من أجلكِ،
حبيبتي مولاتي...

إلّا أنّ دقّات النافذة في الأعلى، بدأت تنغلق شيئًا فشيئًا، في منتصف الأغنية، ولم تنفتح بعد: وأطفئت الأضواء كلّها.

«انظر مَن هنا! انظر مَن هنا!» سُمِعَ صياحٌ آتٍ من العمق في

لحظة معيّنة. دخلت مجموعةٌ من الشبّان البوّابةَ من جهة شارع آنّا ماريّا تايجي. وكان القمر شديدَ الضياء حتّى إنّك تستطيع قراءة جريدة تحته. وكان تومّازو والآخرون يوضّبون أغراضهم ويتحضّرون للانصراف، فإذا هم يرون أنّ القادمين كانوا ساعي البريد ورفاقه من حانة غراتا.

لا بدّ أنّهم أسرفوا في الشرب، إذ كانوا يتقدّمون وهم يصيحون بأصواتٍ سرطانيّةٍ تلائم السكارى. توقّف أحدهم في الخلف، ربّما لكي يتبوّل قبل أن يصعد إلى منزله، وكان يغنّي هو أيضًا بصياحٍ مزعج، بينما يقهقه الآخرون وهم يمسكون بطونهم بأيديهم من خلال جيوبهم. وحينما بلغوا جماعةَ تومّازو، ألقى ساعي البريد نظرة وقال، محمرّ الوجه تحت شعره الأشقر المتفلّت من حوافّ الطاقيّة: «اسمع... أرسِلْنا إلى النوم سعداء... فنحن شغوفون بالموسيقى إلى أبعد الحدود». ثمّ أضاف بابتسامةٍ ماكرة تتفشّى على فمه المكوّر وعينيه السعيدتين: «الموسيقى تسري في عروقنا حقًّا. هات أسمِعْنا أغنية جميلة، هيّا!»

«أعتذر» قال كارليتّو «فأنا منهك، بل جميعنا منهكون. وعلينا أن ننصرف!»

«كيف؟ ألن تطربنا؟» قال شانغاي بنبرةٍ متألّمة ملؤها دهشةٌ وحزن «ألن تسدي لنا هذا المعروف؟»

«يا عزيزي» تدخّلَ زيميو «نحن لسنا من سكّان المنطقة! ستستغرق عودتُنا ساعةً كاملة بالدرّاجة الناريّة. هل استوعبتَ؟»

«إيبيه» نغّمَ شانغاي «لم تشرق الشمس بعد، وأنت تصرّ على

الانصراف! ثمّ ألست راغبًا في الانضمام إلى شلّتنا؟ ها؟»

كان زيميو في تلك اللحظة تمامًا قد تمكّن من تشغيل المحرّك بعد عدّة محاولات.

«هيّا فلننصرف!» قال بوجهه الطافح بالنمش، وقد بانت عليه ملامح الانزعاج والنعاس، تحت رأسه المحلوقة بالشفرة.

«أين تنصرفون، أين تنصرفون!» قال شانغاي بنبرةٍ متأنيّة ومتأمّلة «هل أنت تتصابى؟ مع أنّي لا أراك صبيًّا غنوجًا!»

«غنِّ له هذه الأغنية وخلِّصْنا!» قال تومّازو متعجّلًا، لأنّه لم يشأ إفساد الجوّ مع هؤلاء الأصدقاء الجدد.

نهض كارليتّو عن السرج، متردّدًا ومتضايقًا، وكان يفعل بيديه شيئًا وبوجهه يعبِّر عن شيء مخالف كلّيًّا. دوزن الغيتار.

«هيّا، فسوف ندفع لك ثمن لتر من الخمر!» قال شانغاي.

«أجل، في الغد!» قهقه صاحبٌ له.

كان باينو وفوميتّو والأمريكيّ يستمتعون بالمشهد كأولاد الساقطة، متراصّين على سرج درّاجتهم، ويتلذّذون برؤيتهم راضخين.

دندن كارليتّو قليلًا، ثمّ غنّى أوّل أغنية خطرت في باله، لإحماء صوته تدريجيًّا:

يا أوتار قيثارتي...

وعندما أنهاها، أبدى شانغاي ورفاقه أمارات الرضا. «ياه، سيكون لهذا الفتى مستقبلٌ واعد!» قال أحدهم، وكان دميمًا وسمينًا وقصيرًا، بطول أيّ* ونصف «حنجرته ذهبيّة، ها؟»

استأنف زيميو محاولات الضغط على مدوس المحرّك دون أن

يتمكّن من تشغيله.

«ماذا تفعل؟» قال شانغاي مستاءً «ماذا تفعل؟ ها، هل نويتَ الذهاب الآن؟ هل تريد أن تتركنا؟ كلا! ما زال الوقت باكرًا!»

«باكرًا من أَيْ**!» ردّ زيميو.

«ماذا تقول؟» هتف شانغاي ثمّ نفخ صفيرًا بصوتٍ عذبٍ ومُرّ، وهو يبتسم على مضض «هذا لا يجوز!»

«يا أسمر!» اتجه إلى كارليتو بنبرة مسالمة «غنِّ لنا أغنية أخرى، أشعِرْنا بأنّنا شيءٌ ما، **أونلي يو!**» نطق الكلمتين الأخيرتين بحماسةٍ حتى كاد يعضّ شفتيه المتكورّتين من هول اللذّة.

«علينا أن نغادر أيّها الشيء!» قال كارليتّو واهنًا، إذ كان عليه أن يتفق مع صاحبيه، لأنّ الآخرين كانوا يفوقون ضِعفَهم عددًا.

تابع شانغاي مصرًّا: «ما زالت الساعة منتصف الليل» هتف «لا تهوِّل الأمر!». كان منهارًا، يبعث على الشفقة، ويحثّ شبّان بيترالاتا أن يكونوا بعقولٍ منفتحة، أن يكونوا كبارًا مثله.

«أغنية واحدة، ها» قال تومّازو حينذاك «ثمّ ننصرف!»

«أجل، أجل» ردّ شانغاي.

غنّى كارليتّو أغنية «Only You/أنت فقط».

«أوه، إنّ لهذا الفتى مستقبلًا مشرقًا!» قال أحد أصدقاء شانغاي، يدعى تينتورا، عيناه خضراوان؛ وعندما كان ينفعل يصبح بعينٍ خضراء وأخرى حمراء، مثل القطط السيبيريّة. «غنّ لنا "Timber Jack"، لنرى كيف تؤدّيها!»

زيميو أطلق ريحًا، وكاد يضحك.

«ماذا، هل تتحدّث عن الحبّ؟» قال له يا مُطلِق الرّيح، كلّه عينان وشعر، يقبع في ظلّ شانغاي.

«فلنذهب، فلنذهب، فلنذهب!» قال زيميو غاضبًا، وهو يدوس على مدوس المحرّك بكعبه، فشغّله ووثب إلى مقدّمة السرج.

«مهلًا! وكن حليمًا، ها!» قال شانغاي «ألم تسمع ما قاله أحد أصدقائي؟ لقد عبّر عن رغبته بسماع "Timber Jack"، وأنتم تريدون المغادرة بهذه الطريقة؟»

«شانغاي» قال زيميو بهدوء «أو أيًّا كان اسمك، هل تحسَبنا حجيجًا؟ دعنا نذهب وشأننا، دعنا نمضي في طريقنا، لكي تنتهي هذه المجادلة على الفور!»

«أوه، يا لك من شرّير!» قال الأشقر، فاغر الفاه، مصدومًا، مثل راهبٍ أو رجلٍ طيّب، بعينين تطفحان بالدهشة. «انظروا بمن علقنا... مع أنّهم لا يبدون كذلك للوهلة الأولى! يبدون أناسًا طيّبين!»

«هيّا، اركب» قال تومّازو لكارليتّو. وصعد على السرج خلف زيميو، وكان كارليتّو سيركب خلفه.

وإذ، يتحرّك تينتورا برفق وهدوء ويسحب الغيتار من يدي كارليتّو الذي فوجئ بالهجمة المباغتة فتركه يستحوذ على الآلة لئلا تتحطّم. قلّب تينتورا الغيتار بين يديه، على الجانبين، وهو يتمعّن به.

«انظروا إلى هذا الغيتار» قال برويّة وحياديّة، مأخوذًا باهتمامٍ فنيٍّ محض «مَن أبكيتَ أيّها الغيتار؟»

«أبكى أرواح موتاك الملاعين!» صرخ تومّازو وهو يقفز عن السرج. رمقه تينتورا كامدًا من الغضب. تقشّرت ابتسامته وسقطت عن

وجهه الذي صار قطعة لحم بيضاء، بفمٍ معوّج إلى أسفل، وأنفٍ قائمٍ تحت غرّته المصبوغة، وعينين تقدحان حذرًا وتعجّبًا عميقين.

هزّ رأسه قليلًا كمن يبعد عنه بعوضة تحوم حوله، منزعجًا لكنّه ما زال يحافظ على هدوئه، ثمّ جعّد أنفه وسأل: «ماذا قلت؟»

صرَّ تومّازو أسنانه بضراوة وشراسة.

«أرواح موتاك الملاعين!» صرخ ثانيةً وهو يبصق رذاذ لعابه.

انتفض تينتورا وأمسكه بكلتا اليدين من ربطة عنقه وجذب وجهه إلى وجهه المستعر بالغضب. «أيّها النذل» كان يصيح «يا بن الساقطة، أنت تلعن أمواتي، أنت تلعن أمواتي!»

«أخرجْ أحشاءه!» هتف شابٌّ أشقر.

كان تومّازو يحاول الإفلات منه، لكنّه لم يستطعْ وهو مقيَّدٌ بذلك الشكل: شدّ على معصمي تينتورا وحاول أن يقتلع أكمام كنزته، لولا أنّ الأخير ازداد غليانًا وأحكم خناقه بكلّ قوّة.

لم يعد تومّازو يبصر أمامه، فصعقه بركبته على بطنه بكلّ ما أوتي من عزم. انثنى تينتورا على نفسه، وكاد يغمى عليه من الألم، فأخذ يتلوّى حتى تدحرج على الرصيف، ويداه على بطنه.

شمَّ الجميعُ رائحة الدماء: بعد أن سدّد تومّازو تلك الضربة، قفز إلى الخلف على سياج البيت، وقد أسعفه الوقت إذ كان شانغاي يهاجمه مؤازرةً لصديقه.

أولى ظهره لرفاقه وهاجم خصمه، برفسةٍ قويّة، على منطقة البطن، إلّا أنّ تومّازو تفاداها إذ تحامى بسياج السلالم.

فانقضّ شانغاي على تومّازو مباشرة لكي يهرسه هرسًا، وهو يلوّح

بلكماتٍ ولطماتٍ توحي بأنّه سيمزّقه إربًا ويحيله إلى رمادٍ وثيابٍ ملطّخة بدمائه. وبدا أنّ تومّازو كاد يختفي وراءه، لأنّه أطول منه ضِعْفًا.

ولكنْ، في اللحظة التي طوَّق الآخرون تومّازو في حلقتهم لكي يصرعوه بالضرب المبرِّح إذا ما تمكّن من النيل من رفيقهم الأشقر، توقَّف هذا فجأة وشبك أضلاعه بيديه. «يا إلهي، يا أمّاه!» صاح بأنفاس متقطّعة ولاهثة، وظلَّ متسمّرًا في مكانه كما لو أصابه الشلل.

وكان تومّازو هناك، بمحاذاة السياج، والمطوى بيده. وسرعان ما ولّى الأدبارَ كلٌّ من باينو ورفيقيه عندما شاهدوا شناعة العراك، واختفوا في آخر الفناء المؤدّي إلى شارع تايجي.

فكّر تومّازو بالهرب من الناحية الأخرى، ولكنْ ما من مَخرَجٍ هناك.

«أمسِكوا به!» صاح تينتورا على أصدقائه الذين وقفوا حائرين. وكان شانغاي متشنِّجًا هناك، وقد أدخل يديه تحت السترة، وجسَّ بهما القميص، ثمّ أخرجهما ملطّختين بالدماء.

وعندئذ أخذ يصيح مستنجدًا، واستند إلى السياج بظهره: وهكذا هبط شيئًا فشيئًا متمسِّحًا بالطوب المخدّش، وقعد في مكانه، فيما كان الآخرون ينظرون إليه ويحاولون إغاثته تارةً، ويحاولون الإمساك بتومّازو تارة أخرى.

وفي غضون ذلك لاذ زيميوّ وكارليتّو بالفرار كلٌّ بمفرده، واختفت آثارهما في عمق الفناء.

وبقي تومّازو وحيدًا، يتعقّبه اثنان أو ثلاثة من تلك الشلّة، حتى وصل إلى مكانٍ مفتوح، فتوقّف قليلًا على غير هدىً ليرى ما الذي

يحدث: وإذ أدرك أنّه قادرٌ على الهرب، ركض مستميتًا في رحاب اليأس، لاهث الأنفاس، نحو شارع تايجي الذي أطبق عليه الظلام.

الفصل الثاني

1 - عطن الحرّية

كان توركواتو بوتزيلّي، والد تومّازو، موظّفًا في البلديّة. وحين يُقال "موظّفٌ في البلديّة" يكون المقصود دائمًا "زبّال". لا شكّ أنّه عندما كان في بلدته، كان يعيش أوضاعًا أفضل: صحيحٌ أنّه من عائلة عمّاليّة، إلّا أنّ جباههم كانت مرفوعةً، وحينما ينتصف النهار تعمر مائدتهم دائمًا، بطبقين على الأقلّ.

كان توركواتو يمتلك بيتًا صغيرًا، مبنيًّا من حجر الطفة، وسط الريف، على بُعد كيلومتر عن إيزولا ليري، وقد ورثه عن أمّه. وكان حول البيت بعض الأمتار من الأراضي الزراعيّة، التي كان يحرثها؛ ثمّ شيّد فيها حظائر للخنازير والخرفان والدجاج. ومع هذا عُيِّنَ توركواتو أيضًا بوّابًا في مدارس إيزولا ليري. وهكذا استطاع أن يتزوّج السيّدة ماريّا، بعد أعوام طويلة من العذاب. ولد نجلهما في العام 1934، وتومّازو في 1936؛ ثمّ طفلةً ولدت ميّتة. وعندما اندلعت الحرب، استدعي توركواتو، وعاد إلى دياره في الثامن من سبتمبر[22]، فارًّا كالآخرين جميعًا. وما لبث أن اضطرّ إلى هجرةٍ ثانية، حاملًا معه كلّ ما يملك هذه المرّة، وملتحقًا بركب النازحين الهاربين باتجاه روما.

---

22 الثامن من سبتمبر عام 1943، اليوم الذي وُقِّعَتْ فيه المعاهدة على الهدنة بين إيطاليا وقوات الحلفاء. المترجم.

وعندما وصلوا إلى روما، حفاةً منهكين يتضوّرون جوعًا، بحالٍ تصعب على الغجر، ألقي بهم مع مشرَّدين آخرين في إحدى مدارس مارانيلا، مدرسة ميكيلاتزي، والتي ستسمَّى بيساكاني بعد سقوط الفاشيّة.

لقد خسر السيّد توركواتو كلّ شيء في بلدته: إذ سحقت الطائراتُ بيتَه، ودمّرت المدافعُ حظائرَه، فيما تكفلَّت الدبّابات باستئصال حتّى رائحته من هناك.

وحينما وصل الأمريكيّون إلى روما، جُمِعَ توركواتو وعائلته وكلّ البؤساء الذين كانوا معهم وطُرِدوا من المدرسة، لإنزال العساكر فيها. وفي مساعي إقناعهم بالإجلاء، أعطي كلّ واحد منهم ظرفًا يحتوي على فلسين. لكنّها لم تنطلِ عليهم، إذ كانت السبل قد تقطّعت بهم، فإلى أين يرتحلون؟ وهكذا، في أحد أيّام الصيف، حيث الأجواء الحارقة التي تحيل كلّ حصاة إلى جمرة، قَدِمَ الحرس، وساقوهم بشكلٍ تعسُّفي، ورموهم على قارعة الطريق شبه عراة.

تدبَّرَ كلّ واحدٍ منهم شأنه على قدر مستطاعه، على مبدأ: كلٌّ لنفسه والله المستعان. فمنهم مَن استقرّ في أحد الأقبية بألفي ليرة في الشهر؛ وآخرون استوطنوا مرأب سيّارات؛ ومنهم مَن بنى كوخه تحت الأقواس المشروخة أو وسط بناية مهدّمة، باستخدام الأنقاض نفسها.

وهكذا استقرّت عائلة بوتزيلي في كوخ الصفيح على الطريق بين بيترالاتِا ومونتيساكرو، بجوار المنحدر على نهر الآنييني: تركه لهم أحد الفلّاحين الذي جمع أموالًا طائلة بالسوق السوداء ثمّ ألقي القبض عليه. وظلّوا فيه منذ ذلك الحين. وفي البداية تدبَّرَ توركواتو أمره

حسب قدرته، ثمّ أدخلوه إلى البلديّة، وصار زبَّالًا.

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، شرع توركواتو في تقديم ألف طلبٍ وطلب للحصول على بيت: لدى البلديّة، ودائرة النفوس، والقساوسة، والقدّيسين جميعهم. إلّا أنّ الشهور مرّت، والسنون، وما زال بيته هو الكوخ ذاك، في قرية الصفيح تلك، والذي يكاد يشتعل نارًا في الصيف، ويكاد الطين المائع يجرفه إلى النهر في الشتاء. وبات مُسلِّمًا أمره بتعزيز جذوره في ذلك المكان، مع زوجته وأولاده، على مدى الحياة.

إلى أن جاء يومٌ ظهرت فيه البنايات فجأة، في شارع تيبورتينا، فوق ثكنة فورتي بقليل، على المروج والمنحدرات، تنفيذًا لأحد مشاريع الإسكان الذي أقامته المؤسسة الوطنية للتأمينات، باسم «مساكن إنا». كان لتلك البيوت أشكالٌ غريبة، أسطحها مدبّبة، ومزوّدة بشرفات واسعة، وملاحق، ونوافذ مدوّرة وبيضويّة. حتى بات سكّان قرى الصفيح المتاخمة يطلقون على تلك المساكن الجديدة أسماء غرائبيّة: أليس في بلاد العجائب؛ القرية المسحورة؛ أورشليم... إلخ. يسخرون منها في العلن، وفي السرّ يتمنّون أن يسكنوا فيها: «إيييه، وأخيرًا سأحصل على بيتٍ فيه جناحٌ للحريم!». ولم يبقَ أيُّ مهمَّشٍ أو مهجَّرٍ أو نازحٍ إلّا وجرّب حظّه وقدَّمَ طلبًا، مؤملًا في الفرار من الجحيم الذي كان يعيش فيه.

لا بل ما إن اكتمل بناء الحيّ تقريبًا، وبدا فارغًا وبهيًّا وسط أكوام القمامة وبرك المياه، حتّى اجتمع سكّان العشوائيّات وتآمروا وأطلقوا حملتهم: توجّهوا لاحتلال الحيّ، مثلما يحدث في أفلام الغرب الأمريكيّ، ومَن يصلْ أوّلًا يستحوذْ على ما وصل إليه.

وكانت غالبيّتهم من النساء: دخلن ما بين بيوت المشروع، حيث

إنّ الطرقات لم تُمهَّد بعد، وطردن الحرّاس، وتشاجرن ما بينهنّ أيضًا، واستخدمن البلطات على بعضهنّ حين اقتضت الحاجة، واحتللن الشقق واستوطنَّ فيها.

وظلّوا مغلقين على أنفسهم سبعة أيّام، حتى وصل رجال الشرطة وطوّقوا البنايات: سيّارة جييب وشاحنات صغيرة، تصول وتجول، وتوصد مداخل أورشليم.

اشتركت السيدة ماريّا أيضًا في غزوة النساء، واحتلّت بيتًا، إذ تكفَّل ابنها الأكبر بالاعتناء بتيتو وتوتو في الكوخ، وكان يحمل إليها خبزًا وطعامًا كيفما استطاع، لأنّ الشرطة كانت تفتح الحواجز تارة وتغلقها تارة أخرى، وتطلب من الجميع إبراز بطاقاتهم الشخصيّة.

وذات يوم، لا بل ذات مساء، كانت الأمطار فيه تنهمر بغزارة، جاءت الأوامر بإجلائهم من هناك: قَدِمَ المحافظُ شخصيًّا، وعادت الأمور إلى طبيعتها في غضون ساعات، وتمّ اعتقال قرابة الخمسين امرأة، وعادت القرية إلى سابق عهدها مقفرة وخاوية على عروشها، ليخرج أواخرُ المطرودين وهم يحملون على رؤوسهم فُرُشَهم المتسخة والملفوفة.

مرّت بضعة أشهر، وقدمت العائلات الأولى المرخَّص لها بالسكن: كانوا موظّفين في البلديّة، كلّهم تقريبًا، أي إنّهم أقلّ الناس احتياجًا. وما زالت بعض الشقق فارغة، لكنّ الطلبات بالآلاف. وها قد تجلّى واحدٌ من مئات القدّيسين، الذين تصلّي لهم السيّدة ماريا، كلّ يوم منذ ما يِزيد عن عشرة أعوام.

مَن كان ليصدِّق؟ إحدى شقّق مساكن إنا سُلِّمَت لتوركواتو بوتزيلّي. اللعنة! لقد تعب الحظُّ من الركض خلفه بالعصا! أثلج الخبر

صدر السيّد بوتزيلّي وجعله فرحانًا يغنّي، فقدَّم المشاريب لجميع سكّان الأكواخ، وحطَّم بعض الأطباق القديمة كتعويذة من عين الحسود، ووزَّع بعضها على الجيران، وفي النهاية اتّفق مع أحدهم ليبيعه الكوخ بخمسة آلاف ليرة، ياه! متى رأى مبلغًا كهذا! أخرج أغراضه كلّها، وشحنها بعربة يدويّة صغيرة. وبعد ذلك، وقف عند باب البيت، حاملًا حوضًا معدنيًّا معبّأ بالماء، ودلقه على الأرض بحيث فاض المدخل، لأنّه لم يكن ينوي العودة إلى هناك إطلاقًا، حتى لو كان جثّة هامدة.

وهكذا استقرّت عائلة بوتزيلّي في مساكن إنا: في شقّة مكوّنة من غرفتين ومطبخ، وبدت وسيعة جدًّا، لأنّه خلال ذلك الوقت كان تومّازو ما يزال في السجن، بينما توفّي تيتو وتوتو واحدًا بعد الآخر ولم يعد لهما وجود.

في البدء، مرض تيتو: جاءت والدته ذات صباح لتخرجه من الصندوق حيث ينام، فوجدته يبكي وقد اتّسخ بالمخاط والقيء. فحملته بين ذراعيها فورًا، وحاولت أن تهوّن عليه، لكنّه ما فتئ يبكي، ورأسه هائمة على كتف أمّه التي لم تعد تستطيع حمله.

أعادته إلى الصندوق، وشرَّبته كأسًا من النبيذ الساخن ليُدفئ دماءه.

غفا الطفل قليلًا شبه مخمور، لكنّه عندما أفاق كان بوضع أسوأ من ذي قبل، وتقيّأ كأس النبيذ أيضًا.

وظلّ يشعر بألمٍ متزايد طوال النهار، والليل أيضًا. وفي الصباح التالي، صحبته والدته إلى مستوصف بيترالاتا، بعد أن تردّت حالته كثيرًا فبات لا يرى.

كان الشتاء، واستغرقا وقتًا طويلًا في الوصول، بسبب المشي على الطين وتحت المطر. وقفت به في الطابور، عند أبواب المستوصف الذي كان في أحد التجمّعات السكنيّة المجاورة لموقف الحافلة؛ وعندما حان دورها قال لها الطبيب إنّ الولد في حالٍ بالغة السوء، ومن الأفضل نقله إلى المستشفى. فتوفّي تيتو بعد يومين في المستشفى، بعد أن توجَّع وصاح من آلامه وتلوّى ليلةً بأكملها.

أمّا توتو فقد أمسى مصدومًا بعد فقدان شقيقه: وجد نفسه وحيدًا فجأة، عند مدخل الكوخ، وبين جدران الصفيح والغسيل المنشور، ولم يستطع التأقلم مع وضعه الجديد.

إذ كان دائمًا في صحبة تيتو، وما زال يظنّ أنّه على قيد الحياة، إلى جانبه. وكان بين الفينة والأخرى ينادي عليه، وينادي عليه، ثمّ يتشبّث بأهداب ثوب والدته، كأنّه يسألها أن توضِّح له ما جرى. ثمّ ينسى أمره بعد قليل، ويعود للعب وحيدًا بالتمرّغ في الوحل، ثمّ يتوقّف فجأة وينظر حوله حزينًا ينادي على تيتو.

ثمّة حقيبة في البيت، مهترئة وفارغة حيث كان توتو وأخوه يجلسان فيها، متظاهرين بأنّهما على متن شاحنة صغيرة. عاد يجلس فيها آنذاك، وحيدًا، يناغي «ررررر» «ننننن»، ثمّ يسكت ويغفو ملتحفًا كالكرة بأسمالٍ بالية. وكان يطوف في الكوخ والفناء كالأعمى، وهو ينادي ساعات متواصلة على أمّه: «ماما! أمّاه!»

وِكان في البيت كرة صغيرة أيضًا، مصنوعة من الخِرَق المكوَّرة بعضها على بعض. بتلك الكرة تحديدًا، خرج ذات يوم مشمسٍ للعب، بعد أن وجدها عن طريق الصدفة تحت أحد الصفائح الصدئة في

الملحق. كان يرميها بكلتا يديه إلى السماء، ثمّ يركض لالتقاطها حيثما سقطت: جرّب أن يركلها وقد احمرّ وجهه من التعب ليتّخذ معالم الشراسة. جرَّب مرّةً فأخفق، ونجح في الثانية متعثّرًا، وكاد يقع أرضًا، ثمّ ركلها في الثالثة برأس قدمه فطارت الكرة بعيدًا.

خرج من فناء البيت، ليلعب بين الأكواخ الأخرى، وقطع الجسر من فوق الخندق الذي يفصل قرية الصفيح عن الطريق العامّ، وراح يلعب حيثما وجد نفسه.

وبينما كان يركض مسرعًا خلف الكرة، قدمت سيّارة من خلف المنعطف إلى مونتيساكرو: ولم يسعف الوقت سائقها للفرملة، فدهسه بمقدِّمة السيّارة وقذف به إلى الخندق.

ارتطمت رأس توتو بصخرة ناتئة من الطين، وخمد عندها محشوًّا بكنزاته التي ارتدى بعضها فوق بعض، وبنطلونه القصير المتّسخ وجواربه الملفوفة على الحذاء البالي: كان بلا حراك، كأنّه نائم، سوى أنّ قطرة من دمائه ترشح من خلف أذنيه لتلطِّخ الأعشاب المتيبّسة تحت الصخرة.

تومّازو كان غائبًا عن كلّ تلك المآسي. كان يقيم في المنتجع داخل السجن، لا بل أمضى وقتًا طويلًا حتّى كاد يتعفّن فيه، ولم يبقَ عن الإفراج إلا بضعة أشهر.

إيه، كانت السيّدة ماريّا محقّة عندما كانت تكرّر على مسامعه مرارًا: مَن يلاعبِ الليل يذقِ الويل! لم يكن يأخذ بنصيحتها، لكنّ الطعنة التي سدّدها في غاربانتي كلّفته غاليًا، وبات لديه من الوقت ما يكفي للندم.

باختصار: فرَّ بجلده من شارع ماريّا آنّا تايجي نحو كريستوفر كولومبس، متعجّبًا من كونه لا يزال حيًّا يُرزَق. فكّر في أنّ الشرطة قد تدهمه من تلك الناحية، فاختبأ في جارور الصرف الذي يمرّ تحت الشارع العامّ، بين مستنقع وآخر: بجانب حائط النفق، والمياه القاتمة والآسنة، ثمّة قطعة ترابيّة أشدّ قتامة ونتانة. هبط تومّازو عليها، وتمدّد بين ثلاث كتل من البراز المتيبّس الذي تغوّطه الأولاد، ونام متجمّدًا من البرد.

ومع بزوغ الفجر، باشر السير نحو بيترالاتا بخطوات متهادية وحذرة، حتى وصل إلى مشارف قرية الصفيح. كان يمشي بعينين تراقبان الوضع، في حالة تأهّب لكي ينجو بجلده ما إن يوقفه أحدٌ ما، ويحدّث نفسه: «آمل ألّا يعترض طريقي أحد، وأنّهم لم يتعرّفوا عليّ!»، ويضيف في سرّه: «لكنّي سأتفحّص الأجواء أوّلًا، فإن كان هناك ما يثير الشبهة فإنّي لن أعود إلى البيت!»

اقترب ونظر بهدوء، فلم يجد سوى أطفال يُحدِثون الضوضاء ويلهون بين أعمدة الأفنية.

فاطمأنّ، واتّجه ليدخل البيت. فتح الباب فإذا هو يجد الشرطة في الداخل.

ودون أن يفكّر مرّتين، انطلق صوب منحدر النهر، باتجاه أعواد القصب: لكنّ رجال الشرطة رأوه وسرعان ما انقضّوا للحاق به. ركض تومّازو، التفت فرآهم خلفه؛ وفي الوقت نفسه كان هناك رجلٌ آخر متوارٍ عن الأعين في سيّارة النمر، شغّل المحرّك ومضى. فظهر في وجهه وصوّب فوّهة المسدّس على أنفه: «قف يا بوتزيلّي، فلن نؤذيك!»

اعتقلوه وأخذوه إلى المخفر، وباختصار: زجّوا به في السجن.

وبعد مضيّ شهرين، قدم السجّان إلى زنزانته ذات مساء، وسلَّمه ورقة الاستدعاء للمثول أمام المحكمة. نظر كبير السجناء وأكثرهم خبرة في الورقة، وكان ملمًّا بقوانين السجلّ المدنيّ حتّى وضعها في جيبه الصغير، وقال: «اللعنة! هذا استدعاء عاجل، سيأخذونك إلى الفصل الثالث! يوم الأربعاء يصادف رقمًا فرديًّا، سيكون هناك ماتاكيوني... وإن مثُلتَ بين يدي القاضي ماتاكيوني فإنّه سيقضي عليك يا ولدي... خيرٌ لك أن تتظاهر بأنّك مريض، فلتُرجَئ الجلسة!»

وبالفعل، قضى عليه ماتاكيوني: غرست النيابةُ العامّةُ القانونَ الجزائيَّ في صدره، وكادوا يحكمون عليه بالسَجن المؤبّد؛ أو بحسب لغة المساجين: ثلاثة أيّام سردينيّة، اليوم وغدًا وإلى الأبد.

وهكذا عاد تومّازو إلى زنزانته في العنبر الثالث، منهارًا ويائسًا، يحمل حُكم عامين على كاهله. «أوه، كم حكموا عليك؟ كم حكموا عليك؟» سأله الزملاء صارخين. «عامان تقريبًا». «آه، يا لك من محظوظ! ستنقضي المدّة أسرع من دخولك المرحاض للتغوّط، وما إن تخرج حتّى ترى أنّك حرٌّ طليق!»

كان ذلك في أوّل أمسية من محكوميّته، أمسية جميلة من الصيف الرائق، زاخرة بالضوء الصافي الذي لا يفنى. الجلبة المعتادة مسموعة في أرجاء السجن: المساجين الذين في العنابر يتنادون ويثرثرون هانئين، وأولئك الذين في مرحلة العبور يبكون ويندبون، إذ حان الغسق: ساعة المسجون.

ثمّ ضجّت أصواتٌ أعلى وأبهج، وانتقلت من عنبر إلى آخر، مع

هبوط الليل. «أيّها الجواسيس في العنبر الخامس! يا أبناء الديّ**!» صاح أحدهم. فجاءه الجواب: «كيف تشتمني وأنا صهرك!». يردّ عليه الأوّل: «اسمعني، لقد جلبت لي زوجتُك الصرّةَ هذا اليوم!»

راحوا يتشبّثون بالقضبان واحدًا تلو آخر، ليصرخوا معًا، خلال النسمات التي تداعبهم. «أيّها الساقط، لقد دخلتُ السجن لأنّي عاشرتُ أختك!». «يا رجال العنبر الخامس! لقد دخل اثنان من الخونة إلى سجنكم اليوم! وهما غدّاران أفشيا بكثير من رفاقنا، فاسلخوا جلدهما!». «يا شيبي، تكفَّل بالأمر بنفسك!». «ها أيّها الضعيف، ألديك ما يُحرَق؟ ألم تأتِكَ زوجتك بالسجائر؟ أعطني بعضًا منها!»

ومن البعيد، من رابية جانيكولو، المزيّنة بالأضواء، والمعانقة لنسائم المساء، تهبط أصواتُ الآتين لمناداة أصدقائهم وأقاربهم، لاسيّما بائعات الهوى اللواتي يأتين للتحدّث مع قوّاديهم.

يُسمَع صراخُ طفل، وهو ينتأ عن السياج: «بابا، سنأتي أنا وأمي لزيارتك في يوم الأحد! لا تيأسْ!». وهناك بائعة هوى، لا صوت يعلو فوق صوتها الصدّاح والحادّ كالمثقاب: «يا بنغالا! تركتُ لك اليوم ألفي ليرة عند الباب!»

ثمّ تأتي ردود المساجين: يبدأ رجال العنبر السابع، الأقرب: «ماريّا!» يصيح أحدهم «أريد أن أموووت!». «اقتل نفسك إذن!» تردّ عليه.

كان الليل يتقدّم على ذلك النحو. وحوالي منتصف الليل، ثمّة مسجونٌ، هو نفسه دائمًا، يبدأ بالزعيق من زنزانته: «إخواني! يتحدّث إليكم صوتُ الروح». فيجيبه المساجين من كلّ العنابر بصوتٍ واحد: «اللعنة على روحك!»

*

أطلق سراح تومّازو واستعاد حريّته في غروب يومٍ جميل من شهر مايو. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يرى فيها مساكنَ إنا بعد أن أُنجِز المشروع. فعندما دخل السجن كانت المنطقة ما تزال مجرّد ورشات بناء متفرّقة، ينظر الناس إليها بعين السخرية، إذ كانوا قد أدركوا منذ ذلك الحين أنّ النتيجة ستخيّب الآمال. أمّا آنذاك فقد اكتمل المشروع وأصبح جاهزًا، مسيّجًا بسور حجريّ أمام المزارع والمروج التي ظلّت على حالها مكتظّة بأكياس القمامة. الشوارع الجديدة تتلوّى بين المنازل، الزهريّة، والحمراء، والصفراء، الملتوية بدورها، والمزوّدة بالشرفات والملاحق وصفوف الأفاريز. بدا له الحيُّ الجديد مثل أورشليم فعلًا، وهو يراه من نافذة الحافلة، نظرًا إلى واجهاته المحتشدة، واحدة فوق الأخرى، قبالة المروج وخلف الكهوف القديمة، تحت ضوء الشمس الساطع.

نزل تومّازو في فيورنتيني، ورجع بخطاه إلى أعلى ودلف الشارع الأوّل الذي يتغلغل إلى أحشاء الحيّ. نظر إلى اللافتة: اسمه شارع لويجي تشيزانا. «شارع لويجي تشيزانا» قال تومّازو وهو يمضغ ريقه مسرورًا «فلندخل شارع لويجي تشيزانا هذا!». كان قلبه يخفق بشدّة، حتّى كاد يتسبّب لرأسه بالدوار. وكان يعلم أنّ بيته يقع في شارع دي كريسبولتي رقم 19، ولكنْ لم يكن لديه أدنى فكرة عن كيفيّة الوصول إليه. نظر حوله واجمًا، فاغر الفاه متّسع العينين. «ما أدراني...» قال في نفسه. لم يعرف لمن يوجّه سؤاله، إذ كان يشعر بالخزي من الناس بسبب سجنه. صحيحٌ أنّه لم يُكمِل العامين، وأنّه كان حينذاك خارجًا

يَخمُّ بعطن الحريّة؛ إلا أنّه كان يستصعب أن يعلم بشأنه أهالي الحيّ الجديد الذي سيسكُنه. أوقف بغتةً أحدَ الفتية الأوغاد الذي كان يركض نحو البيت حاملًا زجاجة الحليب. «أيّها الفتى» قال له بنبرة حادّة «أين يقع شارع دي كريسبولتي؟». فأجابه: «هناك في الأعلى، عند نهاية الطريق، إلى اليمين!». اتّبع تومّازو الإرشادات بخطوة هادئة، لكنّه أشعل سيجارة قبل ذلك، فوصل إلى الشارع وهو يدخّن.

كان آخرَ الشوارع في مساكن المشروع: ينعطف نحو المروج المتموّجة التي أحرقتها الشمس. ستّ بنايات أو سبع، معوجّة ومشوّهة، فيها نوافذ مدوّرة وملوّنة بالزهريّ الغامق، وأبوابٌ تعتلي خمس أو ستّ عتبات، والكثيرُ من الأسوجة الملتوية التي توحّد تلك المباني لينتهي الشارع خلفها، متصالبًا بشارع آخر لا بيوت فيه، تطوّقه المروج. وفي الأسفل ثمّة مزرعة قديمة يربو فيها السنديان، وفي الجهة الأخرى نحو قرية الصفيح هنالك كنيسة خشبيّة صغيرة، معزولة في باحة ضيّقة، ومحاطة بشباكٍ معدنيّة.

الهواء حارٌّ جدًّا، يميل إلى الحلاوة قليلًا: والشمس تهيمن على الأرجاء كلّها، لا شيء سوى الشمس، صفراء وهانئة.

ثمّة امرأةٌ تغنّي من إحدى النوافذ، فالغروب يقترب؛ وفي الشارع صبيةٌ يلعبون؛ وهناك في شارع دي كريسبولتي ثمّة أولادٌ يلعبون بالكرة بين جدران الطفة عند الشارع المتردّي والممهّد عشوائيًّا؛ وشلّةٌ من اليافعين يقيمون مباراة بكرة كبيرة مرقّعة من كلّ جوانبها. وبجانب الصنبور الذي في أوّل الشارع، ولدٌ يغنّي بنبرة مندهشة، خلال الهواء اللطيف، أغنيةً جديدة صدرت توًّا ولم يسمع تومّازو بها من قبل: «أوه

لاتساريلا!»

وقف تومّازو ينظر إلى بيته الذي كان في إحدى تلك البنايات الثلاث المطليّة باللون الزهريّ الغامق: كانت باسقة عند أوّل الشارع تقريبًا، خلف المروج، وتمتاز بكونها نظيفة وجديدة.

دخلها تومّازو منعقد اللسان من فرط التأثّر حتى كاد يبكي، وعابسًا، بنسبة قليلة كي لا يرى الآخرون ما كان يتجيّش في مشاعره. فمنذ أن تشكّلت ذاكرته، لم يجرّب السكن إلّا في خربةٍ من خشبٍ عفنٍ ومسقوفة بالصفيح ومكسوّة بأوراق المشمّع، بين أكداس القمامة والطين والخراء. أمّا آنذاك فكان سيقيم أخيرًا في شقّة من بنايةٍ بحدّ ذاتها، وفخمة أيضًا، مليّسة الجدران، وسلالمها مسيَّجة وتلمع من النظافة.

صعد وكان على يقين بأنّه صاعدٌ من أجل لا شيء، إنّما لإلقاء نظرة، إذ ليس لديه مفاتيح، ولم يكن في البيت أحد، فالجميع كانوا في أعمالهم خلال تلك الساعة. وصل إلى الشقّة رقم 29. وكانت هناك مفاجأة سارّة أخرى بانتظاره: اللافتة على الباب باسم «بوتّزيلي» بأحرف كبيرة ومنمّقة. «اللعنة!» غمغم تومّازو مبتسمًا ومحمرّ الخدّين، وعيناه تزدادان لمعانًا من شدّة العاطفة.

في المستراح ثمّة نافذة مدوّرة، مرتفعة إلى مستوى الأنف أو أكثر. ذهب تومّازو ليلقي نظرة. فرأى من خلالها نصف روما: حشودٌ هائلة من البيوت، يغمرها الضوء، على امتداد الأراضي القاتمة التي لا حدود لها، بدت كأنّها تعوم على سطح الغيوم أعلى وأسفل، من مونتيساكرو إلى ساحة بولونيا، مرورًا بسان لورنزو، وكازال برتوني، إلى برينيستينو، ثمّ تشينتوتشيلّي، وفيلا غورودياني، إلى كوادرارو... دوّت صافرات

الشرطة في البعيد، وفي الأسفل هناك جرسٌ يصمّ الآذان يُقرَع بلا هوادة.

تملَّكته السعادة، أبعد أنفه عن النافذة، ونزل السلالم وهو ينطّ فرحًا ويداه في جيوبه. عليه أن ينتظر حتى السابعة على الأقلّ لكي يدخل البيت، فلن يعود أحدٌ قبل تلك الساعة بالتأكيد.

أخذ يمشي في شارع دي كريسبولتي، وعبَّ من ماء الصنبور، يغنّي هو أيضًا، بأنفاس متقطّعة. دلف شارع لويجي تشيزانا من جديد، وقطع تيبورتينا قبالة ثكنة فورتي واتجه إلى أسفل نحو بيترالاتا.

وبينما كان يمشي فكّر في أموره: أي في أمرٍ واحد، ينبض القلبُ بشدّة على وطأته، ويملأه بالفرح حتّى يشعره أنّه تجرَّدَ من جلده. كان يغنّي بصوت عال، في حين كانت مخيّلته تريه أنّه يدخل البناية الجديدة ويخرج منها، مطمئنًّا ولامباليًا، متأنّق الهندام، كما لو أنّه منذ ولادته لم يعش إلّا في بيوتٍ كتلك.

صار ينظر بعينٍ محايدة إلى أولئك المشرَّدين الذين ما زالوا يقطنون هناك، في أكواخ الصفيح، أو في شنغهاي الصغيرة، الهمج الغوغاء المعدمين، الذين يتسكّعون حفاةً مفلسين في سعيهم الحثيث وراء المال. حانت ساعة انتهاء الدوام، ووصلت الحافلات المشحونة بأكوام الناس حتى غصّت بهم؛ وفي ثكنة فورتي دوّت أبواق ساعة الانصراف.

وبدأت القرية تزداد حيويّة كلّما دنا المساء، مع أنّ الشمس ما تزال وضّاحةً تنشر الدفء؛ وهكذا وجد تومّازو جميع رفاقه أمام المقهى الصغير، متجمّعين هناك كما لو أنّهم مستعدّون لزيارة المُفرَج عنه.

كانوا متفرّقين، بعضهم جالسٌ إلى الطاولة، وآخرون واقفون

مستندين إلى جذوع الأشجار المتّسخة.

زيميو بكنزته الصفراء الخارجة عن بنطلونه، كان صحبة ثلاثة فقراء مثله، يرمون الحصى لتحفيز كلبٍ أتى به حظّه العاثر بالقرب منهم. وكان المسكين متعبًا، مقشعرّ الوبر، ولسانه متدلٍّ يلعق غبار الأرض، ولم يدرك أنّهم يصنعون منه لعبة مسليّة، مستغلّين سذاجته، فيركض خائر القوى جيئة وذهابًا لالتقاط الحصى بين أسنانه.

وكان زيميو، ابن الحرام، يحاول رمي الحصى إلى مسافة أبعد في كلّ مرّة، فيقذفها بكامل قوّته، حتى تعب هو الآخر. وأسعده أنّه استطاع رمي حصاة خلف زاوية مزرعة متداعية الحيطان، نحو حقول الغبار البيضاء المحيطة بالنهر، ففتح فمه يقهقه راضيًا.

كاغوني كان جالسًا على طرف سياج، يقرأ قصّةً مصوّرةً صادرها من فتى صغير.

«انظروا مَن هناك!» قال زوكابّو الذي كان مفرج الساقين على قارعة الطريق، ومن يدري ماذا كان ينتظر.

التفتت نحو توмّازو خمسةُ وجوه: وجوه بوذا وشاكالو ومينكيا وكاتزيتي وناتزارينو؛ وقد استبدّ بجميعها النعاسُ والشحوب والإرهاق والملل. «كيف الحال؟» سأله زوكابو وهو يصافحه باعتباره من السجناء القدامى. «بخير» أجاب توмّازو. «بمن أوشيتَ حتى أفرجوا عنك؟» قال بوذا وهو يتحدّث من بطنه، فضحك الآخرون. لكنّ توмّازو كان ينظر إلى وجوههم فضحك أكثر منهم. "اضحكوا، اضحكوا، بئس الوجوه وجوهكم! فإنّي اجتزتُكم ودستُ عليكم!" كان يفكّر بعينين ثاقبتين، يفكّر هانئ البال ببيته، بيته الجميل الجديد، بينما لا يزال أولئك

يسكنون الأكواخ، يتضوّرون جوعًا، وأحوالهم بعضُها أسوأ من بعض.

وصلت الحافلة في تلك اللحظة، فاختفت الشلّة راكضة نحو الموقف، مثل سربٍ من الغربان، ومعهم زوكابّو أيضًا.

صافح تومّازو يد كلٍّ من زيميو وكاغوني بهدوء، فودَّعاه وهما يتثاءبان. وترك زيميو الكلبَ في شأنه، فانبطح على الغبار فورًا، منقطع الأنفاس، وما انفكّ ينظر إلى قاتله بعينين تلمعان. أراد زيميو تزجية الوقت فاتّجه لكي يتبوّل عند السياج حيث ما زال كاغوني منشغلًا بقراءة القصّة، ويلتفت بين حين وآخر وهو يقهقه، ليبصق لعابَه على الكلب.

هبطت الشمس على الحقول المكسوّة بالقُلاح. ضجّةُ أصواتٍ وبعضُ غناءٍ في أرجاء القرية كلّها. جلس تومّازو إلى السياج هو أيضًا، وأنزل صدره على ساقه، وذقنه على ركبته، واستأنف دمدمة الأغاني ملؤه بهجة.

بعد قليل جاء ليلّو إلى تلك الأنحاء. وبما أنّه كان تعيسًا، أفرج تومّازو عن ساقه التي كان يضمّها بين ذراعيه، ونهض متّجهًا إليه حالما رآه.

«يا ليلّو، يا ليلّو!» قال بنبرة الودود، مربّتًا على كتفه «كيف حالك يا ليلّو؟»

«أهلا يا تومّا!» قال ليلّو مصافحًا.

- اتّخذ تومّازو تعابير الصاحب القديم الذي يتظاهر بالسعادة المفرطة ليُفهِمَ صاحبَه أنّ مأساته تافهة في المحصّلة، ولا تلفت انتباه أحد.

«ها، حدِّثني عنك يا ليلّو؟» قال.

«بم أحدِّثك! اللعنة!» قال ليلّو وهو يسحل ساقه العرجاء نحو المقهى.

«سحقًا للسجن ما أصعب البقاء فيه!» قال تومّازو، لإكمال المحادثة ليس إلّا.

«أصدِّقك!» ردّ ليلّو، يتولّى الوجومُ وجهه، متّسخًا ومكفهرًّا كالمعوَّقين فعلًا.

«إيييه» تنهّد تومّازو «اللعنة عليهم، السفلة!»

وصلا إلى باب المقهى المفتوح، والمزدحم بالزبائن.

احتار تومّازو بما يقول، وما انفكّ قلبه يخفق بقوّة من شدّة التفكير بالبيت، فتنهّد ثانية ثم أشعل سيجارة وقال: «ما أتعس الحياة!»

توقّف ليلّو ونظر إليه شزرًا.

«اسمع يا بوتزّيلّي» قال «عليَّ الذهاب لأمرٍ معيّن. أستودعك. كن بخير!»

استدار ومضى في شأنه نحو صعدة موحلة، خلف المقهى، بين بنايتين كبيرتين، حيث الغبار ونبتة القرّاص على مشارف الحقول. ذهب صاعدًا وهو يجرّ ساقه، بين صفائح الطين المتيبّس وبعض الأوراق المتّسخة، واختفى عند الزاوية.

تمطّى تومّازو وتثاءب، وأنهى التثاؤب قبل أوانه ليطقطق لسانه في سقف فمه، كمن أفاق توًّا من قيلولة لذيذة، وعاد أدراجه نحو مساكن إنا، يمشي متمهّلًا لتزجية الوقت، ويداه مغلولتان في أعماق جيوبه.

كان قلبه ينعم في سلامٍ مستفيض، يتلذّذ بنكهته المضافة إلى الحرية والتفكير بالبيت الجديد.

وصل خطوة بخطوة إلى تيبورتينا التي اكتظت بالعساكر الخارجين من الثكنة في ساعة الانصراف الليلي، ودخل شارع لويجي تشيزانا واتجه إلى أعلى، نحو بيته في شارع دي كريسبولتي، وكان هذه المرّة يتمعّن جيّدًا بالحيّ الذي سيسكن فيه.

وقف يرنو إلى البيت ثانيةً، البيت الجميل المطليّ بالزهريّ الفاقع، الذي يتبدّى بشرفاته وملاحقه قبالة السماء التي ما تزال صافية. هناك بعض الفتية اليافعين عائدين من أعمالهم. فضلًا عن خمسة أو ستة أولاد يلعبون الورق، متربّعين على الأرض، تحت بيتهم. واجتمع شبّان المنطقة للاسترخاء على مقاعد المقهى، عند التقاطع مع بناية منخفضة في وسط مشروع الإسكان، حيث السوق.

أراد تومّازو أن يتحرّى المنطقة جيّدًا: فسار في الشارع نفسه حتى وصل إلى البيوت الأخيرة المطلّة على المروج والمقالع، وفي النهاية كانت هناك الفيلا القديمة المطوّقة بأشجار السنديان.

بالإمكان الالتفاف من هناك أيضًا للوصول إلى البيت: ينبغي دخول المرج المكوّن من تلالٍ وهضاب وقمامة، ومن ثَمَّ الانعطاف إلى اليمين لنزول المنحدر المحفور في حقل الطفة لبناء البيوت. كان لبيت تومّازو مدخلٌ من تلك الناحية أيضًا، عبْر نسقٍ زجاجيّ عموديّ تتراءى منَ خلفه السلالم. قفز تومّازو فرحًا برؤية تلك الفخامة. «ياه، يا للأبّهة الزجاجيّة!» قال في نفسه.

لكنّ ذلك الجانب الخلفيّ يشرف على ما يشبه سجّادة سوداء من

تربة الحمأة الطينيّة، تفضي إلى الكنيسة الخشبيّة الصغيرة، الواقعة في وسط المرج، وذلك بالعبور من نهاية شارع لويجي تشيزانا.

قرّر توممّازو أن يذهب صوب الكنيسة، عن طريق تلك السجّادة السوداء التي لم تكن تنفع في شيء حينذاك، لأنّ المرج كان متيبّسًا. وكانت الكنيسة عبارة عن مستودع طويل وضيّق، من الخشب البنيّ الباهت، وألواحٍ تتخلّلها فراغات طويلة. سقفها مدبّب وفي أعلاه صليب. تطوّقها شبكة معدنيّة جديدة، تسوِّر الكنيسة وجانبًا من باحتها. وخلفها مبنىً ملتصق بها ومطابق لها لكنّه أخفض منها، لا بدّ أنّه مسكن الخوريّ. اقترب توممّازو على امتداد الشبكة، لأنّه سمع أصواتًا آتية من العمق. كان المرج الواقع قبالة بيته وخلف الكنيسة أشبَه بهضبةٍ تمَّ تجويفها لتشكيل غور عميق حيث شُيِّدت الأساسات والدعائم، وثمّة جرّافةٌ في المنتصف. كان كلّ شيء متوقّفًا، لأنّ العمّال قد انصرفوا. وكانت حُجرة الورشة ذات الألواح البيضاء والمغبرّة في قمّة الهضبة، منعزلةً مثل مرصدٍ يطلّ على نصف روما.

أمّا الأصوات المسموعة فكانت تتأتّى من فسحة صغيرة خلف البيت الخشبيّ للخوريّ وقبالة الغور. أولادٌ يلعبون، في ملحقٍ إلى جانب الفناء الصغير لبيت الكاهن. وكان ضوء الشمس الأحمر في غروبه ينير ذلك الموقع جانبيًا. هنالك أربعة أولاد أصغر سنًّا يلعبون على طاولة كرة القدم، وآخران على طاولة البينغ بونغ، وآخرون يتابعون جالسين على صناديق.

يعلم توممّازو أنّ سكّان هذا الحيّ الجديد ينقسمون قسمين: فمن جهة، هناك الموظّفون في الدولة، وقطّاع السكك الحديديّة، ومواصلات

النقل العامّ، الذين تسلَّموا البيوت عن طريق مؤسّساتهم؛ وكان بينهم أيضًا محاسبون ومهندسو مساحة وأناسٌ ميسورو الحال من تلك الطينة. ومن الجهة الأخرى، أولئك الذين كانوا يسكنون في الأوكار والأكواخ، يتحدّرون جميعًا من الطبقة المسحوقة ماديًّا واجتماعيًّا، وكانت البلديّة تسلِّمهم بعض البيوت من حين إلى حين.

ولا بدّ أنّ الذين يلعبون في باحة الكنيسة هم من أبناء المترفين؛ ولعلّ أكثرهم جيرانٌ لتومّازو.

كانوا مندمجين في اللعب على طاولات كرة القدم والبينغ بونغ. ملابسهم مبتذلة هم أيضًا: بنطلونات أمريكيّة زاخرة بالأزرار اللامعة، أحزمة مرتفعة، وكنزات؛ لكنّها كانت نظيفة جدًّا، ما عدا القليل من الغبار الذي تعلّق بها من الأمام والوراء، لا بسبب العمل إنّما لأنّهم كانوا يجلسون حيثما وُجِدوا هنا وهناك أثناء اللعب واللهو، أو لأنّهم يلمسونها بأيديهم المتّسخة.

أحدهم كان مخضرَّ الوجه من فرط الشحوب، عيناه سوداوان كأنّه أميرٌ عربيّ، وكان ينظر بازدراء إلى صديقه الذي يلعب البينغ بونغ وقال له: «ياكوباتشي! أليس لديك بيت؟ فاذهب إلى بيتك إذن!» وضحك قليلًا، بمفرده، وهو يمضغ العلكة الأمريكيّة. «إنّك مقرفٌ جدًّا!» أضاف.

إلّا أنّ ياكوباتشي كان يركّز في اللعبة أكثر من أن يردّ عليه. وحينذاك وقعت الكرة الصغيرة وراحت تقفز إلى آخر الملحق، فقال وهو ينحني لالتقاطها: «كم أنت مزعج يا دي فاتزيو!»

«تنحَّ جانبًا!» قال له الفتى. واقترب منه وما يزال يمضغ العلكة

قائلًا: «حان دوري الآن!». «كيف ولم تمرّ خمس دقائق منذ أن بدأتُ اللعب؟!» أجاب الآخرُ مقوّسًا حاجبيه مكتوف الساعدين على صدره، والمضربُ في يده. «خمس دقائق! صدَّقتك!» قال دي فاتزيو عابسًا وهو يجلس بغضبٍ ويداه في جيوبه. «سأنهي هذه المباراة، ويحين دورك، اتّفقنا؟» قال ياكوباتشي بنبرةٍ تجنح للسلم، مستأنفًا اللعب بالإرسال إلى خصمه الذي بدأ يتململ.

كان تومّازو يشاهدهم من خلف الشباك المعدنيّة. مرتبكًا بعض الشيء، موارب الفم، ومركِّزًا على أفكاره بينما يحدِّق إلى أولئك الصغار. ثمّ انتفض وحدّث نفسه: "ماذا؟ هل أنا شحّاذٌ هنا؟" لكنّه كان لامباليًا ما دام قلبه ينعم بالسكينة.

اتّجه نحو المرحاض على مهل، لا لشيء إلّا لاختلاق عذرٍ لوجوده هناك خلف الشبك. دخل كمن أراد قضاء حاجة، وجلس قليلًا في الداخل. لكنّه أشعل سيجارة وهو يرنو إلى الخارج من قفص الحدائد المغبرّة، إلى المقالع، إلى الأفق حيث ينبسط بحرٌ من حقول الريف، وفي المدى تتبدّى أحياء روما بمواجهة السماء ذات الضوء الأصفر المشحون والمتشابه في كلّ نواحيه. أمست الشمس في غيابها، لكنّ ضوءها الجميل ما زال منتعشًا وناصعًا كالحليب.

خرج تومّازو ثانية، وأخذ يحملق بالفتية في باحة بيت الخوريّ، بعينين ماكرتين هذه المرّة، يحاول أن يلفت انتباههم. لكنّهم لم يتصدّقوا عليه ولو بنظرة واحدة.

علت أصوات الذين يلعبون على طاولة كرة القدم، كالجراء. أحدهم، أشقر الشعر، يرتدي بنطلونًا سماويًّا قصيرًا، ينبح على رفيقه

الذي كان شريكه في اللعبة: «ماذا دهاك؟ هل نمت والنهار لم ينته بعد؟». فأجاب الطويلُ الهزيل، والأشقر أيضًا، ذو الشعر المنساب على العينين، ذو الشفتين الغليظتين، أجاب بنبرة مشمئزّة وهادئة، وقد أدرك أنّه أخطأ: «لا تصدِّعْ خصيتيّ!»

وكان خصماهما ساكتين وسعيدين لأنّ النتيجة لمصلحتهما. رمى أحدهما الكرة الصغيرة إلى وسط الطاولة مدفوعًا بالحماسة وهو يصيح: «هيّا أيّها الرومان!»

ازداد تومّازو غليانًا وقلبُه خفقانًا وهو ينظر إليهم. وكان يدرك أنّه لا يقبل الوقوف هناك خلف الشبك مثل الشحّاذين. إلّا أنّه أراد المبادرة بموضوعٍ يحادثهم فيه ويتعرّف عليهم من خلاله. تقدَّمَ بضع خطوات نحو الكنيسة، متابعًا النظر إليهم بطرف العين في حين أنّهم لم ينتبهوا لوجوده حتّى، ما عدا نظرة خاطفة رماها إليه الفتى الذي يدعى دي فاتزيو وهو يمضغ العلكة. وتومّازو كان يحسَب نفسه ندًّا عنيدًا، بل بطلًا لا يشقّ له غبار في كرة القدم والبينغ بونغ على حدٍّ سواء. لذا صار ينظر مترفّعًا، يراوده التثاؤب، ويتذكّر تلك المباريات التي خاضها، فأين منها هذه التي يشاهدها! وهكذا برَّرَ وقفته هناك، بكونه مدرِّبًا أكاديميًّا يتابع التدريبات ويداه في جيوبه. ورغم هذا لم يستطع نطق كلمة. لم يكن يتحدّث إلّا لنفسه، وحيدًا، لدرجةٍ خُيِّلَ فيها إليه أنّهم أدركوا مراده وتذرَّعوا بسببٍ وجيه ليتعرّفوا عليه، طالما أنّه هو أيضًا يسكن في أحد تلك البيوت الجديدة والفاخرة، مثلهم.

وجال خاطرٌ في ذهنه: "لأرجِعَنَّ إلى السجن ثمنًا لفهم ما الذي يدفع الآخرين لاعتبار هؤلاء أوغادًا! ها هم هناك! لا يخطّطون لشيء،

يقضون أوقاتهم في اللعب واللهو والتأنّق! أوه! ولديهم آباءٌ يغدقونهم بالمال أيضًا". ثمّ أردف في سرّه: "يبدو لي أنّهم لا يؤذون بعضهم بعضًا... إيه، وما أدراهم ما الحياة؟ على أنّي أودّ أن أختلط بهم، وأصير واحدًا منهم! اللعنة! ليتني نشأتُ مثلما نشأوا، ليتني بتُّ ولدًا عاقلًا مثلهم!"

لكنّه لم يبح من كلّ تلك الأفكار بكلمة واحدة. كانوا مندمجين في ألعابهم، كما لو أنّ لا وجود له، كما لو أنّه لم يكن هناك. ضحك تومّازو حين رأى نقلةً خاطئة لياكوباتشي الذي قذف الكرة عاليًا فاصطدمت بالسقف؛ لكنّه كان يضحك بهيئةٍ ودودة ومسالمة، عاذرًا إيّاه على غلطته مثلما يفعل الراشد مع الأولاد الصغار، ومفكّرًا في البينغ البونغ الحقيقيّ لمن يتقن اللعبة جيّدًا.

خطرت في باله فكرة. تمعّن بها مرّة واثنتين، وهو واجمٌ، ثمّ عدل عنها قائلًا: "كلا... كلا..."، وازداد وجومًا.

اختطف الشرودُ نظراته، وعاد يفكّر من جديد، ويخاطب نفسه: "لماذا كلّما هجستُ في أمرٍ أرغمتُني على فعله وسعيتُ إلى تحقيقه! لماذا؟". راوده شكٌّ طفيف: "ما الذي عليَّ ابتكاره؟ إنْ هي مجرّد كلمة!" واختتم بوحه الذاتيّ: "سأجرّب، فإن ساء الوضع ذهبتُ بملء إرادتي إلى الجحيم!". ألقى نظرة صوب الكنيسة، ثم اتجه إلى مدخلها الرئيس، بكلّ هدوء، كما لو أنّه قد اتّخذ القرار مسبقًا، وحسم أمره كما لو أنّه ما كان ينظر إلى الأولاد وهم يلعبون إلّا بمحض الصدفة وتزجية الوقت.

وكانت الباحة الصغيرة عند واجهة الكنيسة، مثل باحات المستودعات، ممهّدةً بأكوام البحص وحصى الجير، والأقفاص والأدوات

الأخرى. قطعها تومّازو وهو ينظر حوله، متجهًا إلى الباب مباشرة. رمى عقب السيجارة وسعل قليلًا ثمّ دخل.

الكنيسة مقفرة إلّا من امرأة واحدة تضع كيسًا بجانب ركبتيها، كانت تصلّي خاشعةً وكأنّها تخجل من طلباتها التي أثقلت بها كاهل العذراء أو أحد القدّيسين. عدا تلك المرأة لم يكن هناك أحد. كشَّرَ تومّازو قائلًا في نفسه: «ما أدراني!»، وتذكّر أن يرشم علامة الصليب: لم يصلِّ، لأنّه لا يعرف من "السلام عليكِ يا مريم" سوى "الربّ معكِ". لكنّه أوحى بأنّه يدخل لغايةٍ ما. الكنيسة من الداخل لا بأس بها: نظيفة، وصفوف مقاعدها مرتّبة، وجدرانها البيضاء تزدان باللوحات؛ بدت له كنيسةً من أحد أفلام الكوبوي، مع البروتستانتيّين وما شابه. خرج ثانيةً، ونظر حوله في الباحة حائرًا، ثمّ التفّ إلى الطرف الآخر من الكنيسة، نحو غور الورشة، متجهًا إلى بيت الخوريّ. المدخل عبارة عن ممرّ، على يمينه صالة صغيرة وخاوية، فيها طاولتان بلياردو وأدواتهما، ولافتةٌ على الباب كُتِبَ عليها «مملكة المسيح».

ويمتدّ الممرّ على امتداد المستودع كلّه، تتخلّله أبوابٌ على الجدران المطليّة توًّا لتبدو مثل أبواب المشالح في صالة رياضيّة. لا أحد. تقدَّمَ تومّازو بخطوات متردّدة، وما فتئ يقول في نفسه: «ما أدراني... ما أدراني!». فإذا بمسؤولين أو ثلاثة يخرجون من الباب الصغير الذي في عمق الممرّ، وجوههم مضرّجة وثيابهم أنيقة، فسألهم تومّازو: «أين الخوريّ؟». «هناك» أجاب واحدٌ منهم مكملًا سيره دون أن ينظر إليه. فتابع تومّازو خطاه وقال: «بالإذن!»

أطلّ الخوريّ برأسه من الباب، ورماه بنظرةٍ جادّة قائلًا:

«تفضّلْ!». دخل تومّازو تحت أنظاره إلى قاعةٍ تشرف على جانب المروج والمرحاض الخشبيّ. كانت صغيرة ليس فيها سوى طاولة، ورفٌّ يحمل حوالي ثلاثين كتابًا، ومقعدين وفراش، إضافة إلى ما لا مفرّ من وجوده: صليب، بحجم الخوريّ تقريبًا.

وفي الخارج تصدح أصوات الأولاد الذين يلعبون في الباحة، فضلًا عن أصوات سكّان المشروع.

كان الخوريّ ينظر إلى تومّازو بخطف العين، أبيض البشرة مثل الجصّ المحيط ببيته. وتومّازو محرجٌ بعض الشيء، لكنّ المرء حين يقابل خوريًّا يحاول قدر المستطاع أن يشكّل انطباعًا حسنًا عن شخصه. «اسمح لي... يا... أبانا» قال مترنّحًا وباسطًا يده «اسمي بوتزيلّي تومّازو». صافحه الخوريّ برؤوس أصابعه أو يكاد. كان تومّازو يتظاهر بأنّه مهذّب، بابتهاجٍ وفوضويّة، لأنّه رجلٌ لسوء الحظّ، والرجل لديه نزواته: اللعب، التدخين، النساء... «اجلس» قال له الخوريّ، الذي لم يفهم إلى الآن ماذا يريد، لكنّه كان معتادًا على مقابلات من هذا النوع. أراد تومّازو في البدء أن يرفض الجلوس، إذ لم يكن متعبًا كثيرًا، ثمّ نظر إلى الكرسيّ، وجلس بحركة طيّعة، ورفع كتفيه طيّعًا كذلك وقال: «شكرًا!»

انتابه الخزي حالما جلس، لأنه بجلوسه على حافّة الكرسيّ كشف نفسه كلّيًّا على مرأى الخوريّ: لباسه البنيّ المخطّط بالأبيض، الذي اشتراه من سوق الأغراض المستعملة قبل عامين في كامبو دي فيوري؛ حذاؤه المهترئ والمتيبّس والحائل لدرجةٍ ما عاد واضحًا أبُنيٌّ هو أم أحمر، أمخمليٌّ هو أم جلديّ؛ جواربه في حالة مزرية ومحشوّةٌ في الداخل

حتى الكعب لحجب الثقوب والرقع؛ قميصه وربطة العنق القصيرة من قديم الزمان، منذ العام ثلاثمائة قبل ميلاد المسيح، في عصر آلهة الجوع. فاحتار تومّازو أين يضع يديه وهو بذلك المظهر الرديء؛ فأخرج سجائره لمجرّد أنّه يفعل شيئًا ما، وكان يتضرَّج بالخجل حتّى النخاع.

وما زال يتظاهر بأنّه مهذّب. وبما أنّه حسَبَ نفسه رجلًا، فلم يكن يقاوم نقاط ضعفه. «المعذرة يا أبانا... إنّها عادةٌ سيّئة...» قال وهو يمدّ علبة السجائر مرتبكًا نحو الخوريّ، ليضيِّفه سيجارة، ولم يكن متأكّدًا ما إذا كانت تلك الخطوة بادرةً لطيفة أم إهانةً مقصودة، طالما أنّ الخوارنة لا ينبغي أن يكون لديهم عادات سيّئة.

لوَّح الخوريّ بمعنى أنّه لا يدخّن، وكان في الأثناء ينظر حوله متوجّسًا ومرتابًا. لا بدّ أنّه مريض، إذ كانت بشرته عند لحيته الحليقة بيضاء ورماديّة، وعيناه غائرتان، وفمه شاحب كأفواه صغار القطط. وكان ضامر البنية، وهزيلًا يكاد يُخسَف في رداء الكهنوت الذي يرتديه.

أخذ تومّازو يدخّن متذلّلًا. إذ كان غالبًا ما يتصرّف بمودّة وعفويّة مع الذين تجمعهم به نوايا سيّئة. إلّا أنّه حينذاك كان مضطربًا لأنّه بلا نيّة سيّئة، لا بل كانت نواياه صافية.

«أيّ خدمة؟» قال الخوريّ كمن يستصعب الكلام، لكثرة انشغالاته الأخرى: لعلّه يفكّر بأمر الكنيسة التي كان يبنيها في أسفل المساكن.

«أجل» قال تومّازو متسرّعًا «أودّ التحدّث إليك بموضوع مهمّ...»

- «تفضّل...» قال الخوريّ «آمل أن أكون مفيدًا لك...»

«طبعًا، إن لم تكن حضرتك مفيدًا، وأنت الخوريّ، فمَن يا تُرى؟» قال تومّازو «لقد جئتُ إليك قاصدًا...»

«ما الموضوع؟» سأله.

«حسنًا...» قال تومّازو، وهو يهزّ رأسه، وجبينه يتجعّد «لا أعرف من أين أبدأ، يا أبانا...»

«تكلَّمْ! ممَّ تخاف؟» قال الخوريّ بلهجةٍ بسيطة.

«أنا يا أبانا» حسم تومّازو مراده «نويتُ الزواج بفتاة... فجئت إليكم للاستفسار.. فأرجو أن تساعدني بهذا، وتشرح لي ما الذي عليَّ فعله...»

«كم عمرك؟» سأله الخوريّ.

«سأُتِمُّ عشرين عامًا في نوفمبر» أجاب تومّازو.

«ولكن، هل تفكِّر جدّيًّا في الأمر؟ هل أنت على دراية بما ستُقْدِم عليه؟»

«كيف لا!» قال تومّازو مغتاظًا كعادته.

«هذا هو الطريق القويم» عبّر الخوريّ وقورًا «الذي من شأنه أن يقرّبك إلى الربّ. أنت شابّ، وبإمكانك تكوين عائلة جميلة... كم عمر خطيبتك؟»

لم يكن تومّازو يذكر عمر البنت على وجه الدقّة، فاحتار قليلًا ثمّ قال: «عشرون عامًا هي أيضًا...»

«وهل أهلكما على علم بالعلاقة... هل هناك عوائق تحولكما عن...»

«لا، لا» طمأنه تومّازو.

ظلّ الخوريّ متردّدًا، ثمّ ناور من جهة أخرى: «هل تريد الاعتراف الآن؟»

انصدم تومّازو: لم يكن يتوقّع سؤالًا كهذا. «آه، لا، لا..» قال «أفضِّلُ في صباح الغد. سآتي في صباح الغد... بالمناسبة يا أبانا، ما الأوراق الثبوتيّة المطلوبة من أجل الزواج؟ ما الأوراق التي يجب إخراجها؟»

فأجاب الخوريّ بلطف: «يجب إخراج شهادة الميلاد، والمعموديّة، وسرّ التثبيت...»

«وكيف أخرِج كلّ هذه الوثائق؟» قاطعه تومّازو إذ لم يعد يستوعب.

ففصَّلَ له الخوريّ الأمر كما لو أنّه أشدّ الأشياء بساطةً واعتياديّة: «اذهب إلى إدارة الأبرشيّة حيث تلقّيتَ المعموديّة والتثبيت، وهناك يسلِّمونك هذه الأوراق فورًا... عليك أن تدفع مبلغًا يقارب الألف ليرة في المجمل... ثمّ تحصل على شهادة الأحوال المدنيّة، ما يعني أنّك لست متزوّجًا...»

ابتسم تومّازو محافظًا على هدوئه وهو يفكّر: "نعم، نعم، ومن يدفع لي تذكرة الذهاب إلى إيزولا ليري؟ أنت!"

«وتلك، عليك أن تخرجها من دائرة النفوس» تابع الخوريّ «مثلها مثل شهادة الميلاد...»

تظاهر تومّازو بأنه فهم كلّ شيء بالمطلق، وأبدى اهتمامًا واحترامًا. واستفسر: «وكم تستغرق هذه الأوراق من الوقت؟»

«كلا» قال الخوريّ «لن تستغرق وقتًا. ستخرجها كلّها في غضون أيّام قليلة...»

وهكذا لم يعد لديه ما يرغب في معرفته من الخوريّ، بخصوص

الزواج؛ إلّا إذا أراد أن يستغلّ الوقت ويعترف على يديه. لكنّ تومّازو كان يؤسفه أن تنتهي تلك المقابلة بهذه السرعة. ارتسمت على وجهه ملامح الطاعة، كالولد المهذّب، وسأله: «أبانا... هل ترى أنّني أُقدِم على أمرٍ جيّد؟»

حدّق الخوريّ برهة في عينيه مباشرة، ثمّ أخفض أنظاره وسأل: «هل اقترفتَ الخطيئة، مع خطيبتك؟ هل حدث شيء؟»

«إطلاقًا!» هتف تومّازو وثارت حفيظته «لا يخطرنَّ في بالك يا أبانا! لا مزاح في ذلك! إنّها فتاة مؤدّبة! وأريد الزواج بها لأنّني أودّها...»

«خير، خير» قال الخوريّ مطأطئ الرأس «على بركة الله...» وأخفض عينيه والتزم الصمت. وحينها سعل تومّازو قليلًا وتهيّأ للانصراف وهو يمدّ يده لمصافحة الخوريّ: «إلى اللقاء يا أبانا» قال «نلتقي صباح الغد...»

«إلى اللقاء يا ولدي» ردّ الخوريّ.

خرج تومّازو وذهب عبْر الممرّ، نحو الباب، مغمورًا بالرضا، ويصيح في سرّه بقوّة: «ما أطيب هذا الخوريّ اللطيف!»

خرج من هناك مبتهجًا، منتفخًا ومحمرّ الخدّين كما لو أنّه كان ثملًا. وضع يديه في جيوبه وسعل، ورفع أنفه عاليًا ومضى نحو المرج.

كان الأولاد يشاكسون على أرضٍ مفروشة بالبحص تتوسّط المسافة ما بين الحمأة الطينيّة والكنيسة والبيوت. وقد جاء المساء، وبدا نور الشمس آتيًا من العالم الآخر. وخرجت الأمّهات يندهن على أولادهنّ، وأُشْعِلَت الأضواء. توقّف تومّازو ليشعل سيجارة: كانت السيجارة الأخيرة، ولم يعد لديه قرشٌ واحد في جيبه. وبينما كان

هناك، قدم الفتى الذي يدعى دي فاتزيو من خلف الكنيسة، وحيدًا. نظر إليه تومّازو ودنا منه ذاك وهو يُخرج سيجارة من الجيب الصغير لبنطلونه.

«هلّا أشعلتها لي؟» سأله.

مدَّ تومّازو سيجارته المشتعلة إلى الفتى بكلّ هدوء، فأشعل منها وقال جادًّا: «شكرًا» وهمَّ بالانصراف دون أن ينظر إليه.

«قل لي!» بادر تومّازو وهو يصفّي حنجرته بسعلة أو اثنتين. التفت الفتى إليه فسأله تومّازو بمظهر الشابّ المهذّب والودود: «هل أنتم مسجّلون للذهاب إلى الكنيسة؟»

«نحن منتسبون» أجاب متعجّلًا، وهو يمرّر إبهامه تحت غرّة شعره ليسرّحها.

«آه» قال تومّازو. ثمّ أضاف: «وهل أنت تسكن هنا؟»

«هنا في الخلف. في شارع لويجي تشيزانا»

«أنا أسكن هناك» قال تومّازو وكأنّه امتعض من أنّ الفتى لم يطرح عليه السؤال. وإذ أشار إلى بيته، انتابته خفقة شديدة في القلب ثانيةً. تثاءب قليلًا وتحرّك نحو التربة الطينيّة، وظلّ الفتى متردّدًا، يرغب في الانصراف إلى شؤونه.

«قد أتسجّل أنا أيضًا» قال تومّازو وهو يشير إلى الكنيسة.

لم يعرف الفتى بما يردّ، فبصق بعيدًا بمزاجٍ مضطرب. وكان تومّازو في منتهى السعادة بعد أن أعرب عن نيّته تلك. "أجل، سوف أتسجّل" قال في نفسه "سأغلبكم في المباريات كلّها، كرة القدم، والبينغ بونغ، وما تبقّى. سأقهركم جميعًا، سأقهركم! وسينتهي بي المطاف أن

أتزعَّمكم. مَن أنتم؟ شلّةٌ من الأوغاد الصغار!"

نزلا من المرج إلى شارع لويجي تشيزانا. ثمّة فتىً يهبط المنحدر من سياج شرفة موصولة بشرفات أخرى عبْر عتبات صغيرة أمام البيوت. نادى: «يا مارتشيلّو!». رفع دي فاتزيو رأسه، فعرفه وابتعد راكضًا نحوه، وقد التفت بالكاد ليودِّع توماّزو. هبط ذلك الفتى من الشرفة، بزيٍّ أنيق من أجل السهرة: بنطلون رماديّ مكويّ بعناية وكنزة حمراء على قميص أبيض. شبك دي فاتزيو من كتفه، وراح يحدّثه متلهّفًا، واتجها متعانقين نحو وسط مساكن إنا.

شارفت الساعة على السابعة، فذهب توماّزو إلى البيت. صعد فوجد الباب مفتوحًا: والدته هناك، بانتظاره.

عانقها فأجهشت بالبكاء على صدره. وبعد أن هدأ خاطرها، دون أن تكفّ عن البكاء، أخذت توماّزو بجولة في البيت: غرفتان جميلتان، ومطبخ صغير، ومرحاض، وشرفة صغيرة... ينام أبوه وأمّه في غرفة، وتوماّزو وشقيقه الأكبر في الأخرى.

وأيُّ ليلةٍ قضاها توماّزو! لعلّها أجمل ليلة في حياته: كان نائمًا وغير نائم في آنٍ معًا، يستيقظ بين حينٍ وحين ليجد نفسه في بيته، بيته الجميل، الكبير والمطابق لأجود المعايير، مثل بيوت الأكابر.

2 - ربيعٌ في مساكن إنا

استيقظ تومّازو قبل السابعة من صباح اليوم التالي، وكان يتحمّم في المرحاض. الشمس الباهرة التي تضجّ بالربيع تسطع على مشروع الإسكان الذي كان يلهج بجلبة الأصوات والصياح ودمدمة الأغاني بما أنّ الجميع يستيقظون في ساعة مبكّرة، حتّى تحسَبَ النهارَ قد انتصف.

وكان تومّازو قد أنهى أموره آخذًا كلّ وقته، وارتدى القميص وربطة العنق. خَلُصَ إلى أنّ الكنزات الثقيلة والخفيفة وما شابه من ثياب الفتية المشاكسين، لم تعد تناسبه بعد أن أضحى شابًّا خلوقًا نظاميَّ الأوراق. وبات القميص قديمًا، وحوافّ ياقته مهترئة، أمّا ربطة العنق فالأجدر أن نسمّيها ذكرى، لم يعد واضحًا أيُّ لونٍ هي، أزرقاءُ أم بنفسجيّة. ومع هذا كان تومّازو راضيًا عن مظهره إلى حدٍّ ما، وهو ينظر إلى نفسه في المرآة المعلّقة على حائط المرحاض.

وما إن تهيّأ للخروج، خاوي الجيوب، ومستعدًّا للقيام بمشواره على القدمين رغم المسافة البعيدة، ها هي أمّه تناديه، لتقول له وهي سعيدة للغاية: «تعال يا تومّا!»، وصحبته إلى جانب الخوان الذي تعتليه صورة تيتو وتوتو اللذين كانا بملابس ولّاديّة جميلة، يبتسمان

بأعين أعشتها الشمسُ. أخرجت ألف ليرة كانت قد احتفظت بها لتهديها له حال الإفراج عنه.

لذا خرج تومّازو معتبرًا نفسه البابا.

وصل إلى شارع تيبورتينا، دون أن ينظر في وجوه الناس، رغم أنّ الدماثة كانت تتسرّب من دواخله، وراح ينتظر الحافلة مع الآخرين، كما لو أنّه لم يفكّر ولو في الحلم بحتميّة الذهاب إلى غاربانتي على قدميه. كان لديه ما يكفي لركوب الحافلة، ذهابًا وعودةً، ويزيد.

وعندما وصل إلى غاربانتي، اتجه مباشرة إلى السوق الذي كان يتوسّط بيوتًا قديمة مُنخُليّة كالمصلّى تحت شمسٍ حارقة. اجتاز عدّة أقسام حتى بلغ قسم السمك الذي تنبعث منه رائحة مقزّزة.

عند إحدى المصاطب بجانب الصنبور، كان البائع منحنيًا على صندوق الثلج يمعن في طحنه بالمطرقة، بدلًا من أن يصيح يمنة وشمالًا كبقيّة زملائه المتعرّقين والنصّابين: «إنّي أبيعكم ذهبًا مهروسًا!»، «تعالوا واشتروا سمك البوري الحيّ!» وعبارات من هذا القبيل.

«سيتّي!» هتف تومّازو وهو ينظر بودّ إلى ذلك البائع.

رفع سيتيميو رأسه الحليقة بالشفرة ونظر بعينيه السماويّتين. كان قصير القامة وخفيف الحركة كالفأر، إلّا أنّه في النهاية رجلٌ طيّب، بغضّ النظر عن عينيه الماكرتين وثياب العمل التي يرتديها.

«تومّا!» قال ونهض بعينيه اللتين تبدوان ومضةً سماويّة «ما الـ، ما الـ، ما الذي جـ جـ جـاء بك إلى هذه الأنحاء؟»

كان يتأتئ بعض الشيء أحيانًا، لأنّ أباه وأمّه كانا يهوديّين، ولقيا مصرعهما في أحد مراكز التجميع على أيدي الألمان: فلازمته نوبات

الفزع على الدوام.

«قل لي يا سيتّيموا» بادر تومّازو بعد أن صافحه «هل تعرف فتاةً اسمها إرينه، تسكن في شارع آنّا ماريّا تايجي؟»

«إرينه؟» قال سيتّيميو أوغوستو وهو يفكّر في الأمر عابسًا.

«أجل، إرينه. كنيتها بوندولفي. إنّها فتاة... مكتنزة. وشعرها... أسود. ليست آيةً في الحسن، ولكن لها ما لها بالمحصّلة... امرأةٌ منزليّة...»

«لا أدري» قال سيتّيميو وما زال يفكّر ويفتّش في كلّ زاوية من دماغه لعلّ إرينه تخرج من مكمنها.

«لها صديقة، قصيرة القامة، وشعرها كذيل الحصان» ألحَّ تومّازو «تسكن في أحد تجمّعات شارع تايجي، السلّم C... تلقَّب بالزنجيّة إن لم أخطئ...»

لمع وجه سيتّيميو فجأة. «آآآه، الزنجيّة!» قال «ديازيرا! أعرفها، وكيف لا! رقصتُ معها أكثر من ألف مرّة!»

ابتسم تومّازو سعيدًا. وانتظر أن يخدِّم سيتّيميو إحدى السيّدات التي جاءت إلى مصطبته لتشتري نصف كيلوغرام من سمك الأنشوفة، وقال: «هل ستراها هذا المساء، أو في الغد؟»

«بل فورًا، ما إن أنتهي من العمل! عليَّ أن أمرّ من تحت بيتها بكلّ الأحوال!» قال سيتّيميو. «لماذا؟» أضاف وهو ينظر مبتهجًا «هل أنت بحاجة إلى شيء ما؟»

سعل تومّازو. «حسنًا، أجل، أودّ الارتباط بإرينه» قال بعد أن فكّر في الأمر قليلًا «وكما تعلم، طوال ذلك الوقت الذي قضيتُه بعيدًا...

فهمتَ قصدي... لم أكتب لها أيّ رسالة، ولا حتى سطر.. لقد اختفيتُ منذ أكثر من عام. فكيف بي أن أتقدّم إليها هكذا؟ أودّ ترتيب موعد معها، عن طريق شخص يكون محضر خير!»

«نظاميّ!» قال سيتّيميو وهو ينظر إليه متيقّظًا.

«فإن تحدّثتَ أنت إلى ديازيرا هذه، سهّلتَ عليّ الدخول فيما بعد، أفهمتني؟»

«بالتأكيد، سأتحدّث إليها!» قال سيتّيميو وهو يجثو ثانية لطحن الثلج في الصندوق.

أخرج تومّازو علبة سجائر وضيَّفَ صديقه، وأخذا يدخّنان.

«أوه» قال «أخبرْها أنّي عدت، وأنّي عازمٌ على الارتباط بها، وأنّي أودُّها، وإلى ما هنالك من رقيق الكلام هذا...»

«لا تشغل بالك!» قال سيتّيميو فرحًا.

«وإلّا مكثتُ تحت بيتها، هذا المساء، ولاقيتها حين تخرج لشراء النبيذ...» تابع تومّازو.

«نم قرير العين» قال سيتيميو «فإذا تحدّثتُ أنا بالموضوع، حُلَّت كلُّ مشكلة، وقضي الأمر!»

«سأعتمد عليك!» قال تومّازو بهيئةٍ عابسة، لكنّه يكاد يذوب سرورًا: فلقد رتّب كلّ شيء وكانت الحياة تبتسم في وجهه.

«وماذا تفعل الآن؟ هل تعمل؟» سأله سيتيميو بعد قليل.

«أجل، أجل! أعمل!» هتف تومّازو ساخرًا «كيف! أتحسبني طلقة؟ لقد خرجت من السجن البارحة! ليتني أجد عملًا! آمل أن يوفّقني الله في إيجاد عمل...»

سكت سيتيميو سارحًا في طحن الثلج بالمطرقة. وعندما انتهى، نثر الثلج المسحوق على السمك الذي أودعه لليوم التالي. ثم قال: «أوه، إن كنتَ تريد العمل حقًّا، فاذهب إلى سان باولو، فالأعمال متوافرةٌ هناك لمن أراد!»

رمقه تومّازو وامتلأ قلبه بالأمل.

وتابع سيتيميو: «نحن، الباعة المتجوّلين، لدينا أصدقاء في السوق! إن كنت تنوي العمل حقًّا يا تومّا، دعني أتحدّث مع أحدهم يؤمّن لك عملًا!»

«أتمزح؟ أنقذْني يا صديقي!» ردّ تومّازو «حبّذا!»

«بكلّ الأحوال لديّ بعض الأعمال مع أحد الزبائن في الغد. وبعدها سأعرّج على التجّار. إنّهم في حاجة دائمة إلى شيّال»

«وهل يدفعون أجرًا كبيرًا؟» سأله تومّازو ببساطة، لمجرّد أن يتفوّه بأيّ كلام.

«حسنًا يا ولدي، لا أحد يهديك النقود في هذه الأيّام! ها!». باع قليلًا من المقليّات المخلوطة واستأنف: «سيختبرونك، يومين أو ثلاثة... فإن أبليتَ بلاء حسنًا، لن يطردوك حتمًا!»

كان تومّازو يعرف ماهيّة العمل في السوق، لكنّه ظلّ يصغي إلى صديقه الذي ما فتئ يشتغل على المصطبة ويحدّثه بالأمر في الآن ذاته: ينبغي أن يكون حاضرًا في السوق نحو الرابعة صباحًا، وفي المقام الأوّل عليه أن يتجه فورًا إلى الثلاجة ليحمل صناديق السمك التي تبقّت من اليوم السابق. ثمّ يرتّبها جيّدًا داخل قسم البيع. وحوالي الخامسة أو السادسة، تأتي الشاحنات بالسمك الجديد، لتوضع في مقدّمة

المستودع: ينبغي إنزال الصناديق الجديدة وترتيبها مع الأخريات. ثمّ يبدأ البيع: يأتي الباعة المتجوّلون ويشترون؛ فيجب مساعدتهم، وذلك بتحييد الصناديق ووضع تلك التي يشترونها على الميزان ومن ثمَّ شحنها على العربات. وفي النهاية، ما بين العاشرة والحادية عشرة، يجب إعادة ما تبقّى من سمك إلى الثلاجة ورمي ما فسد منه في مجرور الصرف.

«فلنتوكّل على السمك!» قال تومّازو مبتهجًا.

«بالتأكيد. إذا أنت انضممتَ إلى قطّاعنا» أضاف سيتيميو «فلن تموت من الجوع أبدًا. لأنّ السمك طعامٌ للجميع، أثرياء كانوا أم فقراء!». وأردف بعد قليل: «آهٍ يا تومّا!» وربَّت على كتفه «إنّ المستقبل للشباب!»

حسنًا، لم تجرِ الأمور على أكمل وجهٍ مثلما تصوَّرَ تومّازو، فهذه الدنيا يومٌ في يدك ويومٌ على رِدْفك، كما هو معلوم. لكنَّ العجلة سارت في نهاية المطاف وهذا جيّد.

كانت إرينه آنذاك تعمل في مصنع للأدوية، في منطقة كازيلينا، وتخرج من العمل في ساعة متأخرة نوعًا ما. استغرقت ديازيرا ثلاثة أيّام كي تنقل رسالة تومّازو لإرينه، ثمّ رسالة إرينه لتومّازو.

وبحسب رواية ديازيرا، ما إن سمعت إرينه اسمَ تومّازو حتى انفجرت ضحكًا، ثمّ تولّى العبوس وجهها، وتوقّفت عن الكلام لتركّز فكرها في أشيائها التي تعرفها حقّ المعرفة، ثمّ عادت تنطق كلمتين كلمتين، والضغط بادٍ عليها، تشهق من أنفها وتغرورق عيناها بدموعٍ ثقال.

وعلى الرغم من أنّها حاولت جاهدةً إخفاء مشاعرها، والتجأت إلى

العبارات الغامضة، والأحداث الحزينة التي خَبِرَتها وذاقت مرارتها منذ مدّة، فإنّها كانت في منتهى السعادة، وكان قلبها يرفرف لعودة توماّزو. وبالفعل، بعد ثلاث أمسيات، انتظرته بعد انتهائها من العمل، أمام مدخل المصنع، مع ديازيرا. وكانت إرينه قد تزيّنت بأبهى ما عندها، وارتدت سترتها البيضاء ووضعت الأقراط في أذنيها. وحينما رأت توماّزو مقبلًا، رقَّ قلبها واستبدّ بها الحزن لكنّها ظلّت متحفّظة. تصافحا باحترامٍ يليق بصديقين قديمين.

وفي يوم الأحد، خرجا إلى وسط روما، خلسةً عن والديها. وكان يومًا جميلًا، يحتفي بشمسٍ دافئة، حفّزت الكثيرين للخروج باتجاه أوستيا. وازدحمت الطرقات بالمتنزّهين، لاسيّما حول المحطة حيث استقلّ توماّزو وإرينه الخطّ 11 من غاربانتي. وكان توماّزو قد ادخّر الألف ليرة التي أعطتها له أمّه من قبل: أنفق منها القليل في التنقّل والسجائر، لأنّهم في السوق حيث باشر العمل، لم يدفعوا له أيّ فلس حتى اللحظة.

نزلا من الترام في ساحة فيتوريو، وتمشيّا على الأقدام تحت الشمس صعودًا نحو ساحة إزديرا.

كان توماّزو جادًّا ومتجهّمًا، لأنّه كان سعيدًا بخروجه متأنّقًا والفتاةُ إلى جنبه، ولأنّه أيضًا لم يكن يشعر بخير منذ أن استيقظ في الصباح: وذلك ربّما لكونه لم يغمض له جفن طوال الليل من هول العاطفة التي اضطرمت في صدره خلال اليوم الماضي. ينتابه شعورٌ غريب: يتصبّب منه عرقٌ بارد، وترتجف ساقاه وسائر جسمه، ومن يدري السبب.

وكانت إرينه متحفّظة ومتأنّقة، تحترم جدّيّته وتتمشّى إلى جانبه

بخطوةٍ خلفه وتشبك يدها بذراعه اليسرى التي غاب نصفُها في جيب البنطلون؛ في حين كان بيده اليمنى يدخّن، مضرّج الوجه ومنتفخ الصدر كالديك، وهو يرافق امرأته في النزهة.

إلّا أنّه لم يكن يشعر بخير حقًّا. وعندما وصلا إلى ساحة فيتوريو، بالقرب من دورات المياه العامة المزيّنة كالمعابد الهنديّة، ازداد وجومًا. «انتظريني!» قال لها، فما كان منها إلّا أن وقفت تنتظره، متقوقعة على ذاتها والكآبة تستولي عليها.

"ماذا جرى لي، هل أصابني الإسهال مثل كاغوني؟" فكّر تومّازو غاضبًا من نفسه وهو يلج المرحاض النجس الصغير، في إحدى زوايا الساحة "هل ستصيبني صاعقة وأموت فورًا؟". خرج بكلّ الأحوال أفضل من ذي قبل، وسط حشدٍ من القطط على الجنبة الخضراء، واستأنف سيره محتضنًا الفتاة بذراعه كما لو أنّ شيئًا لم يكن.

"هل أقول أم لا أقول؟" قال لنفسه وهو يعصر فكّيه. فمن جهة، كان في منتهى الفخر والسرور بالنبأ الذي أراد أن يزفّه عليها؛ ومن جهة، فترت همّتُه حتى فكّر لاإراديًّا بإنهاء العلاقة معها. أمّا هي فما كانت تفكّر إلّا بالاستمتاع في يوم الأحد مع رفيقها.

«انظر ما أطيبها!» قالت على سبيل المثال حين رأت طفلة زاهية الثياب، تمشي ممسكةً أباها بيدٍ وبالأخرى أمَّها، وكلا الوالدين من طينةٍ شريفة ومرصّعٌ بالذهب. أو: «كم أحبّ هذا النوع من الأبسطة!» قالتِ في مرورها أمام محلّ لبيع المفروشات. وهكذا دواليك. كان تومّازو سعيدًا في قلبه إذ لديه حبيبة تفكّر بالأشياء على ذلك النحو، كالأكابر والأثرياء. وكان يشاطرها الرأي حول الصغيرات ذوات المناديل المزركشة

والقبّعات المزخرفة، وكذا حول الأبسطة.

وصلا إلى ساحة إزديرا، هناك حيث الحياة. ثمّة صالة رقص عند مشارف القناطر مباشرة، في الطابق الثالث، وقد احتشد أمام البوّابة شبّانٌ بملابسهم السوداء العاديّة، يتوسّطهم آخرون بأزياء كلاسيكيّة، بزّة زرقاء وحذاء مخمليّ.

وقدمت بعض الفتيات المهملة ثيابهنّ، وبعض ربّات البيوت أيضًا، صحبة رفاقهنّ أو رفيقاتهنّ.

وفي الأسفل سينما موديرنو، الصالة المتخصّصة بالعروض الأولى، حيث أسعار التذاكر باهظةٌ تبلغ ستمائة ليرة. وبعدها بقليل، تحت القناطر، توجد سينما أوديون الصغيرة والمكتظة بالعساكر والفتية الصغار، والتي تعرض فيلم «امرأة النهر». توقّف تومّازو وإرينه ينظران في الملصقات؛ وسرعان ما صوّبت إرينه عينيها المسرورتين والمذهولتين إلى الممثلة ذات البنطلون المبروم إلى أعلى الفخذين، وعلى رأسها منديلٌ تعتليه قبّعة القشّ، تُقطّع أعواد القصب بالمنجل. وخلفها مستنقعٌ جميل، مياهه راكدة تحت شمسٍ مبهرة.

«عملٌ عظيم!» قالت بنبرة متحمّسة، لأنّها كانت قد شاهدت الفيلم كلّه «صوفيا لورين وريك باتاليا!». كان تومّازو ينظر إلى الملصقات هو أيضًا، فانتقلت إليه حماسةُ إرينه. «هيّا بنا!» قال حاسمًا أمره، ومسرورًا، يسعل من التأثّر.

اشتريا التذاكر بسرعة وولجا إلى القاعة، إرينه تتقدّم تومّازو وهو يقودها بيديه الممسكتين بخاصرتيها، باعتباره شابًّا مؤدّبًا يسيطر على حبيبته ويذود عنها.

وجدا مقعدين، إذ ما زال الوقت مبكّرًا، وجلسا، يشاهدان الفيلم بسعادة وهناء. أشعلت الأضواء بعد قليل في نهاية النصف الأوّل، فنظرا حولهما: كانا ثنائيًّا جميلًا بالفعل. وهناك ثنائيّات أخرى حولهما، سبعة أو ثمانية، متفرّقين في القاعة. أمّا العساكر والفتية فكانوا يثيرون الضوضاء كما درجت العادة، مسترخيين على مقاعدهم. نظر إليهم تومّازو ناقمًا وغاضبًا. كان يشعر أنّه شخصٌ متفوّق بالمقارنة معهم، رجلٌ ما عاد يمارس تلك الحماقات. ولو كان يعمل آذنًا في هذه الصالة لأذاقهم شرَّ أعمالهم ولكان أَعمَلَ فيهم ركلًا ورفسًا ليطردهم إلى الخارج.

بيد أنّه حينما كان يفكّر كذلك راودته نوبة ألم في البطن ثانيةً: واصفرّ وجهه شيئًا فشيئًا ليستحيل كالموتى، وعندما خُيِّلَ إليه بأنّ النوبة توشك على نهايتها، اضطربت أمعاؤه ونبضت في حلقه؛ وغبش بصره، وكاد يهوي بجبينه ليرتطم على المقعد الأماميّ. لم يكن يستطيع التحرّك، حتى لو أراد، لأنّه خلال الليل نتأت دُمَّلٌ صغيرة على عنقه وظهره وآلمته كثيرًا.

استعاد عافيته شيئًا فشيئًا، وما زال مشوّش الذهن، وبعضُ اللعاب يميع في فمه، فأمسك بيد إرينه وشدّ عليها بقوّة حتى كادت تتجعّد في يده، ودنا إليها كثيرًا.

«إرينه، عليَّ أن أخبرك بشيء...» قال بما استطاع من نبرةٍ عازمة وأنفاسٍ متقطّعة.

سعت إرينه إلى عدم إبداء مشاعرها التي كانت تجيش بها، والتفتت نحوه ونظرت إليه، كما لو أنّها تتوقّع ما سيقول منذ زمن.

«لا أعرف كيف أبدأ...» قال تومّازو.

«عمَّ؟»

«حسنًا، كما ترين، وكما تعلمين» بادر تومّازو «لقد عدت للقائك الآن، وإنّني في هذه الأيّام أهجس دومًا بفكرة الاستقرار.. ها هو، أقصد أنّي أودّ تغيير نمط حياتي... فكما تعلمين، كنتُ في السابق طائشًا... وقد عمدتُ على إخفاء هذا الجانب عنكِ، لأنّني مهتمٌّ بكِ... لكنّكِ تفهمينني، كنت مرغمًا على التصرُّف بتلك الطريقة؛ فهل كنتُ لأخبركِ بأنّني وبشٌ متهوّر؟ هل كنتُ لأخبركِ بأنّني عالة، عاطلٌ عن العمل؟ إطلاقًا... وأنتِ تعلمين أنّ الجميع في قريتي هم على هذه الشاكلة...»

سكت قليلًا، وشرد لكنّه ما زال متّقدًا ومحمرّ الخدّين. ثمّ استأنف: «كنت أشعر أنّني أودّكِ يا إرينه، ولو أخبرتكِ بحقيقتي مَن يدري كيف ستكون ردّة فعلكِ...»

«والآن؟» سألته بانتباهٍ متيقّظ ونبرة رقيقة.

«والآن» قال تومّازو «تغيّر كلّ شيء... فلقد أدركتُ ماذا يعني أن يكون المرء محترمًا ومرحَّبًا به من قِبَل الجميع... اسمعي، الخلاصة هي كالتالي: لقد فهمتِني، أنا أودّكِ كثيرًا، وهذا ما يدفعني لتغيير شخصيّتي: لم أعد أريد أن أكون تُومّازو!»

«أعلم يا تومّا» قالت إرينه بلهجةٍ متفهّمة «أنّ مبادئك شريفة، ثمّ إنّك لم تؤذِني البتّة، وفي النهاية، كما ترى، كان من الخير أنّك تلاعبتَ بي قليلًا... أعرف أنّ جميع الشبّان يفعلون مثلما فعلتَ في المرّات الأولى، حتّى أولئك الطيّبون المهذّبون»

«إرينه» قال لها وقد غمرته السعادة بسماعه تلك الكلمات «هل

أنتِ مستعدّة للقيام بأمورٍ جدّيّة معي؟»

كانت إرينه متأثّرة أكثر من أن تدلي بردٍّ فوريٍّ وحاسم. «جدّيّة... كيف؟» قالت.

«أخطبكِ من أهلكِ!» هتف تومّازو «آتي وأطلب يدكِ من أبيكِ، وأمّكِ... فلنفعل الأشياء كما ينبغي...»

«حسنًا يا تومّا» قالت «إن كنتَ ترى أنّك تودّني حقًّا...» ولم تستطع إكمال جملتها إذ ترجرج الدمعُ في عينيها.

وتومّازو سكت بدوره، وكأنَّ حصاةً علقت في حلقه. وضع يده على كتفها وجذبها إليه.

«أتعلمين يا إرينه» قال مسرورًا وهو يرنو إليها «أوّل أمس، ذهبتُ لدى الخوريّ وأخبرته عمّا أنوي القيام به!»

«من أجل إخراج الوثائق، صحيح؟» سألته بصوتٍ رقيق ونبرةٍ لطيفة حتّى لم يلمس لسانُها أسنانَها أو يكاد.

«أجل!» قال تومّازو «لكنّها ليست مسألة عويصة!» أضاف مبتهجًا. «شهادة الميلاد، شهادة المعموديّة، شهادة التثبيت، وشهادة الأحوال المدنيّة... وليست مكلفة أبدًا، تعلمين! ألف، ألفا ليرة، لا شيء...»

أطفئت الأضواء في تلك اللحظة، وعاد الفيلم. شبك يده بيدها، وراحا يستمتعان بالمشاهدة، مثل الأشخاص الخلوقين.

*

أمسى الطقس أجمل بكثير عندما خرجا، والهواء أعذب. الشمس ما تزال عالية، بينما تمتلئ ساحة إزديرا وشارع ناسيونالي بالضوء والضجّة.

وبما أنّ تومّازو كان يشعر أنّه أفضل حالًا من ذي قبل، وعادت قواه كلّها، تمشّى مع إرينه في شارع ناسيونالي طلبًا للنسائم المنعشة، قبل الذهاب إلى موقف الخطّ 11. كانا يمشيان وينظران حولهما: واجهات المحلّات، الناس، وكلّ هذه الأبّهة وتلك الحياة.

مرّا بجانب حانة صغيرة ليس فيها إلّا أمريكيّون، وواجهتها لا تعرض إلّا ما يتناوله الأمريكيّون من مأكولاتٍ ومشروبات، وكانوا جالسين على تلك المقاعد العالية عند مصطبة الساقي. ومرّا بجانب محلّ للملابس الرجاليّة، حيث كانت على الواجهة بدلة سهرة، وملحقاتها من حذاءٍ ملمَّع وشالٍ أبيض وقفّازاتٍ سوداء وعكّازة؛ وعلى الواجهة الأخرى بدلةٌ خفيفة للتنزّه، بيضاء اللون، مع حذاء موكاسيني بنيّ، وربطة عنق مخطّطة بالأحمر والأسود من عجائب الجمال. ثمّ مرّا أمام محلّ للأحذية، ومتجر كبير يحتوي على كلّ شيء، إلى أن وصلا خطوة بخطوة عند المعرض الدوليّ، حيث عتبات السلالم البيضاء التي تضيئها الشمس.

إلا أنّ تومّازو رأى وجهًا مألوفًا، مرميًّا تحت سياج سلّمٍ يهبط إلى الشارع. حدَّق إليه جيّدًا، فعرف صاحبه: ليلّو.

"ما الذي يفعله هنا؟" فكّر وتجهَّم؛ وبكلّ حال تجنَّبَ إلقاء التحيّة عليه، وعبس أكثر وتابع سيره وهو يشبك خصر إرينه بذراعه دون أن تتفطّن البنت إلى شيء.

«جميل، ها!» قال لها مشيرًا إلى واجهة المعرض البيضاء كوضح النهار.

كان ليلّو مسندًا ظهره إلى السياج، وقاعدًا على الرصيف، وقد رفع

البنطلون ليكشف عن ساقه التعيسة التي بُتِرَت عنها القدم؛ كما شمَّرَ عن كُمِّ قميصه ليكشف عن يده المقطوعة.

وعلاوة على كلّ هذا، كان يحتضن على صدره طفلًا صغيرًا عمره سنة أو اثنتين؛ ويده الأخرى، السليمة، ممدودة نحو المارّين لنيل صدقاتهم.

حتى ليلّو لم ير تومّازو، لأنّه لم يكن يرى أحدًا.

كان الطفل مطمئنًّا في أحضانه، يرتدي ثياب طفلة، ووجهه مخضرٌّ من شدّة الشحوب، وعيناه سوداوان سارحتان كأعين الكهول. وكان ينظر حوله، يمنة وشمالًا، يثير فضولَه شيء ما، لكنّه لا يبدي حيال الفضول أيّ اهتمام، فيكتفي بالنظر في صمت.

أمّا ليلّو فلم يكن مكترثًا بأمره مع أنّه في حضنه. لقد استأجره استئجارًا، لذا كان يعامله على أنّه غرضٌ لا طفل. والطفل كان على علم بذلك، فأدّى دوره طيِّعًا.

ياه ما أشدّ وطأة التغيّرات التي طرأت على ليلّو منذ ذلك الزمان الذي كان فيه يغامر وسط روما مع رفاقه الهمج! لقد هزل جسمه وبانت عظامه، بل وحتّى شعره الذي كان يوليه عناية فائقة لم يعد كذلك. ولحيته لم تُحلَق منذ ستة أيام أو سبعة، ورغم ذلك كانت بالكاد تُرى. إلا أنّه كان قذرًا، هذا مؤكّد، وجلده مكتسٍ بما يشبه الدُّهن، الممزوج بعرقه الدبق، الذي لن يزول عنه حتى لو طهّره بماء الجافيل المعقِّمة، وقد سكن جلده منذ زمن وانصهر فيه، أسوة بزملائه المعوَّقين والمشلولين. فأين هندامه الذي يدلّ على السطوة حينما كان يرتديه إبّان السرقات! وأين بنطلونه الذي يدلّ على الغطرسة وكنزته

المخطّطة وشاله المعقود على عنقه كالأشراف! لم يعد منها أيّ أثر. كان آنذاك يرتدي بنطلونًا متّسخًا ونجسًا وقاتم اللون، وسترة بجيوب منفوخة، لعلّه يحتفظ فيها بصرّة الطعام.

ولم يكن يطلب الصدقة بالشكوى والنحيب، ولا بالنظر في أعين الناس بنقمة ولؤم، كما يفعل الكثيرون؛ إنّما كان يمارس التسوّل على أنّه حرفةٌ وعادة، تسمح له بالشرود في أفكاره اللصوصيّة بينما هو قاعدٌ هناك وقد أهملته العناية الإلهيّة.

«هل تريدين قهوة؟» سأل تومّازو إرينه برحابة صدر، يتصرّف كالسادة جيبًا وروحًا.

«لا، فلنتنزّه! أحبّ الفرجة!» ردّت إرينه بلطف.

«ما أعظم الأبّهة في هذه الأرجاء، ها!» قال تومّازو وهو يرمي آخر نظراته المتقزّزة إلى الخلف، نحو ليلّو، ومضى قُدُمًا. «هنا لديهم طرائق أخرى في التعامل» استنتج «إنّهم مختلفون عنّا كثيرًا! ملابسهم مختلفة بل وحتّى الطريقة التي يتمخّطون بها، وطريقة جلوسهم على المقاعد، ليسوا مثلنا أبدًا... سلوكيّاتهم مختلفة، مستحيل!»

«حسنًا» قالت إرينه «هؤلاء وُلِدوا أسيادًا! أرأيتَ إذا أنجبوا ولدًا، نادى عليهما: بابي ومامّينا... يقدّمون أفضل رعاية لأبنائهم، ويوفّرون لهم كلّ شيء، حتّى حليب النملة... ويدرّسونهم حتّى يكبروا...»

«كلّهم من أتباع الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ» قال تومّازو «هذا هو السرّ!»

«تُرى هل سنكون قادرين على مخالطة هذه الأوساط؟ لا أعتقد البتّة!»

«إنّهم متفوّقون علينا كثيرًا» لاحظ تومّازو «فكيف بوسعنا تحدّيهم؟ اسمعي، عندما كنت أراهم في السابق، كنت أنعتهم بالسُّذَّج والمدلّلين؛ أمّا الآن فبتُّ أستوعب الفرق ما بين معاشرة أبناء قرى الصفيح وبين الاحتكاك بهؤلاء! هؤلاء يعيشون بنزاهة، وأينما عملوا تُرفَع لهم القبّعة!»

صمتت إرينه قليلًا تتمعّن. ثمّ قالت: «وما أدراك! لعلّنا نتمكّن يومًا ما من تبييض وجوهنا، إذا سخّرنا الإرادة القويّة، وحالفنا حسنُ الحظّ!»

صمت تومّازو بدوره، مركّزًا في أفكاره. «أتعلمين ما الذي يخطر في بالي يا إرينه؟» هتف «سأتحدّث مع الخوريّ، لعلّي أنتسب أنا أيضًا إلى الحزب المسيحيّ الديمقراطيّ!»

إلّا أنّ أهل إرينه كلّهم شيوعيّون، وكانت مقتنعة بأهداف الشيوعيّة هي كذلك، منذ نعومة أظفارها، وقد نشأت على ما تعلّمته من والدها بهذا الخصوص. فكّرت في الأمر قليلًا، وانتشت بالتفاؤل والعقلانيّة فقالت: «ليست فكرة سيّئة يا تومّا! ثمّ إنّك إذا واليتَ ذلك الحزب فقد يقدّمون لك يد العون في المستقبل... ويؤمّنون لك عملًا... كما أنّ المرء يجد السكينة والراحة النفسيّة دائمًا كلّما تقرَّبَ من الكنيسة!»

*

تلاقى تومّازو وإرينه في يوم الأحد اللاحق أيضًا، لقضاء العطلة كالمخطوبين المهذّبين.

لكنّ تومّازو أراد هذه المرّة أن تأتي إرينه إلى منطقته، إلى مساكن

إنا: رفضت إرينه في البداية، وتذرّعت بخجلها أوّلًا وببعد المسافة ثانيًا، وكيت كيت، ثمّ وافقت في النهاية، تتملّك السعادةُ أعماقَها، لربَّما تتعرّف على أمّ تومّازو وأبيه اللذين لم يأتِ على ذكرهما إطلاقًا طوال تلك الفترة.

لم يكن الطقس صافيًا في مساء يوم الأحد ذاك، إذ تلبّدت السُّحُبُ في السماء ومنعت تسرُّبَ أشعةِ الشمس منعًا باتًّا لا يقبل الرشوة حتى لو كانت ذهبًا؛ وتوعّدت بأمطار غزيرة غير أنّها لم تمطر، لكنّ الهواء البارد الذي هبّ بين حين وآخر في خضمّ ذلك الجوّ الرماديّ كان قارسًا ويسبّب القشعريرة.

ولم يكن تومّازو يشعر بخير في ذلك اليوم أيضًا، إذ تجمَّدَ من الهواء البارد الذي لم يكن باردًا إلى هذه الدرجة في الحقيقة، طالما أنّ الشبّان الآخرين لم ترتعش أبدانهم البتّة، بل بدأوا يرتدون قمصانًا وثيابًا خفيفة بكلّ بساطة، عازمين على ذلك حتّى لو أثلجت. أمّا تومّازو فكان يرتعش، وأصيب بنوبة سعال أيضًا. وهكذا كان غاضبًا، في شارع تيبورتينا، قبالة مشروع الإسكان، وهو ينتظر قدوم الحافلة التي تستقلّها إرينه.

كان متشنّجًا ويداه في جيوبه، وياقته تغطّي عنقه، يجدِّف بالآلهة كلّما توقّفت حافلةٌ لا تنزل منها إرينه. وها هي قد وصلت أخيرًا، متبرّجةً تزدهي بفستانها الأحمر الجديد. نزلت من الحافلة ومشت بخفّة نحو تومّازو، متأسّفة نوعًا ما، مؤمِلةً أن يعذرها على التأخير. لكنّه لم يكترث، فهذه الأمور تحدث بين المخطوبين كما هو معلوم. أمسك بها من ذراعها واقتادها عن طريق بيترالاتا، منعطفًا بها تحت جبل

بيكورارو، نحو سينما لوكس.

كان يتقدّمها بخطوة، جادَّ الملامح، ويداه في جيوبه، شاحبًا بسبب البرد، وهي خلفه بخطوة، ويدها أسيرة ذراعه.

كانت سينما لوكس تعرض فيلمًا للممثّل الكوميديّ توتو[23]، أضحَكَ العاشقَين. بقيا في الداخل قرابة الساعتين، لأنّهما أرادا مشاهدة الفصل الأوّل مرّة أخرى. وحينما خرجا في النهاية، ازداد الطقس برودةً واغتمامًا، لكنّ هذا لم يمنع الناسَ من الخروج، عائلاتٍ بأكملها تتجه إلى مطاعم البيتزا، وعساكرَ ضجرين حائرين، وعجيان بيترالاتا ذاهبين إلى سينما تيبورتينو، وعجيان تيبورتينو ذاهبين إلى سينما بيترالاتا.

تومّازو وإرينه آنذاك يتمشيّان متقاربين متعانقين: يشبكها بذراعه من خصرها الممتلئ، ويجذبها إليه كأنّه يخشى أن تسقط. كانا صامتين وعابسين كالمخطوبين تمامًا، يسيران خطوة بخطوة إلى وجهتهما.

بعد أن عبرا شارع بيترالاتا كلّه وانعطفا إلى تيبورتينا، آلمت تومّازو ذراعُهُ لشدّة ما عانق بها خصر الفتاة، ليسندها كما لو كانت مريضة. لكنّه لم يكن لينسلخ عنها حتى لو اعترض طريقَه الدَّرَكُ. كان المارّون من هناك ينظرون إليهما؛ وإن لم يفعلوا، انتفخ تومّازو متظاهرًا أنّه يفكّر في أمرٍ آخر، عابسًا ونزقًا يحدجهم بنظرة حادّة حتّى ينظروا إليه وهو يتبختر رفقة خطيبته. فيتابع خطاه ناظرًا إلى الأمام ومنشغلًا بإسناد الفتاة. أحد السفلة لم يدّخر معايرته: «ما هذا، أوائل اللبلاب؟» وآخر:

---

23 أنطونيو دي بيزانسيو الملقب "توتو" (1898-1967) رائد الكوميديا في السينما الإيطالّية، وقد تعاون مع بازوليني نفسه بثلاثة أفلام: جوارح وحمائم؛ الأرض من منظور القمر؛ ما الغيوم. المترجم.

«صمغٌ متين!»، وإحدى العجائز أيضًا: «غير معقول!» لكنّ تومّازو وارينه لا يلتفتان إليهم، بل يتابعان طريقهما بأسىً وتحفُّظ.

درجت العادة أن يذهب العشّاق إلى أسفل، نحو النهر، عبْر تيبورتينا، ما بعد مدخل تيبورتينو الثالث: وبعد ثلاثمائة متر تقريبًا، قبل بلوغ جسر مامولو بمسافة جيّدة، ثمّة جسر صغير على الشارع. وبجانبه دربٌ ضيّق في الأعلى المنحدر تقريبًا، يفضي إلى الريف، من ناحية شارع ميسي دورو. كان الريف هناك جميلًا للغاية، مفعمًا بالأخضر النضر، وزاخرًا بالقمح وأشجار الفاكهة والبساتين المسكونة بالقنّبيط والشمّرة واللفت، وسط أكوام الزبل وأحراش الزيتون. وكان الدرب يؤدّي إلى ما يشبه أعواد القصب الممشوق والمرتفع والمتّسخ ما بين حقلين محروثين. وكان طويلًا يمتّد بموازاة بيترالاتا. هناك حيث كان العشّاق يتضاجعون. وبالفعل، تتبدّى ما يشبه الأكواخ الصغيرة، مصنوعة بأوراق الجرائد، وسط الغائط والروث والطين.

سار تومّازو وإرينه في ذلك الدرب، وكانت ملابسهما مبلّلة بسبب الرطوبة، ونزلا بين أعواد القصب. وكان تومّازو يشعر بالبرد أكثر فأكثر، ويسعل ويستشيط غيظًا؛ لكنّه كان قد قرّر أنّهما سيذهبان للمضاجعة وقضي الأمر، لم يكن ليفكّر مجرّد تفكير بالعدول عن هدفه. وصلا إلى حيث لا أحد سواهما، وجلسا على قطعة رطبة من الحشائش الطويلة، وسط القصب الخامل كالأوتاد، والأوراق المفتّتة.

وحالما قعدا ضمَّ تومّازو إرينه من خاصرتيها ثانيةً.

«هل أنت مرتاحة؟» سألها.

«أجل» طمأنته.

«تعالي بجانبي، اقتربي أكثر!» قال لها وهو يجذبها بذراعه التي تخدّرت من شدّة الألم.

تركته يضمّها، وأسندت خدّها على كتفه، وبدأ تومّازو يقبّلها: قبلة، اثنتين، على فمها. اختلّ توازنه، فتوقّف ليجلّس قعدته: «أغمضي عينيكِ» قال لها «ألا تعلمين أنّ الفتاة إذا قبّلت بعينين مفتوحتين، فهذا يعني أنّها تفكّر بأحدٍ آخر؟»

رفعت إرينه كتفيها برقّة، وعاد تومّازو يقبّلها بكلّ ما أوتي من جسارةٍ وعاطفةٍ جيّاشة. ثمّ بدأ يقبّلها بعنف، حتى اختلّ التوازن مرّة أخرى، وآلمه ظهره لأنّه كان محدودبًا نحوها.

«أوه، أطلقي لنفسكِ العنان!» قال لها وهو يجلّس قعدته «ما بكِ؟»

«الأرض مبلّلة يا تومّا» قالت إرينه «سأتّسخ كلّيًا... فلنقف على الأقدام. هل يختلف الأمر؟»

«كيف نقف على الأقدام!» انفجر تومّازو «نحن على ما يرام هكذا... انتظري قليلًا...»

نهض وأخرج منديلًا، وجالت أبصاره بما حوله والمنديلُ في يده: في القرب، خلف قصبتين، ثمّة قطعٌ من الكرتون، لا بدّ أنّ أحدهم وضعها هناك عنوةً. فجاء بها ورتّبها على الأرض، ووضع فوقها المنديل أيضًا لأنّها كانت مرطّبة.

وعاد يقبّلها، لكنّهما لم يرتاحا بعد، إذ كانت ساقاهما مبسوطة على الحشائش المبلّلة ولا يوجد ما يضعانه عليها.

«أوه، ما بكِ، هل أكلتِ مسامير؟» وبّخها وهو يثور ويغلي. كان

يشعر أنّ قضيبه لا ينتصب، فألقى اللائمة عليها. وغابت لهجته اللطيفة، وأراد أن يدفعها إلى تحت، لكي تتمدّد بظهرها على العشب: «استلقي، استلقي!» يقول لها، بنبرةٍ مكتئبة مأخوذًا بنوبة غلّ. لكنّ إرينه قاومت بتصميم قائلةً: «كلا، كلا يا تومّا!». فتناسى تومّازو الأمر في تلك اللحظة، لكنّه بدأ يمدّ يده تحت الفستان. «ارفعيه... هيّا ارفعي ثوبكِ!». وكان يرفع أهداب الفستان ببطء إلى ما فوق ركبتيها وحتى فخذيها.

"كم أودّ أن آكلكِ!" غمغم في سرّه، وهو يتحسّس بيده ذلك اللحم ناصع البياض الذي تولّهَ به.

«أرخي حزامكِ، اللعنة! إنّه يعوّقني!» قال فيما بعد، ويده تزحف نحو الحزام.

لم يستطع فكّه بيده التي ترتجف من المتعة؛ وبما أنّ الحزام كان مشدود الوثاق فلم يتمكّن من رفع الفستان كما يشاء.

ساقاها مكشوفتان، إلّا من جوربها المربوط بالمشدّات. وكانت إرينه تُبقيهما ممدودتين ومضمومتين، تحدّق ببصرها في رأس قدميها، وذلك لتؤكّد أنّهما مستقيمتان.

وكان تومّازو يداعب فخذها بيد، عند حدود الجورب، ويغلُّ يده الأخرى في شعرها المنثور على عنقها. التزمت هدوءها بعض الوقت، ثمّ أخذت تتمنّع. «لا، لا، ليس هكذا، ليس هناك، ليس هناك، كفَّ عن هذا...»

فقال لها بصوته الأجشّ، والهامس مثلها: «عثرتُ على نقطة ضعفكِ، ها؟» واستمرّ في مداعبة رأسها من تحت شعرها متبسّمًا.

وما انفكّت تموء وتتمنّع قائلة: «أعطني الملقط...»

«لاحقًا، لاحقًا...» وعدها «لا تخافي، سأعطيكِ الملقط لاحقًا...»

وفي الأثناء عاود أبصاره إلى أسفل، ما بين الفخذين، فغمغم وكأنّ حصاة علقت في حنجرته: «أوه، أنزلي سروالكِ...» وحين رأى أنّها امتعضت على الفور استبقَها مردفًا: «لا ينبغي أن تنزعيه... بل أنزليه شيئًا فشيئًا...»

«برد» قالت إرينه عابسة «ثمّ، ما الذي تنوي فعله؟»

«لا شيء!» أجاب بصوته الأجشّ «ما الذي أريد فعله؟! لا تخافي، لن أمسَّكِ حتّى... إنّما أردتُ أن أشبع رغبتي...»

لم ينتظر منها جوابًا. أمسك طرف السروال من فوق الربطة المطاطيّة، برفقٍ وهدوء، مثلما يفعل المروِّض بالوحش؛ ثمّ رفعه قليلًا من تحت وزنها الثقيل بغية إنزاله بخفّة، وشدَّه نحو الأسفل.

«ما أجمل فخذيكِ المكتنزين، يا روحي!» قال لها.

وبدأ يُنزِل جوربها أيضًا.

«ما بك، أتريد أن تتزوّجني وأنا عارية؟» قالت.

«اهدئي، اهدئي» قال لها «سأكتفي بهذا...»

وعاد إلى معانقتها، وقد أسر يديها على صدره، وراح يلعق عنقها ويهمهم لها هامسًا حتى كاد يبكي: «يا روحي، يا روحي...»

لكنّه لم ينتصب بعد، وهو الذي اعتاد في مرحلة كهذه أن يقذف مرّتين على الأقلّ. "اللعنة على أمواتها!" قال في نفسه، واللعاب يموج في فمه من فرط الغضب. كيف ذلك وقد كاد يلتهم إرينه من كثرة القُبَل والعضّ واللعق! "ما هذا... ماذا دهاني؟ كيف يُعقَل أنّني لم أنتصب؟"

كان يفكّر في سرّه محاولًا أن يسخر من الموضوع برمّته.

أمسك بها من ثدييها وجعل يضغط عليهما حتى كادت تبكي. أخرجهما من مكمنهما وشنَّ هجومه عليهما عضًّا وتقبيلًا.

"حسنًا، لقد مرَّ وقت طويل منذ آخر مرّة عاشرتُ فيها امرأة!" قال لنفسه "ولكن، ما الذي يحدث لي، اللعنة عليها! ربّما بسبب البرد..."

راودته نوبة غضب ثانية، فحطَّ يده على كتف إرينه، وضغطها إلى أسفل بكلّ قوة، ليرغمها على الاستلقاء على العشب المبلّل. «انزلي تحت، وتمدّدي!» قال لها ساخطًا.

«هكذا أتّسخ كليًّا... الأرض مبلّلة...» اشتكت إرينه وهي تحاول النهوض.

«إن تبلّلتِ لن تكون نهاية العالم، كما تعلمين! ستتنشّفين فيما بعد!»

أنزلها تحت ولعق عنقها وقبّلها وبات فوقها.

«أوه، افعلي شيئًا أنتِ أيضًا! تحرّكي قليلًا!»

بدأت إرينه تقوم بما عليها، فقبّلت عنقه وتحسّست شعره وضمّته بقوّة. وظلّا متعانقين، ومتكدّسين على ذلك الشكل كأنّهما في حفرة.

"سحقًا!" هجس تومّازو "ما السبب يا تُرى؟ ما الذي فعلتُه؟"

كفَّ عنها فجأة، وشدَّها إلى أعلى، لتجلس كما كانت من قبل، على الكرتون الذي صار هشًّا. دسَّ يده في جيبه وأخرج علبة السجائر، واستلَّ واحدة بأصابعه المرتجفة، وأشعلها بعد أن بصق ثلاث ذرّاتٍ من التبغ دبقتْ على شفتيه، وأخذ يدخّن.

نهضت إرينه عن الحشائش الرطبة، طيِّعةً ومتمالكةً أعصابها،

ونظّفت ظهرها ونظرت إليه شزرًا: أمّا هو فلا شيء، لم ينظر إليها حتّى، وما انفكّ يدخّن، بجبين مقطّب وعينٍ حانقة، مصفرَّ الوجه من البرد. ثمّ قرّرت في النهاية أن تكلّمه: «ما بك؟» قالت بصوتٍ مفجوعٍ يتخلّله إيحاءٌ بالمخاصمة.

نظر إليها. «أنا ما بي شيء!» قال. صمت قليلًا ونفخ الدخان ثمّ أردف: «أنتِ التي تغيّرتِ!»

صُدِمَت إرينه وهوت من الغيوم، وسارعت إلى الوجوم، وردَّت: «أنا تغيّرت؟ بل ما زلت كما أنا... لطالما كنت هكذا، ألا تذكر؟»

«ومع ذلك كنتِ مختلفة عندما عرفتكِ!» ألحَّ تومّازو محتدًّا.

كانت إرينه ترتّب ثيابها التي تحوّلت إلى كارثة. فتوقّفت عمّا تفعله. «لا بل ما زلتُ كما كنتُ دومًا!» هتفت والعَبَراتُ تتجلّى في صوتها.

«كلا، كلا، كلا» قال تومّازو وهو يهزّ رأسه، مكشِّر الفم «كلامكِ ليس صحيحًا! أنتِ لا تثيرينني، لا بدّ أنّ شيئًا ما قد وقع، فإحساسي لا يخطئ...»

«ولكن، لماذا؟» قالت إرينه «ما الذي تظنّ أنّه وقع؟ لا يبدو لي أنّني تغيّرت... باتت حياتي مكتوبة، هي هذه... الفرق الوحيد أنّني لم أكن أعمل، بينما أصبحتُ الآن أعمل! ورغم ذلك، لا أعتقد أنّ العمل أضرَّ بي...»

صمت تومّازو بعض الوقت، مسندًا مرفقيه على ركبتيه، متجهِّمًا، ومقطِّب الجبين كليًّا، غائم النظرات، سارحًا في هواجسه.

«وكيف استطعتِ دخول ذلك المحلّ حيث تعملين؟» استفسر على حين غرّة وهو يرمقها.

فشرحت له إرينه بلمسة فرحٍ في نبرتها على الرغم من تعاسة الموقف: «جيراننا، عائلةٌ لديهم حفيدٌ يعمل سائقًا في شحن الأدوية، تحدَّث من أجلي مع الطبيب...»

«وماذا يعني كلّ هذا؟» قاطعها «هل أرضيتِ شهوة أحدهم؟»

لم تشأ إرينه حتى أن تفهم ما الذي يلمّح إليه تومّازو، فانفجرت: «كيف لواحدةٍ مثلي أن ترضي شهوة رجلٍ ليس في حاجةٍ إلى شيء؟»

«الشهوات التي بإمكان المرأة أن ترضيها لا يقدر عليها أحدٌ غيرها» قال تومّازو.

نظرت إليه، حملت حقيبتها من على العشب الرطب، نظّفتها قليلًا وتهيّأت للنهوض. وكانت ذقنها المدبّبة ترتجف كأنّها توشك على البكاء، لكنّها صمّمت على إنهاء المجادلة والانصراف.

«فلنذهب إلى البيت...» قالت.

«كلا، ستبقين هنا!» قال تومّازو وهو يمسك بمعصمها ويرغمها على الجلوس ثانية حتى كاد يوقعها. «عليكِ أن تخبريني» تابع وهو يضغط على أسنانه «بكلّ ما فعلتِه منذ ذلك المساء الذي أتيتُ فيه إلى تحت بيتكِ لكي أعزف لكِ السيريناتا، ولغاية بعد ظهر هذا اليوم!»

رضخت إرينه وقدَّمت له ما شاء من تفسيرات، حزينةً ذليلةً، ولكنّها حافظت على هدوئها، لأنّها كانت تعلم أنّ ضميرها نقيّ. «بإمكانك أن تختار اليوم الذي تريد» قالت «فبالنسبة إليّ كلّ الأيام كانت متشابهة... ثمّ إنّك لست بحاجة لأخبرك بذلك، فأنت تعلم ما الطريق الذي أسلكه في الحياة...»

استشاط تومّازو غضبًا: «لم يسمّوني تومّازو عبثًا، تعرفين!» قال

وهو يرفع يده بكفٍّ مفتوحٍ يضرب عليه بإبهام يده الأخرى. «لماذا! لقد قضيتُ ثمانية عشر شهرًا مغيَّبًا عن كلّ شيء، بسببكِ! وأنا لستُ ممّن ينامون واقفين كالمغفّلين؛ عليكِ أن تطرحي أوراقكِ كلّها على الطاولة!»

«لا أفهمك» قال إرينه بحزن «لماذا تحدّثني هكذا... لماذا؟ ما الذي يراودك؟ إن كان أحدهم قد أسمعَكَ شيئًا، فقل...»

«حسنًا» قال تومّازو «أخبريني: كم عمر هذا الحفيد، السائق؟»

«إنّه متزوّج» هتفت إرينه «لديه زوجة وأولاد كبار! ثمّ إنّه يعرف عائلتي، لقد حملني بين ذراعيه في صغري...»

«والطبيب؟» قاطعها تومّازو.

«لم أره على الإطلاق، لا أعرف شكله حتى!» أجابت إرينه.

«أخبريني إذن!» تابع تومّازو «هل جميعكنّ نساء، في شركة الأدوية هذه؟ ألا يوجد رجال؟»

«الرجال يعملون في قسمٍ آخر» فسّرت إرينه «يوجد شيّالون...»

انتفض تومّازو وحدّق في وجهها ناقمًا: «أترين؟» صرخ «تريدين أن تقولي لي بأنّك كنتِ ماريّا غوريتّي[24] لأكثر من عام، ألم تتحدّثي إلى أحد؟»

«وما شأن هذا بذاك!» قالت إرينه بصوتٍ مرتعش «أجل، لقد تحدّثتُ، فأنا امرأةٌ... ثمّ إنّه لم يكن بيني وبينك كلّ هذه المعرفة حينذاك... ومن كان سيتصوَّر أنّك قد تعود، إليَّ...»

جثا تومّازو على ركبتيه وصار إليها وجهًا لوجه، مكشّرًا عن أنيابٍ

---

24 القدّيسة ماريّا غوريتّي (1890-1902) فتاة شابّة حصلت على شعبيّة واسعة في إيطاليا، بعد أن لقيت مصرعها نتيجة اعتداءٍ جنسيّ. فاعتُبِرتْ شهيدةً عذراء ولُقِّبَت بالقدّيسة عام 1950 من قِبَل البابا بيوس الثاني عشر. المترجم.

تشبه أنياب الجيف: «أرأيتِ أنّ هناك شيئًا قد وقع!» صرخ ثانيةً.

«حسنًا» قالت إرينه بصوتها الذي ما زال يرتعش «حاول أحدهم أن يتقرَّب منّي، ولكن لم يحدث شيء...»

«لكنّكِ أصغيتِ إليه» انفجر تومّازو ونثر اللعاب من فمه «توقّفتِ للتحدّث معه...»

«أجل» أقرّت إرينه «حدث ذلك، ولكن...»

لم يتركها تومّازو تنهي ما عندها، فصفعها بكفّه على خدّها حتّى كاد يقلب وجهها.

لم تدرك إرينه ما حدث في بادئ الأمر، نظرت إليه بارتباكٍ وجزعٍ. ثمّ أحاطت وجهها بكلتا يديها وهمّت بالبكاء الخفيض.

"تبكين، ها، يسعدني هذا!" قال في نفسه مغتاظًا، وهو يحدِّق مباشرة إلى عينيها.

هبط المساء، وخيَّمَ الظلُّ بين أعواد القصب. وفي ذلك السكون، بينما كانت إرينه تبكي، سُمِعَتْ أصواتُ صياحٍ بعيد، وأناسٍ يغنّون، لعلّهم شلّةٌ من الفتية العائدين إلى بيوتهم من جهة تيبورتينا، فسمعهم فتيةٌ آخرون، من مسافةٍ أبعد، فسخروا منهم وردّوا عليهم بصرخاتٍ مجلجلة تتخلّلها ضحكاتٌ وقحة. وكان الهواء يصبح أقلّ برودةً مع تقدُّم المساء، حيث ذوت النسائمُ المنعشة، وصار الجوّ فاترًا في حين كان الندى يقطر من نبتة القرّاص.

وبعد قليل، كفّت إرينه عن البكاء، ونهضت والحقيبةُ في يدها، وانصرفت بصمت. فلحق بها تومّازو وهو يشعل سيجارة أخرى، وما زال حانقًا واجمًا. سلكا الدرب الضيّق إيّاه، الذي تبدّى بالكاد خطًّا

أبيضَ بين الأسوجة المنتزَعة وأعواد القصب وأجمات الحشائش. صعدا لغاية شارع تيبورتينا بمشقّة لأنّ الطين كان زلقًا، واتجها خطوة بخطوة نحو موقف الحافلة.

كانا يمشيان ساكتين، في الشارع الذي غدا مزدحمًا بالسيّارات الماضية والآتية والتي أشعلت أضواءها الأماميّة، وبمجموعات الأصدقاء الصاعدين والهابطين يتدافعون ويتشاجرون ويتضاحكون.

وبعد مائة خطوة تقريبًا، مشاها تومّازو مقطّب الجبين ويداه في جيوبه، توقّفت إرينه بحجّة تمرير إصبعها في فردة الحذاء التي كانت تضغط على قدمها فتؤلمها كثيرًا. اتّكأت على مرفق تومّازو وتنهّدت. ثمّ استأنفت السير وما زالت تشبك ذراعه على خجلٍ بيدها الغليظة الحمراء.

تركها تومّازو تفعل ذلك وتمترس بالصمت، وقد تضرّجت وجنتاه من شدّة الغضب والتأثّر. تقدّم ساكتًا ثمّ قال في النهاية بصوته الأجشّ: «هل لديك نقود لتذكرة العودة؟»

«أجل، لديّ» ردّت إرينه على الفور، بتعبيرٍ من الارتياح في عينيها، حتى كادت تعاود النحيب.

وبعد عدّة أمتارٍ يكتنفها السكوت، غمغم تومّازو: «إرينه، لقد عرفتِ طبعي... لا أعرف إن تبيّنتِ الأمر بعد: فإنّي إن كان عندي ما أقوله لكِ أخبرتكِ به فورًا، لأنّي لا أريد لصدري أن ينفجر!»

صَمت قليلًا، متأثّرًا بكلماته، واستأنف: «اسمعي، أنا لست ممّن يحكُّون قرونهم بأيديهم! إيّاكِ أن تنسي هذه النقطة! أنا عندما أحبّ، أحبُّ حقًّا وحقيقةً، ولا أتسلّى بالحبّ لمجرّد يوم أو يومين... وما

كنتُ لأختلق جدالًا أو مشاجرةً إلّا لأنّي أحبّكِ... ولو كنتِ لا تعنين لي، لاقتنعتُ بأيّ كلامٍ تكذّبين به عليّ... وكنتُ لأرضى بأيّ شيء يخرج عنكِ؛ لم يكن سيهمّني أمركِ!»

استمعت إرينه لكلامه بصمتٍ خاشع، متفهِّمةً كلّ ما أراد تومّازو قوله. «أنت تعلم أنّني أنا أيضًا أحبّك!» قالت في النهاية هامسةً ومتأثّرةً بكلماتها هي الأخرى.

وما زال الصمت طاغيًا عليهما طوال مدّة انتظار الحافلة تحت سقف الموقف عند مفرق تيبورتينو، وما زالا عابسين كالعادة، منعزلين عن الذين ينتظرون مثلهما. وصلت الحافلة شبه خاوية لأنّ المحطة الرئيسة كانت قبل موقفين فقط. وصعدت إرينه وتودّعا كما لو أنّ كلّ شيء مستتبٌّ في علاقتهما، «وداعًا»، «وداعًا» ولا مزيدَ من الكلمات. ظلّ تومّازو واقفًا حتى اختفت الحافلة عن ناظريه، ثمّ جال بأبصاره، ووضع يديه في جيوبه وما زال محمرّ الوجه من شدّة الهيجان وعيناهُ تحترقان، ومشى مشيةً متأنّية، بخطوات متهادية، نحو جبل بيكورارو المواجه.

وكان في مروره من قبل قد ألقى نظرة على الحركة: ثمّة فتيةٌ يلعبون الكرة، وأصدقاؤه جالسون على السفوح.

جلس تومّازو أيضًا، على العشب المبلّل والمتّسخ، خلف المرمى، بين رفاقه. كان مطمئنّ البال، بما أنّه قد ودّع المرأة منذ قليل، لكنّه ما زال يشعر بأنّه ليس على ما يرام، إذ كانت حرارتُه مرتفعةً وعرَقُه باردًا.

وكان شاكالو واقفًا، يضغط يديه على أنفه ويكوِّرهما حول فمه ليؤدّي دور المعلّق الإذاعيّ على المباراة؛ توقّف عن الكلام وفتح فمه على

وسعه، وظلَّ متسمّرًا هكذا إلى أن تحرَّكت حنجرته فتجشّأ كأنّه يغرِّد.

وكان هناك صديقه من تيبورتينو، المتخصّص بالجشآت والملقّب بازينتي/المريض، فلقَّنه درسًا بسيطًا ووجَّه إليه صفعة معنويّة، إذ أطلق أربع جشآت متتالية: فنظر إليه الجميع، واستعادوا ثقتهم بالحياة، بعد ظهيرةٍ أمضوها بلا ليرة واحدة، يمسِّحون أردافهم بالعشب القذر ومقاعد الحانات.

إلّا أنّ الفتية الذين يلعبون الكرة سرعان ما ضجروا، وانصرفوا فجأة، إلى أسفل، نحو قرية الصفيح وهم يتعاركون. وكان الظلام قد خيَّمَ حقًّا، واتّشح الشفق خلف الجبل باللون البنفسجيّ. "سأخلد إلى النوم الآن" فكّر تومّازو "فما الذي أفعله هنا؟". وإذ كان يغنّي بما أوتي من قوّةٍ وصوتٍ قبيحٍ كأنّه مريضٌ بالسلّ، تراءى له عجوزٌ سكّير يتقدّم من جهة جسر مامولو وكانت الثمالة قد أعشت أبصاره.

«كونابا!» صاح الرفاق سعداء حينما رأوه وكانوا على وشك المغادرة هم أيضًا «كونابا، تعال إلى هنا، وألصق علينا الصراصير!»

كانوا يعرفونه، لأنّه يعمل حارسًا لمستودع في سان بازيليو حيث كان يضربهم بالعصا منذ طفولتهم. لكنّ كونابا حينها لم يكن يراهم أو يسمعهم. كان يمشي على خطّ مستقيم، يترنّح من حين لآخر، وركبتاه تنثنيان وترتجفان، يخاطر بسقوط أنفه الدميم على البلاط في كلّ لحظة. بنطلونه الرماديّ القذر فضفاضٌ عند قدميه، وسترته تصل حَتى ركبتيه وجيوبها مهترئة. يعتمر طاقيّة تغطّي منخاريه، عتيقةً وباليةً، وقميئةً حتّى إنّها لو عُصِرَتْ لتدفّق منها شحم الخنزير.

عدّل حضورُه مزاجَ الجميع، بما فيهم تومّازو. «كونابا» يصيحون

«أيّها المخبر! تعال هنا، تعال هنا، وإلّا جنيتَ على نفسك! ستموت هذا المساء!»

اصطفّوا بسيقانٍ منفرجة على سفوح الجبل القذرة، كما لو أنّهم يخضعون لجولةٍ تفقُّديّة. وفي لحظة ما، وبدون إنذار مسبق، جلس العجوز المخبر كونابا على حافة الرصيف المقضومة حيث يتفاقم الوحل. جلس هناك متأرجحًا، أحمر اللون كالموت، يفتِّش في جيوب سترته التي تفوح رائحتها الكريهة من مسافة ثلاثة كيلومتر.

«أيّها المخبر!» صاح إليه بازينتي «لقد عشتَ في الماضي، ها؟ كان لديك مَن يلعق قدميك!» وأضاف مشمئزًّا: «ماذا ينتظرون للزجّ بهم في السجن، هؤلاء الأنجاس السكارى الذين لا يسبِّبون للناس إلّا الإزعاج!»

نظر العجوز إلى بازينتي ناقمًا، ومَن يدري كيف سمعه وحدّق إليه. كان من الواضح أنّه لا يميّزه جيّدًا، في ظلّ الجبل، من بين الشياطين الآخرين، ضمن لعاب الضوء البنفسجيّ الذي أُوقِدَت الأضواء في ثناياه.

«أريد أن آكل، أريد أن آكل!» قال وأضاف كلمات أخرى، وبدا كأنّ في فمه إطارًا مطّاطيًّا.

«ماذا تأكل؟ الخبز أم القمل؟» سأله شاكالو.

استطاع العجوز أن ينطق هذه المرّة بكلمة واحدة بصوت قويّ: «سمك!» صاح وهو يبصق ولسانه يتبرّم.

وتمكّن فعلًا من إخراج لفافة ورق الجرائد من جيبه، وكانت تقلِّب المعدة بمجرّد النظر إليها، إذ كان قد انتشلها من الطين.

«هل فيها سمكة؟» سألوه بلطف مستفسرين.

صدر صوت العجوز من منخاريه، وذقنه، وأذنيه، ودبره، ضاحكًا

ومسرورًا، وقال إنّه حصل عليها من الساحة في اليوم الماضي وكان يحتفظ بها من أجل العشاء.

دنا منه بازينتي، ذو الرأس الصلعاء والذقن المدبّبة والوجه الدهنيّ الذي بدا مكوّنًا من صفار البيض، وقال له: «أرني هذه السترة، لعلّها تناسبني!»

نزع العجوز سترته وأعطاه إيّاها، لا حول له أو قوّة، كانوا قادرين على إلباسه وتعريته كطفلٍ رضيع. ارتداها بازينتي، وطاف بها قليلًا، وهزَّ ساقيه مؤدّيًا دور المهرّج، على مرأى جمهوره المتمزّق من الضحك، ثمّ اختفى بغمضة عينٍ في الطريق الصاعد إلى جبل بيكورارو الذي فاض بالظلمة فأمسى قاتمًا إلّا من جثّة الضوء الشحيح الذي ترسله مناراتُ تيبورتينا في البعيد. والآخرون من خلفه يهلهلون معًا بأعلى صوت. بحث العجوز كالأعمى عن لفافة الورق التي سقطت منه أرضًا وحملها وهو يهمّ بالركض خلف بازينتي ورفاقه، ويصرخ: «أعِدْ لي سترتي! سترتي!»

توقّف الآخرون على قمّة الجبل، بين الحنايا التي تعجّ بجيف الحيوانات الميّتة مؤخّرًا، والرائحة الكريهة تسيطر على المكان. حتى تومّازو كان يركض معهم ويضحك مع أنّه كان يشعر بالتعب.

ثمّ وصل العجوز بشقّ الأنفس فكاد يبصق أجزاء من رئتيه. لكنّه لم ينتبه إلى ذلك. كان يصيح غاضبًا، كأنّما ينطق من فم شخصٍ آخر: «السترة! السترة!». ولم يعرف مع مَن كان يتحدّث. وربمّا لم يكن يرى: كمن يتوجّه إلى قدّيسٍ ليسأله النعمة. وما انفكّ يعاند كما لو أنّ أحدهم غرس عمودًا في حلقه: «السترة! السترة!»

وظلّ بازينتي يتبختر بالسترة التي تصل بأهدابها إلى كعبيه. ثمّ توقّف فجأة، مركّزًا انتباهه، وأطلق ريحًا. وما زال العجوز واقفًا هناك يندب ويولول.

«خذ!» قال له وهو يقترب منه. نزع السترة متقزّزًا من رائحتها العفنة. وما إن سكت العجوز لأنّ القدّيس استجاب لدعائه، ومدَّ يديه ليمسك بها، صاح بازينتي ضاحكًا: «انقلع من هنا!» وأرجح السترة بقذارتها في الهواء لتهبط عند عمود الإنارة. لم ينظر كونابا إلى أحد، بل راقب سترته وهي تهوي واتجه إليها كاتجاهه نحو إنسانٍ حيّ، ورمى بنفسه عند العمود ليحملها.

تثاءب تومّازو، بفمه المعوجّ، ووجهه الذي لاح بتعابير المتعة، وقال لنفسه: "دعني أذهب إلى البيت! دعني أخلد إلى النوم! سأندسّ على الفور تحت تلك الشراشف!" وأضاف خاطرًا شهوانيًّا: "وأحلم وأحتلم!"

وكان يغادر عندما انقضّ ناتزارينو – وهو يقهقه كالقرد – على العجوز الذي كان جاثيًا على سترته. أمسك ناتزارينو بحزامه وأخذ ينزع بنطلونه. «دعني أجرّب هذا البنطلون فقد يليق بي! ماذا! هل اشتريته من شوبرت[25]؟» قال. وكان العجوز يقاوم كما لو أنّ روحًا خبيثةً من المطهر جاءت تعذّبه آنذاك. لكنّ ناتزارينو قلَبَهُ على ظهره، وسحل البنطلون من ساقيه القذرتين. استعاد بازينتي السترةَ ورماها في الهواء من جديد. فاحتار كونابا: أيسترجع السترة أم البنطلون. لكنّه قبل كلّ شيء حمل لفافة السمك، وراح يركض هنا وهناك وهو يصيح: «ثيابي! ثيابي!»

---

25 إميليو فيديريكو شوبرت (1904-1972) من أمهر الخيّاطين وأشهرهم في روما في حقبة الخمسينيّات من القرن الماضي. المترجم.

«فلنحرقه بالنار!» صرخ شاكالو. «أعطني آلتك!» قال لأحد رفاقه. فأخرج ذاك آلته بسرعة. «كلّ شيء، كلّ شيء، فلنحرق كلّ شيء!» صاح ناتزارينو مستلهمًا.

صنعوا كومةً من سترة العجوز وبنطلونه. وبينما كان ثلاثةٌ منهم يثبّتونه من ذراعيه، عرّاه الآخرون تمامًا وهم يضحكون كالداعرات. وخزتهم رائحةُ ثيابه الكريهة، حين كانوا يرمونها على الكومة: قميصه وكنزته النجسة وسرواله وطاقيّته وحذاءه. تركوه بالجوارب فقط. ثمّ أبعدوه عنهم، عاريًا كما ولدته أمّه، بشعره الأبيض، وأضرموا النار بالثياب. كان العجوز واقفًا ينظر كالأبله، وبدلًا من أن يصرخ بشيء ما، راح يئنّ، وقد أنارت وجهَه ألسنةُ اللهب التي تستعر بثيابه. «ولفافة السمك!» صاح ناتزارينو متوقّفًا عن الضحك. حمل اللفافة وقذفها بالنار أيضًا. ثمّ فرَّ أحدهم راكضًا وهو يسدّ أنفه بأصابعه ويصيح: «ما أقبح هذه الرائحة!». فركض الآخرون خلفه بين أحراش الجبل، إلى أسفل نحو تيبورتينا، ينعبون وينعقون ويتقيّؤون أمعاءهم من الضحك. كانوا يهربون متفرّقين على أرض الجّبل المتيبّسة، وعلى الطين وأكداس القمامة العفنة، كقطيعٍ من الضباع الهرمة. حتى تومازّو كان يركض ويضحك، لكنّه ما زال يشعر بألمٍ متواصل. كانت الدُّمَل في عنقه توجعه، وقد احمرّ وجهه كثيرًا، وارتفعت حرارته، وشعر بالبرد، على الرغم من الركض، كأنّه أصيب بالحمّى.

3 - ما الذي يريده تومّازو؟

منذ ذلك اليوم ظلّ تومّازو يشعر أنّه في حالٍ غريبة، لاسيّما في المساء: حوالي الرابعة، أو الخامسة بعد الظهر، يراوده إحساسٌ بارتفاع درجة حرارته، حتّى الحماوة القصوى، متزامنًا مع قشعريرة برد. لم يكن يشعر بالمرض تمامًا، إنّما بحالٍ غريبة بالضبط. لذا كان يتابع حياته كأنّ شيئًا لم يكن: يزاول العمل نفسه، في السوق، لبيع السمك، منذ الفجر وحتى آخر الضحى. ثمّ يذهب للتنعّم بقيلولةٍ، يفيق على إثرها بتقلُّبٍ معويٍّ وإحساسٍ بالتجمّد. يرتدي ملابسه وهو يتصايح مع أمّه، وينصرف إلى شؤونه، في قرية الصفيح، يجوبها طولًا وعرضًا صحبةَ أصدقائه.

وفي تلك الآونة تحديدًا، وصلته البطاقة الزهريّة: الاستدعاء للالتحاق بالخدمة العسكريّة.

حضر إلى مكتب المقاطعة للفحص الطبيّ ذات صباحٍ، في شارع ديلا غريكا، مع زوكابّو ومينكيا وشاكالو والآخرين الذين من عمره. نزعوا ثيابهم، ودخلوا العيادة واحدًا واحد. وجاءت نتيجة فحوصاتهم إيجابيّةً للتجنيد جميعًا؛ ما عدا تومّازو إذ أرسلوه إلى المستشفى العسكريّ في تشيليو – للتأكّد من النتيجة – حيث يُنقَل من هم بحاجة

إلى فحوصات إضافيّة.

فحضر إلى تشيليو بعد أيّام، وأجروا له فحصًا معمّقًا، بالتصوير الشعاعيّ وما هنالك. وفي النهاية قالوا له كلمةً لم يفهم مقصدها، ما يعني أنّ لديه شيئًا ما في الرئتين هو السبب وراء تلك الدُّمَّل، وعليه أن يسجِّل نفسه في التأمينات الصحيّة فورًا لكي يخضع للعلاج. لم يفهم تومّازو، قال بلهجةٍ تتراوح بين المكر والقلق: «ما أدراني!». طلب مزيدًا من الإيضاحات، فقالوا له باختصار إنّه مريضٌ بداء السلّ، وعليه أن يتجّه إلى مستشفى فورلانيني مباشرة.

"مباشرةً" كلامٌ فارغ: فلقد توجَّبَ عليه تقديم العديد من الطلبات، في مكتب التأمينات الاجتماعيّة، ودخول متاهة بين هذا الموظّف وذاك، والانتظار أسبوعًا، شهرًا، وشهرين.

لم يبح بشيء لإرينه، ولا لسواها. بدا له الأمر برمّته سخيفًا: كان يضايقه كثيرًا، ويؤرّق أعصابه، وكفى. كان يذهب إلى الفورلانيني، صحيح، لأنّه مضطرٌّ لذلك: لكنّه كان بمعنويّات عالية، متيقّنًا من عدم إصابته بشيء، وأنّها فترة ستدوم ما بين أعياد الميلاد ولغاية عيد القدّيس ستيفانو، لأنّه ليس بمريض سلّ، ولم يكن يومًا كذلك.

وذات مساء، وصل إلى مستشفى فورلانيني، حوالي الخامسة، بالخطّ 13 الذي كان ينطلق من جهة أكوا بوليكانتي ليتّجه إلى أعلى، إلى هضبة مونتي فيردي نوفو تمامًا. نزل وأمّه وسارا على الأقدام في الجادّاتِ الحديثة، ووصلا عند مدخل المستشفى الذي كان عبارة عن شبكة معدنيّة وبجوارها ما يشبه كشك الحارس، ما يوحي بمدخل ثكنة عسكريّة. وخلف الشبكة تمتدّ الحدائقُ والأشجار، وفي العمق

واجهةٌ مليئةٌ بالأعمدة لمبنىً ضخمٍ كالمسارح.

تهيّأ تومّازو للدخول، متوتّرًا نافد الصبر، وأمُّه على وشك البكاء، يمشيان نحو مجمع الأعمدة في نهاية الرياض الخضراء. أوقفه حاجبٌ بنبرة جلفة وأمره بالتمهّل. فتنهّد تومّازو وأشعل سيجارة، فيما ذهب الحاجب لينادي على شابّ، هو الطبيب المناوب الذي استغرق وقته كلّه في التحقُّق من نظاميّة أوراق تومّازو وكونها مرفقة برسالة التأمينات الاجتماعيّة وإلى آخره من هذا الكلام. كان تومّازو على علم بثبوتيّة أوراقه، فظلَّ ينتظر منزعجًا، ومفتعلًا تعبيرًا متفهِّمًا.

أرسلوه من المدخل إلى القسم الإداري، رفقة أحد الحجّاب. قطعا الحديقة كلّها، التي كانت حينذاك تختنق برائحة الغاز المنبعث من بيرموليو حيث الشعلة التي تتأجّج في السماء حمراء بسبب الغروب، في الجوار، خلف محطة تراستيفيري. ودخلا إلى المبنى المطوّق بالأعمدة، وتجوّلا خلال عشر دقائق ما بين القاعات والمداخل والسلالم والممرّات الواسعة، وتلك الضيّقة، حتى خرجا إلى حديقة أخرى، على شكل إيوان، في الخلف، وكان القسم الإداريّ في نهايتها من الجانب المعاكس، مشرفًا على شارع بورتوينسي.

دخل تومّازو صحبة أمّه التي لم تَفُهْ بكلمة، فوجد نفسه في قاعة صغيرة تبدو كمكتب البريد، حيث تُستَلَمُ البرقيّات وتُبعَثُ الرسائل المسجَّلة. نظر موظّفٌ في أوراقه، وسأله عن هويّته، وأعطاه رقم التسجيل أخيرًا للتوجه إلى قسم القبول.

شرح له الموظّف أنّ القسم في الخارج، على مقربة، عند أوّل الحديقة التي على شكل حدوة الحصان؛ الجناح الأوّل مخصّصٌ

للرجال: بنايةٌ مرتفعة وكبيرة، أحد جوانبها كلّه شرفات. فذهب إلى هناك، ممتعضًا ونافدًا صبره، وساخطًا، مع أمّه التي ما زالت ترافقه، صامتة، ومتدثّرة بثيابها التي كانت أفضل ما عندها منذ قرابة العشرة أعوام.

وهناك أيضًا، ممرّاتٌ وسلالم ونوافذ كبيرة، طاف خلالها روحة وذهابًا، دون أن يلتقي أحدًا، ليفقد صبره رويدًا رويدًا. حتى رأى راهبة، فسألها محتدًّا: «يا أمّنا، أين عليَّ أن أقدِّم نفسي؟»، فأشارت له إلى باب صغير يؤدّي إلى ممرٍّ يمتدّ على طول الحديقة، وانصرفت إلى الجانب الآخر.

خلف الباب إيّاه مكتبٌ لممرّضة مشرفة، منهارة، عريضة أكثر ممّا هي طويلة، وعيناها كأعين القرويّين. انتهت جولات تومّازو هناك. كان عليه أن يبقى في ذلك الجناح عدّة أيّام تحت المراقبة. تهيّأت المشرفة، بعد أن دقّقت الوثائق ثانيةً، لاصطحابه إلى الغرفة الصغيرة التي خُصِّصت له.

التزمت صمتها، إذ حان الوقت الذي ينبغي لتومّازو أن يودِّع فيه أمّه، وينبغي لأمّه أن تنصرف. لم تدرك الأمر في البداية، وقد أنابها الجزع، حتّى اضطرت الممرّضة إلى إبلاغها بذلك. رمت السيّدة ماريّا ابنها بنظرةٍ يائسة ومتردّدة عندئذ. «سلامًا يا تومّا!» قالت بصوتٍ مهزوز «كن بخيرا». عانقته بقوّة، وكانت قاب قوسين أو أدنى من الانفجار بكاءً. لِكنّها سرعان ما أولته ظهرها ومسحت دمعها بالمنديل واتجهت نحو الحديقة مخطئة طريقها مرّتين أو ثلاث، لتسير بعجالة وقد غالبها الخجل.

قالت له الممرّضة حين باتا وحدهما: «من هنا!»، وأفسحت له المجال لولوج ممرّ يفضي إلى روضة أخرى، داخليّة، وفيها كثيرٌ من المقاعد تحت النباتات المعذَّبة. ولم يكد يخطو خطوتين حتى وصلا إلى مخرجٍ، معدنيٌّ من الأسفل وزجاجيٌّ من الأعلى.

دفعته وأدخلت تومّازو. كان المهجع مكوّنًا من ستّة أسِرَّة، بعضها مصطفّ بجانب بعض، وفي العمق نافذةٌ تطلّ على الحديقة الموازية لشارع بورتوينسي. هنالك نزلاء عُجَّز على الأسِرّة، رماديّةٌ وجوهُهم، نحليةٌ أبدانُهم كالحساسين، طليقةٌ لحاهُم.

وكان سريرُ تومّازو هو الأوّل من ناحية المدخل، بجانب الباب؛ والسرير الذي يليه خالٍ. «أجل، هنا، استرح» قالت له الممرّضة المشرفة. لكنّه لم يكن يستوعب ما يحدث. لم يكن قادرًا على تخيُّل أنّ ذاك هو مكانه، سريره. «لديك دُرج، وخزانة» أضافت. وبالفعل، ثمّة ستّ خزائن حديديّة بيضاء وصغيرة على الحائط المواجه للأسِرّة.

«العشاء بعد ساعة» قالت له وانصرفت على عجلة من أمرها، لإنهاء ما تبقّى لديها من واجبات.

ظلّ تومّازو واقفًا هناك كالأبله، يحمل الصرّة بيده. قال له أحد المرضى، من سريره الضيّق: «ضع أغراضك أرضًا». "ما شأنك أنت" قال له تومّازو ولكنْ في سرّه، يستعر غضبًا، "تبًّا لك!". إلّا أنّه راح يفرّغ أغراضه القليلة من تلك الصرّة، ويضعها في الخزانة، التي على الرغم من ضيقها ظلّت شبه خاوية. بعد ذلك، لم يكن لدى تومّازو ما يفعله. لا شيء سوى الانتظار، هناك في تلك الزاوية الصغيرة من المستشفى، شبه الخالية، صحبة مرضى السلّ القذرين إلى جواره.

زحف المساءُ وكلّما ذوى الضوءُ بدت الأسرّة أشد ابيضاضًا. لا صوت، لا ضجّة، لا شيء.

قضى تومّازو ساعةً على هذا النحو، مستلقيًا على سريره، ويداه تحت رأسه، يفكّر في قرونه كالملعون. «انظر أين أجد نفسي الآن!» قال في نفسه «وسط هؤلاء الموبوئين! فكيف أقاوم هذا بحقّ السماء؟ لا بدَّ لي أن أقتل أحدًا هنا!»

ثمّ ذهب إلى العشاء، ملتحقًا بمن يقدر على النهوض: وكانت قاعة الطعام في نهاية الممرّ حيث مكتب الممرّضة المشرفة. مساحتها تُقدَّر بثلاثين مترًا في أربعين، مملوءة بطاولات معدنيّة كبيرة، يجتمع فيها للعشاء ما يزيد على خمسمائة أو ستمائة مريض.

بعد تناوله العشاء، عاد تومّازو – وهو الذي لا يعرف أحدًا هناك – عاد إلى مكمنه الصغير في المهجع. وعلى الرغم من انعدام النعاس، تغطّى بالشراشف، غاضبًا ومسعورًا، دون أن ينظر في وجه أحد ممّن كانوا معه.

لم يكن بخير، لكنّه ليس متأكّدًا من أنّه مريض حقًّا أم أنّ أعصابه تُهتَك. وكاد يجمع أغراضه وينصرف عائدًا إلى بيته مرّتين أو ثلاث: «من يجبرني على البقاء هنا، اللعنة على أمواتهم!» كان يلهج في رأسه «هل أنا كهؤلاء، ها؟»

ثمّ يضبط نفسه في حين أنّ الغضب والتقزّز من المكان والنزلاء كانا في ازدياد. كان مستلقيًا، متسمّرًا، يحملق في السقف الأبيض العالي، الذي لا يبدو أنّه سقف، بل خُيِّلَ إليه أنّه في ممرّ أو حديقة: هذا ليس بمكانٍ يصلح النوم فيه.

راوده النعاس أخيرًا، بعد مدّة لا بأس بها، فغفا. كما لو أنّه ليس نائمًا: كان يحلم، وفي الآن ذاته كان صاحيًا وكلّ حواسّه متيقّظة.

وشيئًا فشيئًا بدا له أنّه خارج المستشفى، في الهواء الطلق، تحت الشمس، سلميًا معافى كما كان على الدوام.

كان يجد نفسه في بيته، لا البيت في شارع دي كريسبولتي الذي في مشروع مساكن إنا، إنّما في البيت القديم في قرية الصفيح على نهر الآنييني.

«أوه، أنا لم أعد أسكن هذا البيت، أوه!» يعترض في المنام ويكاد يبكي «أنا لم أعد أسكن هنا!»

كان نهارًا جميلًا، بسماء صافيةٍ ينهال منها على الأرض ضوءٌ رقيق على الرغم من كونه ساطعًا. ولئن كان تومّازو يحاول جاهدًا، فإنّه لم يتمكّن من رؤية الأرياف الممتدّة خلف النهر المحاصر بين السدود والهضاب: كان كلّ شيء يبدو منتهيًا خلف أكواخ القرية بقليل. أمّا الأكواخ فكانت تمتدّ أكثر بكثير من المعهود، كما لو أنّها باتت مدينة كبيرة من الأوكار والبرك الموحلة والصناديق والجسور المهترئة والأوتاد والحبال المحمَّلة بالغسيل المنشور تحت الشمس.

وكان الضوء الهابط يصير أكبر وأنقى، ويزداد مهابةً. وكانت جدران الطوب المجوّف، وأسقُف الصفيح وورق القطران والدعامات الخشبيّة المتّسخة التي عفا عليها الزمن، كلُّ ذلك كان يبدو مصنَّعًا من مادّة عجيبة، تلمع شفّافةً تحت الضوء.

وبدا كوخ تومّازو مثل قصر الملك؛ وعرشُه على منصّةٍ في الطين الأسود الممزوج بالبول.

وكان تومّازو جالسًا على العرش تحت الشمس، شبه غافٍ، ويشعر أنّه بخيرٍ لم يجرّب مثله في حياته كلّها، على الرغم من أنّ رغبته في البكاء، التي تُضرِمُ جذوتَها في صدره، لم تتركه وشأنه في تلك اللحظة.

وفي الداخل، والدة تومّازو تدبّر أمور المنزل: كان يشعر أنّها مبتهجة للغاية، وتتحدّث مع أحد ما.

وجاء تيتو وتوتو للعب بين قدميه.

كانا يرتديان ثيابًا بالية كالعادة: تيتو غائصٌ حتى ذقنه في معطف مثقَّب كالمنخل؛ وتوتو بسراويل نومٍ خفيف من المساعدات الأمريكيّة إبّان الحرب، وكنزة متلطّخة بأكملها، أمريكيّة هي الأخرى، مرسومٌ على ظهرها لاعبا روغبي. وبدت تلك الخرق المتّسخة كأنّها من الحرير؛ والثنايا الممزّقة والمبقّعة والمرقّعة فيها كأنّها مطرّزة، ومن يدري لماذا.

وكان تيتو يدفن رأسه في الطين ويتمرّغ فيه كليًّا، ثمّ ينهض بساقيه إلى أعلى، ويسقط على ظهره متشقلبًا، ويظلّ هناك على الوحل يضحك بفمٍ عريض ملؤه سرور.

أمّا توتو فكان يقلّد الكلب: يعدو على أربعٍ في مدار الفِناء الصغير، تحت السقف المتعفّن وبين الأوتاد التي اعتلتها اللزوجة الطينيّة، قبالة جوانب الكوخ، وينبح كأنّه جروٌ حقيقيّ.

وكلّما تلاقى الشقيقان صدفةً، تناطحت رأساهما، فنظر كلٌّ في وجه الآخر وتعانقا. ويبقيان هكذا متشابكين، كأنّهما ينفّذان أوامر شخصٍ يقول لهما: «هيّا، بسرعة، تبادلا القُبل!»، ويستمرّان في هذا حتّى بعد أن ينسى الشخص أمرهما: يحافظان على عناقهما، ويتبادلان قبلة من حين إلى حين، وينظران حولهما ويضحكان كصغار القردة.

وفجأة، قدم والد تومّازو من أحد الأزقّة ما بين الأكواخ: وكان أنيقًا ببدلته السوداء، وقبّعته السوداء، وربطة العنق والقفّازين، يرتدي كفًّا بيدٍ وبالأخرى يحمل الكفّ الثاني.

كان يدخّن، ويمشي مثلما حين يشتري المرء حذاء جديدًا يوجع القدمين بعض الشيء.

«ها يا تومّا، هل تناولتَ الفطور؟» سأله وهو يدخل.

نظر إليه تومّازو مشدوهًا، لأنّها المرّة الأولى التي يطرح أبوه عليه سؤالًا كهذا.

«أجل» أجاب مبتهجًا، متظاهرًا بأنّه يتمطّى لإخفاء بهجته.

وقدم جميع الجيران إلى الفِناء، واحتشدوا هناك صامتين، يتضاحكون فيما بينهم، وينظرون نحو كوخ تومّازو.

«ياه، ماذا يريد هؤلاء؟» تساءل تومّازو وهو يرمقهم. نهض ودخل بيته. كانت والدته جالسةً على مقعد صغير من القشّ بجانب الطاولة. وكان مظهرها رائقًا هي الأخرى، بفستانها الأبيض. إلّا أنّ تومّازو إذ رآها هكذا انتابه الفزع، ومن يدري السبب، فنظر إليها وهو يرتجف ويسألها: «ما بك يا أمّي، هل مُتِّ؟»

ضحكت السيّدة ماريّا، ونهضت عن المقعد واتجهت إلى الخوان. فتحته وبدأت بتفريغه من أطعمةٍ لا حصر لها.

«كل يا تومّا!» كانت تقول له، بلطفٍ ومحبّة، وهي تضع على الطاولة ما طاب من البيض والفراريج والسلطات والسمك وباستا الفيتوشيني.

«شكرًا يا أمّاه!» أجابها وبدأ يأكل، بينما كان والداه ينظران إليه مبتسمين.

كان البيت كأنّه قد اتّسع، ما جعل تومّازو يتعرّف عليه بصعوبة: الفاصل الذي يقسمه قسمين صار مرتفعًا بحيث لا ترى قمّتَه العينُ، كما لو أنّه يعجز عن بلوغ السقف، فتبقى في الأعلى مساحةٌ فارغة لم يفهم ماهيّتها جيّدًا.

«ما الذي هناك في الجانب الآخر؟» سأل أمَّه وهو يلتهم الفيتوشيني.

«ماذا تقصد؟» ردّت الوالدة «هناك تنام أنت!»

وفي تلك الأثناء، دخل الجيران وهم يتدافعون فرحين. كانت السعادة تغمرهم، فتبتسم عيونهم: «يحيا العريسان!» صاح أحدهم. وبعد قليل امتلأ المكان بالدوشة. «يحيا العريسان، يحيا العريسان!» يصيحون جميعًا. «اذهب وانده على كارليتّو، فليأتِ بغيتاره أيضًا!» قال أحدهم. لكنّ كارليتّو كان هناك أساسًا، مع غيتاره، يعزف ويغنّي، أشعث الشعر ولامع العينين.

العريسان هما والد تومّازو ووالدته. كانا يبتسمان وقد تأثّرت عواطفهما بذلك الفيض من التهاني. حمل السيّد توركواتو السيّدةَ ماريّا من خصرها، وهي بالفستان الأبيض الحريريّ الجميل، ناعمةً وودودةً، كما لو أنّهما يتهيّآن لوضعيّةٍ مناسبة للصورة الفوتوغرافيّة.

وما فتئ تومّازو يأكل، منعزلًا بعض الشيء، لئلا يُفسِدَ حفل الزفاف بحضوره. كان حريصًا على طعامه: أمامه طبقٌ من باستا الفيتوشيني بحجم جبل، ولا يستطيع برمها بالشوكة. وحينما استطاع أخيرًا، واجه مشكلة عويصة في ابتلاعها.

لكنّها كانت وجبة لذيذة لم يتذوّق مثلها يومًا: الباستا تعتليها قطعتان من جبن الغنم، ولا بدّ أنّ العجينة مخفوقة بالبيض، إذ

كانت صفراء فاقعة وملساء، وطريّة لكنّها ليست هشّة، تذوب في الأفواه أثناء المضغ. وكانت مُدهِنةً بصلصة الطماطم القانية والممزوجة بالزبدة، ناهيك برقائق الزبدة التي لم يمسسها أحد على جانبي الطبق. فضلًا عن قوانص الدجاج، المخلوطة بقطع الفطر والجبن، التي يسيل اللعابُ لمجرّد رؤيتها.

إلّا أنّ تومّازو كان يستصعب هضم هذه الأطباق على الرغم من هيامه بها. كان يشعر بغصّةٍ في الحلق تكاد تمنعه من التنفّس. لم يكن يفعل شيئًا سوى النظر نحو الفاصل، مسكونًا برغبة هائجة للنهوض والذهاب إلى الجانب الآخر لرؤية ما الذي يجري هناك.

اقتربت منه أمّه، بينما كان الجميع من حولها يضحكون ويزعقون ويصرخون محدثين فوضى عارمة. انحنت إليه وهمست في أذنه: «لا تنظر إلى الفاصل يا تومّا!»

«حسنًا يا أمّي» ردَّ تومّازو بنبرة محترمة «لم تعد الفيتوشيني تعجبني!» أضاف على استحياء بعد قليل.

«اتركها إذن» قالت السيّدة ماريّا «كلْ من الفرّوج!»

كان الجميع سعداء، ما سبّب لتومّازو إزعاجًا عمد إلى إخفائه. أخذ فخذ الدجاجة وشرع يأكله، وفي غضون ذلك كان يفكّر بكيفيّة النهوض والذهاب إلى هناك، ما خلف الفاصل. كان الدجاج مثل الفيتوشيني، شهيًّا طيّبًا، كَمَنِّ السماء، لكنّه لم يقدر على بلعه.

«اللعنة!» قال في نفسه على حين غرّة «لماذا؟ ألستُ في بيتي؟ أليس ذلك الجانب غرفة نومي؟»

«أمّاه!» قال «سآكل السمك والسلطة لاحقًا، ها!». ثمّ نهض ومرَّ

من وراء كارليتّو الذي ما زال يغنّي، فوجد نفسه خلف الفاصل.

حتى تلك الغرفة، مثل سائر البيت، كانت أكبر ممّا هي في الواقع. الفاصل صاعدٌ إلى أعلى ليتبدّد في اللاشيء، والبلاطة لامعة ونظيفة. وكان السرير الصغير حيث ينام تومّازو في العمق، مُسنَدًا إلى الجانب الخشبيّ وورق القطران. دنا منه وهو على يقينٍ منذ البداية من وجود شخصٍ مستلقٍ عليه. اكتسحته رعشةٌ عاتية، بحيث لم يعد قادرًا على المشي أو التوقّف.

بكلّ حال، اقترب من السرير، وأمسك بالشرشف وسحبه. كان هناك ليلّو مستلقيًا ومتسمّرًا بفمه المفتوح، ومتّسخًا برمّته، من شعره حتى أخمص قدميه. كان هناك، قاعدًا يحملق في تومّازو، كما لو أنّه يراه للمرّة الأولى، مغمورًا بالدهشة والفزع. بدا أنّه أراد أن يقول شيئًا ما وأنّ صوته لا يسعه الخروج من الحنجرة. كان قاعدًا ومنجذبًا بجذعه إلى الأمام، رافعًا في الهواء يدهَ اليمنى التي غدت أشلاءً وشراذمَ من عظمٍ ولحم، والدماءُ تسيل منها لتلطّخ حوافّ كنزته وبنطلونه. ساقاه ممدودتان ومتجمّدتان، إحدى قدميه مهروسة هي الأخرى، ولا يظهر منها سوى جلدة الحذاء مخلوطةً بمسحوق النزيف.

كان ليلّو ينظر إلى يده وقدمه تارةً، وإلى تومّازو طورًا؛ لكنّه حين استطاع لفظ كلمة، توجّه بأنظاره إلى عيني تومّازو فقط وصاح: «أسرع يا تومّا، وإلّا قبضوا عليك!»

- «لماذا؟» سأله تومّازو مرتجفًا.

«أسرع يا تومّا، وانجُ بجلدك!» ما زال ليلّو يصيح مرتعبًا، وبدا كأنّه يوصيه.

اختفى كلّ شيء من حولهما: السرير، جانب الدعائم المتعفّنة، زاوية الكوخ. وصار ليلّو آنذاك قاعدًا على قارعة الطريق في شارع أمير بيمونتي، والترام متوقّفًا أمام قوس سانتا بيبيانا. وما زال مذعورًا، رافعًا يده المسلوخة، يوصي توممّازو بالهرب؛ لكنّ صوته حينها بات محشوًّا بصرخةٍ جبّارة، تزعزع كلَّ الجدران والطرقات والساحات: صافرةُ سيّارة الشرطة التي كانت تطوف في المنطقة وأرجائها، تعلو وتنخفض لكنّها تقترب أكثر فأكثر. حتى والدة توممّازو كانت هناك، وكانت تعانقه، وتضمّه بقوّة، وتقبّله، لتترك على خدّه بعضًا من لعابها. وأصبحت سيّارة الشرطة على مرمى حجر، خلف زاوية الشارع، تتقدّم نحوه.

«اتركيني، اتركيني يا أمّي» كان توممّازو يصرخ «يا الله! النجدة!»

وهكذا استيقظ جفلًا وسرعان ما قعد على السرير. نظر حوله فلم يتعرّف على شيء، لا الجدران ولا النوافذ ولا صفوف الأسِرَّة. هنالك فتىً أسمر البشرة بجانبه يحدّق إليه، مسندًا خدّه على يده.

«اللعنة!» قال بنبرةٍ تميل إلى المرح، كأنّه أراد له أن يروِّح عن نفسه «منذ نصف ساعة وأنت تصرخ!»

«أين أنا؟» سأله توممّازينو، من دون إدراك، لكنّه كان يعي تفاهة السؤال.

طغت ملامح الدهشة على الفتى وقال مبتهجًا: «في فورلانيني! وإلّا، أين عساك تكون؟» وظلّ مدهوشًا يحملق فيه بعينين ضحوكتين.

تجاهله توممّازو واستعاد وعيه، ورتّب الشراشف التي تجعّدت وتبلّلت بعرقه.

«أوه، ماذا هناك، هل فقدتَ شيئًا ما؟» سأله الأسمر ممازحًا

لاستئناف المحادثة.

أدرك تومّازو على الرغم من تشوّشه أنّ الشاب كان من القاعدة، فقال له: «أجل، لقد فقدتُ أرواح اللعنة على أمواتي!». ثمّ سأله بعد أن قلب المخدّة: «من أين أنت؟».

«من فيلا أدريانا. وأنت؟»

«من بيترالاتا»

صمت قليلًا، مركّزًا في فكره، وما زالت الرجفة تجتاح سائر جسده. «هل أنت هنا منذ مدّة طويلة؟» سأل جارَه.

«منذ ستّة أشهر وبضعة أيّام» أجاب ذاك بنبرةٍ ماكرة.

«ستّة أشهر؟!» هتف تومّازو جاحظًا عينيه. «أمّا أنا، فعليهم أن يركلوني على قفاي، لأقفز فوق الشبكة وأمضي بعيدًا!» وضرب يمناه الباترة على كفّ يسراه بقوّةٍ ثلاثَ أو أربع مرّات. وتابع مشمئزًّا: «بإمكانهم أن يحبسوا هنا مَن يشاؤون، إلّا بوتزيلّي؛ لن ينجحوا في ذلك أبدًا!»

«ستكون الوحيد!» قال الآخرُ بهدوء وسخرية «فالناس يتقاتلون على البقاء هنا! يرمونهم من الباب فيرجعون من النافذة!»

«لا بدّ أنّهم ليس لديهم ما يأكلونه في الخارج!» ردّ تومّازو.

«ماذا تفعل حين تصبح خارج هذا المكان؟» استأنف الشابّ مسترسلًا «أتظنّ أنّهم يهبونك وعاء الحساء؟ ألا تعلم أنّنا مرضى؟ سيرموننا جميعًا! أمّا هنا فأنت بخير على الأقلّ إذا أمطرت السماء أو هبّت الريح! أتعلم كم يعطونك حين تخرج من هنا؟ ثلاثمائة ليرة فقط! فكيف تعيش بمبلغٍ كهذا...»

رفع تومّازو كتفيه لامباليًا: «وما همّني!» قال «لا أريد صدقةً منهم!

حينما أخرج من هنا بوسعي أن أعمل لصًّا!»

لم يعد الأسمر يصغي إليه، كان لديه ما يشغل باله.

«ولكن بالمحصّلة، مَن يستمع لنداءاتنا! ينبغي إرغامهم على منحنا كامل حقوقنا، نظرًا إلى الفوضى التي نقوم بها هنا! فهُم لا يلتفتون إلّا لمن يأكل أكثر من سواه. العناية لا تمسّنا أبدًا: بدأتُ أضجر هنا! ثمّ إنّنا حين نخرج من هنا لا بدّ أن يعطونا ما نستحقّه، ها! وعليهم أن يؤمّنوا لنا فرصة عمل، مباشرةً، حالما نتعافى من المرض!»

كان تومّازو يصغي إليه ملتزمًا الصمت، ويرمقه ويفكّر في سرّه: "ما به، هل جُنّ؟ بم يتفوّه؟"

«مصيبتنا» كان الأسمر يجود بقريحته «أنّ مَن كان يدير الأمور كلّها في هذا المكان قد توفّي! أوّل أمس تحديدًا، توفّي... خلال العمليّة... طلب من أحد أصدقائه أن يبقى بجانب سريره، كي لا يأتيه الخوريّ ويستغلّ وضعه فيجبره على الاعتراف...»

"يا إلهي كم أنت ثرثار" فكّر تومّازو.

«كان من جيلنا، في العشرينات من عمره... لقد كان رجلًا حقيقيًّا... إذا وقف ظلّ واقفًا، أمّا إذا تحرّك سقط... سأريك صورته الآن...»

وبالفعل، أخرج من دُرجه إحدى تلك البطاقات اللامعة، التي تحتوي على الصورة وشهادة الوفاة، وأعطاها لتومّازو. فأخذها الأخير احترامًا ونظر إليها، ودوَّرها بين أصابعه. «برنارديني، كان اسمه...» فصَّلَ الأسمر مندمجًا.

ألقى تومّازو نظرة على صورة المتوفّى: رجلٌ بوجهٍ مطاول وحاسم،

ونظارة، يشبه البابا نوعًا ما. تابع الآخر: «ليتك رأيته ذات يومٍ حين أرغم شاحنة الأغراض على العودة إلى الخلف، لأنّ الأغراض لم تكن من النخب الأوّل، الذي نستحقّه! أوه، لم يقبل شفاعةَ عذراء أو قدّيس؛ كلمة واحدة: إلى الخلف، هيّا!»

"إيه! سنرى!" قال تومّازو في نفسه. ثمّ أضاف جهرًا: «أيّها الشابّ، ما اسمك؟»

«لورنزو»

«إيبيه» قال تومّازو وهو يتثاءب «هنيئًا لك...»

بعد أن أفصح عن اسمه، بالقريحة نفسها التي استهلَّ بها ثرثرته، وبعد أن قدَّمَ كلّ تلك التفاصيل، صمت لورنزو هذا. لعلّه بدأ يغفو، على حين غرّة، مثلما يحدث مع الصغار.

أمّا تومّازو فما زال ساهرًا، يجافيه النعاس، ويأمل أن يعاود الثرثار كلامه. ثمّ ناداه بعد قليل: «يا أسمر، يا أسمر، يا أسمرا»، لكنّه لم يردّ، لقد نام حقًّا، وبانت البقعة القاتمة لشعره ووجهه، ثابتةً، على المخدّة.

وما زال تومّازو لا يشعر بصحّة جيّدة. كان سيدفع عامًا كاملًا من عمره – هذا إن تبقّى في عمره عام – مقابل سيجارة واحدة.

وظلّ على تلك الحال مدّة طويلة، أكثر من ساعة ربّما، متصلّبًا على سريره، مؤرَّقًا وغارقًا في عرقه.

ثمّ تغيّر شيء ما: أحسَّ بأنّ الظلام في الخارج لم يعد حالكًا، وأنّ قليلًا من الضوء – خفيفًا – صار يلطّف الأجواء. أم لعلّه كان محض انطباع: ربّما كانت محطّة الغاز المجاورة، بيرموليو، هي التي تشيّع بعض الضوء، بشعلتها التي ترفرف في كبد السماء. إذ لم يتناهَ إلى مسمعه أيّ

صوتٍ أو ضوضاء.

إلّا أنّ الكنائس شرعت تقرع نواقيسها رويدًا رويدًا. كان الطنين يزحف واهنًا، خامدًا بإقباله من البعيد، ما خلف أجنحة المستشفى وحدائقها، من شارع بورتوينسي ربّما، من الكنيسة المجاورة لفينيا بيا، أو من كنيسةٍ أنشئت مؤخّرًا في تلك الأنحاء، في كازاليتو، كورفيالي، أو سانتا باسيرا... لم يسمع تومّازو رنينًا كهذا من قبل: أو لعلّه سمع مثله حين كان فتيًّا ولم يعد يذكره. كان يبدو صاعدًا من أعماق الأرض، أو هابطًا من إحدى فتحات السماء، من فوق غيوم أوّل الصبح، حيث تمرّ عليها ريشة الضوء بالكاد، الضوء الذي يبشّر بيومٍ جميلٍ وهانئ. إنّه رنين صلاة الصبح. ليس واضحًا بعد ما إذا كان يدلّ على احتفاءٍ بعودة النهار، أم حِدادًا على مصيبة. لعلّه يدلّ على كلا الأمرين في آنٍ معًا، وبامتزاج الدلالتين تمحو الواحدةُ الأخرى، ويبقى الطنين على حاله، مكرَّرًا لكنّه متواصل. أخفق تومّازو في فهم الدلالة، لأنّه لم يكن ملمًّا بتلك اللغة ومفاهيمها، ولم يهتمَّ في هذه الأشياء يومًا، ولا حدَّثه عنها أحد، كأنّها ليس لها وجود البتّة. إلّا أنّها كان لها وجودٌ آنذاك، بل وأثبتت حضورها بقوّة عبْر ذلك الطنين: طن، طن، طن، يجتاح كلّ تلك المساكن التي ما تزال نائمة، ويمتطي الأثير العتيق الذي يتفتّح الضوء في قلبه، كأنّه جزءٌ من ذاته، ليصير نقيًّا في رماديّته، ويجد نفسه في قلب كلّ تلك الأشياء: الجدران والنباتات والبيوت والطرقات. كان لا بدّ أن تُقرَع الأجراس لشخصٍ ما: للخوريّ الذي يأذَن بذلك، وللقندلفت، ولبعض العجائز، وللعمّال المناوبين في الليل وتنتهي أعمالهم في تلك الساعة، ولأولئك الذين عليهم ركوب القطار والمغادرة.

بيد أنّ تلك النواقيس التي تعلن عن ولادة الحياة يوميًّا، بطنينها المبهم هذا، بدت كأنّها تلمّح إلى مقصد آخر، كأنّها تريد أن تقول إنّه لا جدوى من شيء، وإنّ جميع الأحياء هم بالأصل أمواتٌ، مدفونةٌ أجسادُهم وهائمةٌ أرواحُهم. وفي الوقت نفسه تعطّرُ الأرجاءَ برائحة الطين والمطر والقهوة بالحليب التي تحملها تلك الأجراس فتعبق في المكان، وتعطي انطباعًا بالسكينة والانتعاش.

أحسَّ تومّازو بنعاسٍ عميق يجذبه إليه شيئًا فشيئًا بحيث لا يسعه الصمود، آنذاك وقد بدأ الرنين ولم يعد ينتهي، بل انضمّت إلى تلك النواقيس كنائسُ أخرى، من تراستيفيري وتستاتشو وسان باولو، لتصدر الصوت ذاته، المشحون بالتعاسة ذاتها. وظلّ تومّازو هكذا مثل صخرة، يغفو ويغفو بينما كان منزعجًا في سرّه من ذلك الخبط المتواصل الذي يكيل عليه اللعنات. غفا ثمّ نام لفترة طويلة، مستمتعًا بذلك النعاس الذي أمسك بتلابيبه وأسكره بنكهة السلام.

استفاق على ما بدا له قرع ناقوس آخر. وحين استيقظ كليًّا، أدرك أنّ هناك جرسًا يرنُّ بالفعل. لكنّه قريبٌ منه جدًّا هذه المرّة، فوق رأسه أو يكاد، أو ربّما في جناح مجاور، أو في كنيسة المستشفى.

تبيَّنَ كلَّ شيء: كانت النافذة تُدخِل ضوءًا أبيضَ يؤذي العينين، فتصبح الأسِرَّةُ على إثره أشدّ بياضًا فوق الأرض الرخاميّة، مع أطياف كلّ الراقدين عليها. أحدهم كان مستيقظًا من قبل، وقاعدًا على المرير، وآخر كان واقفًا بجانب الدُّرج، تحت ضوءٍ ناصعٍ كالحليب.

كان جرسًا واحدًا، يرنّ بقوّة وخفّة، ثلاث ضربات: طان، طان، طان، وثلاث أخرى: طون، طون، طون. ثمّ يسكت قليلًا، ويعاود

الضربات المتناوبة إيّاها. وهكذا دواليك، بلا تغيير. كان يرنّ حِدادًا، تومّازو يميّز هذه الرنّة جيّدًا ويعرفها. وكلّما ساد الصمت غدا الرنين أشدّ وطأة، بما يبيّنُ أنّ الحياة فانية. كان يصمّ الآذان بطابعه الحادّ إذ يتسرّب من كلّ الأنحاء والنوافذ والممرّات.

ولم يعد يتوقّف: لا بأس إذا كان يصرّح عن وفاةِ مَن شدَّ الرحال، مسكين، وتصبح على خير يا يسوع المسيح؛ إلّا أنّه بات رنينًا ملحاحًا يصدّع الرؤوس. وكلّما سكت قليلًا بدا أنّه توقّف نهائيًّا، وأنّ الجرس رضخ واستسلم وابتلعه صمتُ الصباح. ثمّ ها هو يعود من جديد بطنينه الرتيب: السلسلة الأولى من نغمة طان، تليها السلسلة الثانية من نغمة طون.

وكان لون السماء باهرًا، لكنّه رماديّ، إمّا لأنّ النهار لم يطلع كليًّا، وإمّا لأنّ السماء متلبّدة بالغيوم. ولا شيء يبثّ الحياة في ذلك الضوء حديثِ الولادة إلّا ذلك الجرس الذي يرنّ ويرنّ، ويسكت قليلًا لالتقاط أنفاسه ثمّ يعاود الرنين تلو الرنين.

*

حان وقت النهوض: وما أدراه تومّازو بما عليه فعله. ظلّ هناك على سريره يحملق بعينين جامدتين. كان مرضى السلّ الأربعة الذين معه ينهضون ببطء، ما عدا واحدًا كان في وضع حرج. الشابّ الذي كان سريره بجوار تومّازو لم يكن هناك، ومن يدري أين ذهب، مسألةٌ تخصّه. أمّا الآخرون فكانوا يفعلون ما عليهم ملتزمين الصمت: يتّجهون نحو المغاسل بقمصانهم البيض التي تصل حتّى كعوبهم، واحدًا في إثر آخر، يغسّلون وجوههم الهزيلة ثمّ يتنشّفون، ويرتدي بعضهم فوق

القميص والبنطلونات البيضاء سترةً أو كنزةً أو شالًا.

تبادلوا بضع كلمات ما بينهم، خانعين، ولم يتوجّهوا إلى تومّازو بحرف. كان ينظر إليهم ويكاد يتقيّأ وهو يقول في نفسه: «يا لهم من حمقى! ألديهم الشجاعة ليكونوا سعداء؟ ماذا؟ ألديهم خيراتٌ تحت الشمس، اللعنة عليهم كم يقلِّدون الرهبان!»

وفجأةً، نهض هو أيضًا، ورمى عنه الشراشف، فظلَّ بقميصه، وقدماه على الأرض، واتجه إلى المغسلة، وغسَّل وجهه وتنشَّفَ بمنشفة نظيفة كانت له بالتأكيد. سرَّح شعره مستغرقًا وقته كالعادة. رأى أنّ لحيته برزت كهؤلاء المعاتيه. «ماذا؟ هل سأصبح قبيحًا مثلهم؟ حسنًا! سيرونني الآن!» قال محتدًّا. ذهب إلى الخزانة الصغيرة، وأخرج آلة الحلاقة التي أعطاه إيّاها شقيقه ليأخذها معه إلى المستشفى. وحلق لحيته بطبيعة الحال، التي كانت مجرّد زغبتين أو أكثر.

ثمّ ارتدى ثيابه، لم يكن ليبقى بذلك الرداء إطلاقًا. «أوه، هل ينتظر المرء أن يوضع في الفرن كي يلبس ثيابه الجيّدة؟» فكّر بفمٍ مكشِّر من كثرة الاشمئزاز.

عاد إلى الخزانة وأخرج منها أفضل ثيابٍ عنده، الأفضل إن صحّ التعبير، فتلك كانت لديه منذ عامين، وقد اشتراها بفرصة لا تعوَّض، من سوق الألبسة المستعملة في بورتا بورتيزي. تأنَّقَ بما استطاع، بربطة العنق والقميص النظيف. وصار مستعدًّا، وقال: «ماذا أفعل الآن؟ اللعنة!»

خرج من الباب المعدنيّ الذي كان بلا أقفالٍ أو مفاتيح. دسّ أنفه في الممرّ، نظر عابسًا يمنة وشمالًا. ثمّة أحدٌ يغدو ويجيء بسرعة، يجرّ

معه كلّ ثيابه الممزّقة. «ما أدراني!» قال تومّازو بتكشيرةٍ ناقمة. تقدَّم خطوتين، إلى حيث تناهت إلى أذنيه أصواتٌ وضجّة. مشى قليلًا في الممرّ وهو ينظر حوله. ثمّ رأى في آخر الممرّ امرأةً قصيرة القامة، ترتدي الأبيض، تمشي وهي تسند ببطنها إناءً أضخم منها مليئًا بالفناجين والأطباق الصغيرة. «حان وقت الطعام، لحسن الحظّ!» فكّر.

ازداد وجهه عبوسًا وذهب إلى حيث خرجت تلك المرأة الفظّة، حريصًا على عدم المخاطرة في حال أخطأ الوجهة، فرأى أنّ الممرّ هناك يصبح أعرض، لينفتح على ما يشبه القاعة المليئة بالطاولات. وكان المرضى قد جلسوا إليها، صامتين، يتناولون فطورهم.

ثمّة طاولتان مزدحمتان بالشبّان، الذين من جيل تومّازو تقريبًا. نظر حوله، محمرّ الوجه من فرط النشوة، لأنّه كان حائرًا في أمره، أينبغي له الجلوس هناك أم إنّ محلّه محجوزٌ في مكان آخر. ثمّ قال في نفسه: «تبًّا! سأجلس هنا، أهذا يروقكم؟»

هنالك مكانٌ شاغر، على طرف إحدى طاولات الشبّان، فجلس فيه وانتظر. فلم يعبأ أحدٌ به. وكان تومّازو يتظاهر أنّه منشغلٌ في شؤونه بينما يتنصّت على أحاديثهم. كانوا يتحدّثون جميعًا عن برناريني ذاك الذي توفّي قبل يومين، وسيُنقَل جثمانه في ذلك اليوم. «ما بال الجميع مهووسون بهذا الرجل؟ تُرى مَن يكون؟ جواكينو بيلّي؟[26]» تساءل تومّازو بينما كان يشنِّف أذنيه.

قال أحدهم إنّ كلّ شيء سينتهي برحيل ذلك الرجل، سيغلقون قسم فراسكاتي، وعليهم جميعًا أن ينسوا ما كانوا يخطّطون له. وقال

---

26 جواكينو بيلّي (1791-1863) شاعرٌ بالعاميّة، من روما، اكتسب شهرةً وشعبيّةً على مدى العصور. المترجم.

آخر إنّه لو بقي حيًّا لاستطاع أن يتدرَّج حتّى يصبح نائبًا أو وزيرًا. «بل كان سيتوّلى مناصب عليا! ها!» فكّر تومّازو.

جاءته المرأة القصيرة بالقهوة بالحليب وبعض الخبز والزبدة ووعاء صغير من العسل. وحالما رأى تومّازو هذه الطيّبات، نسي أمر برنارديني والآخرين، وراح يأكل بنهمٍ فظيع. أنهى الآخرون فطورهم بصمت وعجالة. ثمّ نهضوا معًا، كأنّهم متّفقون على ذلك، وذهبوا معًا، والتحق بهم بعض العجزة أيضًا. «إلى أين يذهبون؟ اللعنة عليهم!» حدَّث تومّازو نفسه «ماذا؟ ألا يعلمون أنّ روما سقطت منذ حين؟»، وكان يلتهم فطوره بسرعة هو أيضًا ليلحق بهم. ابتلع اللقمة الأخيرة من الخبز والعسل، ونظّف فمه بكُمِّ قميصه، وهيّا عبْر تلك الممرّات وتلك السلالم التي لم يفهم من أمرها شيئًا، إلى أن وصل البوّابة وخرج.

وجد نفسه في الحديقة، التي يظهر في آخرها شارعُ بورتوينسي ومساكنه الشعبيّة، والغسيل المنشور على شرفاتها.

وكانت الحديقة زاخرة بالنبات دائم الخضرة وأشجار السرو والصنوبر والسنديان: لا يبدو أنّ هناك أحدًا في تلك الساعة، في الدروب ما بين القسم الإداريّ وقسم القبول، ما بين جناح الرجال الكبير وجراحة العظام. الوقت ما زال باكرًا، والجميعُ يتناول الفطور. لا أحد سوى بعض البستانيّين العجزة، الذين ضمرت قاماتُهم فصاروا بحجم ذرّة الفلفل، واصفرّت وجوههم كأنّهم مرضى منذ زمن، يعتمرون القلانس الزرقاء، ويكدُّون كدًّا في كنس المعابر بمكانس تبلغ المترين طولًا.

يا له من يوم مشمسٍ ومنيرا! تحت مرأى العين، يزداد النهار صفوًا وإشراقًا، وتتكثّف النضرة في النباتات، وتصبح السماء أشدّ

زرقة ونقاء. لا غيمةً في العلا، ولا في الأفق حتّى لو بحثتَ عنها بالمنظار. كان الهواء مشدودًا كجلدة الطبل: الهمهمات تتصاعد من الأحياء المجاورة، والبعيدة، وشتّى أنواع الطنين والضوضاء اليوميّة التي تعلن عن بداية النهار. كلُّ شيء كان يبالغ في جماله وصفائه، تحت تلك الشمس الوقحة التي تمادت بنورها. علاوةً على رائحة الأرض الحارّة، والحشائش المتيبّسة والنظيفة، وريح البحر. كان واحدًا من أجمل أيّام السنة، يومٌ مناسبٌ للذهاب إلى شاطئ أوستيا: قلوب الجميع توّاقّة للتوجّه إلى هناك، يتحرّقون هوسًا للهو.

تجوّل تومّازو في الحديقة عن غير هدىً، محاولًا بلوغ الطريق الذي سلكه الآخرون. الحديقة ليست كبيرة للغاية، لكنّ التحرّك في أرجائها يصعب على مَن لا خبرة لديه فيها. ولحسن حظّه رأى مجموعة أخرى من النزلاء، كلّهم شبّان تقريبًا؛ نظر إليهم وحدّق بهم لوهلة، وتركهم يعبرون، ثمّ تظاهر بأنّه غير مهتمّ، وراح يتعقّب خطاهم ببطءٍ وتكشيرةٍ ضجرة.

وفي الأثناء، عرَّجَ على دربٍ فرعيّ، منحدرٍ بعض الشيء، ومتعرّج، أو بالأحرى لا يفضي نحو المدخل الرئيس من جهة شارع راماتزيني، ولا نحو شارع بورتوينسي. وهناك أضحت الحديقة بريّةً، تتعشّق فيها الشجيرات بالصنوبر الغليظ والقديم، تتخلّلها أوعيةٌ مغروسة في التراب ومحمَّلةٌ بالصبّار. وها هو، خلف النزلة دربٌ صغير ما بعد السور، ولا بدّ أنّه يؤدّي إلى بورتوينسي من جهة مونتيفيردي: يوازي دربَ الحديقة، وفي نهايته تجمهر الناس وسط باحةٍ أمام بابٍ كبير.

اقترب تومّازو خطوة بخطوة، متوخّيًا الحذر. وما لبث أن فهم أنّهم

مجتمعون لنقل جثمان برنارديني الذي تحدّث بشأنه الجميع. وكان المرضى، رفاقه، محتشدين: بعضهم في الباحة بجوار الباب، عند بناية صغيرة تشبه قالب الحلوى، لعلّها معقل الحارس؛ وآخرون جلسوا تحت بناية أخرى متاخمة، بيضويّة الشكل، حيطانها ملساء وزجاجها ضخمٌ وملوّن: يدخلون ويخرجون. ولا بدّ أنّها حُجرة الوداع الأخير. وبالفعل، انفتح الباب رويدًا رويدًا: عربةُ النعش والخوريُّ والتابوتُ في الخارج من جهة الشارع. اتّجهوا إلى المبنى البيضويّ بالضبط. حملوا الجثمان إلى النعش، متبوعًا بكلّ المرضى الذين كانوا يذرفون الدموع. وانطلق التشييع. ثمّة سيّارات كثيرة غُطِّيَت سقوفُها بالتيجان، إلى جانب الورود الناصعة والمتألّقة، والأزهار القانية كالمرجان، تحت الشمس البهيّة التي تزداد سطوعًا وهيمنةً على ذلك السلام.

ظلّ تومّازو وحيدًا، مع بعض المرضى ذوي الحالات الحرجة الذين لا يستطيعون الالتحاق بالجنازة، وآخرون صعدوا نحو المستشفى عائدين إلى شؤونهم.

استدار تومّازو أيضًا، وعاد على أعقابه في الدرب الذي سلكه. فصار وحيدًا تمامًا، لا شيء ليفعله. كان محبطًا لأنّه يشتهي التدخين وليس لديه سيجارة. «اللعنة!» يغمغم صَرَرًا على أسنانه ويكاد يبكي «لا يمكنني أن أستسلم هكذا، لا بدّ أن أرتكب حماقة!»

كان كلٌّ ما يحيط به خاليًا، كالصحراء تحت لهيب الشمس. وعند مدخل الدرب هنالك كومةٌ طولها متران، تتكوّن من الملفوف الذي ظهر نصفه عن الأرض، وما زال أخضر نضرًا، لكنّ الحرارة بدأت تفسده.

وفي الأمام، وجد فسحة لم ينتبه إليها قبل قليل، فيها منزل بائس،

وبقربه ما يشبه الجسر: يبدو ورشةً صغيرة أو تنّورًا صغيرًا. فوقه موقدٌ مضحك، مخروطيّ الشكل، يزداد عرضًا عند قمّته، ينبعث منه خيطُ دخانٍ رفيعٌ ومسالم. شابّان وزبّالان، لكأنَّ قمصانهم تمشي بمفردها لشدّة هزالهم، وسيقانهم نحيلة ومعوجّة، ورؤوسهم متورّمة، يدفعون أمامهم عربةً تحتوي على كيس. وحين وصلوا قبالة التنّور، أخذوا الكيس ورفعوه بشقّ الأنفس، ولكنْ بهمّةٍ عالية، ودحرجوه بلا عجالة إلى حيث الفرن: واختفوا دون أن يقولوا كلمة واحدة، وظهورهم محدودبةٌ وبائسة كأضلاع العصافير.

أولاهم تومّازو كتفيه، واتجه إلى الحديقة، ووصل إلى قسمه. «والآن، ماذا أفعل؟» عاد يهجس «أين أنطح قروني؟»

صعد عتبات السلالم، بغصّةٍ في الحلق كادت تبكيه ولم يعرف هو نفسه سببها. بلغ ذلك المدخل الكبير الأشبه بمدخل وزارة، وعاد إلى الممرّ حيث كان باب مهجعه بعد عدّة خطوات. لم يكن لديه رأيٌ آخر، أو أملٌ آخر، سوى البقاء هناك والاستلقاء على السرير. وفي غضون ذلك ارتفعت درجة الحرارة حتّى تصبّبت الأجساد عرقًا من دون أن تبذل أيّ جهد. دخل وألقى بنفسه على السرير. كان لورنزو في المهجع أيضًا، ذاك الفتى الأسمر الذي تحدّث معه في الليلة الماضية. «ماذا تفعل؟» سأله «هذه ليست ساعة القيلولة!». «وما همّني أنا!» قال تومّازو وهو يرفع كتفيه لامباليًا، ولم يكن يعرف ما ساعة القيلولة أساسًا ولا اهتمّ لأمرها، ولم يسأل عنها.

لكنّه قال بعد قليل، بصوته الأجشّ: «أوه! أين مكتب برنارديني هذا؟». لفظ اسم برنارديني بنبرة تشكيكٍ تعتصرها النقمة، لأنّه لم يرَ

بعين الارتياحِ حُصولَ الرجل على كلّ ذلك الاهتمام.

«هنا، في الطابق الأعلى!» قال لورنزو، رافعًا رأسه عن القصة المصوّرة التي كان مندمجًا في قراءتها.

ظلّ تومّازو مستلقيًا لبعض الوقت ثمّ نهض ثانية، فتح الباب وخرج إلى الممرّ.

بصق على الأرض لأنّه كان متردّدًا ومرتبكًا، ثمّ نظر حوله جزعًا، مستوعبًا أنّه لا يجوز فعل ذلك. ولكنْ لا أحد هناك، فعبَّرَ عن لامبالاته وهو يردّد بصوت عالٍ ونبرة مشمئزّة: «لا يهمّني!»

بحث عن وجهته برهةً، واتجه نحو السلالم في آخر الممرّ: صعد جزءًا منها فصار في الطابق الأعلى، على مشرف ممرٍّ مشابه.

ونظر حوله مجدّدًا، ممدًّدًا ذقنه: قلّة من المرضى تجيء وتغدو وتدخل المهاجع، لكنّ تومّازو استحيى على طرح السؤال، لأنّ الأمر تافه، يقوم به لمجرّد فعل شيء يقضي به الوقت.

النوافذ تطلّ على حيّ بورتوينسي، بشوارعه وبيوته، لغاية نهر التيفر الذي يجري في خندقٍ أخضر، بين ورشاتٍ متعدّدة، وبيوتٍ خربة، ومروجٍ نضرة تتبخّر في الضوء المفرط الذي أغرق ذلك الصباح.

هنالك بابٌ زجاجيّ، بعد بضع خطوات في الممرّ، من زجاجٍ رماديّ مصقول: لا يمكن أن يكون مهجعًا، ولا قاعة طعام. وبالفعل، كانت الأحرف المختصرة مطبوعة على الزجاج بخطٍّ أبيض ULT "اتّحاد العمّالَ المصابين بالسلّ" وما شابه، في دوائر صغيرة. وضع تومّازو يدًا على المقبض وفتح الباب؛ أطلّ برأسه: لا أحد. سوى مكتب كبير، فيه ثلاث مناضد، خلف كلٍّ منها ملصقاتٌ على الجدران. جال بأبصاره وما

زال ممسكًا بالمقبض: ثمّة مريضٌ هرم مسنودٌ إلى رفّ نافذة ضخمة.

«يا سيّد» قال له تومّازو «أما من أحدٍ هنا؟»

«ذهبوا جميعًا إلى الجنازة» قال ذاك، وهو يلتفت بوجهه المطاول والأصفر لينظر إليه بطرف العين.

رفع تومّازو كتفيه ودخل وهو يفكّر: "ومَن يمنعني عن الدخول؟ سأدخل بكلّ الأحوال!"

كانت الشمس تملأ المكان بنورها البهيج الذي يتشرّب كلّ شيء ويرفرف فوق كلّ شيء. هناك بعض الأزهار أيضًا، على المنضدة الأخيرة المجاورة للنافذة الصغرى: قرنفلٌ أحمرُ في مزهريّة؛ وخلفها صورة ذلك الرجل، برنارديني إيّاه. عرفه تومّازو من النظرة الأولى، وراح يجذبه الفضول ليحدّق بما يعتليه. لا شيء: مجرّد أوراق، محرّرةً بالآلة الكاتبة، في مجلّدٍ يبّسته الشمس. الأدراج مليئة بالكتب: كتبٌ قديمة مستهلكة ومتّسخة نوعًا ما. حاول تومّازو أن يقرأ من هنا وهناك. عبثًا. طلاسم لم يستطع فكّها: الكتب تتحدّث عن السياسة والوقائع الاجتماعيّة، بكلماتٍ صعبة على الفهم. فتح الدرج الأخير فوجد رايةً حمراء، جديدة، يكتسيها الغبار، مطويّةً ومجعّدة، ويتوسّطها شعار المطرقة والمنجل.

أخرجها من طرفها، ونظر إليها. وفي تلك اللحظة عاد رنين الجرس بغتة، جرس المستشفى، يرنّ بقوّة واستمرار. دنا تومّازو من النافذة. رأى في الأسفل جانبَ الحديقة البريّة عائمًا في خضمّ بحر الضوء، إضافة إلى التنّور حيث تُحرَق المخلّفات المعدية للمستشفى، ومباني المدخل الثانويّ، والطريق المحاذية للفورلانيني، حيث رأى موكب ذلك

الرجل منذ قليل.

"ماذا لو متُّ أنا أيضًا؟" خطر في ذهنه "ماذا لو تحتّمت عليَّ تلك النهاية؟"

وبرغم القيظ الذي يسبِّب التعرّق، شعر تومّازو أنّه يرتجف، كأنّه متجمّد، كما لو أنّ الليل هبط على ما يحيط به من دون سابق إنذار.

*

مرّت عدّة أسابيع، وانقضى شهر، وشهران، وبدأ تومّازو يتأقلم مع الحياة في مستشفى فورلانيني. ولكن، في أواخر يوليو، وقعت أحداثٌ قلبت الوضع رأسًا على عقب من جديد، وتعيَّنَ عليه أن يدفع أثمانها لوقت طويل.

والحال أنّ المرضى، ومعهم تومّازو، كانوا قد شمّوا رائحة مؤامرات منذ مدّة. نوقش الأمر في مقرّ «اتّحاد العمّال المصابين بالسلّ»، لأنّ برنارديني الطيّب لم يكن الشريف الوحيد بين رفاقه، فهناك مَن يتحلّى بالنزاهة أيضًا، مثله، تقريبًا، ويناضل ويكافح على حدّ تعبيره. ولم يكن تومّازو مهتّمًا بهذا الشأن للغاية، لكنّه كان ذا أنفٍ حسّاس وأذنين حادّتين. ذات يوم، بينما كان يتنزّه في الحدائق المحيطة بقسم الأمراض غير المعدية، رأى جمعًا من هؤلاء، بونيسكي وتريجاني وتادي وغوليلمي وآخرين، ومعهم آلة تصوير، يلتقطون صورًا في سيّارة مرسيدس: سيّارة مدير المصحّة، واسمه "فاني"، وهو يهوديٌّ كان خلال العهد الفاشيّ قد انتسب إلى حزب موسوليني، فأُقصِيَ عن المشهد فيما بعد، ثمّ عاد بقوّة أكبر من ذي قبل.

تكتّم تومّازو. وذات صباح، وقع أخيرًا ما يجب وقوعه: حدثٌ

منتظرٌ في مستشفى فورلانيني على أحرّ من الجمر. تقدَّمَ الممرّضون والعاملون بقسم المصحّة ببعض الطلبات، لا غبار على ذلك، لكنّها لم تثمر عن شيء. إلى أن جاء ذلك الصباح حيث أعلنوا الإضراب. ومن بين أعدادهم التي تُقدَّر بثمانمائة عامل، لم يأتِ منهم إلى العمل أكثر من مائة.

واستعيض عنهم بثلاث مجموعات من الأغرار والعساكر والمتدرّبين في الصليب الأحمر الإيطاليّ. نزلوا من الشاحنات، ودخلوا من مدخل شارع بورتوينسي، واقتيدوا إلى المطابخ. لكنّهم لم يحلّوا أيّ مشكلة هناك؛ لذا أمروهم أن ينقلوا الطعام من المستودع إلى الأقسام المتعدّدة. كان العساكر يعملون جيّدًا، لكنّ المرضى بدأوا بالثرثرة والشكوى: فمن المعلوم أنّ النظافة ضروريّة جدًّا ولا غنى عنها، وأنّ أيَّ استهتارٍ وإن طفيفًا بنظافة الأطباق والأواني، قد يؤدّي إلى تفشّي الوباء؛ لاسيّما أولئك المتماثلين للشفاء، وأولئك المصابين بذات الجنب، لم يستحسنوا على الإطلاق أن ينوب مَن ليس ذا علم أو خبرة عوضًا عن المضربين. ناهيك أنّ بعض الممرّضين الذين أصيبوا بالعدوى لقوا حتفهم فعلًا؛ والأمر سواءٌ بالنسبة إلى العساكر، هذه ليست لعبة. بدأ الجميع بالاحتجاج، والصراخ، وإلقاء التهم. لم يعد أحد ملازمًا سريره، خصوصًا أولئك الذين كانوا أسوأ حالًا من غيرهم: نهضوا جميعًا وأخذوا يمشون في الممرّات جيئة وذهابًا، ويحتشدون عند النوافذ لاستراق النظر.

آخرون، أقلّ إصابةً، كانوا يتجوّلون في الحدائق، وما بين الأقسام، ليراقبوا ما يصنعه العساكر. وفي الأثناء، كانت الاجتماعات

تنعقد في مقرّ اتحاد العمّال المصابين بالسلّ، وانضمّت الخليّة الشيوعيّة المعروفة باسم فيليتشي ساليم، التي تولّى رئاستها أحدهم ويدعى غوليلمي خلفًا لبرنارديني؛ وكانوا يتناقشون في كيفيّة الخروج من الأزمة. فقرّروا تشكيل لجنة والتوجه لإحداث بلبلة في الإدارة.

ذهبوا عبْر تلك الممرّات الطويلة والسلالم المختلفة والمداخل الكثيرة، ووصلوا إلى الإدارة: وسرعان ما تمّ استقبالهم وتهدئتهم بكلام معسول. ثمّ خرجوا من المدخل الرئيس هذه المرّة، إذ تناهت إلى أسماعهم ضجّة لا تتوقّف. هناك في الفسحة ما بين الجنبات الخضراء، اجتمع كثيرٌ من المرضى ينظرون نحو الخارج ويصرخون: وبالفعل كان هناك خلف القضبان الحديديّة سيّارةُ جييب ضخمة تابعة للشرطة.

لم يستحسن أحدٌ ذلك المشهد. وقد دنا بعضٌ من القضبان وصرخوا على رجال الشرطة: «ماذا تفعلون هنا؟ ماذا تفعلون هنا؟ قدِّموا استقالاتكم!». كان الذين يصرخون مرضى، وجوههم شاحبة، وأجسادهم جثثٌ حيّة، وقمصانهم الطبيّة فضفاضة على أردافهم الهزيلة تحت ثيابهم البالية.

نزل الدَّرَكُ من الشاحنة لخفض التصعيد عند البوّابة الحديديّة المفتوحة والحاجز المرفوع.

وصل رجال اللجنة، وبوصولهم تشجَّعَ المرضى وملأوا الدنيا صياحًا: «انقلعوا من هنا، أيّها الأنجاس، إنّنا براءٌ منكم!» يزعقون «لا تتجبّرون إلّا على المرضى، ها!»

كان هناك حوالي مائة وخمسون نزيلًا. خطر في ذهن بعضهم

أن يطردوا الشرطة خارج الحديقة، وأن يرموا البوّابة الحديديّة على وجوههم. «فلنطردهم! فلنضرب هؤلاء السفّاحين الذين يتدخّلون فيما لا يعنيهم! فليذهبوا للقبض على اللصوص!»

تهيّأ الدَّرَك للإمساك بأحد المحتجّين واعتقاله، بعد أن تفاقم الوضع. فأمسكوا غوليلمي الذي كان قد تقدَّمَ ليتحدّث مع وكيل شرطة مونتيفيردي محاولًا إقناعه بإخراج رجاله. فما كان من الأخير إلّا أن صاح: «أمسكوا به، اعتقلوه!». لكنّ الآخرين حالوا بينهما، وهرَّبوه بعيدًا بثيابه الممزّقة.

لم يفكّروا مرّتين بالتمرّد على قوى الأمن العامّ، ولم يكن يهمّهم شيء، فهُم مرضى أساسًا، وبعضهم لا أمل لديه حتى بالخروج من المستشفى سالمًا معافى.

وصلت سيّارة الفهد بسرعة فائقة في تلك الأثناء، ومن الواضح أنّها كانت عالقة في أحد الشوارع الفرعيّة، أو خلف منعطف شارع راماتزيني. نزل منها عناصر آخرون يحملون الهراوات. ووقعت المجزرة. أحد المرضى هاجَمَ الشرطةَ وانهال عليهم بالضرب على قدر استطاعته، المسكين، إذ كان لا يقوى حتى على الوقوف على قدميه.

وبعضهم فرّوا مرتعدين عبْر الدروب والأزقّة وتحت الأشجار، يطاردهم رجالُ الأمن ملوِّحين بهراواتهم، ما جعلهم يركضون بأقصى سرعةٍ وغوغائيّة كالمجانين.

وفي غضون ذلك دوّت صافرة الإنذار من قسم المصحّة: دوّت أكثر من مرّة فشوّشت الجميع. وصل المرضى القادرون على المشي إلى باب الإدارة، عند باحة المدخل الرئيس، وكانت أعدادهم تتراوح ما بين

الألف وخمسمائة والألفين. وعاود الصامدون منهم الاحتجاج، حينما رأوا الحشد يتجمهر في الباحة، فاختلطوا بهم وتقدّموا من جديد. باتوا يلهجون بفكرة طرد الشرطة من المستشفى وإغلاق البوّابات. وكادوا يفعلونها لولا أنّ الدَّرَك كانوا في حالة تأهُّب قصوى، وفي الأثناء وصلتهم المؤازرة بما لا يحصى من السيّارات، وأربعة شاحنات كبيرة تغصّ بالعناصر، وسيّارتي إطفاء أيضًا لتفريقهم بخراطيم المياه.

تمركز أكثر من ستمائة عنصر قبالة الشباك الحديديّة، الهراوات في قبضاتهم، والخراطيم موجّهة.

نجح المرضى في غلق البوّابة والتمترس خلفها. ولكنْ ما أسهل فتحها على يد الدَّرك: تراصّت ثلاث شاحنات وصدمت الشبك الذي سرعان ما انفرط وطُحِنَت مغاليقه. واقتحم العناصر المكان بهمجيّةٍ، لا ينظرون في وجوه الناس.

تقهقرت صفوف المرضى، وفرّوا بجلدهم كيفما استطاعوا، فمنهم مَن هرب نحو قسم المعوّقين، وآخرُ لاذ بالإدارة، يختبؤون في كلّ ركن، بين الممرّات والسلالم. لكنّ أعدادهم الكثيرة جعلتهم يتزاحمون، فمَن كان مكشوفًا، عند المدخل أو في الحديقة، لم يفلح في تلافي الهجمة. هناك أكثر من مائة مريض حالفهم الحظّ في التواري، ما لبثوا أن خرجوا مجدّدًا للصياح بأعلى صوت: «أوباش! قتلة! مرتزقة! سنبصق دماءنا في وجوهكم!»، فانهالت عليهم خراطيم المياه وفضَّت شملهم ليهربوا إِلى داخل الأقسام، مبلّلين حتى العظام بمياه بيضاء، ما ألصق ثيابهم على هياكلهم العظميّة. وكانوا يبكون ويصرخون.

لم يبق في الحدائق إلّا قلّةٌ يحاولون الهرب من عناصر حفظ

النظام الذين يلاحقونهم ضربًا بالهراوات: دخل معظمهم إلى الأقسام والأجنحة بلا تمييز، واختلط الرجال بالنساء، والنساء بالرجال. أغلقوا كلّ الأبواب، وحاولت الشرطة تحطيمها لتدهم الداخل وتحتلّه. ما دفع المرضى للإمساك بأيّ شيء يقع تحت أيديهم ويمكنهم رفعه وإلقاؤه، شرط ألّا يكون غرضًا يخصّهم: مقاعد، طاولات، صناديق، خزانات، مبولات. انسحب رجال الشرطة وهم يدمدمون أغنية «ما أجمل المطر!» وتراجعوا إلى قلب الحديقة بين الأشجار. ورغم هذا لم يسلموا من الأغراض التي يرشقها بهم المرضى من نوافذ مهاجعهم وشرفاتها. كانوا يفرّغون المستشفى ويهدّمونه كليًّا. وأصيب بعض العناصر على رؤوسهم وظهورهم، وسمعوا مَن يصرخ عليهم: «هاك، خذ هذه يا ابن الساقطة، واحملها إلى بيتك! وارو ما حدث لأمّك!»

تراجع الدَّرك نحو مبنى الإدارة والمدخل الرئيس، خشية أن تنتهي كلّ محتويات المستشفى في الحديقة. فاغتنم المرضى الفرصة للخروج ثانيةً من مباني الأقسام، ليلاحقوا العناصر أثناء انسحابهم، وما زالوا يرشقونهم بالأغراض.

توافدوا شيئًا فشيئًا إلى باحة الإدارة، بكامل أعدادهم، ألف وخمسمائة أو ألفين تقريبًا، وتمركزوا على امتداد البوّابة الحديديّة للمدخل من جهة شارع راماتزيني. وكانوا سعداء، ومن خلال سعادتهم يتبدّى تعاطفهم وبكاؤهم، وتتجلّى النقمة في أعينهم.

وما زالوا يرمون الشرطة من بعيد، ويصبّون غضبهم على إدارة المستشفى أو الحكومة.

كلّ واحدٍ منهم لديه رأيٌ يودّ الإدلاء به، وهكذا أخذوا يلوّحون

بأذرعهم ويثرثرون ويتصايحون، ولم يعد لهذه البلبلة نهاية. كانت أعصابهم متوتّرة، وثيابهم البالية على أجسادهم، وملابس النوم البيضاء والفضفاضة، تجعلهم يبدون جمعًا من البولتشينيلا[27].

وفي غضون ذلك، توجَّه عددٌ من العاملين في المصحّة، الذين وقع من أجلهم كلّ هذا الهرج والمرج، توجّهوا إلى الإدارة للتحدّث مع الشهير فاني وآخرين، قائلين إنّهم سيعلِّقون إضرابهم، شرط أن ينسحب عناصر الشرطة من هناك ويعودوا إلى ممارسة وظيفتهم الحقيقيّة. فجاء الردّ بالنفي، كلا لن يستطيعوا، إذ باتت مراقبة مستشفى فورلانيني بعهدة وكيل الشرطة ورئيس جهاز الأمن شخصيًّا. ثمّ طرأت عوامل أخرى، فتوصّلوا إلى اتفاق في نهاية المطاف: انسحب الدَّرك وأخلوا الميدان، أمّا المرضى فكانوا أشدّ سعادةً، عاد جزء منهم إلى مهاجعهم للاستلقاء والراحة، وظلّ جزء هناك مجتمعًا قبالة المدخل.

مرّت نصف ساعة، ثمّ ساعة، فانتصف النهار؛ وها هم عناصر حفظ النظام يباغتون مجدّدًا، ويدخلون بلمح البصر، وتتموضع شاحناتهم في النقاط الاستراتيجيّة دون إعطاء الوقت حتى لانتشار الخبر، ويحتلّون حرم المستشفى.

عمد بعض المرضى إلى المقاومة، لاسيّما النساءِ اللواتي كُنّ أشدّ نقمة وغلًّا، لكنّ العناصر قالوا إنّهم مأمورون مباشرة من رئيس جهاز الأمن فوسكو، وقد اتُّخِذَ القرار بإنهاء الحدث.

---

27 (Pulcinella) مصطلح منحوت من اسم بوتشو دانيلّو، وهو فلّاحٌ من أرياف نابولي، اشتُهِر بسحنته الحمراء وثيابه الفضفاضة، من خلال لوحةٍ جسَّده فيها الفنّان لودوفيكو كارّاتشي، حتّى صار مظهرُه أنموذجًا في المسرح النابوليّ إبّان القرن السابع عشر. وابتدع المخرجون أقنعةً وأرديةً وأدوارًا تمثيليّة تحاكي شخصيّة الفلّاح الجنوبيّ وتحمل اسمه. المترجم.

وسرعان ما تناقلت الألسنة عدم الجدوى من الوقوف في وجه هؤلاء، الذين كانوا قادرين حتى على إراقة الدماء. قيل إنّ مريضةً في قسم الجراحة، شدُّوها من شعرها وجرّوها على الأرض ومزّقوا ثيابها حتى أمست عاريةً إلّا من ملابسها الداخليّة مقطّعة الأوصال. وقيل إنّ مريضة أخرى، ارتعبت حتى غدت بكماء ولم تعد تتكلّم. وأخرى مصابة بالاسترواح الصدريّ، اعتقلوها ضربًا بالهراوات.

والحال أنّ الشرطة احتلّت كلَّ أقسام المستشفى: ما بين عشرة وثلاثين عنصرًا في كلّ قسم. ظلّوا هناك طوال الظهيرة والليل، بينما كانت عرباتهم تُسيِّر الدوريّات في الحدائق، بأضوائها الكاشفة.

وخيّموا في الداخل بكامل عتادهم من مسدّسات وبندقيّات وقنابل مسيّلة للدموع.

وفي الصباح التالي، كانت القوائم جاهزة، فقاموا بالتفتيش لاعتقال المدبّرين: مدراء اتحاد العمّال المصابين بالسلّ؛ أعضاء النقابة الوطنيّة؛ أعضاء الخليّة الشيوعيّة بلا شكّ، ومجموعات أخرى. ألقوا القبض عليهم وأخرجوهم وأيديهم على رؤوسهم واقتادوهم بعيدًا.

اقتحم الأمن الغرفة التي كانت مقرًّا للمنظّمات والأحزاب، ومزّقوا وحطّموا كلّ شيء فيها.

وقد تجمهر كثيرٌ من الناس، أقارب المرضى، خلف الشباك الحديديّة للمستشفى، سواء من جهة شارع راماتزيني أم من شارع بورتوينسي؛ ولكن لم يُسمَح لهم بالدخول. وبعد فترة، في ساعة الضحى، دخلت شاحنةٌ من المدخل الفرعيّ، وبدأ الدَّرَك يقذفون بالمرضى على متنها لترحيلهم: بعضهم معتقلًا، وبعضهم مخلىً سبيله من الحجْر،

وبعضهم منتقلًا إلى مستشفيات أخرى. تُقدَّر أعدادهم بمائتي مرحَّلٍ على الأقلّ. كانوا يمسكونهم ويأخذونهم دون إخضاعهم للفحوصات، على الرغم من أنّهم يتقيّؤون دماءهم أثناء القبض عليهم.

بالنسبة إلى التغذية، كانوا يتناولون طعامهم مع العساكر، طبقًا من الباستا الباردة، والتي كانت أسوأ من حساء رديء، إلى جانب الوجبات المعلّبة.

وما زالوا يتصيّدون أولئك الذين عليهم أن يدفعوا الثمن باهظًا، وكانوا متوارين عن الأنظار.

أيُّ مكانٍ كان صالحًا للاختباء: تحوّلت المستشفى إلى ميناء بحريّ، فوضى عارمة لا يُفهَمُ منها شيء. فكان على الملاحَقين أن يغيّروا ملاذهم باستمرار مع أصدقاءٍ لهم من أقسامٍ أخرى، محاولين إخفاء وجوههم إمّا بالضمادات، أو بالاستلقاء على الأسرّة في الشرفات، متقوقعين تحت الأغطية.

كان تومّازو يتناول طبق الباستا الباردة، قاعدًا على سريره، بوجهٍ تعيس، صامتًا، مثل بائعة هوى هرمة. لقمة وراء لقمة، يبتلع بفمه المرير، ويحرّك فكّيه بما يعني: «يا لكم من مقرفين!». وكان يحتفظ بعلبة من اللحم مع المخلّلات احتياطًا بجانبه فوق الشراشف.

حتى المرضى الآخرون كانوا يلتهمون طعامًا بظهور محدودبة، وكلٌّ يولي كتفيه إلى الآخر، مثل العمّال العجزة حين يتناولون غداءهم في الورشاتِ، مستندين إلى جدرانٍ مغبرة. وكان صوت العلس يصدر من أفواههم وهي تلوك الطعام، ببطء ورويّة.

كان لورنزو يأكل واقفًا ومستندًا بظهره إلى الحائط، منشغلًا بإلقاء

نظرة بين الفينة والفينة إلى خلف زجاج المخرج. إذ إنّ غوليلمي ورفيقه بيتسو قد جاءا للاختباء في مهجعه حين كانا هاربين من الشرطة: كانا يعرفانه، فالتجآ إليه.

العناصر المتمركزون داخل الأقسام كانوا يأكلون أيضًا، في آخر الممرّ. وضعوا أطباقهم المعدنيّة على أرفف نافذة كبيرة، وأسندوا مرافقهم عليها وأخذوا يعلكون وينهمون، لشدّة جوعهم وهم شبّانٌ بوجوههم السمراء كالفلاحين، وكانوا صامتين، ومن الواضح أنّهم مستاؤون هم أيضًا من كلّ تلك المجريات.

«دوريّة! دوريّة!» هتف لورنزو بصوت منخفض فجأة. وسرعان ما ألقى غوليلمي وبيتسو نفسيهما، الأوّل تحت سرير تومّازو والثاني تحت سرير لورنزو.

ظلّ تومّازو على حاله، كأنّه محنّط، ثابتًا بلا حراك، لا يرى ولا يسمع شيئًا، إنّما يتناول طعامه. يضع اللقمة في فمه، يمضغها ويبلعها. بلا أيّ تغيير في تعابير وجهه، فما زال مشمئزًّا ومتذلّلًا، كتمثال أرتانيان.

مرّت الدوريّة بعد قليل فعلًا، وقاموا بتفقّد عنبر تومّازو أيضًا. فلم يروا إلّا أناسًا يأكلون، وراء تومّازو، مبعثرين كلٌّ على سريره، يولون ظهورهم، وقد التفتوا إليهم بأفواههم الممتلئة بالطعام. كان هناك مراقبٌ أيضًا: يتّضح من ملامح وجهه الرقيقة أنّه سيطر على الحركة المريبة في المهجع، لكنّه كان منشغلًا بشؤونه الخاصّة. وعلى الرغم من هذا أبى رجال الشرطة إلّا أن ينظروا في الأمر، فطلبوا أسماء الحضور وانصرفوا. لقد قاموا بواجبهم؛ أمّا إذا كان واحدٌ من المطلوبين مختبئًا تحت السرير، فلقد استحقّ تلك العاقبة، فليباركه الربّ.

جاءت المرأة الفظّة، ذات الأثداء الضخمة، وحملت الأطباق المتّسخة، تزعق بثيابها المهملة، مثلما شاء الربّ.

مرّت ساعة، واثنتان. رجال الشرطة يمشّطون الممرّات جيئة وذهابًا، والأنباء الواردة لا تبشّر بالخير: انتهى كلّ شيء في مستشفى فورلانيني. لم يكن الإضراب سوى ذريعة مدبَّرة لافتعال أزمة، وطرد غير المرغوب بهم، وإعادة الأمور إلى نصابها في قبضة النظام وتحت عصا الطاعة.

وكان الرفاق المتقدّمون في السنّ وغير المتورّطين في الأحداث، قد تكفّلوا بنقل الأخبار ونشرها. جاء منهم واحدٌ وقال إنّ الشرطة ستعود بقوائم جاهزة، وإنّهم سيفتّشون عن المطلوبين جدّيًا هذه المرّة. «هيّا بنا» قال «سأصحبكما إلى ملاذٍ آمن بنفسي!»

«أين؟» سأله غوليلمي.

«تعالا معي!» قال الرجل بنبرة ماكرة. ثمّ أضاف: «يجب أن نصحب رجلًا آخر معنا ليرى أين ستختبئان، بحيث يأتيكما بالطعام، ويبقى على تواصل معكما! فهم يشتبهون بي، وقد أخضعوني لمراقبة مشدّدة أساسًا!»

كان لورنزو معروفًا، فلطالما خالط كبار المسؤولين عن الإضراب وشارك في مهمّات عديدة. وأمّا الآخرون فكانوا عجزة، أشباه جثث، ومن السهل الإيقاع بهم.

«تعال أنت أيّها الشابّ!» قال العجوز لتومّازو.

أحسَّ تومّازو بغصّة في القلب، كأنّه تعرَّضَ لوخزةٍ ثاقبة، فاعوجَّ فمه بتكشيرة جادّةٍ ومشمئزّة حتّى بدا يوشك على بصق السمّ، واحمرَّ

وجهه وادلهمَّ كالجمرة. نطح الباب بخفّةٍ وقال بصوتٍ مشروخ: «فلنذهب!»

خرجوا إلى الممرّ بهيئةٍ مطمئنّة كأنّهم ذاهبون إلى المرحاض أو لالتقاط بعض الأنفاس، يمشون بخطىً واثقة. نظر إليهم الشرطيّان المتمركزان في نهاية الممرّ، ولم يقولا شيئًا، بل كانا طيّعين، كأنْ لا أعين لديهم ولا آذان.

كان تومّازو يحاول أن يحفظ الطريق عن ظهر قلب: نزلوا إلى أسفل، خرجوا إلى الحديقة، قطعوا ذلك الفِناء الشبيه بحدوة الحصان والفاصل بين جناح الرجال وجناح النساء، دلفوا إلى جناح النساء عبْر بابٍ ثانويٍّ صغير. لقد فعلوها. اختفوا في الداخل، كأنَّ شيئًا لم يكن، بقاماتٍ منتصبة كما لو أنّهم ابتلعوا مسامير. ثمّة ممرّ ضيّقٌ يؤدّي إلى مكتب الحرّاس، وبعده مباشرة ثمّة بابٌ صغير يفضي إلى قبو.

كان غوليلمي طويل القامة، مكتنز البنية متينها، ووجهه يوحي ببراءة الأطفال السارحين دومًا. وكان من الواضح أنّه ليس على ما يرام، فبشرته تميل إلى اللون القاتم، لا دماء تسري فيها، وشفتاه من اللون نفسه أيضًا، صغيرتان وغليظتان. أمّا رفيقه فكان أشقر الشعر، ولون عينيه فاتح، ووجهه مطاول، وفي نطقه لكنةٌ فيرونيّة. نزلوا القبو كما لو أنّهم لم يفعلوا شيئًا غير ذلك في حياتهم كلّها، وقفل العجوز الباب عليهم واحتفظ بالمفتاح.

وعندما وصل وتومّازو إلى المهجع، ودّعه العجوز وقال له: «إنّ أمر هذين الرجلين موكلٌ إليك من الآن فصاعدًا، فأنا لديّ أشياء أخرى

أقوم بها، ثم إنّ الشرطة باتت تبحث عني أيضًا، هذا ما أظنّه. خذ، هاك المفتاح! تذكّر أن تجلب إليهما طعامًا، إيّاك أن تتركهما يموتان جوعًا! وداعًا أيّها الأسمر. وأوصيك أن تتوخّى الحذرا» وانصرف.

ظلّ تومّازو والمفتاح في يده، يكاد يتثاءب. وضعه في جيبه وهو يغمغم في سرّه، وكان غاضبًا حتى كاد ينفلت ضحكًا: «اللعنة! انظروا بما تورّطتُ!»

كانت الساعةُ الرابعةَ عصرًا. حلَّ المساء، جميلًا كأمسيات منتصف الصيف، التي لا يهبط فيها الظلام أبدًا، إنّما يصعد القمر، ويستقرّ في العلياء، قريبًا ودافئًا هو أيضًا، لا جدوى من ضوئه لكنّه مدهشٌ بكلّ الأحوال.

في مستشفى فورلانيني، تواصلت حملة الاعتقالات والاعتداءات، والقمع، والبكاء. فأن يُطرَد المرءُ من هناك، سواء أكان مريضًا أم معافًى توًّا، فهذا يعني الكثير؛ ناهيك بأولئك الذين ينتهي بهم المطاف إلى السجن كاللصوص.

اتّفق تومّازو مع الخادمة الجلفة، بالتحدّث معها عن طريق الإشارات والإيماءات. فجميع مَن حوله كانوا مخبرين، برأيه؛ كما أنّ الحيطان لها آذان.

في ساعة العشاء، كانت الخادمة تحمل إلى مهجع تومّازو وجبتين إضافيّتين. كانت تؤدّي دورها، وتُظهِر للجميع أنّها تؤدّي دورها. إذ كانت أكثر غرورًا بقيامها بمهمّةٍ كهذه، ولم يكن ينقص إلّا أن تغمز بعينيها للدَّرَك. صنع تومّازو صرّتين صغيرتين، بمساعدة لورنزو، ووضعهما تحت سترته ومضى.

سار على تلك الطريق التي سلكها بعد الظهر، عبْر الحديقة وصولًا إلى القبو، وفتح باب المغارة. ما زال الرفيقان هناك في الداخل، مثل أسيرين عجوزين. وما لبثا أن انهالا عليه بوابلٍ من الأسئلة والاستفسارات: كيف تجري الأمور، أما زالت الاعتقالات متواصلة، وعن هذا وعن ذاك. وتومّازو الذي لم يكن ملمًّا بكلّ تلك المعلومات، أجابهما مثلما يجيب المرء على تساؤلات الأطفال، فطمأنهما وأسمعهما ما يودّان سماعه. وترك لهما الطعام وانصرف، محترسًا ينظر ذات اليمين وذات الشمال، فغرفة الحراسة كانت على مقربة.

خلد إلى النوم. وفي الصباح التالي، أعاد الكّرَّة ذاتها. جاءته الخادمة بالطعام الإضافيّ. سوى أنّ دوريّة الشرطة قد مرّت قبل منتصف النهار، سبعة رجال يتبعون ضابطًا بزيٍّ مدنيّ، دخلوا المهجع هذه المرّة، وطلبوا وثائق الجميع، ونظروا جيّدًا في وجوه الحاضرين، وسألوا: «هل تعرفون أحدًا يدعى ألدو غوليلمي، هنا؟». أرخى الجميع ذقونهم وهدَّلوا شفاههم، وغامت أعينهم بتعبيرٍ حياديٍّ حامض المذاق، حتّى كادوا يبصقون تلك النكهة المقيتة التي جالت في أفواههم. «ومَن يعرفه؟ ومَن تُراه يكون؟ ومَن رآه؟» أجابوا. انصرف الضابط، بعد أن رمقهم بنظرةٍ شرّيرة، بعينيه الزرقاوين اللتين تتوعّدان بالشؤم، معتادًا على النظر هكذا في وجوه اللصوص واعتبارهم حشراتٍ مؤذية. انصرف بظهره الشبيه بظهر الحمامة ورقبته الحليقة ووجهه الفظّ. «انقلع!» غمغم تومّازو خلف ظهره، بفمٍ مكشّرٍ يكاد يتمزّق من شدّة التقزّز والاعوجاج.

وبعد نصف ساعة، حينما ركدت المياه قليلًا، حمل الصرّتين ومضى.

كانت أحوال الرفيقين تتردّى حقًّا، وشحوب الموتى يخيّم على وجهيهما. لم يكن في القبو إلّا كوّة واحدة، مطاولة، في السقف؛ فضلًا عن مقعدين وطاولة فقط، وخلفها دورات الاستحمام، لأنّ القبو كان عبارة عن مشلحٍ خارجٍ عن الاستخدام آنذاك. لا شيء غير هذه القطعتين من الأثاث، ما اضطرّ المسكينين إلى النوم أرضًا. لم يعد بوسعهما الصمود، ورغم هذا لم يتهاونا: سألاه عن أخبار الآخرين، وعن الوضع العامّ، وعمّا تقوله الصحف؛ كما لو أنّهما لا يفكّران إلّا بتلك الأشياء. أكلا بعجالة، دون حتى أن يعرفا ما الذي تحويه الصرّة. وأثناء الطعام لم يتكلّما، فاستطاع تومّازو حينها أن يقول لغوليلمي: «أوه، إنّهم يبحثون عنك!»

أصرّ غوليلمي أن يعرف التفاصيل. وبعد أن أنهى طعامه، نهض بكلّ هدوء، وقال بفمه اللحميّ البنفسجيّ: «بالقرب من هنا يقع مكتب اللجنة الداخليّة... انتظراني، سأعود حالًا!»

وخرج ثمّ عاد بعد قليل، أشدّ شحوبًا من ذي قبل، وهو يحمل آلة كاتبة. وضعها على الطاولة، وانحنى إليها، وظلّ على تلك الوضعيّة فترةً ينضِّد وينضّد. وحينما انتهى، التفت نحو تومّازو وقال له: «هذا منشور: إنّني أهيب بالنزلاء أن يلتزموا الهدوء، ويناشدوا الشرطة لحثّها على تجنّب العنف مع المرضى... حاولْ أن تضع هذه الأوراق في صناديق بريد اللجنة الداخليّة، في جناح الرجال وجناح النساء على السواء... هل يمكنني الاعتماد عليك؟»

«وكيف لا!» هتف تومّازو؛ ثمّ أضاف في نفسه: «أنت لا تعرف بعد مَن يكون بوتزيلّي، يا جميييل!»

«هاتها!» قال وهو يأخذ منه الأوراق. «إلى اللقاء!»

انغلق الرفيقان في الداخل مجدّدًا، ومضى تومّازو بتعبيرٍ حياديّ من خلال الممرّ فالحديقة. وضع يديه في جيوبه، كما لو كان خارجًا من بيته إلى السينما أو الحانة مع الأصدقاء، وراح يصفّر ويدمدم مبتهجًا وشاردًا: «ماروتزيلا، ماروتزيبييه!»

عاد إلى جناح الرجال، يدمدم تارةً ويصفّر تارة أخرى، وبينما فمه يغنّي، كانت عيناه تراقبان الوضع هنا وهناك للتأكّد من خلوّ المكان من الدَّرَك والمخبرين. كان الدَّرَك كالعادة متمركزين في نهاية الممرّ حيث مهجع تومّازو. مرّ من أمامهم بفمه المفتوح على ما يشبه التثاؤب، وعينيه اللتين احترقتا بتعابير الضجر والرخاء، تحت جبينه المتجعّد.

مرّ من أمام باب مهجعه أيضًا، حيث لورنزو والمعاتيه الآخرون يرمقونه بنظرة المتفكّرين. ذهب إلى السلالم الأخرى، وصعد إلى الطابق الأعلى. وهناك تتموضع فرقة أخرى من الدّرك في نهاية الممرّ أيضًا، لكنّ مقرّ الأحزاب المزوّد بصندوق بريد كان بعد المنعطف. هنالك أكثر من مهجع، وبالتالي فوضى كبرى.

«إيبيه» فكّر تومّازو «ماذا حصل؟ هل فاض النهر؟»

لم يصادف أناسًا كثيرين بعد المنعطف. سوى مجموعة من الشبّان، بجانب نافذة كبيرة، يتنشّقون الهواء المنعش. كان تومّازو يعرفهم: شيوعيّون. «سأصيبهم بنوبة قلبيّة الآن» قال في نفسه ممازحًا، ومحمرّ الوجه من فرط البهجة.

بانانا، شيشو، غاجو. هؤلاء، ينحدرون من كوارتيشولو[28].

---

28 حيّ شعبيّ في روما، كان معقلًا للمهاجرين من جنوب إيطاليا. وكان زعيم عصابة الحيّ جوزيبي ألبانو الملقّب غوبو (1927-1945) يتعاون مع المناضلين ورجال المقاومة في روما لاغتيال الفاشيّين والنازيّين، إلى أن اغتاله الألمان عن طريق أحد جواسيسهم. المترجم.

أحدهم كان منخرطًا في عصابة غوبو في طفولته. وكان حاضرًا عندما قُتِلَ غوبو بالرصاص حتّى تثقَّبَ كالغربال.

هزلت أجسادهم من المرض، ونتأت عظام وجوههم من تحت عيونهم حتى كادت تفتِّق البشرة، وكانت ذقونهم متضخّمة وتغصّ بالبثور والتجاويف: وبسحناتهم المخدوشة والمتآكلة، وجلودهم الرماديّة القذرة، وضفائرهم المتناثرة على ثيابهم المتّسخة والمتشقّقة، بدوا مثل المجرمين السفّاحين تمامًا.

ولكن، حينما أوشك تومّازو على المرور بجانبهم، ظهرت دوريّةٌ من آخر الممرّ: الضابط الفظّ إيّاه، بعينيه الزرقاوين الغائرتين، محدودبًا كابن عرس، ومتبوعًا بأزلامه المدجّجين بالسلاح، الذين على الرغم من إذعانهم حاولوا التظاهر باللامبالاة.

«مَن أطلق ريحًا؟» قال غاجو وهو يطلّ بنصف جسمه من النافذة. تشمَّمَ بانانا مشمئزًا هو الآخر، وربَّت على كتفه: «أحد الملاعين!» صاح مسدّدًا طرف عينه إلى الدَّرَك. كانوا سُذَّجًا، سعداء، يقهقهون ملء أشداقهم، كلٌّ ينظر إلى الآخر أو يرنو إلى خارج النافذة. «إيييه» قال غاجو وهو يصفق كفًّا بكفّ رافعًا مرفقيه ليفركهما متلذّذًا «إيييه، يا لها من مباراة!»

«حذار» هتف شيشو فجأة «قد تكلِّفك ستّة أشهر من السجن!»

وراح يضحك كالأبله، ولسانه يتلوّى بين شفتيه، بحيث يتلوّث وجهه كلّه بلعابه من فرط الضحك. غزت البهجة قلوب الجميع: ساد تعبيرٌ من السعادة والتفاؤل على أعينهم، وخيَّمَ عليهم بنورٍ متوهّجٍ من البراءة والفضيلة. وما زالوا يضحكون وينظر أحدهم إلى الآخر، وتحتكّ

ذقونهم بأعناقهم، أو يهزّون رؤوسهم بالنفي كأنّهم يقولون: "نحن أقوياء!". وكلّما اضمحلّ منسوب الضحك نهض أحدهم ليقول: «آه، ما أثقل الفأس!» فيعاودون الضحك مجدّدًا، بضحكات بريئة وودودة، بينما كانوا يحدِّقون بأبصارهم المريرة إلى الفراغ.

مرّ الدَّرَك بجانبهم: يتوقّفون أم لا يتوقّفون، يتوقّفون أم لا يتوقّفون، يا إلهي، لقد توقّفوا، ها نحن ذا، كلا، كلا، لقد انصرفوا، لحسن الحظ، والآن ماذا يفعلون؟ هل غيّروا رأيهم؟ انقلعوا من هنا، اللعنة على أمواتكم! وهلمَّ جرًّا بالضحك مطمئنّين. انضمّ تومّازو إليهم، مسندًا كتفه إلى الجدار ويداه غارقتان في جيوبه، وكان يضحك بهدوء.

وحينما ابتعدت الدوريّة بما فيه الكفاية، بقبق تومّازو بفمه، متوقّفًا عن الضحك على رِسْلِهِ، مستنفدًا كامل وقته. ثمّ انفصل عن الجماعة، واتجه بخطوات متهادية نحو صندوق بريد الباب الزجاجيّ المغلق بالشمع الأحمر، تحت أعين الرفاق الذين تملَّكهم الفضول.

ألقى نظرة خاطفة حوله، هنا وهناك، وفتح غطاء الصندوق، كانت الدبابيس مدسوسة أساسًا في الأوراق القديمة، وضع الأوراق الجديدة، وأغلق الغطاء وانصرف.

اقترب الآخرون محترسين. فمرَّ تومّازو أمامهم وغمغم إليهم بنبرة هادئة، تذكِّر بفيلم «الفليفلة الحمراء»: «ها يا شباب، انشروا الخبر كي يأتي الجميع لقراءة المناشير!»

وعاد إلى مهجعه.

وفي اليوم التالي ما زال تمشيط المستشفى متواصلًا، أسوأ من

ذي قبل، حيث إنّ المياه قد ركدت بالإكراه، ما أتاح لرجال الشرطة التفتيش بسهولة. وقد عاد المرّضون – دون أن يحصلوا على شيء من مطالبهم – للعمل تحت رقابة الشرطة. ما جعل إمداد الرفيقين بالطعام بالنسبة إلى تومّازو أخطر كثيرًا.

توهّجت الشمس في العلياء، وحان وقت الغداء: ومن يدري كم جاع ذانك المسكينان المحبوسان في أسفل. ذهب تومّازو نحو القبو، في جناح النساء، حاملًا صرر الطعام المعتادة. قام بما عليه فعله، لكنّه حين وصل أمام الباب الصغير وطرقه منثني الجذع، تلفّتَ يمنة وشمالًا، فرأى حارسًا على بُعد عشرة أمتار، يدعى ساليتا، يرمقه متحجّرًا.

دخل تومّازو وقال: «لقد رآنا أحد أولاد الساقطة، أشدّ الحرّاس بطشًا!». أطلّ برأسه ثانيةً، لكنّ الحارس قد اختفى.

«لقد ذهب لإخطار الشرطة!» قال تومّازو. لم يعد من الممكن الاختباء في ذلك المكان حتّى لو في المنام. فتجهّزوا وغادروا مستعجلين.

ركضوا إلى أعلى عن طريق سلّم صغير، ثمّ سلّمٍ أصغر، فإلى ممرٍّ حتّى وصلوا إلى أحد المهاجع. في المهجع ثلاثة أسِرَّةٍ تستلقي عليها النساء. كان غوليلمي يعرفهنّ، وكُنّ يعرفنه. اختبأوا هناك. تناقش غوليلمي بشؤون السياسة طيلة ساعتين، مع إحدى النساء المنحدرة من مدينة ميلانو أو جنَوَة، وكانت منخرطة في صفوف المناضلين.

حان وقت عيادة الطبيب: لا مناص من الاختباء تحت الأسِرَّة، الثلاث عددًا. انبطحوا تحتها مدّة عشر دقائق حتى انصرف الطبيب. وفي الأثناء جاءت امرأة أخرى لتخبرهم أنّ العناصر بدأوا جولتهم في

الجناح، ولا بدّ أنّ ساليتا إيّاه قد أخطرهم فورًا فجاءوا بأقصى سرعة. لا يمكن البقاء هناك أيضًا، لأنّهم صاروا يفتّشون تحت الأسِرّة. «ولكن، أنا أعرف مكانًا آمنًا!» قالت المرأة. فهربوا بعيدًا عبْر ممرٍّ آخر، وسلَّمٍ آخر، وأشارت لهم المرأة إلى باب صغير ومحطَّم وشبه مفتوح: المكان عبارة عن خزانة تحت السلالم، مسكونة بالظلام، ومنخفضة بحيث إنّ الرؤوس تناطح السقف فيها. انصرفت المرأة، وظلّوا هناك، داخل ما يشبه الزنزانة المنفردة، وما زالوا يتناقشون بالسياسة.

وهبط المساء، فصار الظلامِ في الداخل دامسًا لدرجةٍ ما عادوا فيها يرون أبعد من سنتمترين عن أنوفهم. أمّا عن التدخين، فلم يكن في حوزتهم سيجارة واحدة، كما أنّ الجوع بدأ يهدِّدهم.

«لن نستطيع رؤية النهار هنا!» هجس تومّازو «لن نستطيع قضاء الشتاء هنا!»

كان بيتسو الفيرونيُّ صموتًا، وغوليلمي هو الوحيد الذي يتحدّث ويتحدّث، بلا هوادة. بدت رأسه سدّادةً مدوّرة على مرطبانٍ مربع، وشفتاه الغليظتان تتحرّكان برشاقة، تحت نظراته الثابتة والموحية بنظرة الأطفال.

وها هم يسمعون دقًّا خافتًا على الباب: فتحوه ببطء، فرأوا في غمرة أواخر الضوء الهابط في بئر السلالم شابًا أسمر بدينًا. لم يكن من المرضى، بل كان يرتدي مئزرًا أسود فوق ثيابه. هو أحد العاملين بقسم الاتصالات في المستشفى، وكان غوليلمي يعرفه فعلًا. «لقد أخبرتني النساءُ» قال «هيّا بنا!»

«إلى أين؟» تساءل تومّازو ملتحقًا بالمجموعة، متوتّر الأعصاب

لكنّه محافظٌ على هدوئه.

اقتادهم الشابّ عبْر ممرٍّ، في نهايته بابٌ منخفضٌ ينبغي نزول أربع عتبات للوصول إليه. دلفوا منه وتابعوا النزول على سلّمٍ لا ينتهي أبدًا. وأمّا الظلام، فكان لدى موظّف السنترال مصباحٌ يدويٌّ أنار الطريق.

وصلوا إلى دهليز، ومنه إلى آخر: تحت مستشفى فورلانيني هناك دهاليز تصل بين الطرف ونقيضه من تحت الأرض. مشوا فيها حوالي ربع ساعة، وفي النهاية صعدوا ثانيةً خلال سلّم آخر. كان الباب في الأعلى ينفتح على ما يشبه المغارة، وكانت نظيفة جدًّا، لكنّها مجرّد غرفة صغيرة، تؤدّي إلى الحديقة، من تحت شرفات جناح الرجال. أطلّوا بأعناقهم إلى الخارج، إلى الهواء الطلق، تحت قمرٍ جميل، يلمع وسط السماء على المدينة. سمعوا أصواتًا وضحكاتٍ، وضجيج حافلات في شارع بورتوينسي، وإلى ما هنالك من طنين أمسيات الصيف.

ثمّة حارسان على بُعد خمسين مترًا، عند أحد مداخل الجناح: المسافة بعيدة بما يكفي، ومليئة بالأجمات والشجيرات، لكنّها لا تحجب الرؤية نهائيًّا. «سأذهب لمراوغتهم!» قال عامل السنترال. صافح الرفيقين وتمنّى لهم النجاة وانصرف وهو يشعل سيجارة. رأوه يقترب من العميلين ويتحدّث إليهما واقفًا بحيث يحجب عنهما الرؤية.

وسرعان ما هبَّ تومّازو والرفيقان للانزلاق ما بين الأحراش وجذوع الشجر؛ لا يتطلَّب الوصول إلى آخر الحديقة جهدًا جهيدًا، سوى خطوتين بين الجنبات الخضراء والحشائش المتيبّسة. وصلوا إلى الشباك التي تسوِّر الحديقة، الشباك العالية المكلّلةُ قمّتها بأسلاك شائكة. ووراءها الطريقُ، شارع بورتوينسي، المكتظّ بالناس يجيئون

ويغدون تحت البيوت؛ بيوتٍ قديمة، محمرَّة ومتقشّرة، وبيوت عصريّة ناصعة البياض. وهناك ورشة ميكانيك، وثلّة من الفتية يمتطون درّاجات ناريّة، محرّكاتُها هدّارة، يتناقشون ويتهاترون. والحافلات تمضي مزدحمة بالبشر. النوافذ مفتوحة، وأضواؤها موقدة. والأصوات تتصاعد، والأغاني تصدح، لتتماهى بالهواء الحارّ، تحت ضوء القمر.

أراد تومّازو تسلّق الشباك كالرفيقين، لكنّ غوليلمي أوقفه قائلًا: «ماذا تفعل؟ إلى أين تهرب؟ إنّهم لا يعرفونك، خيرٌ لك أن تبقى، وتتلقّى علاجًا كما ينبغي...» وابتسم للمرّة الأولى: «لا يجدر بك أن تصبح مجنونًا مثلي، ها، فلقد جابهتُ الجميع وعلى رأسهم الحزب، لأنّي أردتُ تقديم أكثر ممّا يجب، بدلًا من الاستلقاء تحت الشمس والتنعّم بالعافية!»

بالتأكيد، كان يروق لتومّازو الهرب واستنشاق الحريّة، لكنّه أدرك أنّ الرجل على حقّ، فتخلّى عن الفرار، صامتًا، ووهب نفسه لمساعدتهما في تسلّق الشباك.

ولكنْ قبل أن يمضي غوليلمي بعيدًا، التفت مرّة أخرى إلى تومّازو، وحدّق ثابتًا إلى عينيه، بوجهه المطاطيّ البائس.

«شكرًا يا بوتزيلّي!» قال له «لقد أبليتَ بلاء حسنًا» وصافحه.

ثمّ تسلّق في حين كان الفيرونيُّ ينتظره من خلف الشباك بفارغ الصبر. نظر تومّازو إليهما وهما يعبران الشارع ركضًا، ليصلا إلى الجانب الآخر، قرب ورشة الميكانيك، وها هما يتجهان إلى موقف الحافلة، في أوج زحام الناس والسيّارات قُبَيلَ ساعة العشاء. وثمّة فرقةٌ من الفتية، قادمين من ناحية الأكواخ القديمة، متّجهين إلى حيث لا يدري أحد.

ضفائر شعرهم تغطّي ذقونهم المتّسخة، يمشون متكاتفين، ويتحدّثون بانفعال، دون أن ينظروا إلى أحد. بعضهم يثرثر وبعضهم يسكت مبتسمًا. كانوا بوجوههم التي تعتلي ياقاتهم المتّسخة والملوّنة كياقات الماجنين، يقدِّمون صورةً مثاليّةً عن السعادة: لا ينظرون إلى شيء، يمضون في طريقهم إلى حيث يشاؤون، مثل قطيع من الأغنام، يحسَبون أنّهم أذكياء، كما لا يشغل بالَهم أيُّ هاجس.

تنهّد تومّازو وغمغم: «ياه كم كنتُ غنيًّا ولم أكن أدري!»

4 - الشمس العتيقة

كانت شمس أغسطس توقد النار في الغبار والصفيح، في القمامة والحشائش، في القصب والخرائب. بيترالاتا ممتدّةٌ هناك، خلف الهضاب المطلّة على نهر الآنييني وتحت السماء الرماديّة. الأبنية القديمة للثكنة، الناحية اليمنى، والناحية الخلفيّة، ونصف قُطر التجمّعات السكنيّة وصفوف المنازل الصغيرة الشبيهة بمدن الشعوب الأصليّة، كانت تربض تحت رائحةٍ كريهة من العفن المسخَّن الذي يجلط القلب. تهبّ من حين لآخر نسائمُ بحريّةٌ منعشة، فتختلط رائحة الطين وقصب النهر بمجاري صرف الأكواخ الممتلئة بالأوساخ والصفيح وبول الأولاد.

لقد شهدت بلدة الصفيح في تلك الآونة، والحقّ يقال، تغييرًا وإن طفيفًا. إذ قاموا بهدم ستّ أو سبع بيوت للمهجَّرين وأبناء الشوارع في وسط البلدة، وشيّدوا ثلاث أو أربع بنايات حديثة وقاتمة وضخمة، كالجبال، مشبعةً بالنوافذ والأفنية الضيّقة والمداخل والسلالم، فحجبت نورَ الشمس عن الأكواخ الأخرى التي بقيت حولها وعن التجمّعات الصفراء كلون الجوع.

سينما لوكس في الجوار، غيّروا اسمها وأصبح سينما بوسطن.

المعمل الصغير على سفوح جبل بيكورارو أُغْلِقَ، وفُتِحَ عوضًا عنه، في الأجنحة نفسها، مستودع زيبييري.

كان تومّازو يتمشّى مبتهجًا في الشارع المقفر الذي أحرقته الشمس، يداه في جيوبه، وممتلئًا بما يكفي من السرور جرّاء تلك التغيّرات. كان ينظر حوله، كأنّه صاحبُ أراضٍ يعود إلى أملاكه بعد غيابٍ طويل، وبما أنّه يعرف المنطقة كراحة يده، ينتبه إلى كلّ الأشياء ويدرك كلّ الأشياء، سواء أتلك التي بقيت على حالها أم تلك التي طرأ عليها التغيير. كان يتقدّم بلباسه الأنيق، على رِسْلِهِ، بلا عجالة، بخطوات متهادية ومتوازنة؛ إلّا أنّ ذلك المظهر الهادئ والرضيّ إلى درجة الملل، كان يخفي تحته قلبًا يخفق بشدّةٍ تكاد تصمّ أذنيه.

وكلّما اقترب من موقف الحافلة، أمعن النبضُ اجتياحًا في أضلاعه وارتفعت وتيرتُه. حتّى إنّ ساقيه تعرّضتا لنوبة ارتعاش، وعلى الرغم من أنّه ما زال يتصبّب عرقًا كصنبورٍ مدرار، شحبت وجنتاه وهامت عيناه.

تثاءب مرارًا، وتمطّى كالمشاكسين، ثمّ دلف الشارع الرئيس في القرية بلا تفكير، متّجهًا نحو الشعبة ما بين أكواخ النازحين.

وكانت الشمس تعشي الأبصار في الفِناء القرميديّ الصغير، ولا يوجد أحد. الصمت يطغى على كلّ شيء. التقط تومّازو نفسًا عميقًا بأنفه، وسحب سحبتين أو ثلاث من عقب السيجارة الذي تقزَّمَ حتّى كاد يفلت من بين أصابعه، ثمّ رماه ودخل. وكانت الشمس تملأ القاعتين اللتين يتكوّن منهما ذلك البيت الصغير، فيلتهب على إثرها

الغبارُ والرايةُ الحمراء المركونة في إحدى الزوايا، وصورةُ أبو شنب[29]. لا يوجد أحد هناك أيضًا. «بالإذن!» قال تومّازو بصوته الأجشّ، متقدِّمًا خطوتين إلى داخل القاعة الأولى.

وبعد لحظة، تبدّى له تحت الظلّ طيفُ رجلٍ نائم خلف المصطبة المتزعزعة. كاتزيمبريو، القيِّم على مقصف الشعبة. كان نائمًا على مقعدٍ من قشّ، بين برميل النبيذ والمصطبة، وكانا فارغين تمامًا بسبب القيظ.

رأسه القاتمة كرؤوس الموتى، مقلوبة إلى خلف مسند المقعد، بما يتيح رؤية أسنانه القليلة والناتئة من فمه الأسود وشاربه ومنخاريه الممتلئين بالزغب والمخاط المتيبّس. كان يشخر بهدوء. «اللعنة على أمواته!» قال تومّازو في سرّه وانتقل إلى القاعة الثانية، الكبرى، التي كان الشبّان يرقصون فيها عادةً. وهناك أيضًا لم يجد أحدًا، لكنّ باب المكتب كان مفتوحًا. دنا تومّازو منه وأطلّ برأسه مردِّدًا: «بالإذن!». لم يكن في المكتب سوى شخصٍ واحد، منكبًّا على إلصاق الطوابع على الظروف، وكانت المنضدة تترنّح كليًّا عند كلّ ضربة مهما كانت طفيفة.

«ها يا برسيكي!» قال تومّازو حين رأى الفتى الذي في مقتبل العمر، والذي لم يصادفه إلّا نادرًا. رفع الفتى عينيه، حدّق إليه برهةً ثمّ أخفضهما على الفور مستأنفًا عمله.

«أوه» هتف تومّازو «قل لي، ما الذي يتوجّب عليَّ فعله؟»

صمت قليلًا، متأثّرًا بما سيقوله توًّا، ومحاولًا العثور على أكثر النبرات حياديّةً وعفويّة يقدر عليها، وتابع: «لقد كنتُ في مستشفى

---

29 «أبو شنب» يستخدم هذا التعبير، في هذا السياق (شعبة الحزب الشيوعّي)، للسخرية من جوزيف ستالين، المشهور بشاربيه الكثيفين. المترجم.

فورلانيني، كما ترى... أردتُ الانتساب إلى الحزب هناك... ولكنْ، نظرًا إلى الفوضى التي قمنا بها هناك، نصحوني بالتريّث حتى الخروج من المستشفى... وها أنا ذا هنا: ما الذي يتوجّب عليَّ فعله؟»

ما زال الفتى صامتًا يلصق الطوابع: ألصق طابعين أو ثلاثة بينما كان تومّازو ينتظر ولم يعد لديه ما يقوله، مرتبكًا بعض الشيء، وقد هزمته عواطفُه. رفع عينيه نحوه، وشدَّ وجنتيه الشاحبتين حول فمه ذي الأسنان المتكسّرة وقال: «لا يوجد أحد الآن».

فشدَّ تومّازو وجهه أيضًا وردّ: «فمتى عليَّ أن آتي إذن؟»

لكنّ الفتى انحنى ثانية على طوابعه: ألصق طابعين هذه المرّة أيضًا، ثمّ رفع رأسه مجدّدًا، كأنّه أراد أن يقول شيئًا مهمًّا: «لاحقًا. سينعقد اجتماع».

«لاحقًا متى؟» ألحَّ تومّازو.

«حوالي الخامسة، السادسة» قال برسيكيني وهو ينظر إلى مخاطِبه في صمت، بفمٍ موارب وتعبيرٍ جادّ.

«حسنًا!» قال تومّازو متهيّأ للانصراف. «سأعود لاحقًا إذن» أضاف. لكنّ برسيكيني لم يسمعه، مشغولًا بتمرير لسانه على الطوابع، بوجهٍ مكفهرٍّ وصارم.

وفي الخارج كان الجحيم. كلّ شيء تحت وطأة اللون الرماديّ. صفوف البيوت بدت باهتة اللون في تلك الشوارع الخاوية، بين البساتين التي تعرّت من كلّ أوراقها وخضرتها. كان تومّازو يمشي، وغدا جلده لزجًا كأنّه خرقة مبلّلة بماء ساخن.

كانت الطرقات تتغلغل إلى وسط البلدة التي اصفرّت بأكملها،

وخلفها الهضابُ وأكوام القمامة، والكنيسة الخشبيّة الصغيرة.

ظهر من أحد تلك الطرقات رجلٌ كأنّه من السكّان الأصليّين، منتعلًا حذاء مطاطيًا مهترئًا، ومرتديًا بنطلونًا أمريكيًّا، عاري الصدر حاملًا كنزته بيده. وحينما اقترب، وهو يمشي تحت الشمس، عرفه تومّازو: إنّه زوكابّو، لقد أصبح سمينًا وانتفخ ذقنه، وشعره الذي كان كستنائيًّا دائمًا أضحى أشقر اللون يتلألأ تحت الشمس.

«أوه، من أين أتيت؟» سأله.

«أوه، ما الذي فعلتَ بنفسك؟» سأله تومّازو بدلًا من الردّ على سؤاله، وحدّق طويلًا إلى فروة رأسه.

«لقد صبغتُ شعري!» قال زوكابّو مقهقهًا «في بورتا بورتيزي» أضاف «كان هناك شابٌّ أشقر، يدعى روبرتو، من ماندريوني، كان شعره أشقر حقًّا، لامعًا كالذهب، وغرّته تصل إلى عينيه. أعجبني شعره، ياه، فصبغتُ شعري أنا أيضًا. لكنّي لست وحدي، رجاءً! كنّا قرابة خمسة وعشرين شابًّا، هناك، وصبغنا شعرنا جميعًا!»

«ممم، حسنًا» قال تومّازو «إلى أين تذهب الآن؟»

«إلى الاستحمام» قال زوكابّو.

احتار تومّازو قليلًا ثمّ اختتم قائلًا: «دعني آتِ معك، هيّا!»

كانا يمشيان نحو التجمّعات السكنيّة الأخيرة، قطعا شارع مونتيساكرو، ودخلا إلى وسط الريف.

كان كلّ شيء محترقًا هناك: الأعشاب مصفرّة، ولم يبق من الخضرة إلّا بضع أعواد قصب على امتداد النهر. الشجيرات وأشجار الخوخ والكرز كلّها باتت سوداء ومعوجّة وعارية الأغصان كما لو أنّها في

فصل الشتاء: لا ورقة تعلو أيًّا منها. احترق العشب المحيط بها، وبانت بقع الرماد السوداء من بين الأحراش المجرَّدة.

لا حياة على امتداد الحقول المتفحّمة، باتجاه ميسي دورو، ما عدا بعض الأولاد عراة الصدور مثل زوكابّو.

مشى الرفيقان يتحادثان بمواضيع عامّة، تناولت غالبيّتُها الأصدقاءَ المشتركين، إذ إنّ تومّازو الذي كان غائبًا منذ مدّة، لم يكن يعرف عنهم أيّ شيء. لم يعد أحد منهم، تقريبًا، يعيش في شنغهاي الصغيرة: استوطن قادمون جدد في الأكواخ، معظمهم قرويّون أفظاظ من بوليا وكالابريا، ينحدرون من أشدّ قرى الجنوب بؤسًا وخرابًا.

وأمّا ليلّو، فما زال يتسوّل الصدقة وسط روما؛ وأمّا الآخرون فكانوا جميعًا داخلين إلى سجن كويلي أو خارجين منه، بنسبٍ متفاوتة.

وكانا يدردشان ويدردشان حينما وصلا إلى جسر القناة، فنزلا على امتداد أعواد القصب وبلغا الضفّة الضيّقة.

وكانت تلك مزدحمةً بالأولاد العراة والسمر، ينغمسون في المياه ما بين الغائط، على الرمال المتّسخة. نزع زوكابّو بنطلونه، ثمّ حذاءه المطاطيّ فانبعثت منه رائحة مقزّزة وفظيعة.

«وماذا عن كاغوني؟» ما زال تومّازو يستفسر عن الرفاق ويتذكّرهم.

نظر زوكابّو في عينيه بتعبيرٍ ينمّ عن مفاجأة سارّة. «أتسأل عنه؟ ألا تعلم ما حلَّ به؟» سأله.

«لا» قال تومّازو.

«ألم يبلغك شيءٌ عن كاغوني؟» أصرّ زوكابّو وقد بات عاريًا تمامًا. «فاسمع إذن، فاسمع!»

وبينما كان ينزع جواربه، مستندًا بردفيه إلى الرمال القذرة، راح يروي عن كاغوني.

كانت والدة كاغوني، الملقّبة بالشمطاء، تبيع الهوى بالقرب من شيركي/منطقة السيرك. حدث الأمر منذ أربعة أو خمسة أعوام: كانت تلك المنطقة لها، تتمركز فيها كلّما عاد المساء وخيّم الظلام، وتبقى هناك حتى الترام الأخير، الذي يعيدها إلى ثكنات ساحة سان جوفاني دي ديو، ومونتيفيردي نوفو، حيث كانت تساكن قوّادها المنحرف. وثمّة زميلات قديمات لها، تتشاركن وحدة الحال: الملقّبة بالإسبانيّة، والملقّبة بالقبطانة، وماريزا. كنّ يتمركزن في الأعلى، بجانب الممشى الأركيولوجيّ، عند السور المهدّم والمطوّق لمنطقة شيركي؛ أو وسط المرج البيضويّ الكبير، عند المنحدر تحت ميدان رومولو وريمو، بين الأحراش الموحلة.

وكان الزبائن يأتون بالعشرات أحيانًا: ثمّة حقل صغير مُمَّهد نصفُه بالأسفلت، حيث يشغله الأولاد في الصباح للعب الكرة. كنتَ ترى القمصان البيضاء والكنزات تطوف هنا وهناك، وجمرات السجائر المشتعلة تومض في الظلام كالنقاط الحمراء: وإن كان القمر بدرًا حسِبتَ الدنيا نهارًا. فكان الفتية والشبّان والعساكر، وبعض العجزة السكارى أيضًا، يتجمّعون وسط الفسحات، يتنزّهون أو ينتظرون. تنسحب بائعات الهوى إلى ظلال المنحدر تحت الميدان، وهناك يُحدِثن فجواتٍ محفورة في الأرض قبالة الأنقاض. وغالبًا ما تقع مجازر: تأتي مجموعات من الشبّان، جائعين، متخلّفين، يبحثون عن الجرب، ولا يهدأ لهم بالٌ إلّا بمباشرة العراك بسبب أمرٍ تافه لا قيمة له، كالصبية

الصغار. وبما أنّ بائعات الهوى لا يفضّلن العنف، تندلع مشاجراتٌ لا تنتهي أبدًا. إلّا إذا قدمت القبطانة راكضةً ولاهثة في أوج المعركة وهي تصيح بمكر: «الحركة، الحركة!» مرادفًا لدوريّة بوليس. وأحيانًا تخفّف ظلّها فتضيف: «الحركة الاجتماعيّة!»، فينفضّ الجميع، ويولّون هاربين من جهةٍ ومن أخرى، عبْر الظلمة المضيئة، ما بين الأحراش الوعرة، باتجاه المنحدر.

وذات مساء شتويّ، بينما كان تومّازو في المستشفى بالضبط، قدم إلى منطقة شيركي شبّانٌ من شارع بورتوينسي، كانوا خمسة أو ستّة، لا أكثر. ركنوا درّاجاتهم الناريّة في الأعلى، خلف السور، وهبطوا إلى وسط شيركي، أيديهم في جيوبهم، يغرّدون كعصفور الخوريّ.

وكانت السماء قد أثلجت في اليوم السابق، فما زالت آثارُ بعض الكتل الثلجيّة المتّسخة ما بين صفائح الطين التي يبّسها الصقيع.

راح الرفاق يغنّون بأصواتٍ أقوى، ويحومون كالحشرات هنا وهناك، وقد أبهجتهم تلك الأجواء الميلاديّة، إضافة إلى وجود بائعات الهوى في عمق المكان. كان بينهم شابٌّ حليق الرأس كليًّا أو يكاد، وشعر عنقه منتصب، ووجهه يوحي بأنّه نزيلٌ لدى مصحّة ماريو مونتي للمجانين، يبثّ الرعبَ بمجرّد النظر إليه؛ وآخر أسمر ينحدر من عائلة شماليّة، وكان أكثرهم اضطرابًا لشدّة حيائه؛ والبقيّة كانوا صُهبًا والنمشُ يفرم وجوههم، شاحبةٌ بشراتهم بسبب البرد القارس، وربّما كانوا إخوة.

المجنون يدعى بوريتا، يرتدي معطفًا تصل أهدابه حتى كعبيه، وياقته معقودة الأزرار على عنقه. ارتسمت على وجه بوريتا هذا ملامح

رهيبة أكثر ممّا كانت عليه أساسًا، وصاح على حين غرّة: «احفظوا السرّ، ها!». أمسك ببعض الثلج وهرسه جيّدًا في قبضتيه ووضعه في جيب المعطف. تبعه الآخرون دون أن يستوعبوا ما الذي ينوي فعله، وتقدَّم إلى إحدى بائعات الهوى التي كانت تتسكّع على انفراد، حاملة حقيبة اليد، وسط منطقة شيركي.

تعامل معها بلباقة، وتحدّث عن الطقس، عن البرد، وسألها عن أجرها، وإلى ما هنالك من هذه الأمور الجميلة. ثمّ سألها ببراءة الأطفال على وجهه إن كانت تودّ أن تريه ما بين فخذيها لو سمحت. ألحَّ وتوسّل حتّى ضاقت به ذرعًا، فأرادت التخلّص منه سريعًا، فرفعت فستانها إلى ما فوق سرّتها.

فما كان منه إلّا أن أخرج الثلج من جيوبه، قبل أن يذوب كلّيًّا، ودسَّه أسفل بطنها الأسود كبوّابة الجحيم.

همَّت بائعة الهوى بالزعيق مثل المجنونة، بسبب الصعقة والغضب، بينما كان رفاقه يرتمون أرضًا وتتفتّق أمعاؤهم من الضحك. وبما أنّ الأمر أمتعهم، راحوا يتجوّلون في أرجاء شيركي لتكرار المقلب مع بائعات الهوى الأخريات، وعلى رأسهم الشمطاء. وحين لم يعد هناك ثلج، انصرفوا.

ثمّ عادوا بعد خمسة أو ستّة أيّام، ركنوا درّاجاتهم في المكان المعتاد، واتّجهوا نحو المرج.

وكان الثلج قد ذاب برمّته. وبدا الطقس فاترًا كأنّه في الربيع. حتى إنّ بوريتا لم يكن متدثرًا بمعطفه، ولم يكن يرتدي سوى كنزة وشالٍ من باب الأناقة.

هبطوا وهم يغنّون ضاحكين. خطرت في ذهن بوريتا فكرةٌ على حين غرّة، كما في المرّة السابقة. تدرَّعَ بقناع البراءة، الذي يلجأ إليه كلّما اتّخذ قرارًا لا طاقة للمسيح على اتّخاذه، وقال: «أوه، ابحثوا عن قطعة كرتون، متينة، مثل كرتون العلب، ها!»

غمغم الآخرون بالشتائم وهمّوا بالبحث عن قطعة الكرتون. وسرعان ما وجدوها، إذ إنّ روما تعجّ بالورق المبعثر. كانت القطعة على طلبه تمامًا، من كرتون العلب. سوّاها بوريتا جيّدًا لأنّها كانت مجعّدة، ونفض عنها الغبار، وسطّحها على الأرض. بعد ذلك، أرخى حزامه وأنزل بنطلونه، وقرفص على الكرتونة وأخذ يتغوّط بكلّ هدوء. سدّ الآخرون أنوفهم وعيّروه بالقذارة والنجاسة، وانفضّوا هنا وهناك ينتظرون. وحينما انتهى، صنع بوريتا من الكرتونة علبة صغيرة، ولم يضعها في جيبه هذه المرّة، بل أخفاها خلف ظهره، ومشى بخفّة نحو بائعات الهوى.

وكانت الشمطاء أولى مَن وقعن في طريقه. تخيّلْ أن تتذكّره وهي التي يمرّ عليها العشرات في غضون يومين. أخذ بوريتا يتحسّس جسمها بيده، مدّعيًا بأنّه ينوي القيام بالأمر جدّيًّا معها، فإذا به يباغتها ويرفع تنّورتها ويصفع الكرتونة على جلدها بقوّة، ويلطّخها بالخراء من رأسها حتى أخمص قدميها المبرومين بالجوارب الحريريّة. بدأت الشمطاء تولول بفمٍ ملآن، وكادت تسقط أرضًا من التقزّز. فرّ الشبّان وعلى رأسهم بوريتا وهم يتمزّقون ضحكًا، وملأوا المنطقة بالقهقهة حتّى اختفَوا نحو إدارة النفوس، واختلطوا بالدرّاجات الناريّة.

وبعد أسبوع، عادوا مرّة أخرى. كأنّهم اعتادوا الأمر. تغوّط بوريتا مجدّدًا على كرتونة، وصنع منها علبةً أخفاها خلف ظهره متبوعًا

بالآخرين الضاحكين، وراح يبحث عن ضحيّة. إلّا أنّ السادة المهذّبين، كان هناك مَن ينتظر قدومهم إلى شيركي في تلك المرّة. كلّ القوّادين اتّحدوا ليعدّوا لهم كمينًا في تلك المروج، على مدار خمس ليالٍ، إذ تركوا مواقعهم في الميدان، وتواروا عن الأنظار ليختلطوا بجموع الزبائن الآتين والمغادرين. كان معهم جوفاني باتاكيولا، قوّاد الشمطاء، لا بل كان يترّأسهم بالفعل من حيث المبدأ، طالما أنّ الشمطاء هي التي أكلت المقلب مرّتين. وهكذا، عندما اقترب الدفّانون الأربعة إلى إحدى بائعات الهوى في وسط المروج، انتفضت في وجوههم على الفور، ولوّحت بحقيبتها عاليًا وصاحت باللعنة على أمواتهم. فوجئ الأربعة بهذا الاستقبال المباغت. تسمّر بوريتا في مكانه، وعلبة الخراء بين يديه، ينظر إليها بعينيه الممسوستين ووجهه المجنون. وفي الأثناء، برز القوّادة من عتمة المنحدر، وتقدّموا على قلب رجلٍ واحد، يتبعون الشمطاء وبائعات الهوى الأخريات اللواتي يولولن كالدجاجات.

وسرعان ما انقضّ باتاكيولا على بوريتا، فوقعت العلبة أرضًا، وانفتحت لتبوح بمحتواها بين أقدام الخصمين. ولا داعي لمزيد من الشرح، لكنّ بوريتا ليس من النوع الذي يستسلم فورًا، فبدأ الاثنان بالعراك. بل فتحا المعركة لينخرط فيها الجميع ويتقاتلوا. تحطّمَ فكُّ الأسمر الشماليّ فبصق دماءه وأسنانه؛ أمّا الشقيقان الأصهبان حاولا الفرار فلم يجنيا سوى عاقبة وخيمة، وخرجا من المعمعة بأعينٍ منفوخة وأضلاعٍ مهشّمةٍ بأعنف الركلات. بوريتا لم يكن لقمةً سائغة: تلقّى لكمةً من باتاكيولا أودته أرضًا فاستلقى على الطين متظاهرًا بالإغماء؛ وما إن استدار القوّاد لينال من الآخرين، انتفض بوريتا على

قدميه واستلّ خنجره وغزَّ باتاكيولا بخمس طعنات في ظهره ليسقط الأخيرُ على الأرض وهو يكيل اللعنات.

أثناء الفترة التي قضاها القوّاد في المستشفى، ومن ثَمَّ في السجن، فكّرت الشمطاء أن تضرب عصفورين بحجرٍ واحد؛ يعني أن تهجر قوّادها وابنها كاغوني في الآن ذاته.

وفي ليلة معركة السكاكين في شيركي نفسها، حين سقط القوّاد وفرَّ الجميع واحدًا من هنا وآخر من هناك، لم تركب الشمطاء الخطّ 13 المتوجّه إلى مونتفيردي، بل اختارت الخطّ 23، ثمّ الترام، ووصلت إلى بونتي ميلفيو.

هناك، تحت الجسر الجديد، ما بين نهر التيفر وفيلا غلوري، ثمّة قريتان من الصفيح، إحداها أكبر من الأخرى التي بدت أليس في بلاد العجائب حقًّا، بأكواخها الكثيرة والمتنوّعة: منها الدائريّ ومنها مدبّب القمّة. كما أنّ بعضهم استوطنوا عربة شحن، وآخرون سكنوا سيّارة، واحدة حمراء وأخرى زرقاء، مبعثرة هنا وهناك بين الحصى وأكوام الزبالة. وفي أحد تلك الأكواخ، تسكن صديقةٌ قديمةٌ للشمطاء، إذ كانتا ترتادان مدرسة الرهبنة ذاتها في صغرهما. وكانت الصديقة تقول لها منذ زمن بعيد: «تعالي إليّ، مَن يمنعكِ عن ذلك؟ هل تؤسفكِ حياةٌ أفضل؟». فاغتنمت الشمطاء الفرصة وذهبت للمكوث عند رفيقتها هذه. وعندما أقامت هناك، عادت للدعارة خلسةً في تلك الأرجاء، في شارعِ فلامينيا وبونتي ميلفيو وأكوا أشيتوزا...

مرّ أسبوعٌ، وشهرٌ، حتى جاء اليوم الذي عاد فيه القوّاد إلى الحياة. أجرى أبحاثه بهدوءٍ ورويّة، وسأل عنها هذا وذاك، كلّهم من المنحرفين،

واتّفق مع قوّادٍ أسّس ثروةً واشترى سيّارةً يقودها في أنحاء روما، وأرواحًا مباركة. إلى أن حانت اللحظة ذات مساء وقدم إلى كوخ صديقة الشمطاء: كانت في تلك الساعة في الخارج تبيع لحمها. لكنّه جلس ينتظرها تحت سقف المدخل، بين ثلاث مزهريّات، يدخّن في الظلام. وعندما بزغت أولى خيوط الضوء، عادت الشمطاء محطّمة العظام تعرج نحو الكوخ، وكانت مرهقةً لدرجة أنّها لم تره أمام الباب؛ أو ربّما بسبب الشمس التي كانت في ولادتها تبهر الأبصار، وترفرف بأشعّتها بين الأعشاش والأشجار. نهض واستلّ سكيّنه، وزمجر على حين غرّة كالوحوش، وذبحها بعشر طعنات أو اثنتي عشرة طعنة في بطنها.

وهكذا فقدَ كاغوني كلَّ أمل. لم يكن لصًّا محترفًا على الإطلاق؛ إنّما كانوا يصحبونه معهم في بيترالاتا بصفة مراقبٍ وخبيرٍ مخضرم. ولطالما كانت الغارات محدودة، لا يجنون منها إلّا القليل، وما أكثر الكلاب على تقاسم العظْمة!

فضلًا عن أنّ كاغوني مريض، ولعلّه كان مريضًا من الأساس، لكنّه آنذاك تردّت حاله فبات يقضي طيلة نهاره في المرحاض. إضافةً إلى الإسهال وداء المعدة، كان يعاني من مرضٍ آخر، لم يستطع تعلُّم اسمه جيّدًا، يصيبه بانتفاخات متفاقمة، كما لو أنّ هناك تسرُّبًا للغاز تحت جلده. فتارةً ينتفخ عنقه، وتارةً تنتفخ شفته، وجفنه تارةً أخرى. تساقط شعرُه كلّيًا تقريبًا، من ناصيته، ولم يتبقّ له سوى زغبٍ مجعّد على عنقه. ومنذ أن لاذت أمّه بالفرار، وقطعت عنه الموارد الماليّة، صارت الأيّامُ التي يأكل فيها أقلّ بكثير من تلك التي لا يتناول فيها شيئًا. ففي النهار يُحصِّل وعاءً من الحساء من عند الخوارنة؛ وفي

المساء يتسوّل هنا وهناك. وحين يتوافر لديه بعض المال، عشرون ألف ليرة أو ثلاثون ألفًا أحيانًا، ينفقها كلّها في ليلة واحدة، مع إحدى بائعات الهوى.

وذات يوم، اختفى كاغوني، ولم يظهر حتى في اليوم الثاني، وفي الثالث لم يصادفه أحد في الطريق. حتى إذا جاء اليوم الرابع، استفقده بعض الأصدقاء الذين كانوا يخطّطون للسطو على محلٍّ فاخر: متجر أقمشة في براتي؛ فذهبوا يبحثون عنه. دخلوا الكوخ في شارع ميسي دورو حيث كان يقيم، فاصطدمت أنوفهم بحذائه. كان قد شنق نفسه بحبلٍ معلّقٍ على إحدى عوارض السقف، واستغرب الجميعُ كيف استطاعت تلك العارضة البالية أن تحتمل وزنه الثقيل مدّة ثلاثة أيّامٍ بلياليها، ولم يجدوا تفسيرًا لذلك.

ربط زوكابّو ثيابه بالحزام وهو يتثاءب، ورماها على كومة الملابس لينطلق فورًا نحو مِنَصَّة القفز وهو يصفِّر كرعاة الغنم. أمّا تومّازو فلم يستجمَّ بالماء؛ وبينما كان زوكابّو يسبح، بقي هناك قاعدًا على الرمل ومستندًا بظهره إلى الحائط المجاور للضفّة المليئة بالجذور المتيبّسة، يتفيّأ بالظلّ.

كان محاطًا بأعواد القصب اليابس. ويابسةٌ هي سيقانُ الأزهار، الطويلة مترًا وأكثر، والمغروسة في أنساقٍ مرتّبة، من الجهة الأخرى، قرب المياه. كانت كلّها مسودّة ومؤكسدة، تتذرّى بمجرّد لمسها، لتستحيل رمادًا، أشبه بالورق المحترق.

وفي وسطها ثمّة أزهار مرتّبة في نسقٍ داخل النسق الأكبر: ورودٌ بيضاء، ثخينة كالقبضات، وسيقانها مترعزعة، تتقصَّف بمجرّد النفخ

عليها. ولم يتبقّ منها إلّا هيكلها، إذ تساقطت تويجاتها البيضاء أرضًا، على العشب المكسوّ بالرمل والقاذورات. ومن الواضح أنّه عند أحد الحواجز، في الجوار، التهمت النيران كومةَ تبنٍ وجانبًا من المرجِ ونبتةً، فتفحّمت وأمست غبارًا أسودَ؛ ثمّ هبّت الريح فنقلت ذلك الغبار إلى هنا وهناك، ووسّخت كلّ شيء: فحيثما وضعتَ يدك، رفعتَها سوداء.

كان ذلك الغبار يغطّي كلّ شيء: أكداس الأزهار المتيبّسة، وتويجاتها البيضاء المتساقطة، ونبتة القرّاص، والعشب الذي يبرز خلال الصيف في كلّ مكان، يزحف كالأفاعي، يابسًا وعفنًا، إضافة إلى أكوام القمامة، والمرطبانات وعلب الأدوية المقلوبة، ورغام الطين، والخراء؛ كلّ شيء غارقٌ بين تلك الأجمات، يلتهب تحت سعير الشمس، ويزداد اسودادًا. فإذا ناديتَ سبتمبرَ لبّى النداء.

وكان تومّازو يحاول أن يغفو قليلًا، ريثما يعود إلى شعبة الحزب، لكنّه أخفق في ذلك بسبب الشمس التي تحرق الدماغ. ولم تعد الساعات تمضي بسرعة. وما زال قلبه يخفق بشدّةٍ متصاعدة كلّما فكّر في تقديم نفسه للرفاق في شعبة بيترالاتا: بدا له من المستحيل ألّا يستقبلوه بحفاوةٍ وأذرعٍ مفتوحة، أعزّ من أخ.

لم ينزع حذاءه الذي امتلأ بالرمل والأوساخ. وكان الجميع حوله يسبحون في مياه الشحوم السوداء، التي تتخلّل خيوطُ البصاق تيّارَها من حين لآخر.

كانوا يزعقون كالمعاتيه، ويتشاجرون، الصغار في العمق، عند المنعطف، تحت قصبتين مبرومتين، والكبار مثل زوكابّو بين أكوام الثياب المربوطة بالأحزمة. ثمّ راحوا يلعبون الورق قاعدين أسفل المنحدر.

انضمّ تومّازو أيضًا إليهم: زوكابّو، بروكلين ودروغا. هذا الفتيان مصابان بلوثة دماغيّة، لا تساعدهما حتى على الوقوف على الأقدام، وكان البصاق ينتر منهما حين يتكلّمان، وبالكاد يهجّؤون الحروف، بفمٍ يلوك اللعاب، وعينين ممسوستين. لعبا عدّة مباريات من لعبة زاكينيتا ريثما باشرت الشمس هبوطها.

ثمّ ظهر أحد الشواذّ في الجانب الآخر من الضفّة، وراح ينظر إليهم. كان الفتيان يعرفانه، وزوكابّو أيضًا. غطسوا في الماء واتّجهوا إلى الجانب الآخر، ليسرقوا منه المال.

وصل تومّازو ثانيةً إلى الشعبة قبل الأوان. لكنّه انتظر هناك. ما من أحد، حتى برسيكيني قد غادر، لكنّ الباب كان مفتوحًا، وبالفعل تناهت إلى مسمعه همهماتٌ صادرةٌ من المقصف خلف الباب المحطّم. دخل تومّازو، وجلس على مقعد صغير، وحيدًا مع الراية الحمراء، وأخذ يتصفّح الجرائد التي كانت مكدّسة على الأرض فوق الغبار.

لكنّه لم يستطع التركيز في القراءة، لأنّ تلك الأصوات كانت تشتّت انتباهه. ولم يميّزها جيّدًا إذ إنّ في أحد الأكواخ المجاورة خنازيرَ تُخنخِنُ، فيمتزج شخيرُها مع الأصوات.

نهض تومّازو، وذهب للجلوس بجانب الباب ليسترق السمع. وبدأ يستوعب قليلًا. ثمّة صوتٌ خشنٌ لرجلٍ مسنٍّ ومخمور يقول: «لا بدّ لنا أن نموت لكي نولد من جديد! إيه، على أيّامي، أيّام بونتي، كان هناك حياة! عندما كنت في العشرين من عمري، لم أكن مكبّلًا بالقيود!».

وقال آآآآه مثلما نشهق بعد أن نشرب النبيذ من الكأس، واستأنف: «في الماضي، كان يكفي أن يكون للمرء عشرون عامًا كي يستكشف العالم،

أمّا أنتم الآن فلن تكفيكم حتّى ستّون سنة لذلك! انظروا إلى آثار الطعنات التي تلقّيتها على جسدي، انظروا!»

لكنَّ صوتًا أكثر شبابًا أنّبه متعجّلًا: «أما زلت تتحدّث أيّها الميّت؟ هيّا، فلندخل في الموضوع!»

صمت الرجل الذي كان يتحدّث قبل قليل نهائيًا. صوته يدلّ على أنّه دي نيكولا، متقدّمٌ بالسنّ، في الخمسينات من عمره، يعرفه تومّازو منذ وقت طويل، منذ أن كان صغيرًا. «إيه يا شباب» قال دي نيكولا بصوت منخفض «فليكن واضحًا أنّني ما كنتُ لأفعل ما أفعله إلّا من أجلكم... لأنّكم عاطلون عن العمل، ولا بأس بخمسة آلاف ليرة تضعونها في جيوبكم! ولكن، لا أريد أن تفوح الرائحة في الغد وينكشف اسمي، ها! مفهوم؟ إلّا هذه!»

ردّ عليه صوتٌ صاعدٌ من المقابر، صوت كاتزيمبريو، الذي كان لديه سِنّان في فمه كأنّه عجوز ذو مائة عام: «وكيف سيكتشفون الأمر؟ ما بك، هل يطيب لك المزاح الآن؟ ثمّ حتى لو اكتشفوا، سيقع اللوم على شخص واحد، لا على أربعتنا، ها!»

«ومَن سيتحمّل المسؤوليّة؟»

كان هذا صوت ديلي فيوريلي، الشبيه بصوت الغراموفون المحطّم، عميقًا مدويًّا.

وما لبث أن ردّ كاتزيمبريو بلعابه: «مَن يتكبّد أقلّ الخسائر، هذا واضح، أليس كذلك؟ فلا يمكننا التضحية به...» كان يشير إلى دي نيكولا بالتأكيد «...أو بي! واحدٌ منكما! ما الذي ستخسره في أسوأ الأحوال؟ أصعب عقوبةٍ قد تتلقّاها هي ألّا يسمحوا لك بالمجيء إلى هنا.

وما همُّك! الآخرون يفضِّلون السكوت، إذ ليس من مصلحتهم اختلاق فضيحة مع الحزب!»

«أوه، على رأي المثل» قال ديلي فيوريلي «نعمةٌ وتزيدْ ونحن نستفيدْ». ثمّ أضاف نافد الصبر: «هيّا! كم غنمنا من القنص ليلة أمس ؟»

«مائة بطاقة، عشرون ألف» قال صوت الرجل الرابع الذي كان معهم، والذي لم يستطع تومّازو تحديده. «ها هي الحصيلة، كما تعلم! لم يكن بالإمكان سحب أكثر من ذلك!»

«لا بدّ أنّه الذي يسرق البطاقات!» فكّر تومّازو.

ساد الصمت هناك: كانوا يتقاسمون الغنيمة ساكتين، كلٌّ ينظر إلى نصيبه من النقود المنهوبة.

«ما الذي يفعلون؟» فكّر تومّازو «البطاقات؟ أيُّ بطاقات؟ يختلسون من بطاقات الرقص! آه، أجل، واضح، بطاقات اليانصيب... ديلي فيوريلي يمرّرها لهم من تحت الطاولة عوضًا عن إتلافها... مفهوم، يا له من يهوذا، كلٌّ واحد منهم يدسّ في جيبه خمسة آلاف!»

وما زال الصمت مخيِّمًا عليهم، يستنفدون وقتهم في القسمة. وكان قباع الخنازير يعلو خلف الحائط، في البيت المجاور، مع صيحات الأولاد الذين يلعبون بين الأكواخ في ذلك الطقس الساخن.

استأنف دي نيكولا الكلام: «يا شباب، كما قلنا، ثمّة خمسة آلافِ للفرد الواحد كلّ أسبوع، ومع نهاية الشهر تصبح عشرين ألفًا. فخامة... أدفع إيجار البيت! ثمّ نضيف أشياء أخرى نصادفها. والآن فلنضع هذا النبيذ...»

«كم لترًا تستهلك في اليوم هنا؟» طرح صاحبُ البطاقات سؤاله الباهت على كاتزيمبريو.

«مائة لتر، برميلان» ردَّ بنبرة حزينة وصوت رقيق «تقريبًا...». ثمّ أردف مغمغمًا بكلّ ما لديه من يأسٍ واهن: «لا أربح شيئًا هنا!»

«كيف لا؟» ألحَّ ديلي فيوريلي «ها أنت تحصل على خمسة آلاف، صحيح؟ إلّا إذا كنتَ تريد لي وله أن نتغوّط بثيابنا وأنت لا! سخافات، لا تروقني البتّة. كلا، كلا! ينبغي لك أن تتعب كثيرًا للحصول على المال. كثيرًا ها كثيرًا!»

تدخّلَ دي نيكولا لإقناع كاتزيمبريو برفق: «لماذا؟ ما الذي يضرّك إن سحبنا خمسة آلاف أخرى في الشهر؟ فنحن أيضًا بوسعنا أن ندفع أربعين ليرة على اللتر، لهؤلاء الأوغاد، على نفقة الحزب... هذا هو عملي! كلّ ما يتوجّب عليك فعله هو أن تضع النبيذ هنا في الداخل! وعندما تضع ألف لتر من نبيذنا على الثلاثة آلاف لتر شهريًا، فأنت تعلم كم الناتج!»

«اللعنة عليهم» قال تومّازو في نفسه «إنّهم لا يتورّعون حتّى عن بيع صليب المسيح!»

دخل برسيكيني، الذي رآه في منتصف النهار، وكان آنذاك يلهج بمشاغله، مسوَّد الوجه، وعيناه باهتتان وواجمتان، وله سنٌّ ذهبيّ في فمه الموارب، وكان يلقي نظرة في المكان.

لمح تومّازو، فقال له وهو ينكبّ على العمل بسرعة، ومن دون أن ينظر إلى وجهه: «ساعدني على ترتيب المقاعد من أجل الاجتماع!»

لم يؤاخذه تومّازو على نبرته الفظّة، لأنّه كان يعلم أنّها ضروريّة في

حالاتٍ كتلك، فهبَّ لمساعدته فورًا. اتّجه إليه وأخذ يحمل المقاعد التي كانت مكوّمة بعضها فوق بعض في المكتب والمقصف، وينقلها إلى القاعة الكبرى. رتّباها بصفوفٍ أمام المنصّة، وبدأت الناس تتوافد بالفعل.

كانوا ينتظرون عند المدخل، يتفيّؤون بالظلّ وهم يتصبّبون عرقًا.

ثمّ جاءت مجموعة صغيرة، من أهالي البلدة، صحبة المدراء. كانت الغاية من الاجتماع تعميمَ الأخبار، والتحضيرَ لحفلة الاتحاد في بيترالاتا: لذا جاء الشبّان والكهول على حدٍّ سواء. وكان هناك مسؤول المكتب الصحفيّ والإعلاميّ لدى النقابة أيضًا. جاء، دخل، فتبعه الجميع بهدوء، وهم يمسحون عرقهم. احتشدوا في الداخل، وما زالوا واقفين، فانبعثت رائحةٌ كريهة تقطع الأنفاس شيئًا فشيئًا من ملابسهم المغبرّة والمتعرّقة.

«مَن هو ذلك الرجل الذي هناك؟ هل عليَّ أن أتحدّث إليه؟» سأل تومّازو برسيكيني، وهو يشير إلى شخصٍ بدا له أنّه أمين السرّ من كلّ بدّ، طالما أنّ الجميع يحيط به. يدعى باسالاكوا، وكان تومّازو يعرفه منذ زمن بعيد.

«ألا تراه؟» قال برسيكيني.

«هل أستطيع أن أتقدّم إليه؟» سأل تومّازو وكان اللعاب يفيض في فمه.

«وهل تريدني أن أدفعك نحوه؟» قال الآخرُ بنبرته الفظّة إيّاها إذ كان يهجس بأشياء كثيرة مختلفة. أراد تومّازو التوجّه إلى باسالاكوا هذا، لكنّ دي نيكولا تجسَّدَ أمامه في تلك اللحظة، ولا بدّ أنّه أراد تقبيل قدميه والتملّق له، ومَن يدري كم من الأكاذيب يرويها على مسامعه،

فأصيب تومّازو بالدهشة.

وما لبث أن بدأ النقاش وجلس الجميع على المقاعد. وتوجَّبَ على تومّازو أن ينتظر حتى النهاية، واقفًا هناك منعزلًا.

ظلّ مستندًا إلى الجدار، يجول بأبصاره على الحضور أثناء بداية الاجتماع، وكان مسؤول النقابة يهيّئ خطابات الآخرين.

إيه، كان تومّازو يعرف دي نيكولا جيّدًا، والآخر أيضًا، صاحب البطاقات، المدعو دي سانتو، الذي كان جالسًا على المقعد بجانب كاتزيمبريو. أمّا دي نيكولا فقد جلس بين الشبّان الذين كانوا ينتظرون بذقونهم المدبّبة وفارغ الصبر أن يحين دورهم للحديث عن الحفلة والرقص.

«أعرفك، أعرفك!» كان تومّازو يفكّر وهو يسدّد نظرةً ماكرة نحو دي نيكولا الجالس على مقعده، بريئًا كالنبيّ صموئيل، بقميصه المخطّط كرقعة الشطرنج على كرشته السوداء. «ما أشطرك يا رجل!».
كان تومّازو قد عرفه منذ ثلاثة أو أربعة أعوام، خلال عملٍ مع الفلاحين للمفارقة. كان دي نيكولا قد اقترض مبلغًا واستأجر شاحنةً ليذهب إلى شيستيرنا، حيث اشترى حقلًا كاملًا من البطيخ، على حاله، من خلال القرض أيضًا. أخذ معه تومّازو وثلاثة أشقياء كانوا يلعبون الكرة عند جبل بيكورارو، إذ لم يكلِّفوه إلّا أجرًا بخسًا. وصلوا إلى شيستيرنا، وتوجّبَ عليهم القيام بكلّ شيء: جمع البطيخ من الحقل، ونقله إلى الشاحنة، ووضعه فيها. ثمّ الذهاب إلى روما على جناح السرعة. وكانوا أثناء المشوار، متنقّلين من بلدة إلى أخرى، يرمون أنصاف البطيخ خلف الفتيات، ويلهون برؤيته ينفجر على الأسفلت. وصلوا إلى روما، وذهبوا

إلى السوق، إلى ساحة كوادراتا، وساحة فيتوريو، وأينما استطاعوا. كانوا يفرّغون الشاحنة من البطيخ تمريرًا من يدٍ إلى يد، ثمّ يكوّمون بعضه على بعض، ويحرسونه طوال الليل، صحبة إحدى بائعات الهوى. وفي الصباح الباكر، عند طلوع الضوء، يبدؤون البيع وحناجرهم تتمزّق من شدّة الصياح: «شبَّ حريقٌ في المريخ! البطيييخ، البطيييخ!» بينما دي نيكولا يراقبهم ويعبُّ النقود لنفسه.

أمّا دي سانتو فقد تعرّف عليه بطريقة أخرى. كان تومّازو ما يزال طفلًا، بالقماط أو يكاد. جُرِحَت رأسُه وكان يبكي داميًا في إحدى زوايا البلدة. مرّ دي سانتو من هناك، فحمله وأخذه إلى الإسعاف، وهو يصيح على الآخرين الذين كانوا يتابعون المشهد بلا مبادرة: «ما بكم؟ هل ستتركونه يموت نازفًا؟ تعالوا إلى هنا أيّها الأولاد!». «فلننقله إلى المستشفى!» قال أحد الفتية الذي تملّكته السعادة لرؤية هذه الحالة الطارئة. «مستشفى، أيُّ هراء هذا! سننقله إلى الإسعاف!» قال دي سانتو بفمٍ مكشّر. أخرج منديلًا ولفّ به رأس تومّازو، ودفعه بيده على كتفه، وانحنى إليه بين الفينة والأخرى ليقول له: «كيف الحال؟ أما زالت توجعك؟ ها؟ أما زالت توجعك؟»

«أجل، أجل» كان تومّازو يفكّر وهو ينظر إلى الرفيقين، ويداه في جيبه. جميع الحاضرين تقريبًا هم معارفه القدامى، بوجوههم المصعوقة بالمسدّسات وثيابهم المتّسخة بالعفن والعبقة برائحة السجائر.

إلّا أنّه كان يسلّط جلَّ انتباهه على أمين الشعبة، الجالس بجانب الشاب الذي يسترسل في مداخلته.

«لو كنتُ أعرفك لصدَّقتُك!» قال في سرّه، بابتسامة ثعلبٍ عجوز، رقيقةٍ وودّية تحت عينيه اليابستين. ما زال يتذكّر المشهد كأنّه يحدث الآن: اللطمات التي تبادلوها، آه! الدوشة التي أحدثوها! شيءٌ لا يليق إلّا بتمرُّدٍ في مأوى العجزة، ولا ينفّذه إلّا السكارى الهرمين. حدث الأمر ذات أمسيةٍ كتلك، من أمسيات أغسطس الساخنة، حيث يبدو الليل نهارًا. إذ كان القمر كالحريق، متّشحًا بالبنفسجيّ، ويصبغ كلَّ شيء تحته بالبنفسجيّ: الغبار والقمامة وأكواخ الصفيح. الناس يتنزّهون شبه عراة في الهواء الطلق. والعالم يبدو موئلًا للغجر، في العشوائيّات والمروج العتيقة. الأبواب والنوافذ، كلّها مفتوحة على مصاريعها، والقطعان واضحة للعيان: هناك مَن يضحك، ومَن يبكي، ومَن يحتفل في كوخ، ومَن يسلِّم الروح في كوخ آخر؛ ومجاميع الشبّان في كلّ جهة يتنزّهون ويغنّون، بملابسهم الداخليّة التي ترفرف فوق بنطلوناتهم.

كان العجزة جالسين تحت العريشة، خلف أعواد القصب وفي الحانات؛ وباسالاكوا معهم.

كان يهذر مع فلّاحٍ عجوز عن البهائم، لأنّهم زميلين في مهنة جرّ العربات؛ وكان كلٌّ منهما يمتدح دابّته بأنّها الأقدر على جرّ العربة المليئة بالأنقاض خلال الدرب الصاعد في المنطقة المنكوبة حيث يعملان. ومن كلمةٍ إلى أخرى، وبشكلٍ تدريجيّ، احتدم النقاش بينهما، بتأثير النبيذ الذي كانا يجترعانه، فثارت أعصابهما ودخلا في مشاجرة.

بدأت المعركة داخل الحانة، وعبثًا حاول العجزة حولهما أن يحجزوا بينهما، لأنّهم كانوا مخمورين أيضًا. وفي حين بدا أنّهما توقّفا عن العراك، فإذا هما يخرجان وتتبعهما كلّ الشلّة، الشائبين

والصلعان على حدّ سواء: واستأنفا الشجار عند باب المدخل، تحت الضوء الكهربائيّ المتلألئ تحت القمر.

وبسبب الثمالة، كانا يتعاركان على ومضات، مأخوذين بنوبات الغلّ، لكمةٌ لهذا على بطن ذاك، ورفسةٌ لذاك على أسفل بطن هذا.

وهكذا، ما بين ضربٍ وصياح، تنقّلا هنا وهناك، يتبعهما الآخرون محاولين التفريق بينهما وحضّهما على إنهاء المشكلة.

فابتعدا خلف هضاب الريف، باتجاه نهر الآنييني، ثمّ عادا مرّة أخرى نحو الحانة.

توافد مزيدٌ من الناس، شبّانٌ وأولاد، للتمتّع بالمتابعة المرّة، يتراكضون هنا وهناك، بحسب تنقُّل الخصمين، كأنّهم حفنةٌ من الأوراق اليابسة التي تتقاذفها الريح كيفما مالت، أو مثل سربٍ من العصافير. وكان تومّازو بينهم، شبه عارٍ هو أيضًا، ومسمرَّ البشرة كأهل الأندلس.

وبدا أنّ الرجلين سئما، فتباعدا قليلًا، كلٌّ عند أصدقائه الأقربين، بوجهٍ يتضرَّج احمرارًا كالدماء، وأسنانٍ مكشوفة تبرز من اللحية الكثّة والرماديّة. وفي لحظةٍ ما، انتفض باسالاكوا وركض كالممسوس نحو الحانة: ثمّة سياجٌ يطوّق المكان، ومكوّنٌ من عوارض شبه مقتلعة ومتآكلة. التصق بإحداها وظلّ يخضّها حتى انتزعها من جذرها. وراح يلوِّح بها كيفما اتّفق، فانفضّ الجمع من حوله إلى هنا وهناك. بل وحتّى الحوذيّ الآخر بدا أنّه يفرّ بجلده ويجرجر ذيل العار. إلّا أنّه هرع إلى داخل الحانة وسرعان ما خرج حاملًا كرسيًّا بيديه، وجعل يلوِّح به يمنة وشمالًا، كالمجنون هو أيضًا. وما بين كرٍّ وفرّ، تلاطم الحاضرون حولهما بما يشبه الموكب المتنقّل، تارةً نحو هذا، كرررر، وتارةً نحو

ذاك، فرررر، يحاولون إيقافهما من جهة، ويتلهّفون لمشاهدة اللحظة الشائقة التي يهشّم فيها أحدهما رأس غريمه.

وفي خضمّ تلك الأثناء، رأى تومّازو كومة من الثياب على الأرض: سترة باسالاكوا وقبّعته. انحنى، نظر حوله، أمسكها وهرب بعيدًا.

غير أنّ أحد الموجودين قرب الباب كان يعرفه، ولمحه. وحينما تنزّلَ السلامُ على المتعاركين، أخبر الرجلُ باسالاكوا أن يذهب ويبحث عن ثيابه: «سرقها ابن توركواتو!». فاتجه باسالاكوا صحبة الرجل إلى كوخ تومّازينو. كان الولد في الداخل، وأمّه في الفِناء. «هل ابنكِ هنا يا سيّدة؟» سألها باسالاكوا بعينه المنفوخة كالباذنجان «لقد أخذ سترتي وقبّعتي!»

تنبَّه تومّازينو إلى الأصوات في الخارج، فأطلّ برأسه والثياب بيديه. «لقد رأيتها على الأرض» قال ببراءةٍ مطلقة توحي بأنّه طفلٌ مهذّب «وكنتُ أعلم أنّها لحضرتك. ثمّ رأيتُ تلك اللكمات فخفتُ، وحملتُ الأغراض إلى هنا!»

«أحسنتَ صنعًا، أحسنتَ صنعًا!» أثنى عليه باسالاكوا. لا بل أعطاه خمسمائة ليرة، وأراد أن يصحبه للشرب معهم تحت أيّ طائل: «لا تخف!» قال له «كنّا نمزح! هيّا، تعال وانهل دمعةَ خمرٍ معنا! اشربْ عليها تنجلِ!»

وآنذاك كان جالسًا هناك، منشغلًا بأعماله، بجانب الشابّ المسؤول عن المكتب الصحفيّ للنقابة، الذي كان ساكتًا حينها، يصغي إلى مداخلات الآخرين. حان موعد النقاش بشأن الحفل والرقص: فجاء دور الشبّان. أحدهم قال شيئًا، وآخر قال شيئًا مختلفًا، وإلى ما

هنالك من ترّهات. لكنّ ذلك الشابّ ظلّ يصغي إليهم باحترام، معبّرًا عن اهتمامه. كان يصغي ومرفقاه مسنودتان إلى المنضدة، مركّزًا انتباهه على الكلام، وعيناه صافيتان، تكادان تبيضّان من شدّة زرقتهما. وكان يبدو أنّه متين البنية، بمنكبيه العريضين، لكنّه كان خجولًا، فإذا تكلّم تردّد، حتى لو تفوّه بمجرّد نكتة مبهجة، آنذاك وهم يتناقشون حول الرقص، لمع في عينيه بريقٌ حزين، مرتابٌ وطفوليّ.

«اشرب أيّها الوغد، اشرب!» فكّر تومّازو في نفسه وهو يرنو إليه «فإنّ هؤلاء يسمعون كلمتك! ولكنْ ما يهمّك أنت؟ يكفي أن يغمروك بالتصفيق في النهاية، فهذه أكبر فائدةٍ تُرجى منهم!»

أحد رفاق ديلي فيوريلي أجرى مداخلة بشأن الرقص، وحين سمعه تومّازو ازدراه: «اسمعوا هذا!» قال لنفسه «يا لصوته المبحوح! من أين أتى، من زغورغولا؟ ماذا؟ أكان يعزف القربة؟ شاطر! هيّا، استعرض الأزمة الوطنيّة!»

«يتحدّث عن الرقص» ما زال تومّازو مسترسلًا، وكادت تتفلّت من فمه ضحكة قويّة «لا بدّ أنّه في ضيعته كان عميد الراقصين، فنّانًا برقصة التارانتيلا والمارتزوكي! لا تبصق عاليًا لئلا تُرَدُّ عليك البصقة!»

أجاب أمين النقابة على المداخلة، خجولًا ومحبطًا، لكنّه كان حازمًا، يتكلّم كالكتاب المطبوع. «تحدّث، تحدّث!» فكّر تومّازو «فإنّهم هنا سيبايعونك خليفةً لشيشرون! كأنْ تقول إنّ الأمريكيّين يعيشون في أمريكا!». تمالك نفسه وركّز انتباهه واتّخذ تعبير وجه شرّير: «أودّ لو أنّي أخبرك بحقيقة الأشياء وكيف تجري هنا، ما إن تنتهي من هدر أنفاسك! أودّ أن أشدوك بأغنيةٍ تهتزّ لها مشاعرك!»

رمق ديلي فيوريلي شزرًا: «أيّها المزوّر» قال في نفسه «إن ثارت أعصابي خلال خمس دقائق، سأنهال عليك بلكمةٍ تصمّ أذنيك! حذارا»

«وأحطّم رؤوسكم جميعًا، أنتم يا مَن هنا!» ما زال يلهج برأسه ويشدّ قبضته داخل جيبه، وعيناه تستقصيان بنظرةٍ دبقة، ملؤها وعيدٌ يتخفّى بالمرح.

كانت الحرارة تُصبِّب العرق إلى حدّ الذوبان: الشمس ما تزال ساطعة كالشعلة، وتهيمن على الأفق الموصوم بأكواخ بيترالاتا البائسة. استغرق الرفاق وقتًا طويلًا قبل إنهاء الاجتماع، وما فتئوا يتناقشون حول هذا وذاك، خلال ذلك القيظ.

وانتهى الاجتماع أخيرًا، وحانت اللحظة. لكنّهم ظلّوا يثرثرون واقفين، لاسيّما حول باسالاكوا إيّاه. اتجه إليه تومّازو، ووقف بجانبه منتظرًا الفرصة السانحة. وبينما كان الرجل يهمُّ بالتوجه نحو المخرج، تبعه تومّازو وأمسكه من مرفقه وهو يفكّر: "ماذا؟ هل ستتنصّل منّي الآن؟ أأنت أسوأ من فانفاني[30]؟"، وقال له بصوتٍ قويّ وهو يتمظهر أمامه: «المعذرة يااا... سيّد، هلّا سمحتَ لي بدقيقة؟»

نظر إليه باسالاكوا متيحًا له الفرصة، بوجهه الشبيه بحذاءٍ قديم لابن ساقطة البلسم الشافي.

«تفضّل؟» قال.

أخذه تومّازو على انفراد، إلى أكثر الزوايا هدوءً في الفِناء.

«اسمعوا حضرتكم...» بادر «لقد أردتُ المجيء للتحدّث بهذا الشأن منذ مدّة... لكنّي لم أحظَ بالفرصة المناسبة، فلقد خرجتُ

---

30 إشارة ساخرة إلى السياسّي أمينتوري فانفاني، الذي شغل رئاسة مجلس الوزراء، وعُرِفَ باستقالاته المتكررة. المترجم.

من المستشفى توًّا، وأنتم تعلمون الوضع، حينما يخرج المرء من أماكن كهذه عليه أن يراقب سلوكه... حسنًا، الأمور هي على الشكل التالي... لطالما كنتُ صاحب مبدأ، ها!» قطع حديثه وحدّق في عينيه، بكفّين مفتوحتين أمامه وعينين جاحظتين ومقدّستين وتابع قائلًا: «فلا ينبغي لكم أن تظنّوا بي خلاف ذلك... إنّني فقيرٌ ومسكين، أنتمي إلى الطبقة العاملة أنا أيضًا... ولا أعلم إن بلغكم حُسن فعالي في مستشفى فورلانيني، لكنّكم ستستفسرون عن ذلك قريبًا... لقد كنتُ أنا مَن فجَّرَ الوضع هناك، وكنتُ أتحرّك في كلّ الاتجاهات لمساعدة غوليلمي... تعرفون غوليلمي، أمين الشعبة في المستشفى؟... لقد فعلتُ الممكن! ولعلّ هذا يكفيكم لمعرفة مَن أكون وكيف أرى الأشياء...»

التقط نفسًا حين أنهى الجزء الأوّل من خطابه؛ فيما كان الرجل ينظر إليه مُقِرًّا بالجهود، وذقنه على عنقه، يتكهّن إلى ماذا يرمي الشابّ.

«ولكنْ، هناك أمرٌ ما» استأنف تومّازو مباشرة «وهو أنّني لم أنتسب إلى الحزب من قبل، هكذا، لأنّني لم أكن أرى أهميّة لذلك... كنت أظنّ أنّه يكفي أن يرسخ المرء عند مبادئه، وها هو!»

صفّق بكفّيه المنبسطتين ثلاث مرّات، كما لو أنّه ينجز صفقةً فيحلّ السلامُ.

وتابع: «لكنّني بتّ أرى الأمر بطريقة مغايرة، فأنا أيضًا أودّ أن يكون لي بطاقة أضعها في جيبي، مثلكم جميعًا. فعندما تعاود الاشتباكات، ينبغي للزمن العصيب أن ينال الجميعَ، وإن كنتَ أنت بخير فلِمَ لا أكون بخير أنا أيضًا! من المستحسن إذن أن أرتقي إلى مستواكم!»

ابتدأ الجزء الأخير من كلامه بنظرةٍ مريرة، وأنهاه بتشديد نبرة

صوته، لأنّه كان يعبّر عن حقٍّ من حقوقه، حقٍّ منطقيٍّ ونظاميٍّ ولا بدّ أن يكون كذلك.

ظلّ الرفيق صامتًا يتلقّى تلك الحجج، بوجهه الرماديّ الكبير، كما لو أنّه يمضغ مخاطًا مرًّا، ينظر إلى تومّازو بعينٍ مخبريّة وفاحصة.

«فقل لي» اختتم تومّازو «ما الذي عليَّ فعله، إلى مَن أتوجّه، من أجل الانتساب؟»

وما زال باسالاكوا صامتًا ينظر إلى مخاطبه، إلى أن قال: «حسنًا، هذه أكثر الأشياء نظاميّةً في العالم! ألا تعرف شخصين في الحزب يزكّيانك؟ تعال معهما، وقدِّمْ نفسك، لتترتّب أمورك بغضون خمس دقائق: يكفي أن تلصق الطابع!»

حدّق فيه من جديد، بنظرةٍ ودودة، وربّت على كتفه قائلًا: «هذا يسعدني!»

وهكذا كان: بعد أيّام، قدّم تومّازو نفسه في الشعبة، صحبة الشخصين اللذين أدّيا دور الشاهد، وهما ديلي فيوريلي إيّاه، وغريشيو؛ سجَّل اسمه، ودفع ما يجب دفعه: استطاع أخيرًا أن يُغمِّس الخبزَ في الحساء: وضع البطاقة في جيبه، واستعدّ للنضال في سبيل الراية الحمراء.

5 - الجوع الأبديّ

أجريت الحسابات بسرعة: فمن الأربعة آلاف ليرة التي يعطيها ربّ العمل لتومّازو في الدقيقة الأخيرة من آخر ساعة في مساء السبت، قبل الإغلاق بقليل، ثمّة ألفا ليرة تذهب لقسط البدلة؛ ومن الألفي ليرة المتبقّية يجب طرح النقود اللازمة للنقل الداخليّ طيلة الأسبوع: عشر ليرات للخطّ 209 في الصباح، وعشرون في المساء يساوي 180 ليرة، والأمر ذاته للخطّ 8، لأنّ تومّازينو كان ينزل في نهاية الخطّ الأوّل ثمّ يواصل ما تبقّى من المشوار سيرًا على الأقدام: 180 في 180 يساوي 360. كما أنّه لا غنى له عن تدخين عشر سجائر وطنيّة في اليوم، ما يساوي 600 ليرة. وعليه أن يحتفظ بقرابة الألف لنفسه، في جعبته: والألف المتبقية يعطيها لعائلته، لأنّ أهله وافقوا على أنّهم سيكتفون بذلك القدْر لذلك الشهر. وقبل أن يفصِّل البدلة، كان قد استطاع ادّخار خمسمائة ليرة من أجل يوم الأحد. ولكن، ماذا عن الآن؟ لم يعد بإمكانه أن يتنزّه طوال اليوم مع إرينه جيئة وذهابًا على أرصفة غارباتيلا، وفي المروج، من الثانية ظهرًا وحتى الثامنة مساء. كان يومَ السبت، وينبغي أن يفكِّر كيف سيتدبّر المالَ من أجل اليوم التالي، بأيّ وسيلة، خمسمائة ليرة على الأقلّ. بقي في جيبه المثقوب ثلاثون ليرة،

الموفَّرة من السجائر؛ إضافةً إلى الأربعين ليرة المدَّخرة من أجل الترام، ما يساوي سبعين ليرة. يجب عدم المساس أبدًا بالأربعة آلاف ليرة التي حصل عليها توًّا: خبّأها في جيب سترته الداخليّ، وتعامل معها على أنّها ليست موجودة.

أنهى تومّازو عمله متأخّرًا، كعادته في أيّام السبت. وانطلق مشيًا من شارع ديلا جوليانا حيث كان يعمل لدى بيّاع فواكه، لأنّه لم يعد بوسعه الذهاب إلى السوق بالتأكيد. واتّجه إلى غايته، مرورًا بشارع يوليوس قيصر، حينما كان الظلام يباشر هبوطه: فالشهر كان سبتمبر. أسرع خطاه؛ وانعطف في نهاية يوليوس قيصر نحو ساحة كافور، مرَّ تحت قناطر منتزه أدريانا، فوصل إلى بورغو بانيغو: قطع شارع فيتوريو، ليجد نفسه في كامبو دي فيوري.

وكان شارع دي كيافاري هناك في الوسط، ببلاطه المفكّك وصفوف واجهاته، كالمصران.

وفي منتصفه، ثمّة أضواء نيون خضراء فوق بوّابة بيضاء: سينما فيتوريو الرديئة التي تعرض فيلمين. وكان بعض الفتية مستندين إلى اللافتات، أيديهم في جيوبهم، ينظرون ما حولهم، يتحيّنون الفرصة للتسلّل إلى الداخل.

وصل تومّازو مستعجلًا، وجادًّا، دون أن يعير أيَّ انتباهٍ لأولئك المترقّبين في الخارج بأفواهٍ جافّة. دخل واشترى تذكرة على الفور، تاركًا للبائعة كلَّ ما كان في حوزته ودخل إلى الصالة.

قبل كلّ شيء، عليه أن يملص من المراقب. لذا أزاح الستار الأسود المخمليّ ببطء شديد واندسّ إلى جهة الحائط مستندًا إليه

بكتفه، ومتظاهرًا بأنّه هناك منذ مدّةٍ وعيناه تحدّقان بالشاشة. كانوا يعرضون فيلم «أميرة بالي» الذي تظهر فيه حسناوات هاواي وأعناقهنّ المطوّقة بأكاليل الورود وهنَّ يتراقصن حول بوب هوب الذي يرنو إليهنَّ مفتعلًا حركةً بلهاء بفمه من هول المتعة التي شعر بها، ويفتل عينيه كما لو أنّه في حالة إغماء.

وبما أنّ المراقب كان متغيّبًا حينذاك، ابتعد تومّازو عن الحائط بهيئةٍ مرهقة، موجِّهًا إليه ضربةً طفيفة وحاسمة بكتفه، وتوغّل إلى المنتصف ليلقي نظرةً أشمل. كانت القاعة صغيرة، وثمّة فاصلٌ منخفضٌ يفصل مقاعد الدرجة الثانية عن الأولى التي ليست سوى ثلاثة صفوف من الأرائك في عمق الصالة.

وفي الأمام، كالعادة، يجلس أولاد منطقة كامبو دي فيوري، أو اليهود الصغار الآتين من شارع أرينولا أو بورتيكو دوتافيا، مع العجائز البدينات، مهملات الشعر، يتسلَّين بحبوب الترمس وبذر القرع المملّح. وفي الخلف، ما بعد الممرّ بين الصفوف، كان الجمهور الأكثر عددًا: نساءٌ أخريات، ولكنْ لا يصحبن أولادًا، بجانب بعض العاطلين عن العمل تحت رعاية صندوق التكافل الاجتماعيّ، وشرذمة من الشبّان. وخلفهم، في الفراغات الملاصقة للحائط، يمينًا وشمالًا، هناك أناسٌ واقفون أيضًا: فتية وأولاد وبعض العجزة. قطع تومّازو الصالة، وذهب إلى الحائط المقابل، وحشر نفسه في الفراغ ما بين الحائط والمقاعد، حيث الأناس الواقفون. تموضع في المنتصف، مستندًا بكتفه إلى الحائط، ليحتكّ بأولئك المستندين إليه قبل وصوله.

وسَّع لنفسه، عابسًا إذ شعر أنّه شابٌّ جدّيّ بين جموعٍ من

العجيان المهملين أناقتهم، يرتدون الكنزات، مضطجعين هنا وهناك. ألقى نظرةً استكشافيّة أخرى.

رصد الحراك، وابتعد عن الجدار ثانيةً، وصعد الممرّ نحو الفاصل. ثمّة مقعدٌ شاغرٌ في الصفوف الأخيرة: اتجه تومّازو إليه مكفهرًّا، هناك حيث يوجد شخصٌ ما لبث أن بدا له غدّارٌ على الرغم من أنّه رآه من مسافة بعيدة وتحت الظلام. جلس في المقعد الشاغر، وأرسى ركبتيه على مسند المقعد الذي أمامه، واسترخى. وفي تلك اللحظة أشعِلت الأضواء كأنّها الصاعقة.

رتّب تومّازو جلسته جيّدًا، مدّعيًا اللامبالاة، ونظر حوله بعينين غاضبتين، مدوّرًا عنقه بياقة قميصه التي بدت مفروكةً بسنّ ثومٍ متّسخٍ بالفحم: كان يوم سبت، ما يعني أنّه منذ أسبوعٍ لم ينزع ذلك القميص وربطة العنق الصغيرة البنفسجيّة والمجعّدة.

بدت القاعة تحت الضوء مثلما حين تُرفَع صخرةٌ لتكشف عمّا تحتها من ديدانٍ مكتظّة: كومةٌ من الديدان المتكدّسة بعضها على بعض، تتحرّك وتنزلق إلى كلّ الاتّجاهات، وتتلوّى رؤوسُها وأذيالها، مخبولةً ومصدومةً بسطوع الضوء.

كان الصفّان الأخيران من الدرجة الثانية ممتلئين بالأولاد، يتخلّلهم عجزة رماديّون، متصلّبون كالحصاة وسط جدولٍ من الطين. تتراوح أعمار الصغار ما بين الثاني عشر والعشرين عامًا، وكانوا مضطجعين، فمنهم مَن يركن ركبتيه على مسند المقعد الذي أمامه، ومَن يبالغ بوضع قدميه فوقه إذا كان خاليًا، ومّن يمدّد ساقيه على أحضان رفيقه المجاور.

كانوا يتبادلون لكماتٍ ونعرات، أو لطماتٍ على الرقاب، وصفعات على الرؤوس، ويعودون إلى أماكنهم لتناول بذر القرع بلا مبالاةٍ وعيونٍ ضاحكة. بنطلوناتهم ممزّقة، تعتليها إصبعان من الشحوم والغبار، بالية ومهترئة من قُدَّام، بحيث تتبدّى خيوط السراويل البيضاء. أمّا الرجال الذين يتوسّطونهم فكانوا عابسين، كأنّهم يشعرون بالإهانة، يسعون إلى التواري قدر المستطاع ما بين دفّتي المقعد.

ثمّة ذهابٌ وإيابٌ مستمرّ على امتداد الممرّات الجانبيّة: شابٌ ينهض، منتفضًا، ليمشي بزهوٍّ متّجهًا نحو المرحاض، وهو يمضغ ويقهقه، كأنّه ينوي على أمرٍ ما. ثلاثة فتية يذهبون معًا، ضاحكين يتحادثون بصوتٍ مرتفع؛ ورجلٌ عجوز يتّجه خلفهم ببطء محدودب الظهر يمخِّط بأنفه. وكانت الستائر المخمليّة تعلو وتنخفض غير مرّة.

أمّا المنحرف المجاور لتومّازو فكان يدخّن، مسندًا مرفقه إلى دفّة المقعد، والسيجارةُ بين أصابع يده العالية والهشّة. نظر إليه تومّازو، فوجَّه ذاك عينيه إليه أيضًا.

خفتت الأضواء. وسرعان ما فرج تومّازو ساقيه، مقرِّبًا اليسرى إلى ساق جاره، وظلّ هكذا ينتظر. كان ثابتًا على مقعده المتحطّم، مثل قطٍّ ينظر إلى كلب: وعلى وجهه تختلط البثور البنيّة بالأحمر الذي يغطّيه كأنّه قشرة. الوجه الصغير والمدوّر، بالأنف المدبّب والفم اللحميّ الذي تآكلت فيه الشفتان، يبرز من فوق ياقة القميص مثلما تنتأ قطعة اللحم المجفّف من الصرّة. وكان شعره من الخلف طويلًا مع أنّه مقصوص، ويغطّي الياقة الخلفيّة قليلًا؛ أمّا في المنتصف فكان منتصبًا حول الحوافّ كشعر الطفل الصغير. وكان هزيلًا، لا يفعل شيئًا سوى

مواصلة النظر حوله، بعينين تهيمان في كلّ الجهات، كالمصاب بالتشنّج العصبيّ. وسّع تومّازو ما بين ساقيه كثيرًا، لينزلق بردفَيه على المقعد.

وفي الأثناء عادت الحياة إلى طبيعتها في مرتع الدود تحت العتمة، وعاد السكون والهدوء. إلّا بعض الضحكات هنا أو هناك، وأصوات تتشاجر من أجل سيجارة، وكلمات بذيئة لأولئك الذين قد شاهدوا الفيلم مرّتين وغلبهم الضجر.

لم يتحرّك المنحرف بعد. كان تومّازو يرمقه مغتاظًا. "إيه، ماذا تنتظر أيّها الحقير!" فكّر في نفسه. غيّر وضعيّته، ودفع بظهره إلى الخلف حتى كاد يحطّم مسند المقعد الذي يجلس عليه، ونعر بركبته مسند المقعد الذي أمامه فكاد يهشّمه.

وما زال الفلان ينظر حوله، وكلّما جال بأبصاره نظر إلى تومّازو الجالس بجواره.

"اللعنة عليك!" تومّازو يرغي ويزبد في نفسه "خذ!"، وكان يتأفّف وما لبث يتحيّر ويتقلّب. بدأ الرجل يخفض عينيه إزاء كلّ تلك الخضخضة. وهكذا دواليك عشر دقائق. وكان تومّازو قد فرج ساقيه أكثر فأكثر، وانزلق بردْفَيه على المقعد كثيرًا، حتى كاد يلامس القاع المكتظّ ببقع البصاق وقشور البذر وربّما بعض البول أيضًا. ثمّ رأى إلى أين يروم جاره وهو يدور بعينيه هنا وهناك. كان ينظر إلى فتىً قد نزع سترته أمامه بصفّين أو ثلاثة، ولا تظهر منه سوى رأسه من الخلف، محلوقةً كرؤوس العساكر، ومنكبيه المكسوّين بقميص كوبوي أزرق ورماديّ. وهذا ما جعل تومّازو يستشيط غضبًا. "تبًّا لك!" يقول في سرّه "بم يتفوّق عليّ؟ ها، هل أنا مزيّف؟ اللعنة على أمواتك!"

وكلّما عدَّل جلسته على المقعد، نكز جارَه بمرفقه، وكان الأخير ينظر إلى الأمام ثمّ يخفض أبصاره نحوه. كان ينكزه بقوّة، تمامًا مثل أن يجد المرء بابًا مغلقًا ومتخلخلًا، فيظنّ أنّه سينفتح من الضربة الأولى، إلّا أنّ الباب يقاوم، فيُجنّ جنون المرء وينهال على الباب بكتفه مرارًا. "والآن، كيف سنتّفق؟" كاد يفكّر بصوتٍ مسموع. ولعلّ الرجل اضطر إلى أن يقول لنفسه: "هيّا، فلنزحه عنّا، هيّا!". ومدَّ يده على حين غرّة.

وعندما أنجز ما عليه فعله بزمنٍ قياسيّ، انبسطت أسارير تومّازو وضيِّقَ ساقيه.

ثمّ رفع رأسه ونظر نحوه. أمّا ذاك، لا شيء: بل كان مندمجًا في متابعة الفيلم باهتمام. ظلّ تومّازينو يرمقه بضع لحظات بجبينٍ مقطّب، وعينين مذهولتين، وفمٍ غائرٍ بتكشيرة بريئة تعني: «اللعنة على هذا الفيلم كم يعجبك، ها!»

ثمّ نعره بنكزة أخرى.

اهتزّ الرجل، ورماه بنظرةٍ كما لو أنّه نسي أمره تمامًا، وظلّ مركِّزًا عليه لحظات. وبينما كان تومّازينو يرفع يده ليحكّ إبهامه بسبّابته كما لو أنّ مخاطًا يابسًا علق بين أنامله، قال له بنبرةٍ متيقّظة وودودة: «آه، صحيح، المعذرة!».

فقال تومّازينو عن طيب خاطر: «ماذا! هل نسيتَ؟»

«أجل» قال الآخر بهزّةٍ طفيفة من رأسه ثمّ اتكأ على جانبه ونبش في أحد جيوب بنطلونه. وأخرج قطعة نقديّة من فئة المائة ليرة.

لم يأخذها تومّازو بيده، بل نظر إليها مشرئبًّا بعنقه ليراها عن

كثب. كان يريد أن يتأكد ما إذا كانت مائة ليرة أم خمسمائة فَرَضًا. إنّها مائة ليرة حقًّا، ما باليد حيلة. استعاد جلسته ببطء، ثمّ قال بهدوء: «ماذا! أتعطيني مائة ليرة؟»

قال الرجل وهو يحمل الورقة في الهواء مشمئزًّا، يكاد يتباكى: «هيّا! خذها!»

لم يأخذ تومّازينو المحاولة بعين الاعتبار: «ماذا! هل تتصدّق عليّ؟» قال وما زال يحافظ على هدوئه.

«اللعنة عليك!» ردّ الآخر وهو يجرّ صوته جرًّا، بتكشيرة الفتيات حين تساء معاملتهنّ «ألا تكفيك هذه، ها؟» ثمّ أضاف بنبرة المتقيِّئ: «ممَّ تحسب نفسك؟ من ذهب؟»

طقطق تومّازو بلسانه في فمه الجافّ. وقطَّب حاجبيه كثيرًا لتبرز كامل تجاعيد جبينه.

«هات المال!» قال.

رمقه الآخر شزرًا، وكان تومّازينو يزداد تجهُّمًا. لم يكن بوسعهما التحدّث بصوتٍ مرتفع وإلّا لفتا انتباه مَن حولهما. إلّا أنّ تينك الكلمتين اللتين نطق بهما تومّازو بصوتٍ منخفضٍ وعلى نفَسٍ واحد، لا بدّ أنّهما أوحيتا بالهاوية. ارتكز المنحرف على قدميه، ووضعهما على الأرجُل المتخلخلة للمقعد الذي أمامه، واستراح على مقعده، وتقلَّبَ يمنة وشمالًا ولكنْ بغضبٍ وحسمٍ هذه المرّة.

- «المال» ردّد تومّازو.

«ماذا، ألم أعطك المال؟ خذ، ها هو!» مدَّ المائة ليرة مرّة أخرى نحوه بعصبيّة.

لم يقل تومّازينو شيئًا. سوى أنّه عدّل جلسته على المقعد، متكئًا بمرفقيه على الدفّتين المترنّحتين.

انتهز الآخر ذلك الصمت لإضافة بعضٍ من أفكاره، فقال: «كان بإمكانك أن تخبرني منذ البداية! ماذا، أليس لديك لسان؟ أوه، لا يمكنني أن أعطيك أكثر من مائة ليرة! قل ما يحلو لك، لكنّي لن أزيد على مائة ليرة قرشًا واحدًا! لا أستطيع! اسأل عنّي مَن تشاء، اسأل عن إيدوليتو، وخذ ما تريد إن وجدتَ واحدًا، واحدًا فقط، لا يقول لك: اسمع يا هذا، إنّ إيديوليتو خير صديق! لكنّي أفضّل أن تُبرَمَ العقود منذ البداية. فإن تمَّ الوفاق، كان بها؛ وإلّا لا بأس. أوه، ماذا تريد! إنّني مثيرٌ للغاية، وبإمكاني الإتيان بكلّ الذكور!»

عدّل جلسته على المسند، مفتخرًا بجملته الصاروخيّة، وما زال يرتجف بأكمله مستاءً لكرامته ومغتاظًا. قرّب تومّازينو كتفه إليه ثانيةً، وردّد للمرّة الثالثة، بنبرةٍ خالية من أيّ تعبير، تكاد تنطق بلا صوت: «هات المال!»

لم يعد لديه رغبةٌ في المزاح، ولا حتّى التمهُّل؛ كان قد حسم أمره نهائيًّا. بدأ المنحرف يرمقه ببعض الخوف، مصفرّ الوجه، ومرتعد القلب. ظلّ صامتًا ومتجمّدًا. فمدَّ تومّازينو يده. «أعطني المائة ليرة هذه!» قال. فأعطاها له المنحرف بسرعة، ليعدِّل جلسته بشكل أفضل، كمن أدّى واجبه ولم يعد هناك ما يتقاسمه مع أحد. وفي تلك اللحظة ظهر المراقب من هناك مصطحبًا رجلًا بدينًا وامرأة بالاعتماد على مصباحه الخافت، وأجلسهما خلف تومّازينو والمنحرف. وما زال توماّزو صامتًا؛ وبعد قليل ألقى المنحرف نظرة هنا وهناك وتهيّأ للنهوض.

فأمسك تومّازينو بذراعه وأرغمه على الجلوس من جديد.

«إلى أين تذهب؟» قال له بهدوء.

«ماذا، هل عليّ البقاء هنا حتى منتصف الليل؟» ردّ الآخر مرتبكًا.

«كلا!» قال تومّازينو كاشفًا عن أسنانه الصفراء التي يزبد اللعاب حولها.

«سحقًا!» قال المنحرف «ألم أعطك مائة ليرة؟»

ابتسم تومّازيو. «وما الذي أفعله بمائة ليرة؟» قال. فتأفّف المنحرف. «سحقًا» قال بصوتٍ يتخلّله النواح. أدخل يده في جيبه بغضب، وأخرج مائة ليرة أخرى، مجعّدة حتّى استحالت ككرة اللحم. ومدّها إلى تومّازينو. فأخذها بهدوء كما أخذ السابقة، ومسحها بهدوء أيضًا، وتمعّن فيها ليرى إن كانت من فئة الخمسين: وحين تأكّد من أنّها مائة، عبّر عن رضاه وطواها ووضعها في جيبه صحبة المائة السابقة.

وبعد قليل، همَّ المنحرف الصامت بالنهوض ثانيةً وهو يقول: «أودِّعك يا جميل، سلامًا!». إلّا أنّ تومّازو، بهدوئه المعتاد، حطّ يده على كتفه دون أن يركّز على ذلك، بل كأنّه يبعد ذبابة: «ياه، فيم العجلة؟» قال «هلّا بقيتَ قليلًا؟». «أعتذر، لقد رأيت الفيلم مسبقًا، عليَّ أن أذهب...» ردّ الآخر بصوتٍ مرتجف. «أوه، هلّا كففتما عن ذلك؟» أنَّبهما البدين الذي جلس مع امرأته خلفهما. تسمَّرَ الاثنان على الفور، كالحيوانات التي تتظاهر بأنّها ميّتة. تابعا جزءًا من الفيلم بدون إزعاج. ثمّ ألقى تومّازو نظرة إلى الخلف من فوق كتفه بحذر. كان البدين مغفّلًا، يتصبّب عرقًا، وتعتلي رأسه خمس شعرات، أبيض الوجه مثل القنّبيط، وفي حال الشجار كان سيتقبَّل الصفعات برحابة.

حسم تومّازينو قراره، والتفت جانبيًا إلى المنحرف، بعينين مسمومتين وفمٍ مزموم.

«هيّا» قال له «ماذا، أتظنّ أنّك ستفلت منّي بهذه السهولة؟»

«ماذا تريد منّي؟» ردّ المنحرف لكي يكسب الوقت، وكان متخوّفًا من الغول خلفه الذي ما كان عصبيًّا إلّا لأنّه صحبة امرأة، «لقد أعطيتك مائتي ليرة توًّا: أرى أنّ هذا كافٍ! أوه، منذ متى تجتاز التسعيرة في سينما فيتوريو حاجز المائتي ليرة؟»

«اسمع يا هذا!» قال تومّازينو «لا تجعلني أفقد صبري الآن، ها!»

رأى المنحرف أنّ تومّازو كان يفقد صبره حقيقةً، فتنحّى عنه ليتكلّم إليه بشكل أفضل، ولعب ورقته الأخيرة: «يا أسمر، كن عقلانيًّا... ماذا، هل كان عندي نقودٌ ولم أعطك؟ ليس في جيبي فلسٌ واحد... صدِّقني... أتظنّ أنّني من الأكابر؟ أتظنّ أنّي أعيش في بحبوحة؟ هيهات... فأنا فقير، أفقر منك... عاطلٌ عن العمل منذ أكثر من عام، فمن سيعتني بوالدتي... كن إنسانيًّا يا أسمر... أقسم لك أنّني في المرّة القادمة، عندما تحين، سأعطيك مائة ومائتين إن كان عندي، وبدون مقابل... فلنذهب لتناول البيتزا معًا...»

«انتهى النقاش عند هذا الحدّ» غمغم تومّازو «أعطني المال وإلّا جنيتَ على نفسك!»

بات المنحرف يرتجف ذعرًا. وغدا لون وجهه رماديًّا. أدخل يده في جيبه وأخرجها بمائة ليرة أخرى، وكاد يبكي، ولكنْ قبل أن يمدّها إلى تومّازو قال له: «خذها!». أخفض تومّازينو أنظاره. قلب المنحرف جيبيه لإظهار البطانة القذرة. «هذه آخر ما لديّ» قال «والآن لم يعد

لديّ حتّى لتذكرة الترام، وينبغي أن أعود إلى البيت سيرًا». انتزع تومّازو المائة الثالثة من يده، ودسّها في جيبه مع المائتين السابقتين.

مرّت دقيقتان أو ثلاث. ثمّ حاول المنحرف أن يوطّد صداقة معه، فلا أحد يدري ما ستجلبه. «ها» قال بنبرة رقيقة «هل ترى أنّك أحسنتَ صنعًا؟ أن تسرق المال من فقيرٍ منتوف، ليس لديه ما يأكله!»

«إيه» قال تومّازينو «يا لك من بكّاء! ماذا، هل تتباكون على الدوام؟ إنّكم متشابهون جميعًا! تقولون دومًا إنّكم مفلسون، وتصرّون على ذلك، فإذا بي أكتشف أنّكم تخفون من النقود كثيرًا...»

رسخ تعبيرٌ عن الفزع أشدّ وطأة على وجه المنحرف بسبب تلك الكلمات الأخيرة، لكنّ خاطِرَهُ قد هدأ آنذاك وقد تعرّض للسرقة. تظاهر بلا مبالاته وتمطّى قليلًا، ثمّ أسند يده على خدّه، برؤوس أصابعه ما عدا الخنصر، ينظر بطرف العين، مرفوع الذقن كالفنّانات الاستعراضيّات حينما يتبهرجن. وحاول أن يضع الأمور في سياقٍ ضاحك قائلًا: «أيا ابن الساقطة! لقد أمتعتني بقض*** حقًّا! أشعر أنّي بخير! إنّني مجنونة، مجنونة! أعلم أنّ العقود لا تُبرَم إلّا في البداية!»

«أيُّ عقود!» قهقه تومّازو «أجل! العقود! عليك أن تعطيني المال!»

«آهٍ يا فتاي الوسيم» قال المنحرف محاولًا أن يستظرف «لم يعد لديّ نتفة واحدة. أعدها إليّ! لا يمكن أن تمتصّ دماء القنّبيط!»

نظر إليه تومّازو صامتًا. ابتسم قليلًا وتظاهر بالمودّة. «أخرج كلّ النقود التي تحتفظ بها!» قال كما لو أنّه يجري مراهنة لمجرّد التسلية.

«أيُّ نقود» قال الآخر مرتجفًا. قهقه تومّازو ثانيةً، وعقله يستنير بفكرةٍ تملأ عينيه اليابستين بالمرح والدهاء. وبعد أن ضحك للمرّة

الثالثة بنبرةٍ أعلى بقليل، أدخل يده بجيب سترته الداخليّ، وما زال معتدل المزاج. نبش قليلًا، وفكّ أزرار السترة باليد الثانية. وبعد ذلك، هزّها على صدره مرّتين وثلاث، وسحبها من أطرافها إلى أعلى بأنامله، كما لو أنّها ساخنة وأراد تهويتها. وكان المنحرف ينظر إليه دون أن يفوه بشيء.

«هيّا، هات المال!» ردّد تومّازو وما يزال يضرب ثنيّة السترة بقوّة أكبر، بحيث يبرز باطنها، على صدره المكسوّ بالقميص الرماديّ. لكنَّ المنحرف حافظ على صمته، مرتعبًا، ونظر إلى الأمام. فهبَّ تومّازو وغلَّ يده بجيب السترة، فتّش قليلًا في البطانة المفتوقة، وأخرج بقبضته سكّينًا مقفلةً؛ حملها بقبضته المشدودة، ووضعها بين الفخذين على مستوى البطن، ورفع ساقه اليمنى ليستظلَّ بها.

كان المنحرف ينظر إليه بطرف العين: ضغط تومّازو على المقفل فانبثق النصل، وأغمده ثانيةً، وهكذا مرّتين وثلاث، كما لو أنّه يلهو.

«هات المال، هيّا!» ردّد من دون أن يضحك، وبرم فمه. فتلعثم المنحرف: «ما بك؟ هل جننتَ؟ ما الذي تفعله؟»

بثق تومّازو النصل مرّة أخرى، ونكزه بمرفقه حتّى كاد يوقعه عن المقعد. لكنّ المنحرف انحنى أصلًا، وهو يرتجف كلّيًا، وبدأ يفكّ رباط حذائه، فأخفق لأنّ العقدة كانت شديدة ويداه لا تساعدانه. نزع فردة الحذاء أخيرًا من دون أن يحلّ رباطها، وفرّغها بحيث يتسنّى لتومّازو أن يرى جيّدًا: كان فيها مائتا ليرة.

«اللعنة على رائحتك المقرفة!» قال أحد الفتية الجالسين أمامهما. أخفى تومّازو السكّين بين فخذيه. والتفت الفتى نحو المنحرف فعلًا:

«ها، ألا تغسل قدميك أبدًا يا هذا؟ اللعنة على أمواتك، أتنوي قتلنا؟».
«بورفينا!» صاح منحرفٌ آخر بجانب رفيقه وهو يسدّ منخاريه بأصابعه.

أخذ تومّازو المائتي ليرة وأودعهما في الجيب أيضًا. «الفردة الثانية» قال بعدئذ. فانصاع له المنحرف، وهو يغمغم: «ليس فيها شيء». وبالفعل كانت تلك الفردة خاوية. أعاد تومّازو السكين إلى جيبه، وسعل قليلًا، نظر حوله، ثمّ نهض واتّجه نحو المخرج.

كان الظلام قد هبط. ليلةٌ من سبتمبر، تنهال بغتةً لأنّ الخريف آخذٌ بالتقدُّم والظلمة تحلّ في وقت مبكر. إلّا أنّ الصيف ما زال ماثلًا بما يشبه الضوء المتبقّي عند حدود السماء المعتمة، وعلى جوانب البيوت، وفي بعض الغيوم الرماديّة المتوقّفة فوق جانيكولو.

سيولٌ من السيّارات والعربات والدرّاجات تجرف شارع فيتوريو، وتفيض عند لارغو أرجنتينا، وتتبدّد نحو شارع أرينولا وساحة البندقيّة. الأولاد يصفّرون، متهيّجين من تلك الفوضى، ولاسيّما أنّهم سينتهون من أعمالهم بعد قليل. وثمّة سيلٌ كثيفٌ من المارّة أمام الأكشاك وباعة الأزهار وخارج الحانات، مزدحمين على الأرصفة فمَن كان مستعجلًا اضطرّ إلى الركض في الطريق. أمّا الشبّان فيتنزّهون على دفعات، بأزياء الصيف، بالبنطلونات الأمريكيّة والكنزات الخفيفة المخطّطة أو الموسومة بالورود. وكان المهملون الذين يسكنون في الأرجاء لا يرتدون إلّا ملابس داخليّة، بيضاء ونظيفة. وأيُّ فتاةٍ تمرّ بجانبهم كانت صيدًا لهم: يتمحورون حولها، ويتدافعون نحوها، ويتفوّهون: «ما أشهاكِ! صدقًا، مثيرة! جوهرةٌ ذهبيّة! يا مدلّلتي! يا ملاك الفردوس!

ربّاه ما أجمل أردافك يا ماريّا، هل تحملينها معكِ إلى الكنيسة؟»

ومع هذا، كان هنالك شيءٌ ما في الأجواء: شيءٌ ذو طبيعة غامضة، وحقيقةٍ مبهمة وخافية عن الأجمعين. ثمّة زحمةٌ خانقة، ودوشةٌ كبرى. شارع ناسيونالي أمسى بمثابة وكر الديدان، والترام يتوقّف نصف ساعة عند كلّ إشارة؛ ما جعله يستغرق وقتًا لبلوغ نافورة ساحة إزيدرا فالمحطّة. وهناك، نحو شارع مورغاني، ساحة بولونيا، تنحسر الزحمة قليلًا، على الرغم من أنّ الطرقات تغصّ بصفوف طويلة من السيّارات. وتحت أسوار شارع مورغاني المكسوّة بشواهد الوفاة المرفقة بالشموع الصغيرة، هنالك موكبٌ طويل مكوّن من نساء ساجدات يملأن الدنيا صياحًا بطلب الغفران من العذراء.

وهناك أناسٌ آخرون عند الموقف الأخير، تحت فيرانو. جمهرةٌ من المشاة ينزلون من الترام الآتي من وسط المدينة، وينتظرون الحافلات المتّجهة نحو قرى الصفيح، ربع ساعة بأكملها، محتشدين في فسحة معتمة ومكشوفة، بين كشك وبسطة فواكه.

وفي الأرجاء يرتفع سور المقبرة المهيب، الذي تعتليه سلسلةٌ من الأضواء الصغيرة والوامضة باحمرار: وخلفه ما يشبه منحدر الوادي الرهيب، المؤدّي إلى محطة تيبورتينا، المطوّقة – إلى حيث يذوي المدى – بالبنايات وناطحات السحاب، المشيّدة بفوضويّة، والتي يبتلعها الظلام والدخان.

وهناك، إلى حيث تتاح الرؤية للنظر بعيدًا، ينجلي الغموض عن السبب الذي يجعل الليلة الأيلوليّة الرائعة غريبةً ومقلقة: ثمّة إعصارٌ قادم، مكبوتٌ في إحدى زوايا السماء، في نهاية الصفوف الأخيرة للنوافذ

المضاءة والمتلألئة وفقًا لاستطاعتها في البعيد خلف ساحة بولونيا، على طريق سالاريا. سُحُبٌ عملاقةٌ ومتلبّدة وأشدّ قتامةً من تلك السماء العارية من قمرها، تتكردس غيمةً فوق غيمة، وتنضغط في آخِر الأفق، لتنفث صعقةَ رعدٍ وبرقًا لاهثًا.

*

استيقظ تومّازو في السابعة. لأنّه اعتاد ذلك آنذاك وقد بات يعمل؛ ولأنّه كان راغبًا في ارتداء اللباس الجديد بشدّة أيضًا.

رمى عنه الشراشف وقعد على السرير: «أمّاه» صاح، والبلغم في حنجرته، «جهّزي لي الماء، أريد أن أتحمّم!». ولكنْ لم يرده جوابٌ من هناك. «اللعنة على الموت!» قال بصوت منخفض وهو يسعل. ذهب ليفتح مصدّة الضوء المتخلخلة، وما إن رفع الحبل إلى أعلى حتى امتعض ممّا رأى. «سحقًا» صاح إلى السماء التي كانت بيضاء ومنخفضة ومتجمّدة.

«اللعنة، اللعنة!» ردّد بوجهٍ شوَّهه الغضب. كانت نافذة بيته، تحت السطح مباشرة، تطلّ على جانبٍ كبير من المنظر. في الأسفل، تنتهي البلدة العصريّة بشارع دي كريسبولتي عند الأطراف الصخريّة المقطّعة بوساطة الحفّارة بالتساوي كأنّها قطع حلوى، وعند الكنيسة التي باتت في طور الإنجاز تقريبًا.

كانت القتامة تطغى على كلّ شيء، كما لو أنّ الساعةَ السابعةُ مساءً لا صباحًا. قتامةٌ تميل إلى البياض وتكاد تتلألأ من هنا وهناك. وما زالت السماء تعتصر بعض قطرات المطر على زخّات: ما بلّل الأسطح والحقول والشوارع بالكامل. ما عدا الجانب المقابل حيث

لا تصل أنظار تومّازو، إنّما يصله بخياله، كان فيه بعض الضوء، أبيض حليبيّ أيضًا. «أمّاه» صاح تومّازو ثانيةً «أمّاه!». لا شيء. خرج من الغرفة بقميصه الداخليّ وسرواله كيفما كان. المطبخ خاوٍ، لكنّ أصوات النساء تناهت إلى مسمعه من الخارج. كان باب البيت مفتوحًا على المستراح حيث الجلبة. وكان سرواله أصفر من شدّة اتّساخه، وقدماه أيضًا كانتا متسختين، ومليئتين بالبقع والخطوط السوداء. ظلّ في المطبخ ونادى: «أمّاه!». فأطلّت والدته رأسها من حافّة الباب وقالت: «ماذا تريد؟». «جهّزي لي الماء، أريد أن أتحمّم» قال غاضبًا. «دعيني أدخل، هيّا!» قالت والدته لجارتها «سلامًا سيّدة روا» فردَّت عليها: «سلامًا سيّدة ماريّا، إلى اللقاء!» وكانت سمينة ولاهثة وتفوح منها رائحة الطبخ الثقيلة على الدوام.

«سحقًا إلى اللقاء!» غمغم تومّازو. دخلت أمّه المطبخ، وأخذت القِدر ووضعته تحت الصنبور. وكان تومّازو يرتجف بردًا: «اللعنة، أوه، يا للبرد! ماذا، هل عاد الشتاء؟» قال وهو يذهب مسرعًا ليرتدي بنطلون اليوم الماضي وقميصه. «اللعنة على هذا المطر!» ردّد بقوّةٍ وغضب، إذ كان متضايقًا أن يفضّ بكارة لباسه الجديد بهذا الشكل.

«ماذا، ألم تسمع هذه الليلة؟» قالت له أمّه من المطبخ. «أسمع ماذا؟» ردّ متعجّلًا. «الإعصار!» قالت. «كنت نائمًا» ردّ بلامبالاة. «اللعنة، ألم تشعر بالصواعق؟ لقد ضربت إحداها هنا في بونتي مامولو! بدت لي أنّها نهاية العالم!» كانت مذهولة بسبب ذلك الأمر الطارئ. تابعت: «ياه، ألم تسمع أنّ السيّدة روزا جاءت إلى بيتنا لأنّها كانت خائفة؟ بقيت هنا أكثر من ساعة، معي ومع والدك! حتى إنّنا

شربنا القهوة!». «أحسنتم!» قال وهو يدسّ قدميه في الجوارب التي ما زال يرتديها منذ أسبوعين. «لم أشهد إعصارًا مثيلًا له في حياتي كلّها» ما زالت والدته تتحدّث.

«ماذا، هل جهز الماء؟» قاطعها تومّازو. «ما بك؟ هل جننت؟ لقد وضعته على النار توًّا!». «وهل تريدين أن يغلي غليانًا؟». «لا، ولكنّه بارد! وبهذا البرد قد تصاب بالسلّ سريعًا، وإن أصابك السلّ هذه المرّة فقد جنيتَ على نفسك!» قالت والدته بعصبيّة. «آه، لكنّكِ هكذا تريدينني أن أنتظر ساعة هنا!». «ولِمَ العجلة؟». «إنّها شؤوني الخاصّة!» ردّ تومّازو بشراسة. ذهب إلى المطبخ وألقى نظرة على القِدر المليئة بالماء البارد. «أجل، على مهلك!» قال بصوتٍ أشدّ شراسة. عاد إلى غرفته الصغيرة، فتح الصندوق في الدُّرج القديم المتخلخل، وأخرج اللباس الجديد. كان أسود، مخطّطًا بالأبيض، كلباس المساجين. «ياه، ما أعظمه!» قال مزهوًّا من كثرة السرور.

وفي تلك اللحظة استيقظ شقيقه النائم على سرير صغير بجانبه. ومثله قام ممتعضًا لإلقاء نظرة على الطقس، دون أن يفوه بكلمة، وسرعان ما ارتدى بنطلون اللباس الجيّد. ذهب إلى المطبخ حافيًا. «كم الساعة يا أمّاه؟» قال بصوتٍ ممزوج بالبلغم هو أيضًا. «الثامنة تقريبًا» ردّت أمّه التي جلست لنقع الفاصوليا على طاولة المطبخ التي نخرها العثّ. وبدأت السماء تصفو قليلًا، بما أنّ سقف الغيوم برمّته كان أكثر لمعانًا، وأخذ يتفتّت من هنا وهناك. وبعد قليل استيقظ والد تومّازينو أيضًا، واتّجه إلى المرحاض مباشرة حيث كان يمكث فيه قرابة نصف ساعة كلّ صباح. «اللعنة عليه!» قال تومّازو راكضًا

نحو الحمّام. «دعني آخذ الحوض يا أبي!» قال. فأفسح له والده وهو يسعل، فانتزع تومّازو الحوض عن الجدار الرماديّ المتقشّر. وكان الحوض وحدانيًّا ومعلّقًا بمسمار. سعل أبوه واستفرغ البلغم كالمجنون، وأغلق على نفسه. حمل تومّازو الحوض إلى المطبخ. «ماذا حلَّ بالماء، اللعنة على الماء!» قال وهوِ يغطّس إصبعًا بالقِدر. وكان شقيقه يسخِّن الحليب. أُسعِد تومّازينو لأنّ الماء أصبح فاترًا، وأتى بإناء صغير من تحت الخوان. «ما زال باردًا» قالت السيّدة ماريّا وهي جالسة تنقع الفاصوليا ما بين ساقيها بجانب الفرن. كان المطبخ يضيق بهم، وحيثما التفت أحدُهم نعر الآخرَ أو هرس قدمه. «آه يا أمّي!» قال تومّازو «إيه!». كان مهووسًا، حرّك الطاولة وجاء بكرسيٍّ ووضعه بجانب المغسلة، ووضع الإناء على المغسلة.

وفي تلك اللحظة تسرَّب شعاع الشمس من النافذة وأنار المطبخ بضوء صافٍ، لوهلةٍ قصيرة وسرعان ما تلاشى. ازداد مزاج تومّازو هناءً إزاء هذا الإعلان الأوّل عن عودة الطقس الجيّد. عاد إلى غرفته، نزع ملابسه المتّسخة ببطء ورماها. «والآن سأتحمّم!» كان يفكّر «وبعد ذلك تبدأ الحياة!». اقترب من سترة العمل الملقاة على مسند كرسيّ محطّم، أخذ منها محفظته والبطاقة الحزبيّة، وسيجارتين متبقّيتين، والقلم ذا اللون الأحمر والأصفر، وأخيرًا الخمسة مائة ليرة المسّدة جيّدًا. وضع كلّ الأغراض على الدُّرج، وعاد إلى المطبخ بالسروال. كانت والدته تنتهي من تقشير الفاصوليا، والفصوص مبعثرة على الأرض؛ وشقيقه يتناول القهوة بالحليب الذي كاد ييبس من كثرة امتلائه بالخبز.

وضع تومّازو الحوض تحت الكرسيّ المُعدِّ بجوار المغسلة، ثمّ

سكب ماء القِدر، بعضَه في الحوض وبعضَه في الإناء. وجلس على الكرسيّ، وأنزل قدميه المتّسختين في الحوض، حيث كان يغتسل من بطنه إلى أسفل دون أن ينزع السروال. أمّا اغتساله من البطن إلى أعلى فكان يتمّه بالإناء، على المغسلة. وحينما انتهى، وتنشّف أيضًا، تغلغل ضوءٌ نقيٌّ منعشٌ من النافذة إلى المطبخ حتّى بدا رذاذ مطرٍ ذهبيّ.

صفت السماء كلّها أو تكاد. وتحوّلت إلى بحرٍ من ضياء. وبقيت الغيوم المتلبّدة والمسحوقة، والمشبعة بالضوء الأبيض، على مدار ذلك البحر كأنّها خيوطٌ من الرمل.

عائلة سباداتشيني المقيمين تحت شقّة تومّازو، شغّلوا الراديو الذي استهلّ مندفعًا بموسيقى الكومبارسيتا. وصدرت أصوات الفتيات، اللواتي يدبّرن شؤون المنزل أو يرتدين ثيابهنّ، من النوافذ المفتوحة في المنطقة. وكنَّ يدمدمن الألحان التي يبثّها الراديو، كلٌّ على هواها، بينما صعدت من الشارع أصواتُ الفتية الواقفين عند النافورة.

عاد تومّازو إلى غرفته ليرتدي اللباس، وهو يدمدم الكومبارسيتا بسرور أيضًا. واستغرق حوالي الساعة. لكنّ الوقت كان باكرًا، وكان مستمتعًا بصحبة الراديو في انتقاله من الكومبارسيتا إلى أغنية «سهرة في مايو»، ومنها إلى ماروتزيلا. أمّا المهمّة الأصعب والأعقد فكانت في تسريح شعره: عاد إلى المطبخ وهو يغنّي مع الراديو، وما زال بالسروال، النظيف. غسل شعره مثل فرخ البطّ، ثمّ عصب رأسه بشريطة لكي يتلاءم شعره مع التسريحة. نزعها بعد دقيقتين، وأخذ يسرّح شعره بالمشط متساقط الأسنان الذي كان في جيبه، ونظر إلى انعكاس نفسه في زجاج نافذة المطبخ. إلّا أنّ شعره من الخلف، عند رقبته، بدا له

منتصبًا أكثر من ذي قبل، بينما كانت غرّته المبلّلة تنسدل على ناصيته.
«اللعنة على شعري!» قال ممتعضًا وعاد يدمدم:

عندما توافقين، تذكّري جيّدًا
لا ينبغي للكِ إيلام قلب العاشق...

غسل شعره مرّة أخرى وعقده بالمنشفة القذرة التي نشّف بها قدميه. وراح يفركه مرّتين أو ثلاثة. وخلال الفواصل كان يسترخي على المقعد المبلّل، يصفّر أو يدمدم. وفي النهاية بدا شعره أنّه لائق عليه كما يشاء الربّ: إذ كان مرطّبًا ويمنح رأسه شكلًا معيّنًا، ممتلئًا ومدوّرًا مثل كلب البراكا، ذي العنق النحيل والأذنين الملتصقتين على الجانبين المحمرّين خلف الصدغين.

لكنّ تومّازو كان مسرورًا، فصاح بقوّة لكي يجتاز صوتُه الجدارَ: «أبتِ، استعجل!». وبانتظار أن يتعجّل والده، راح يغنّي من جديد. وبالفعل، بعد قليل سمع صوت الماء يتفرّغ في المرحاض، وخروج أبيه. فهرع تومّازو ليشغل المكان، ووسَّع ساقيه لأنّ المرآة الصغيرة منخفضة، وبدأ يعمل بالمشط على شعره، قرابة العشرين مرّة، ويسرّحه إلى الخلف مرارًا على طريقته المعتادة. استغرق وقته ثمّ خرج وارتدى لباسه أخيرًا.

وكانت الشمس في الخارج تعشي الأبصار. ومع ذلك بدا شارع دي كريسبولتي شبه مقفر. ولدان أو ثلاثة، ربّما لا يعرفون من الكلمات سوى ماما، كانوا يلعبون في وسط الرصيف. وفي حين أنّ همهمة البنات تتصاعد من البيوت المشوّهة، على الجهة اليمنى، في تلك البلدة

المسحورة، لم يكن أحدٌ في الأسفل.

هذا على الرغم أنّه كلّ صباح، ولاسيّما يوم الأحد، كان ما لا يقلّ عن ثلاثين ولدًا يلعبون المباراة أو الورق على إحدى المصاطب؛ ناهيك بشبّانٍ من جيل تومّازو يدردشون أو يتشاجرون تحت السلالم وفي الأفنية.

«وما أدراني!» علّق تومّازو محبطًا، إذ كان يعوّل كثيرًا على أن يراه الجيران بمظهره الأنيق ولباسه الجديد.

لا بل اتّخذ هيئة هادئة ومطمئنّة، كمن يمضي في شؤونه الخاصّة ومع ذلك لا يجد حرجًا من التوقّف قليلًا لثرثرةٍ عابرة، لمجرّد إبراز مودّة عامّة تجاه الجميع.

وبالتأكيد كان فائق الهندام: الشمس تتلألأ على بدلته السوداء، وتعبق بقماشتها الثقيلة، وفقًا لوقع خطواته الواثقة والمتهادية، وحركات يده التي تحمل السيجارة برفقٍ إلى فمه. وفي نهاية الخطوط البيضاء لبنطلونه يبرز الحذاء الجميل المدبّب، الذي اشتراه منذ مدّة لكنّه ما زال يبدو جديدًا.

خطوةً بخطوةٍ هبط على شارع لويجي تشيزانا، الشارع الرئيس في مساكن إنا، حيث لا أحد سوى نساء وبضع شبّان، إن وُجِدوا، يمضون بدرّاجاتهم الناريّة بسرعةٍ فائقة. وناقوس الكنيسة يقرع يائسًا.

«ما أدراني!» ردّد تومّازو مكشّرًا وهو يشرف على هذا المكان المأتميّ.

دخل إلى بائع التبغ ليشتري السجائر الوطنيّة، إذ لم يعد في جيبه منها إلّا ثلاثة أو أربعة. وحتى هناك لم يجد إلّا رجلًا عجوزًا ببنطلونٍ مهمل. ازداد فضول تومّازينو، أخذ السجائر ودفع ثمنها وخرج.

ولم يجد أحدًا أمام محلّ الحلّاق، المجاور لبائع التبغ، إذ كانت جميع المحلات في مساكن إنا متكدّسة بما يشبه البازار ضمن طابق واحد في وسط البلدة. لا أحد من أولئك المتسكّعين، سوى العجزة، وبعضٍ ممّن يعرفهم بالنظر فقط.

وما زال يهبط في شارع لويجي تشيزانا الذي كان منحدرًا نحو شارع تيبورتينا، وحاول أن يستوعب السبب. على يمناه، في الجانب الأشدّ وعورة، هناك بيوت متراكمة بعضها على بعض، بنظامٍ سُلَّميّ، بحيث إنّ الطابق الأوّل للبيت الثاني يقع على مستوى الطابق الثاني للبيت الأوّل، وهكذا دواليك: سلالم خارجيّة كثيرةٌ توحّد الواجهات الملوّنة، بعتباتٍ تؤدّي دور شرفات المداخل، كلّها شباكٌ حديديّة وقضبان.

وفي أحد تلك الأقفاص، كان شينتيلوني، شابٌّ يعرفه تومّازو. «لحسن الحظّ، فلنسمع ما يقول!» فكّر تومّازو في نفسه. كان شينتيلوني يرتدي قميصه الداخليّ عند شرفته، بينما تنعق النساء في الداخل، يتأمّل الدربين المحاذيين للثكنات وقد سكنتهما الشمسُ بانعكاسها على المروج العارية.

«أيّها المرّيخيّ!» ناداه تومّازو وهو يمرّ تحت إحدى العتبات. ظلّ شينتيلوني صامتًا. توقّف تومّازو لامباليًا، ومهلهلًا في ثيابه الباهرة.

«أوه» قال له «هل تعلم أين الآخرون: فرانكوليكيو، روجيريتو، أوغو كاربوني...»

نظر إليه شينتيلوني، وقد أحرقته الشمس كخبزةٍ أُخرِجَتْ من الفرن توًّا: أخفض نحوه عينيه السوداوين، وحدّق به سارحًا بأفكاره لوهلة، بأذنيه المشنَّفتين خلف جبينه، وشعره الأسود القصير اللامع،

الذي كاد يصير أزرق من شدّة اسوداده. ثمّ طقطق بلسانه ببطء، وبكسلٍ حتى بدا لسانه ملتصقًا بسقف فمه. ونهض في النهاية، يتمزّق من التثاؤب، مثل النمر، وانصرف دون أن يفوه بكلمة نحو الممرّ الضيّق ما بين السلالم التي في عمق الشرفة.

«أيّها النعسان!» قال له تومّازو بنبرةٍ مريرة واستأنف سيره. «اللعنة عليك!» صرَّ بأسنانه «ولكنْ أين الآخرون، هل ماتوا جميعًا؟» قال بصوتٍ عالٍ وغاضب.

محمرَّ الوجه ومتسربلًا بلباسه الجديد، وصل إلى نهاية شارع تشيتزانا ودخل شارع تيبورتينا.

وثمّة شلّة من الفتية لا يعرف أيًّا منهم، كانوا يهبطون معه من مساكن إنا. كان أولئك الأوغاد من المدلّلين عند آبائهم، طلّابًا برؤوسٍ حليقة ووجوهٍ وقحة، يسعون للمشاكسة. وكانوا ذاهبين متهيّجين نحو تيبورتينا مثله. لم يعرهم تومّازو أدنى اهتمام بينما كان سائرًا بجانبهم، بل حافظ على هدوئه وحزمه. لكنّه في أعماقه كان يتوق لطرح السؤال عليهم: ما الذي يجري؟

انبثق أولادٌ وفتية آخرون من شارع بيترالاتا، في الأسفل، تحت جبل بيكورارو الذي كان يتمدّد عاريًا تحت الشمس كمكبّ النفايات.

الكُلّ ذاهبون بمجموعات نحو تيبورتينو، ولكنْ بلا عجالة. وهناك عصابة منهم تسير أمام تومّازو تحديدًا، على الرصيف المرفوع، عند سَفوح جبل بيكورارو. «فلنرى هؤلاء، لعلّهم يعلمون شيئًا، هؤلاء الحقراء!» اقترح تومّازو على نفسه. وجّه إليهم أبصاره ليرى إن كان يعرفهم، لكنّهم كانوا مجهولين بالنسبة إليه. بعض الوجوه الدنيئة ما

تزال رضيعة، غير أنّها ماكرة كالثعالب. كان جميعهم بهندامٍ حسن: القمصان الملوّنة والبنطلونات الأمريكيّة المشبعة بالجيوب الصغيرة والأزرار على الأرداف والقضيب، وأكثرها مترهّلة بلا حزامٍ يشدّ تلك الخصور النحيلة كالراقصات. كانوا يمشون متكوّمين بعضهم على بعض. «ستبقى الكرة مع بروسبريلو!» صرخ أحدهم مستاءً ذو وجه أشقر كالزيت. «مَن بروسبريلو؟» سأل آخر ذو غرّةٍ مرسلة على جبينه بطول شبر. «ذاك صاحب الأرداف الجميلة!» أجاب الأوّل في حين كان وجهه ينشطر نصفين من هول ابتسامته المسرورة. «انتظروني، انتظروني!» صرخ واحدٌ غريب الأطوار من خلفهم. «هيّا، استعجل!» ردّ عليه واحدٌ من الشلّة بنبرة جامدة. كان الشقيق الأصغر لاثنين من معارف تومّازو، فرانكوليكيو وروجريتو. «أوه» نادى عليهم تومّازو «أين فرانكوليكيو وروجريتو؟». «وما أدراني أنا!» ردّ الولد وهو يبصق لإظهار مستوى اليقين الذي يولّد كلامه، ودون حتى أن ينظر إلى وجه تومّازو، وعاد لينغمس مع رفاقه.

«سحقًا لك!» صرَّ تومّازو بأسنانه، إذ لم يشأ أن يطرح أسئلة دقيقة حياءً منه، ولأنّه لم يكن ليحطّ من قدره بمهاترة هؤلاء الأوغاد الصغار.

والحال أنّهم كانوا متّجهين جميعًا نحو تيبورتينو، فرادى أمْ زُرافاتٍ على حدٍّ سواء تحت الشمس.

وبات تومّازو على مقربة من حانة ألفين، التي كانت هناك تمامًا عند مشارف تيبورتينو، قبالة جبل بيكورارو. أنهى عقب سيجارته بعجالة، ووضع يديه في جيوبه، وسارع خطاه.

هنالك حشدٌ للدرّاجات الناريّة الحمراء عند الحانة، وتحت العريشة نفرٌ من الشبّان يتمازحون ويتعاركون.

كانوا جالسين إلى الطاولات الحديديّة، أو متجمّعين وقوفًا بعضُهم داخل الحانة وآخرون خارجها، بشكلٍ عفويّ: لكنّهم قلّة بالمقارنة مع أعدادهم بالعادة.

«هل ستدفع ثمن القهوة؟» قال له أحد المسترخيين على مقعدٍ مبعوج، مفرجًا بين ساقيه الطويلتين، ويداه على بطنه. ابتسم تومّازو بلؤم، فيما كان وجهه يتجعّد مشحونًا ببقعٍ حمراء. واقترب دون أن يجيب على سؤاله.

«أوه، إنّي أقصدك أنت بالكلام!» ألحّ الآخر موحيًا بتكشيرةٍ منه بأنّه لا يمزح البتّة.

«هيه يا روجريتو» قال تومّازو بصوتٍ رقيق وعميق «لا تصدِّع أَيْ**!»

«أيّها المعدَم!» تابع روجريتو، وقد أرخى تشنُّجَ وجهه وتناسى تعبير النفور الذي أدلى به منذ قليل «ماذا، أليس في جعبتك خمس ليرات لتدعو بها صديقك إلى فنجان قهوة؟ أهذا معقول؟ أهكذا تقدِّم نفسك؟»

ثمّ لم يعد يسمع هو ذاته ما كان يتفوّه به.

«أووووه» قال وهو يتمطّى بذراعيه المرفوعين كالكلب. انثنى قليلًا على المقعد الصغير، مبرزًا بطنه. وحينما انتهى من التمطّي والتثاؤب فجأة، نهض منتصبًا كالسكّين، أنزل كنزته السوداء على قميصه الأحمر، وأرخى بنطلونه على قضيبه ببطء، وانصرف إلى شؤونه.

وكان شقيقه فرانكوليكيو يلعب الورق مع ثلاثة أنجاس تحت العريشة. دنا تومّازو منهم، بهدوء، مركّزًا عينيه على الورق. ربّت على كتف فرانكوليكيو وقال له: «أحيّيك يا صاح!»

ألقى فرانكوليكيو عليه نظرة خاطفة مثل ضربة السوط: وجهه متشنّجٌ للغاية، لأنّ عقب السيجارة معلّقٌ بين شفتيه. «ماذا تريد؟» قال بنبرة حادّة، وعاود اللعب، غاضبًا مثل ثعبان. راح تومّازو من خلف ظهره يغنّي، متأثّرًا بمزاجه الرائق وحالة السلام التي غمرته:

عندما توافقين، تذكّري جيّدًا
لا ينبغي لكِ إيلام قلب العاشق...

كان في أوج تلميحه وسخريته، ما دعا أحد أولئك الذين يلعبون، والذي لم يكن من معارف تومّازو، إلى التحديق إليه بنظرةٍ معيّنة، ملتزمًا الصمت.

تحرّك تومّازو بكسلٍ بين مجموعات أولئك الذين يسندون أردافهم إلى حوافّ الطاولة المجاورة ويتابعون المباراة. وكان أوغو كاربوني والرفاق الآخرون من أورشليم في معزلٍ عن هؤلاء. كانوا يتناقشون في أمرٍ مهمّ للغاية على ما يبدو، جالسين تحت أوراق العريشة المبلّلة التي تتغلغل من بينها فقاعات الشمس. اقترب منهم تومّازو لامباليًا. فرآه أوغو كاربوني الذي كان أحد أصحابه الجديد في مساكن إنا، وقطع النقاش. «اللعنة عليك كم أنت أنيق!» قال وتضرّج وجهه قليلًا تحت جذور شعره الفاتح. ها هو واحدٌ كما ينبغي على الأقلّ. «إيه» قال

تومّازو ساخرًا «إنّني القوّة، كما تعلم!». نظر إليه أوغو ثانيةً وكان متأثّرًا، بتكشيرةٍ على وجهه كأنّه يقول: "معك حقّ، فعلًا!". ثمّ انتقل والآخرون نحو الشباك الحديديّة لاستكمال النقاش.

فظلّ تومّازو وحيدًا تحت العريشة.

وضع يديه في جيبه، وتثاءب قليلًا، وذهب ليستريح على مقعدٍ كان هو وشبيهه ضائعين في وسط كلّ ذلك. استلقى عليه، ووضع ساقًا فوق ساق، وثنى رأسَه إلى الخلف إذ لم يكن مستريحًا حقًّا لأنّ المسند كان منخفضًا، وأخذ يغنّي بنبرةٍ متهكّمة:

عندما توافقين، تذكّري جيّدًا
لا ينبغي لكِ إيلام قلب العاشق
لقد قلتِ لي "موافقة" في إحدى أمسيات مايو
والآن تتجرّئين على هجراني...

وبينما كان يغنّي بشغفٍ متزايد، كأنّه نسي أنّه يغنّي من أجل السخرية، حامت عيناه البنّيتان هنا وهناك، لاسيّما نحو مجموعة أولئك الذين يلعبون وأولئك الذين يتفرّجون عليهم ويمضغون العلكة التي كانت في أفواههم منذ ساعة. كان ألبرتو من بين هؤلاء، أو بالأحرى الشابّ المحاسب الذي كان صديقًا لتومّازو منذ تلك الأيّام التي كان مقرّبًا خلالها من اليمينيّين المتطرّفين. وبعد أن رآه، عدّل تومّازو جلسته على المقعد، كأنّه ينوي أن يغفو عليه، وعقد يديه على بطنه، وتابع الغناء بأجمل ما عنده.

وما لبث أن توقّف فجأة، وقال بجفنين متهدِّلين مثل قسٍّ في مرحلة الاعتراف، مضرَّج الوجه من المتعة: «يا ألبرتو!»

سمع ألبرتو هذا – الشبيه بالممثّل ألبرتو سوردي – سمع مَن يناديه، فنظر حوله بكلّ براءة.

كان ما يزال على سابق عهده، شاردًا ومتأنّقًا لأنّه في يوم الأحد، ببدلة جميلة من جلد اللاما الرماديّ، وحذاء من جلد الغزال وكنزة صفراء مفتوحة بعض الشيء لكي يبرز زغب الصدر الحقير.

رفع ساعده حين رأى تومّازو وقال: «أوه يا تومّا!»

عاد تومّازو للتثاؤب وتجعّد جبينه قليلًا، بسببٍ من الكسل والرخاء معًا. رفع ذراعه فقط كما لو أنّ أنفاسه تضيق فلا يستطيع إلقاء التحيّة.

نهض الآخر واقفًا وقدم إليه.

«اللعنة كم أنت أنيق!» قال له.

ظلّ صامتًا يتمعّن بندّيّةٍ إلى لباس تومّازو. والتزم تومّازو الصمت من جانبه، بهيئةٍ ساخرة من كونه صار عرضة لنظرات الناس.

ثمّ رفع ساقه اليمنى أوّلًا فالثانية عن المقعد الذي كان أمامه، وحرّك ذقنه نحوه وغمغم: «تفضّل، اجلس!»

«أوه يا تومّا» قال الآخر «لم لا نقوم بنزهة على درّاجة الڤسپا؟ ما الذي نفعله هنا؟»

«هيّا بنا!» قال تومّازو متثاقلًا.

«فلنذهب لرؤية النهر» قال ألبرتو متحمّسًا للتدرُّج.

تظاهر تومّازو بأنّه يعرف عن أمر هذا النهر، ونهض. ولكنْ قبل أن

ينهض، ظلّ جالسًا بسعادة حيال ذلك المقترح، كأنّه يستجمع قواه؛ ثمّ انتفض واقفًا على قدميه، شامخًا كالممثّل رودي بتلك البدلة الجديدة الخارقة. «هيّا بنا!» قال ثانيةً. تمطّى وخرج ببطء مع ألبرتو، مخلِّفًا وراءه أولئك الأغبياء منهمكين بتوافههم كالعادة.

كان تومّازو وألبرتو أكثر الموجودين أناقةً في حانة ألفين. بوسعهما أن يتصرّفا كالمشاكسين إلى حدّ ما وبدون مبالغة. خرجا بهدوء وشرود، وامتطيا القسبا، ألبرتو على المقود وتومّازو خلفه. داس ألبرتو ستّ مرّات أو سبع بكعبه على مشغّل المحرّك ابن الساقطة هذا، فيما كان تومّازو يستريح لامباليًا وينظر حوله. ولم تتغيّر تعابير وجهه حتى عندما انطلقت الدرّاجة الناريّة بسرعة قصوى: كان يضع يديه بكلّ هدوء خلف ظهره كما لو كانت مكبَّلتين بالأغلال.

على يمينهما جبل بيكورارو، وعلى يسارهما مساكن تيبورتينو في عمق الساحة، وجرس الكنيسة ينوح كالثكلى، تبدّدت خلفهما. ثمّ تبدّد شارع ميسي دورو، والمقصف وصفوف شجر الدفلى المنهكة على امتداد هامش الرصيف، وما عليه من أناسٍ وفيالق أولاد وشبّان هنا وهناك يمشون بالاتجاه نفسه نحو شارع تيبورتينا. وتبدّدت سينما سيلفر والمصنع الصغير الذي أنشئ مؤخّرًا وكان يعبق بالصابون.

كان نهر الآنييني يصل إلى تيبورتينو بالهبوط من كاستيلي. وهناك، كان يمر تحت جسر صغير وقديم مصنوع من القرميد، حيث توجد جرّافة نهريّة ومقصف قديم وسرداب. ثمّ يعرّج على مزارع مهملة ومريبة ومليئة بكلّ خيرات الله من جهة، ومن الجهة الأخرى تمتدّ نحو مساكن تيبورتينو بقطعةٍ ريفيّة من أعواد القصب وسنابل القمح المحصودة

بطريقة سيّئة. ثمّ يمرّ تحت مصنع ماء الكلور، وخزّانات، وأروقة، وشرفات عسكريّة، تصبّ جدولًا أبيضَ من الأسيد في مجرى النهر: يدلف قوس جسر تيبورتينا، ويختفي تحت نفق من القصب، ويمضي نزولًا نحو مونتيساكرو، ليردف نهر التيفر.

وفي يوم الأحد ذاك، كان هذا الجزء من السهل برمّته قد تحوَّل إلى بحر.

لا شيء إلّا الماء على امتداد النظر، باتجاه جبال تيفولي من ناحية، وباتجاه حيّ تيبورتينو من الناحية الأخرى.

فتبدو منطقة تيبورتينو ناتئةً مثل ميناء، بصفوف أبنيتها المتشابهة كالمستودعات، والتي تظهر بواجهاتٍ بيضاء تنيرها الشمس، وواجهات خلفيّة سوداء تقبع في الظلّ.

لا يمكنك أن تميّز بين حقول ومزارع وسدود وطرقات ودروب. وفي العمق كان كلٌّ من مصنع الغاز الصغير وأدغال المنارات والكاشفات المركزيّة تبدو مثل السفن الراسية.

وكانت كتلة المياه تندفع إلى أسفل لتغدو صفراء ومكثّفة، بفقاعات متلاطمة كالزبد حتى سدّ تيبورتينا: هناك تتوقّف، غاضبةً، وتتراجع ثمّ تُسيَّرُ مرّة أخرى نحو سرير النهر المعهود، وتتجمّع بأمواجٍ داكنة وتمرّ هائجةً تحت الجسر: وهناك تتّسع ثانيةً في الريف: ثمّة أربعة أو خمسة دورٍ ريفيّة في المنتصف لكأنّها نسخ كثيرة عن سفينة نوح.

وكانت الشمس تسطع على كلّ هذا المحيط الشاسع من المياه، لتصبغ وجه آلاف وآلاف الأمواج والثنايا بالأصفر الذهبيّ، وتنير الجذوع السوداء والحشائش والصناديق والقمامة وبقع الزيت التي تطفو على

سطح ذلك المدى المائيّ المتأجّج.

وهكذا كانت تيبورتينا مثل رصيفٍ بحريّ، يعجّ بالناس الذين جاءوا للاستمتاع بمشهد الفيضان، كأنّهم يحيون ليلة الزلزال العظيم.

وها قد وصل الخطّ 311 المتّجه إلى ريبيبيا: كان يسير ببطء شديد بين اكتظاظ الناس، وتوقّف حين وصل إلى مستوى الجسر.

وكان ألبرتو وتومّازو على الدرّاجة، مع الآخرين أصحاب الدرّاجات، الذاهبين لرؤية ما الذي يحدث. وبالفعل، على بُعد خمسين مترًا من الجسر تقريبًا، كان الشارع عرضة للفيضان في أسفل. والناس في الحافلات، منهم مَن نزل ومنهم مَن بقي يطلّ بعنقه من النافذات. وها إنّ ثلاثة شبّان من بونتي مامولو، متأنّقين بأبهى حلّة، نزعوا أحذيتهم وجواربهم، وبرموا أطراف البنطلونات إلى حدّ الركبتين، كالقراصنة، وتواثبوا للفت الانتباه وراحوا يعبرون الشارع الغريق وهم يتضاحكون ويتمازحون. وعندما صاروا على الجسر ركضوا حفاة مبتهجين نحو بيوتهم في شارع كازال دي باتزي.

أمّا الذين بقوا هناك، عجزة ونساء وموظّفون، فأخذوا يعضّون أيديهم غضبًا ونفادَ صبر. وأمّا السائق فاضطجع على مقعدته ووضع يديه على كرشه وراح يصفّر.

ظلّ ألبرتو وتومّازو مطوّقين بزمرة من العجيان والشبّان قرابة الساعة، يتابعون العمليّة بأسرها وهما مستندين بأردافهما على متن الدرّاجة. وصلت حافلة أخرى من مونتيساكرو، من الجهة الأخرى للجسر، إذ لا يمكن الوثوق بقدرته على التحمُّل: فانتقلت الناس إلى تلك الجهة بطريقة أو بأخرى، مبلّلين حتّى النخاع، وصعدوا تلك

الحافلة. فصارت تيبورتينا العائمة وسط البحر مزدحمةً بالسيّارات أكثر من وسط روما في ساعة الذروة.

الناقوس الوحيد في الأرجاء كان لكنيسة تيبورتينا. ناقوسٌ صغير، أخذ يُقرَع معلنًا عن منتصف النهار، حيث توارت الشمس كلّيًا.

وها هي السُّحُب المتلبّدة والمتكدّسة في آخر السماء تعاود انتفاخها؛ بيضاء كالقشدة، انزلقت إلى أعلى، وتجمّعت وتفرّقت وتراصّت وتبعثرت وتوحّدت مرّة أخرى، رقيقةً حتى بدت عرائس في فستان الزفاف، أو قاتمة ومسلوخة كأكوام القمامة التي يرجرجها البرد. سدَّت منافذ السماء بأسرها، غيمة مرتفعة وأخرى منخفضة، غيمة هزيلة وأخرى بدينة، غيمة داكنة وأخرى بيضاء، وجميعها ملطّخة ومتجمّدة. وما زالت الشمس تتسرّب من إحدى فجوات السماء، الشمس التي بدت منهكة ومنسيّة من الربّ، إذ كان هناك دخانٌ ليس بضبابٍ ولا غيوم، يلاحق تلك الفجوة على موجات ليردمها ردمًا، دخانٌ مشؤومٌ كالروح. ثمّ استحال جزءٌ من حشد تلك السُّحُب والغيم والدخان إلى رماديٍّ متجانس، يهيمن فوق روما. كان من لون الأرض، وكان كالأرض المتصدّعة يتمدّد في أوانه فوق المدينة: ومن تلك الجهة تحديدًا، دوّى هزيمُ الرعد مجلجلًا حتّى تقصّفت منه العظام.

وبات لون المياه التي تعوم فوقها تيبورتينو وتمتدّ في المحيط فوق الأرياف، بات لونًا أسودَ؛ وصار من الصعب معرفة أنّه ماءٌ لولا اللمعان المضطربّ لهاتيك الثنايا.

*

ضرب الإعصار كما في الليلة السابقة، مصحوبًا بالصواعق والبَرَد.

وما لبثت الناس أن لاذوا بمنازلهم حالما زخّت أولى القطرات، وساد الظلام كأنّه ليلٌ.

وحوالي الواحدة، الواحدة والنصف، توقّف قليلًا لكنّ هطول الأمطار استمرّ بغزارة.

بعد أن تغدّى تومّازينو خرج ثانيةً إلى المقهى المجاور، وما زال متأنّقًا ومهندمًا، وحاول أن يُسَيِّرَ الأمور بعد الظهر.

ذهب إلى الصندوق وطلب رقاقة الهاتف بطمأنينة؛ وراح يلوِّح بالرقاقة بين أصابعه ويدردش مع صاحب المقهى، الذي كان عجوزًا شيوعيًا، ينحدر من ساكروفانو، وكان معتقلًا في أيّام موسوليني. ثمّ اتجه إلى كابينة الهاتف ببطء شديد، واتّصل بالرقم، وانتظر وهو ملتفتٌ نحو الجدار المطليّ مؤخّرًا. انتظر وقتًا طويلًا، لأنّه اتّصل بالعائلة التي تسكن تحت شقّة إرينه، وعليهم أن ينادوها من نافذة إلى أخرى، ثمّ ينبغي لها أن ترتدي شيئًا ما وتنزل السلالم. وعندما قالت "ألو!" بشراهة، التفت تومّازو نحو داخل المقهى، واستند بكتفه إلى الحائط وشبك ساقًا بساق وقال: «ها إرينه، أنا تومّازو!» ثمّ ابتسم واحمرّ خجلًا كما لو أنّ إرينه حاضرة هناك، ودخل بالموضوع سريعًا، إذ كان موضوعَ الساعة: «أترين ما أتعس الطقس!»

ويبدو أنّ إرينه من جهتها أدلت برأيها حول الطقس، متحدِّثةً بأمرٍ طارئ عن الصواعق. «اللعنة!» قال تومّازو كالسادة الأكابر، وأضاف: «أرأيتِ حظّنا العاثر! كنت أودّ اليوم تحديدًا أن آخذكِ بنزهة إلى روما، ولكنْ انظري ما الذي يحدث!». كان حينذاك حزينًا، وممتعضًا بصدق. بدا أنّ إرينه من الجهة الأخرى للخطّ حاولت أن تقول شيئًا

للتقليل من هول الطقس، فردَّ تومّازو متوجّهًا إلى صلب الموضوع: «ألا ترين الفيضان؟ هل نذهب وسط كلّ هذه المياه يا إرينه؟»، وأضاف على الفور: «لا، لا، لن ينقطع المطر، لن ينقطع! إنّها تمطر هنا منذ ثلاثة أيّام بلا هوادة!»

ظلَّ يصغي إليها بعض الوقت، ثمّ قال بصوتٍ يميل إلى التنغيم وبنبرة منخفضة: «ليس لديّ مظلّة يا إرينه، وتعلمين أنّي لا أمتلك مظلّة!». ولا بدّ أنّها قالت ما معناه: "سأهديك مظلّةً في عيد ميلادك إذن!"، فأجاب تومّازو بالفعل، وهو يتكئ بمرفقه على الحائط فجأة: «حسنًا، شكرًا على لطفكِ!». ويبدو أنّ إرينه على ذِكر أعياد الميلاد والهدايا استرسلت في قصّ حكاية، عن شخص ما، فظلّ تومّازو يصغي ووجهه يتضرّج أكثر فأكثر وابتسامته تغدو أرقّ، قائلًا: «ممم»، «إيه»، «نعم، نعم!»، «مَن هو هذا الشخص؟»، ثمّ ضحك في النهاية بمودّةٍ وسرور.

وصار يتكلّم بصوتٍ يزداد انخفاضًا، حتّى أصبح نسيمًا، بفمٍ يقول شيئًا ما وعينين متيقّظتين تحومان في الأرجاء على هواهما. عاد إلى موضوع الموعد أخيرًا واختتم الكلام: «جيّد، سأبقى في المقهى مع الأصدقاء. ألعب مباراة قصيرة وأخلد إلى النوم!». ثم أردف بسرعةٍ وخفّة، وبصوتٍ عالٍ، مبعدًا مرفقه عن الحائط ليمسك بالهاتف كما لو كان بوقًا يعزف عليه الحُجّاب في القصور: «غدًا أجل! غدًا، إن تحسّن الطقس أتيتُ!». وفي النهاية انكمش على نفسه وانحنى إلى الهاتف المسوك في أسفل، مستعدًّا لتبادل التحيّات. «إلى اللقاء إذن، يا إرينه، اتّفقنا، سنلتقي في الغد!». وبهمسةٍ أخيرة، ردّد مسرورًا

ومحمرًّا كالفليفلة: «إلى اللقاء!» وأغلق السمّاعة.

بعد ذلك، عاد إلى الصندوق وعدَّل سترته، وسعل قليلًا، وذهب للوقوف قبالة زجاج الباب لينظر إلى الخارج. وظلّ هناك مسرورًا، يدسّ إبهامه بين أزرار السحّاب، سارحًا في تأمُّل السماء. والسماء كانت قد صفت قليلًا، لتخفِّف من هطول المطر.

وكانت سينما بوسطن في يوم الأحد ذاك تعرض فيلم «ثمّة دربٌ في السماء»، لذا رأى تومّازو مشاهدة الفيلم واجبًا أخلاقيًّا. فكلّ أهالي مساكن إنا، الذين لم يذهبوا لحضوره في المساء السابق، كانوا يتهيّؤون إليه آنذاك.

مرّت مجموعةٌ من الأشخاص في شارع لويجي تشيزانا، معتمرين مظّلاتهم، أو السترة المطريّة التي تغطّي الرأس، يضحكون ويصيحون. وبينما كان تومّازو ينتظر انقطاع المطر نهائيًّا، اقترح على صاحب المقهى لعبة ورق سريعة، بلا رهان على مال. قال له: «إيه يا سيّد، هلّا لعبنا؟ شرط أن تكون مباراة ودّيّة». فوافق العجوز، وتراهنا على فنجان قهوة. لعب تومّازو وفاز، وشرب القهوة صحبة العمّ، وحينما انتهيا من ذلك توقّفت الأمطار فعلًا.

دلّى تومّازو أنفه إلى الخارج، ويداه في جيوبه واتجه نحو بوسطن. وفي شارع تيبورتينا، بدت الأشجار المهزوزة بمواجهة السماء بحرًا في خضمّ عاصفة، ما بين اختلاط العساكر والناس الذين ينتظرون الحافلة اغتنامًا لتلك اللحظة التي انقطع فيها المطر، وغناء كلاوديو فيلا يصدح في الأرجاء، من ميكروفون السينما. الهواء مبلّلٌ والغيوم خفيضة، وجبل بيكورارو والمصانع الأربعة بين الأكواخ كانت تتجلجل

بذلك الصوت الشادي بقوّةٍ تصمّ الآذان. وراح تومّازو يدمدم معه مبتهجًا وهو يمشي في شارع بيترالاتا بين صفوف الأشجار نحو السينما. دخل صالة بوسطن وهو يغنّي، وكانت الصالة مكتظّة تصهل فيها الضوضاء كأنّنا في خان، وتنبعث روائح الثياب الرطبة والأقدام القذرة والعرق المتصبّب. كان الأولاد في الصفوف الأولى يزعقون جالسين حتى على الأرض بين خطوط البول التي تجري تحت المقاعد وبين قشور البذر إلى أسفل الشاشة.

فاندسّ تومّازو وسط الدوشة، على امتداد الجدار المتقشّر. وسرعان ما انغلّ وسط زحمة الشبّان والأمّهات. ووصل إلى خلف عمود، فلفت انتباهه ذيلُ حصان يتمايل هنا وهناك وسط الفوضى. لا بدّ أنّها ضفيرة فتاة قصيرة القامة تسرّح شعرها بذلك الشكل.

«فلنرى إذن!» فكّر تومّازو وعمل على الاقتراب منها.

تلوّى بين زحام المربّيات اللواتي يتحوّلن إلى شياطين من شدّة الزعيق. وخلف العمود ثمّة فسحة خالية، إذ تتعذّر فيها رؤية الشاشة، والناس من هنا وهناك تطاول أعناقها. تأقلم تومّازو مع الوضع، مكتفيًا برؤية جزء صغير من الشاشة، وبدأ بالحركة، بقدميه ويديه، لاستمالة الوحش. الفتاة تبدو غريرة. «اللعنة!» فكّر تومّازو «هل أنا غول؟»، لكنّه لم يضحك على الرغم من تلك النكتة التي خطرت في باله.

انقضت ربع ساعة، وكان تومّازو رويدًا رويدًا يوشك أن يضع فخذه على فخذ الفتاة الصغيرة؛ وإذ بالأضواء توقَد، لتعود الصالة إلى ضوضائها المعهودة.

ثمّة مَن يصرخ ومَن يغنّي ومَن ينادي على بائع البذر، وثمّة مَن

يتسلّق مساند المقاعد في كلّ مكان.

حاول تومّازو أن يضبط وضعيّته، إلّا أنّه كان كمَن يشقّ البحر وسط عاصفة هوجاء. تظاهر باللامبالاة فسحب يديه واحدة تلو أخرى خارج المعمعة، وأشعل سيجارة؛ لكنّه إذ جال بأبصاره رأى شخصًا ملتصقًا بالعمود المقابل له، ولم يعرفه في البدء، حتى ركّز فيه أنظاره فأدرك مَن هو شيئًا فشيئًا.

إنّه زيميو: على الرغم من أنّه سمن كثيرًا واكتنزت بنيته في الأشهر الماضية، فإنّه كان آنذاك مفرطًا في التأنّق فصار يشبه كلّ شيء عدا ذاته. كان يعتمر برأسه إحدى تلك القبّعات الرماديّة، ذات القبّة المدوّرة والحوافّ العريضة والمتينة التي ضُمَّت بهامشٍ أبيض على مدارها، طبقًا لزيّ رجال الأعمال في ميلانو: قبّعةٌ جديدة جدًّا، لكأنّه اعتمرها على سبيل المراهنة، بوضعيّته العشوائيّة، مع أنّها تكاد تصل حاجبيه لتغطّي نصف البثور التي غزت جبينه. كانت القبّعة تضفي على زيميو هالة من السخف، فضلًا عن تعابير وجهه الجادّة. وكان يرتدي قميصًا أبيض، بربطة عنق قاتمة، كحليّة ومنقّطة بنقاطٍ بيضاء؛ إضافة إلى سترة خفيفة، رماديّة، من أجود أنواع الصوف، أكتافها تضيق عليه، تماشيًا مع الصرعة الحاليّة، على الطريقة البريطانيّة، وتحتها تتبدّى البدلة الداكنة التي تميل إلى السواد، بنسقٍ من الأزرار البيضاء، وتحتها أيضًا جيليه من القماشة نفسها. وقد غلَّ يده اليسرى بقفّازٍ وحمل بها الفردة الثانية، لأنّه كان بيمينه يدخّن سيجارةً مغروسةً في مبسمٍ طويل من الكهرمان.

جنتلمان حقيقيّ، متّكئٌ على العمود. «يا زيمّي!» ناداه تومّازو. نظر

إليه زيمّيو، ورفع رأسه بالكاد إشارةً للتحيّة، وهو يخفي ضحكة ماكرة.

مدّ تومّازو يده نحوه، ففعل ذاك مثله، وتصافحا بكلّ احترام من خلال الأصابع كما لو أنّها ألصِقَتْ بالصمغ. «إيييه» تنهّد تومّازو وهو يتمطّى «اللعنة على اللعنة!». نظر إليه زيمّيو بفمٍ تتفلّت منه الضحكة.

«حسنًا، ماذا تفعل؟» استفسر تومّازو بودّ.

«ماذا أفعل؟» ردّ زيمّيو «أصدِّع أيُ** العصافير!»

«إيه» تنهّد تومّازو مجدّدًا وتمعّن بأناقته «بأموالك!»

«طبعًا!» قال زيمّيو موجِّهًا سبّابته كالسكّين على عنقه «إنّني في الحضيض! مفلس! منتوف!»

«اخرس يا رجل!» قال تومّازو غيرَ مصدِّق.

«هلّا أدنتني خمسمائة ليرة!» قال زيمّيو بكلّ وقاحة.

نظر إليه تومّازو فرحًا وحالمًا وقال: «اللعنة! يا لك من ابن ساقطة!»

«أمّاه إنّي في غاية السعادة!» غنّى زيمّيو.

انطفأت الأضواء عندئذ وبوشر الفيلم بين صيحات الجمهور وتصفيره الأخير.

وعندما خرجا من بوسطن، ظنّ تومّازو أنّ الظلام قد خيّم منذ مدّة، لأنّ الليل يهبط في تلك الساعة عادة. لكنّه فوجئ بوجود الضوء. لم يفهم من أين مصدَرَهُ، لعلّ الكوكب قد انقلب رأسًا على عقب فانفتحت فوّهة الجحيم في الأعلى من حيث يَرِدُ اللهيب. كانت العتمة مسيطرة على السماء كلّها، إلّا أنّ هناك في الوسط ما يشبه انهيارًا بين السحاب، يضفي هالةً فيروزيّةً تضاء الغيومُ ما حولها بنورٍ

برتقاليٍّ كجدران البئر. غير أنّ بخارًا حالكًا كان يعبر قبالة تلك الإضاءة، بخارًا تدفعه الرياح على جناح السرعة، ويصير أشدّ كثافة، وينخفض حتى يلامس قمم البنايات السبع التي شادت مؤخّرًا في بيترالاتا، ويتّجه نحو الآنييني، وبراتي فيسكالي. وسرعان ما أمسى ذلك الدخان الأسود غيمةً بحقّ، وغربالًا للضوء النازف كالدماء من كبد السماء، فيخمدها ويبعثرها على بيترالاتا كرماد الموت.

وما لبث أن تكفَّنت الدنيا بالعتمة وجنَّ الليل. وبعد قليل، عاودت الأمطار انهمارها. بعض الأشخاص في شارع بيترالاتا كانوا عائدين بعجالة نحو منازلهم، وآخرون في عمق الطريق استناروا بأضواء المقهى وكانوا ينتظرون الحافلة، تحت هبّات الريح الساخنة.

وكان تومّازينو يهرول متجاوزًا برك المياه قفزًا، ويداه في جيبه وقد رفع ياقة قميصه أعلى، ووصل إلى المقهى وزيمّيو خلفه يركض ويكيل باللعنات على الموتى، في سرّه، متّبعًا السلوك نفسه في تجاوز برك المياه لئلا يتّسخ.

وهناك كانوا جميعًا، تقريبًا: ليلّو، زوكابّو، كاتزيتي، شاكالّو، زيليروني، مينكيا، فريغينو، بوذا، غريشيو، ناتزارينو، وأرواحٌ مباركة، كانوا متجمّعين على الأرض المبلّلة، منهم مَن يلعب الورق ومَن يثرثر.

دخل تومّازو، لم يره أحدٌ كالعادة.

ولكنْ ما إن دخل زيمّيو، التفت بوذا، ثمّ مينكيا، وبعدهما جميعُ الشلّةِ واحدًا واحدًا لينظروا إليه: ظلّوا برهةً يعيّنون فيه أبصارهم مندهشين، ثمّ انفجروا واحدًا تلو الآخر ضحكًا حتى توجَّبَ عليهم الإمساك بأطراف الطاولات كي لا يسقطوا أرضًا، فكادوا يتدحرجون

ويتبوّلون في ثيابهم. ظلّ زيمّيو صامتًا قرب الباب، يرمقهم بوجهٍ كوجه القسّ، لكنّ عينيه تكادان تنفرطان من الضحك هو أيضًا. وما زال ينظر إليهم وهم يتمزّقون ضحكًا أمامه ويعربدون كقطيع من المجانين. ثمّ فكّ أزرار معطفه زرًّا زرًّا، وفتحه ليبرز بطنه ويطبطب عليها بيدٍ كبيرة كالدلو، وصاح: «اضحكوا على هذا!» ومشى بخطوات رشيقة، كأنّه ذاهبٌ إلى الساحة، واقترب من المصطبة ونظر إلى الساقي، بوجهٍ محمرٍّ يذوب كالشحم في النار، متهكّمًا في سرّه، وقال: «كابوتشينو يا أسمر!» وسدّد نظرة إلى الخلف كالثعلب الماكر. ما زال رفاقه يقهقهون: «ماذا، هل انضممتَ إلى عصابة، هذا المساء؟» صاح عليه شاكالّو. وناتزارينو: «هل تفلّيتَ من القمل يا زيمّي؟». أمّا بوذا فقال بصوته الكئيب السفليّ: «يا زيمّي، أنت أوسم الشبّان في القرية!»

ثمّ هدأوا شيئًا فشيئًا، واستعاد اللاعبون مباراتهم. ذهب تومّازو ليجلس بجانب ليلّو الذي كان ينظر إلى مباراة بوذا وغريشيو وناتزارينو وديلي فيوريلي. ربّت على كتفه وقال له: «كيف حالك يا صاح؟». «بخير» ردّ ليلّو دون أن يلتفت «كيف لحالي أن تكون؟»

هناك عجزة ورجال متقدّمون في السنّ أيضًا، ثملين حتى الرحم. كانوا متجمّعين عند المصطبة، بجانب زيمّيو، يتناقشون بأعلى ما في حناجرهم من صراخ، في نقاشات تافهة بلا جدوى ولا تنتهي أبدًا، تارة يندبون على صدورهم وتارةً تجحظ أعينهم خارج حواجبهم المقطّبة.

دلف أربع زبائن بدوشةٍ كبرى، يغطّيها الرعد، كانوا من تيبورتينو، ومن بينهم كارليتّو عازف الغيتار. دخلوا وهم يمخّطون وينفضون البلل عن ثيابهم، ويدوسون بأقدامهم على الأرض التي باتت بِركة ماء. «أربع

كؤوس بونش بنكهة الرمّ!» طلبوا من الساقي بنبرات مشوّشة. والتصقوا بالمصطبة، نزع كارليتّو الغيتارَ خطّافَ القلوب من على ظهره وأسنده جانبًا. التفت ثلاثة من الذين كانوا على الطاولات بوجوههم المشتعلة. «انظروا!» قال أحدهم، غريشيو «الغيتار!». ونهض واقترب من المصطبة بخطوات حذرة، كأنّ ركبتيه تنثنيان من الوهن وقال لكارليتّو: «أتسمح لي؟» أمسك بالغيتار وبدأ يغنّي:

يا أوتار قيثارتي...

«سحقًا لك يا غريشيو!» صاح عليه أولئك الذين معه على الطاولة. أحدهم، وكان يلعب الورق، راح يغنّي مع غريشيو، ولكنْ ليست تلك الأغنية، إنّما «من أجلكِ أنتِ!»، ثمّ انضمّ ثالثٌ، وسادسٌ وسابعٌ للغناء، كلٌّ يغنّي على ليلاه، أحدهم يدمدم أغنيةً والآخرُ أغنيةً أخرى. نياشا كان يغنّي:

يا موجة البحر،
أنتِ جميلة، وفاتنة أكثر من الحوريّة.

بوذا الذي بدأ شعره يتساقط، على الرغم من بقاء بعض الخصلات المتجّعدة الخفيفة والشفّافة على رأسه، قال: «كم أنا جائع!» ثمّ أخذ يغنّي:

أيّها الباب بين الأزهار،

لقد ابتسم لي ملاكٌ هذه الليلة...

وفي النهاية استعاد كارليتّو الغيتار وهيّأ حنجرته ودندن قليلًا ثمّ وجّه صفعة معنوية للجميع بصوته الإلهيّ:

ما أجملكِ يا نينا يا بنت التيفر

أنتِ المولودة في ظلّ القبّة الكبيرة...

كان غريشيو قد استأنف اللعب، فإذا هو يرفع عينيه عن الورق وينظر ما حوله بعينين تلمعان من السرور، وقال: «ماذا، أهذا غناء الصائمين؟ أيجعلكم الجوع تغنّون هكذا؟»

سحب ورقة من الباقة التي بين يديه وخبطها على الطاولة، ثم رفع عينيه ثانيةً وحدّق إلى نياشا بنظرة ابن عرسٍ عليم وقال: «أوه، هل أكلتم هذا المساء؟»

«هذا بحسب اليوم» ساندە ديلي فيوريلي والسيجارةُ بين شفتيه تعشي بصره «فمتى يأكل هؤلاء؟ في عيد الفصح؟!»

«متى نأكل نحن!» انفجر بوذا قائلًا وضاحكًا بكلّ سرور.

وكان الإعصار في الخارج يزمجر أكثر فأكثر.

«سترى!» تابع بوذا ببهجة متصاعدة «نحن هنا نعاقب كلَّ مَن تسوِّل له نفسه تحدّي بورما الفقير!»

كان وجهه يوحي بضرورة تصديق كلامه طوعًا. حتى غريشيو أو

ديلي فيوريلي أو ناتزارينو أو الجميع معًا، عليهم أن يصدِّقوا ما يقول صاحبُ العظام الناتئة من تحت جلدٍ مشدودٍ لكأنّها ملامحُ كلبٍ ضالّ.

«بمناسبة الجوع» قال بوذا وقد أخفض عينيه نحو الورق «هل تذكر يا هذا، أنت كاتزيتي، ذلك اليوم الذي التقيناك في الترام، حين كنتُ مع كانتيكيا؟ سحقًا، في ذلك اليوم كانت أمعاؤنا خاوية! سترى! مَن منّا لا يذكر الزمان الذي كنّا لا نأكل فيه! كان كانتيكيا يستند إليّ وأنا أتّكئ عليه، كأنّنا يتيمان!»

وأخذ يضحك بلسانٍ يتحرّك كالمكبس بين شفتيه، وينثر اللعابَ. ثمّ تابع:

«حسنًا، كنتُ أقول: كنّا ذاهبين لنزف الدماء هناك في شارع ليبجي. كانتيكيا رعديدٌ في العادة، لكنّ الجوع يا ويلتاه جعل منه أسدًا! كان باستطاعته أن يتخلّى عن إحدى ذراعيه يومذاك!

وكنّا قد وصلنا إلى حيث يتبرّعون بالدم: وكان هناك عائلات بأكملها في الداخل: آباء، أمّهات، أبناء، بنات، أجداد! كلّهم ينزفون الدماء هناك! بدا لي المكان أشبه بمصحّة للمجانين! فقلت لكانتيكيا: "يا كانتي، إيّاك أن تنهار! اصمد عشر دقائق أخرى، فبعد قليل سنقف على أرجلنا نحن أيضًا. كن سعيدًا يا كانتي".

وكانت عينا كانتيكيا تمتلآن بالدمع من قسوة الجوع، حتى لم أعد أستطيع النظر في وجهه، صدّقوني! كانت حالته تُبكِيني أنا أيضًا! بدا لي أنّه صار كالحساء اللزج، كلّما تحدّثَ لَهَث... وبعد، أعطينا أوراقنا الثبوتيّة لأولاد الساقطة، فأخضعونا لصورة شعاعيّة كي يتأكدوا إذا ما كنّا مرضى... صدّقوني، بدا جسد كلٍّ منّا شفّافًا: لقد ماتت في

داخلنا حتى الدودة الشريطيّة، من شدّة الجوع! لن أطيل عليكم: في نهاية المطاف سحبوا من دمائنا! ووضعوا في أيدينا كرات صغيرة! وبعد ذلك أدخلونا إلى غرفة، وأعطونا شطيرة بالزيت صغيرة جدًّا، وفيها شريحة لحم سالامي ومعها كأسٌ من نبيذ المارسالا. فرأينا تلك العيّنة من الطعام على أنّها أعجوبة، وربّما لن تصدّقوني، كنت من قبل أشعر بالخفّة، أكاد أطير، وبعد أن التهمتُ الوجبة شعرتُ بحماوةٍ شديدة تلهب أردافي: "يا كانتي، لقد صدأ فكّي يا كانتي!" قلت له وأنا أرفع يدي لأخذ الشطيرة، وكان قد غلبني الإرهاق فسقطتُ أرضًا!»

نظر بشراسة نحو جميع مَن حوله، وأحاط فمه بيده كالبوق: «سقطتُ أرضًا!» ردّد بفمٍ يتبعثر منه اللعاب.

ثمّ أضاف وهو يقهقه من جديد: «يسوع ناداني إلى السماوات! وجدتُ نفسي في المستشفى، معصوبَ الرأس، وقد وضعوا أمامي كأسًا من الحليب كي أشبع!»

ضحك الجميع وهم يصيحون: «تبًّا لك!». ثمّ بدأ كاتزيتيني يصيح: «اسمعوا هذه القصة!» لأنّه أراد أن يروي حكايته أيضًا، بعينين تلمعان من الضحك.

«ذات مرّة، مضت عليَّ ثلاثة أيّام وبطني خاوية» قال «دخلتُ لدى الطاهي، وكان معي ألف ليرة فقط، وطلبتُ وعاء مزدوجًا من ذلك الحساء الرديء.

لكنّ الجوع هزمني، فطلبتُ وعاءً ثانيًا، وثالثًا...» وأحاط فمه بيده هو أيضًا، وأطال عنقه وهو يصيح: «حتى وصلتُ إلى الوعاء الثلاثين! وبعد الثلاثين، طلبتُ حساءً مرّة أخرى، فجلبوا لي الجرن

بأكمله فارغًا إلّا من المغرفة وقالوا: "يا أسمر، لقد تناولتَ بمفردك كلّ حساء العمّال! لقد قضيتَ على ورشتين!"»

ضحك الرفاق، ولم يكد كاتزيتيني ينهي ما عنده حتى تدخَّلَ شاكالو: «تلك نكتةٌ بالمقارنة مع حكايتي» قال «الآن سأبكيكم! اسمعوا، اسمعوا هذه التراجيديا!» وراح يتفرّج على الجميع بينما يهمّ برواية مأساته: «ذات يوم كنتُ جائعًا إلى درجةٍ لم أعد فيها قادرًا على صعود الرصيف! ذهبتُ لأقرع الأجراس في الكنيسة مدّةً نصف ساعة، فتحصَّلتُ على قسيمة للأكل في منتدى سان بيترو. اللعنة على الخوريّ، حين أعطاني القسيمة بدا كأنّه يوقّع لي على شيك! ذهبتُ إلى منتدى سان بيترو راكضًا، خوفًا من أن ينتهي الطعام قبل وصولي... وسط كلّ أولئك العجزة والعجائز... الذين يسيل اللعاب من أفواههم... منهم مَن جاء بتنكة بنزين، ومَن جاء بمرطبان، وآخرُ يحمل طستًا، وآخرُ قِدْرًا، وآخرُ خزّانًا... لا بل إنّ أحدهم جاء بقبّعةٍ ليصبّوا له الحساء فيها وهو يقول: "أعطني قبّعةً من الباستا بالفاصوليا! صبَّ لي قبّعةً من الحساء!"

أعطتني إحداهنّ مرطبانًا لاحتواء الطعام، فانعزلتُ عنهم، وانزويتُ في ركنٍ ما، لأتناول الحساء كما ينبغي، أوه، في الصيد إمّا يحالفك الحظّ أو يناصبك العداء! أتعلمون ماذا اصطدتُ في الحساء؟ واقٍ ذكريّ!»

«اللعنة عليك!» قالوا له وهم يرفعون أيديهم استياءً.

فصاح شاكالو: «صدِّقوني! مَن يدري ما الذي تفعله الطبّاخات الفاسقات مع الموزّعين الذين يأتونهنّ بالأغراض! ثمّ إنّهنّ يتخلّصن من

أداة الجريمة برميها في الحساء، ها هو! وكان المرطبان خاصّتي هو المكان الآمن! فأنا شهيّتي طيّبة!»

كان يضحك بعينيه الصغيرتين الغائرتين الوامضتين: «أوه، باستا بالواقي الذكريّ!» أضاف «ما بالكم، هل جننتم؟ أين بإمكانكم أن تجدوا وجبة كهذه؟! حتّى في الشاطئ الأزرق لا يقدّمون مثلها! اللعنة على أمواتهم، كم هم مقرفون!»

«أوه» قال بوذا محمرّ الوجه «اروِ علينا كلّ الحكاية: ماذا فعلتَ حينها؟ هل أكلتَ الواقي أم رميته بعيدًا؟»

«كلا. لقد ألبستُ رأسي به!» صاح شاكالو مقهقهًا.

«لماذا، هل بدأ الكرنفال آنذاك؟» سأله كاتزيتيني ضاحكًا بينما كان الجميع يتفجّرون من الضحك.

ولكنْ، في تلك اللحظة تمامًا، تَكْ، أطفئت الأضواء. وخيّم الظلام، ولم يتبقّ سوى جمرات السجائر، وأطياف الشبّان وهم يتدافعون ويتصايحون. أشعل أحدهم الولّاعة، وأخرج الساقي من تحت المصطبة شمعتين وأشعلهما، فتراقصت شعلتاهما الواهنتان على المصطبة المبلّلة.

وتحت تلك الإضاءة الخافتة، ذهب الجميع إلى الباب لينظروا إلى الخارج. الظلام سائد، لكنّهم رأوا أنّ شيئًا ما قد حدث في الطريق، والقرية. أنيرت الأضواء مجدّدًا بضع لحظات: كان الشارع المقابل للمقهى في طوفان، والمياه على ارتفاع شبرين وفقًا لأقلّ تقدير. وكانت الطرقات الأخرى، الأشدّ انخفاضًا، في وسط القرية، ترزح تحت مياهٍ تومض للعيان، ويصل ارتفاعها إلى كوّات الأقبية. ما جعل البيوت تنتأ

عن وجه الماء مباشرة في انعكاس المصابيح الأربعة. وقد بدأت الأغراض القديمة والأوتاد الصغيرة والخِرَق البالية وقمامة الباحات تعوم على سطح المياه. وبين الفينة والأخرى يتنزّل برقٌ ساطع، متبوعًا برعدٍ طفيف، يتيح المجال لرؤية القرية برمّتها وقد غرقت في الماء. الأضواء تخفت، وفي المقهى ما تزال الشمعتان مصدرَ الضوء الوحيد. احتشد الجميع عند الباب. «ما الذي يحدث، هل أمسينا في البندقيّة؟» حاول كاتزيتيني تبريرًا. «أجل، البندقيّة اللعينة. لقد قُضِيَ علينا!» غمغم شاكالّو.

كان العجزة السكارى، الثملون حتّى الجحيم، يترنّحون هناك ويزعقون بأصواتهم القذرة كلماتٍ بلا معنى. سقط أحدهم في المعمعة أرضًا، على الماء الذي غزا البلاط، وظلّ هكذا ينوح بلا قدرةٍ على النهوض.

نزع خمسة شبّان أحذيتهم، وبرموا بنطلوناتهم إلى حدّ الركبة، وهرعوا إلى الخارج: وظلّ الآخرون يراقبونهم، دون أن يتمكّنوا من رؤية شيء. أمّا الذين خرجوا فقد ابتلعهم الظلام بعد لحظات وتمرّغوا في سائل الطين.

ذهب تومّازو ليستلقي على أحد الكراسي التي فرغت وكانت مكوّمة في عمق الغرفة. اضطجع عليه وحطّ يديه على بطنه، بمزاجٍ مسالم، كما لو أنّه يتهيّأ بكلّ هدوء لانتظار ما سيقع حتمًا، ولعلّه إذا اضطرّ سيقضّي الليلة هناك. أخرج سيجارة وراح يتذوّقها بصفاء نفس.

وفي تلك اللحظة برزت أضواء في الخارج تتراقص وتومض تحت شلّالات المطر.

كانوا يقتربون. رجالٌ يحملون مصابيح يدويّة ويرتدون سترات مطريّة مطّاطيّة مبرومة على رؤوسهم وتغطّي أكتافهم. فتحوا الباب وأخذوا يتحدّثون بأصوات عالية.

دنا منهم تومّازو بعد قليل ليسمع كلامهم. لكنّهم بعد أن صاحوا قليلًا، تحرّكوا بسرعة متجهين إلى أسفل، نحو القرية.

وما زالت الأضواء البيضاء الوامضة هنا وهناك تتراءى على بقع المياه البنيّة. «مَن كان هؤلاء؟» سأل تومّازو ليلّو. «أعضاء الحزب!» غمغم ليلّو. «وماذا قالوا؟». «قالوا إنّ الناس في شنغهاي الصغيرة يموتون غرقى!» ردّ ليلّو. «وكيف ذلك؟». «وما أدراني!». «الفيضان!» قال شاكالّو. «فيضان النهر؟» سأله تومّازو. «كلا. فيضان الأيرا!». «أيّها الوغد!» صاح تومّازو مستحضرًا أيّام سكنه في تلك الأنحاء حيث كانت المياه غالبًا وبكلّ سرورٍ تسيل من على الهضاب المحيطة بالقرية كلّما أمطرت. وكان منحدر النهر بارتفاعٍ يقارب الخمسة عشر مترًا، ومن المستحيل أن يفيض النهر عنه.

«أوه، ماذا نحن فاعلون؟» صاح زوكابّو. كان تومّازو مركّزًا، ومجعّد الوجه كأنّه تعاطى المخدّرات: كان صامتًا.

«ماذا أرادو؟» وجّه السؤال لزوكابّو بعد قليل. «أن نذهب نحن أيضًا لمدّ يد العون!»

«أجل، غدًا! في عيد الفصح!» قال شاكالّو.

«يا لكم من أوغاد!» قال تومّازو متحدّثًا باشمئزاز وهو ينظر في وجوه الحاضرين «ماذا، ألا نستطيع المساعدة؟ هل أنتم خائفون؟»

«عندما أرغب في السباحة، سأذهب إلى أوستيا... وسأذهب

منتعلًا صندلي أيضًا!» قال شاكالّو.

لم يعره تومّازو أدنى اهتمام، وقال: «بالمحصّلة، ستظلّون هنا متقاعسين إذن! على بُعد شبرٍ من أردافكم، ستكونون مطمئنّين، ها؟»

نظر إليه شاكالّو: «انظروا إلى هذا» قال مستغربًا «أهذا تومّازو؟» ثمّ قال لبوذا: «هل تعرفه، تومّازو هذا؟»

«كيف لا أعرفه؟» قال بوذا مستمتعًا «إنّه القدّيس تومّازو، قدّيس الغرق بالفيضان!»

لكنّ تومّازو ظلّ مصمّمًا، وازداد تأجُّجًا: «إذن فأنتم لا تكترثون حيال أولئك المساكين المستضعفين!» صاح «فأنتم لستم رجالًا يستحقّون الحياة في هذا العالم!»

ارتسمت معالم الحدّة على شاكالّو: «أوه، هل أخذتك الحَميّة؟» قال «فامض إذن! انطلق! مَن يمنعك؟»

«أجل، سأمضي أيّها الوغد!» قال تومّازو بنبرةٍ ما تزال متقزّزة.

«ماذا تنتظر، البس سروال السباحة!» قال له بوذا من دون حتى أن ينظر إليه.

أحسَّ تومّازو بكلامه ضربةً في الصميم، فانتفض كالمجنون وأزاح عن طريقه كلَّ الواقفين أمام الباب: «ابتعدوا!» قال. لكنّه تذكّر أمر لباسه الجديد. فتوقّف. «ما بك؟ هل تتلكّأ؟» قال ناتزارينو. «تبًّا لكم!» قال تومّازو محتدًّا. ثمّ توجّه إلى الساقي: «بارمان!» قال له بلباقة «هل أجد عندك كيسًا أو ظرفًا أغطّي به رأسي، من فضلك؟»

ومن دون إجابة، انحنى الساقي وألقى نظرة تحت المصطبة وأخرج كيسًا مبلّلًا أساسًا. أخذه تومّازو ونزع سترته وسلّمها للمحاسب، ومن

ثَمَّ الحذاء والجوارب. برم أطراف بنطلونه ووضع الكيس على رأسه وكتفيه، وخرج متجاوزًا العجوز السكّير الذي ما زال مطروحًا على الأرض، وكان تومازو يفكّر وأسنانه تصرُّ من الغضب، كالكلاب.

«هيّا يا تومّا، ففي الغد ستحصل على ميداليّة!» قال له بوذا من خلف ظهره بينما كان يخرج تحت ذلك الطوفان العارم.

كان الوضع أسوأ من العمى نفسه. المياه تتناثر على العينين وتقطر على الوجه: كما لو أنّك داخل مجاري الصرف. إذ لم يكد تومّازو يخطو خطوته الثالثة حتى طاول البللُ عظامَه. «إلى أين أنا ذاهب، وما الذي أفعله؟» كان يقول في نفسه، كأنّه وقع في مصيدة فشعر أنّه غبيٌّ ويمشي في خضمّ هذا الفيضان. وبعد خطوتين أخريين، غطّت المياه كاحليه، وبعدها بخطوتين وصلت عضلةَ ساقيه، وبعدها بأربع خطوات بلغت ركبتيه. لكنّه صار يثقب الظلام بناظريه. اتجه يمينًا، إلى شارع مونتي دي بيترالاتا. وهناك حدَّدَ طيفًا مشوّشًا لحافلةٍ متوقّفة تحت سقف، والمياه تطغى على الأرصفة؛ وفي الخلف من ذلك أصواتٌ تنادي؛ وأضواء الشموع تتراءى من نوافذ بعض البيوت الغارقة.

ثمّ سمع دويّ صافرة: تدوّي وتدوّي، وبدت أنّها متوقّفة في موقعٍ ما. وبعد قليل ظهرت الأضواء الكاشفة تنير الطريق بأكمله والقرية بأسرها، القرية التي استحالت مستنقعًا جرّاء الأمطار الغزيرة. إنّها سيّارة الإطفاء، تتقدّم في شارع بيترالاتا ببطء، وصافرتها تدوّي بيأسٍ رهيب. لكنّها توقّفت عند الحافلة. لعلّها كانت متجهة هي أيضًا نحو شنغهاي الصغيرة. ما زالت الأضواء الكاشفة مبهرة، تنير جزءًا من الشوارع والأكواخ كأنّها النهار.

ثمّ سُمِعَ دويٌّ انفجار تحت حزمة الضوء تحديدًا، أو بعدها بقليل. انهار غطاء فتحة المجاري فحطّم معه جزءًا من الرصيف.

دنا تومّازو من سيّارة رجال الإطفاء، كانوا يتجادلون ويبحثون عمّا يقولونه إزاء ذلك الغضب الذي يصبّ جامه على كلّ شيء. حتى هم لا يعرفون ما الذي ينبغي فعله. وربّما لا يعرفون حتى أين تقع تلك الأحياء الفقيرة المحاذية للنهر. ومن المستحيل الوصول إليها بالسيّارة، هذا أكيد: ينبغي لهم الذهاب على الأقدام.

«هيّا!» صاح تومّازو حينذاك، عندما أدرك مغزى الجدل «سأرافقكم بنفسي! فأنا أعرف الطريق!»

«أهي بعيدة؟» سأله القائد، الأسمر الضخم الملفوف بحبلٍ على خصره. «كيلومتر، بل أقلّ!» صرخ تومّازو وكاد يغرق. حملوا معهم العُدّة اللازمة وصوّبوا مصابيحهم اليدويّة. ومشوا في مياهٍ تلاطم ركبهم، وقطعوا المسافة التي تنيرها الأضواء الكاشفة، وتدافعوا إلى حيث غضبُ الله.

كانت العوائل التي تقطن الأقبية قد صعدوا إلى جيرانهم في الطوابق العليا: وكانت أصواتهم وصيحات خوفهم تملأ الدنيا، فضلًا عن بكاء أولادهم. بعض الفتية الأكبر سنًّا خرجوا إلى الطريق، وسيقانهم مغمورة بالماء، ليتفرّجوا. وفي عددٍ من الطرقات المنحدرة، كانت المياه تسيل كموجةٍ عاتية، تجرف معها أغراضًا وصناديقَ وأوتادًا وأخشابًا وقمامة.

ثمّ تعلو تلك الموجةُ عند البيوت الأخيرة، الواقعة في أسفل المنحدر، بين الهضاب من جهة والحقول المتاخمة للنهر من الجهة الأخرى.

لا بدّ من السير بحذر. إذ إنّ انهيارًا قد تشكّل فعلًا في بداية منحدر الطريق، عند نهاية القرية تمامًا. تجمّع رجال الإطفاء حولها ووجّهوا إليها مصابيحهم: في الحفرة سيّارةٌ صغيرةٌ غائصة حتّى سقفها وعالقة في مجرور الصرف المدمَّر.

وعند حوافّها رأوا طيفًا يمشي مترنّحًا: طيفٌ لجسدٍ صغير، متقوقع كأنّه كلبٌ أو طفل، تحت وابل الأمطار. وكلّما كادت السيول تجرفه بين لحظة وأخرى، رفع نفسه بيديه المتشبّثتين، فخطا خطوتين ثمّ سقط. وفي تلك اللحظة تمامًا، كان قد وصل قبالة طريق فرعيّ، في المنحدر، حيث تتهاوى المياه بشدّة كالشلّال. فإذا بصفيحةٍ معدنيّة، تبرَّمت بفعل التيّار الذي دحرجها وتقاذفها، تضربه على إحدى ساقيه ليسقط عموديًّا في المياه. أنقذوه في الرمق الأخير، والماء ممزوج باللعاب في فمه الذي بات يتقيّأ زبد الوحل الأسود. «مَن هو؟ وأين يسكن؟» سأل رجالُ الإطفاء. «إنّه موكيتّا! ويسكن في التجمّع رقم تسعة!» قال تومّازو.

حملوه وساروا به نحو بيته، وكان البيت مغمورًا بالماء حتى كوّات الأقبية، وكلُّ مَن فيه صعدوا إلى السلالم حاملين شموعًا بأيديهم. رموا العجوز هناك وتابعوا سيرهم نحو شنغهاي الصغيرة، وعلى رأسهم تومّازو.

وبعد التجمّع السكنيّ الأخير، صار الشارع صعدةً تنأى بنفسها عن المياه، وما هي إلّا مائة متر تقريبًا حتّى وصلوا إلى نقطةٍ جافّة. لكنّ الطين كان نصف متر: أي إنّ السير في الطين أسوأ من المشي في السيل، واستغرق الأمر منهم حوالي نصف ساعة للوصول إلى خربة الأكواخ

المتكدّسة. إلّا أنّ الخربة – إن صحَّ القول – لم تعد موجودة. أخذ منهم إدراك الحال وقتًا تحت ضوء المصابيح، لكنّها كانت كذلك فعلًا.

في الجهة اليمنى، كان النهر يجري على مستوى الشارع تقريبًا، هناك حيث كانت الصعدة تقارب العشرة أمتار في العادة.

وفي الجهة اليسرى، بجانب الهضاب الأخيرة المطلّة على الشارع، وحول الساحة الصغيرة، كانت الخربة في حالة فوضى، ولا شيء تراه العين تقريبًا. سوى قطع الخشب، وجوانب الحيطان، والصفيح، كلّها سليمة لكنّها مقلوبة؛ والأعمدة والعوارض القصيرة والطويلة على الأرض. فضلًا عن كرة الطين والماء التي تنزلق إلى أسفل في كلّ مكان، من أعلى الهضاب مرورًا بالقرية والطريق لتنتهي بالنهر.

ظلّت بعض الأكواخ منتصبة من الجانب الآخر فقط، في المناطق العليا، حول ما يشبه الكهف؛ وأكواخ قليلة أيضًا من هذا الجانب، على أطراف ما يشبه نهر الوحل الذي يهبط المنحدر إلى أسفل.

ولحسن الحظّ كانت الأمطار تخفّف غزارتها، حتّى إنّها توقّفت في بعض اللحظات، ما أتاح المجال للرؤية نوعًا ما.

وتومّازو، متبوعًا برجال الإطفاء، تسلّق الوحل متمرّغًا فيه، مستندًا إلى بقايا الأحراج وبعض الأغصان والشجيرات الهشّة، حتى وصلوا إلى الجزء الأعلى تقريبًا، عند منتصف الضفّة، حيث ما يشبه الميدان. هناك تجمّع الناسُ الذين فرّوا من أكواخ الصفيح، مرتدين ما استطاعوا ارتداءه، أحدهم كان في قميصه، ويحمل أطفاله بين ذراعيه وأولاده يبكون.

هرعت النساء وتزحلقن لملاقاة رجال النجدة، وقد اسودّت

وجوههنّ من الطين. كنّ يصرخن ويطلبن الغوث. «ها هوا» يزعقن على الرغم من انعدام الحاجة إلى الزعيق، ولعلّهنّ إنّما أردن التأكّد من وجودهم «ها هو كلُّ ما تبقّى لدينا!»

وفي الواقع لم يكن هناك شيءٌ حتّى قبل الفيضان: أربعة أكواخ، وأربعة ملاحق مسقوفة صدئة، وقليلٌ من الألبسة المهترئة. وآنذاك ضاع كلُّ هذا، وجرفه الوحل صوب النهر. تحوّلت الفسحة الصغيرة في الوسط، حيث كان تومّازينو يلعب في صغره، تحوّلت إلى بحيرة صغيرة، وقد غمرت المياه أنقاض الأكواخ.

أحد تلك الأكواخ، هنا وهناك، ما زال منتصبًا؛ إلّا أنّ الجانب المطلّ على الجبال قد أغرق الطينُ فيه مصراع النوافذ، وبدأ يتغلغل ليخلع الدفّتين الباليتين. وقد حطّم البابَ من تلك الجهة، ونال من المدخل، وبادر بالعلوّ، ليبصق كلَّ أغراض البيت إلى الخارج، بما فيها المقاعد والعلب والأوعية والطاولات المتخلخلة. فتكدّست تلك الأغراض عند المدخل، وصارت تزحف شيئًا فشيئًا ضمن الوحل السائل نحو وسط القرية، لتتشابك مع الأنقاض الأخرى الأكبر حجمًا الخارجة من الأكواخ المدمّرة كلّيًا، وتتوجّه فيه إلى أسفل صوب النهر.

كلّ السكّان، أو معظمهم، تسلّقوا إلى أعلى حول ذلك الكهف حيث ما زالت الأكواخ منتصبة. وقلّة منهم التجأوا إلى الجانب الآخر، على الطريق المؤدّي إلى بيترالاتا.

ثمّة قطيع من الجرذان، الضخمة بحجم ذراع، هربت من أوكارها المغمورة، واتّحدت بالناس الواقفين في الأماكن الجافّة، فتواثبت فوق الأحذية بزغبها الأسود القذر والطويل.

وصار تيّار النهر يزمجر في جريانه المتدفّق وجَيَشَانِهِ المرعب، حتّى تخاله يزلزل الأرض من حوله.

الجميع يلوّحون بأذرعهم ويولولون، وينظرون نحو نقطة واحدة: ونحو تلك النقطة كان ينظر أيضًا كلٌّ من باسالاكوا، دي نيكولا، دي سانتو، والرفاق الآخرون، المبلّلون حتى النخاع، الذين وصلوا إلى هناك منذ قليل، ينتظرون الفرج من السماء، هم أيضًا، لأنّهم لا يعرفون ما الذي ينبغي فعله في النهاية. هناك حيث لا وجود لمسيح أو عذراء. ثمّة كوخٌ لم يغمره السيل، بين عدّة أكواخٍ لم تنجرف بعد. حسنًا، كان الجميع ينظرون نحو ذلك الكوخ. هناك امرأةٌ تسكن فيه، وكانت عالقةً بداخله، لعلّها تأمل بإنقاذ بعض أغراضها، أخذت تجمع كلّ الأشياء الموجودة على الأرض، والتي كان الطين يحملها معه بدخوله من النوافذ.

إلّا أنّ الطين لم يتوقّف عن الارتفاع، فظلّت المرأة عالقةً بالداخل، وحيدةً، في كوخها، وتستغيث.

وكان صوتها يُسمَعُ بمشقّة، إذ طغى عليه صوت المطر والرياح والنهر. عزم رجال الإطفاء على انتشالها بوساطة الحبال، وقد تحمَّس تومّازو أيضًا فانخرط معهم بذلك، حيث افتتح جدالًا وراوغ فيه لكي يسمعوه: «ليس لديكم خبرة بالأرض!» صاح عليهم «لا تعرفون عمقها! إنّها مليئة بالحفر، وثمّة سورٌ مسيّج... دعوني أذهب بنفسي، فأنا أعرف الطريق!»

لكنّهم لم يعيروه انتباهًا، منشغلين في إعداد الحبل، تحت وابل الأمطار. ربطه أحدهم بخاصرتيه واقتحم. وما لبث أن اجتاز مسافة

قصيرة حتى انزلق، لأنّه كان على منحدر، وغاص في الطين إلى عينيه. حاول أن يتقدّم لكنّه عجز عن ذلك، فجرَّه زملاؤه إلى الخلف.

«ألم أقل لكم؟!» زعق تومّازو «ألم أقل لكم إنّكم بلا خبرة! لا يمكن العبور من هناك، ينبغي الالتفاف من الجانب الآخر!»

«أرسلوا هذا الفتى، إنّه يعرف أين تطأ قدماه!» تدخّل باسالاكوا حينها.

«والآن، ما العمل؟» ما زال تومّازو يصيح مستنفرًا فاقدًا أعصابه «أذهب بنفسي، نعم أم لا؟»

«هات!» قال القائد. أعطوه الحبل فربطه بحزام تومّازو. ومن دون أن يلتفت إلى الخلف، لكي يريهم كيف تتمّ الأمور، قذف تومّازو بنفسه من على حافّة الشارع، وراح يلتفّ بدورة عريضة بدلًا من الاتجاه إلى الكوخ مباشرة. كان الوحل مرتفعًا هناك أيضًا، وقد وصل إلى عظام ساقيه، لكنّه حاذى الأكواخ الناجية بشكلٍ أو بآخر، حول الفسحة الصغيرة، شيئًا فشيئًا، مثلما يشاء الربّ، حتى اقترب من الكوخ. وكانت المرأة تستنجد بهم وتطلّ بعنقها من النافذة.

«سأصل حالًا يا سيّدة! اطمئنّي!» صاح تومّازو وهو في الطين.

إلّا أنّ الأجمل سيبدأ الآن، في وسط الفسحة، حيث يمرّ تيار الماء والوحل الهابط من المرتفعات المجاورة.

انغمس تومّازو محرِّكًا كلتا ذراعيه كالدمية ليمشي، وقد غاص حتى سرّته في التيّار الذي على الرغم من منظره كان قويًا وجارفًا نحو النهر الذي يزأر على بُعد خطوات.

تمرّغ تومّازو في الطين كالخنزير إذن، وهو يتخبّط في تلك القذارة،

بأسنانٍ مشدودة، وعينين جاحظتين من الإرهاق، إلى أن وصل أمام كوخ المرأة من الجانب الآخر.

وكانت المرأة شعثاء ومبلّلة، تشبك بطنها بيديها، بانتظاره. وحين صار هناك، انتابتها ذبحة صدريّة على الفور. وراحت تندب وتولول: «دعني آخذ غرضًا ما!» تصيح «الفراش، أو اللباس على الأقلّ...»

«يا سيّدة أنا لستُ حمّالًا!» زجرها تومّازو، بينما كانت تقول ما تقول ولا تبادر إلى الحركة. «هيّا بنا! هيّا بنا يا سيّدة، فقد تفاقم الوضع هنا!»

«لكنّي خائفة، كيف سنخرج؟» قالت وهي تنحني ثانيةً نحو تلك المياه، ترتجف متجمّدةً ومصفرّة الوجه، وشعرها التصق بخدّيها كثعبان الماء.

«تعالي إلى هنا، استندي بجانبي، واشبكي ظهري!» قال لها تومّازو وهو يسحبها. وقد عرف من تكون: بائعة هوى، تمارس الدعارة في مونتيساكرو، على جسر الآنييني؛ وكان قوّادها صديقه. «كم سيكون من المضحك أن أغرق الآن بسبب هذه المرأة!» فكّر تومّازو.

«لن تستطيع فعلها» صاحت المرأة بصوت مراهقةٍ تتباكى «ألا ترى ما الذي يحدث هنا؟ اللعنة!»

«سنحاول يا امرأة!»

ألصقها بكتفيه فالتصقت به. وكالعادة، في كلّ الأحيان، حين تضحك أو تغضب أو حين يعاشرونها، كانت تتراوح بين خوفٍ حقيقيّ وإحساسٍ يراودها بأنّه لا شأن لها سوى أنّها مذهولةٌ إزاء ما يحدث لها.

«حذار، ثمّة بالوعة هنا، لا يمكن العبور!» أوصته بينما كان

ينغمس في الطين العالي والجارف. خارت قواه فصار شبه ميّت، وما كان ليصمد إلّا يأسًا.

«حاولي أن تصمتي» زجرها «أعرف من أين بإمكاننا العبور!»

«يا ربّاه! هل ستتمكّن، هل ستتمكّن؟» كانت تنوح وترتجف.

«لا تصدِّعي أَيْ**!» صاح تومّازو عليها، وكان شعرها يغطّي وجهه. «أوه، ماذا تريدين؟ هل أرميكِ أرضًا؟ إن لم تتوقّفي عن توصية الربّ، تركتكِ هنا. اللعنة عليكِ!»

كان تومّازو يدفع نفسه بمشقّة وهو متشبّثٌ بالحبل نحو المنحدر حيث كانوا ينتظرونه ويجذبونه شيئًا فشيئًا. تصبَّب عرقًا، وكلّما أراد التقاط أنفاسه أحسّ بأنّه يتفتّت، حتى وصل إلى المنطقة الجافّة. وكانت المرأة قد أصابتها نوبةُ الجنون، وباتت عرضةً للتشنّجات، فيما حاول الآخرون تهدئتها وتشريبها بعضًا من الكونياك.

وكان تومّازو يفكّ الحبل عن خصره، قاعدًا على الطين، متروكًا لكنّه أراد الانعزال مطأطئ الرأس، لكيلا يروا كيف تردّت حاله، إذ لم يعد في صدره نَفَسٌ واحدٌ يكيل به اللعنات.

وفي الأثناء وصلت سيّارة إطفاء من الجانب الآخر، من مونتيساكرو، وكان معظم الناس هناك: انقضت المحنة، ولم يعد عليهم سوى نقل هؤلاء البؤساء إلى بيترالاتا، وتأمين مأوىً لهم. وقاموا بالأمر بلا عجالة، فلقد كانوا مبلّلين بالماء إلى حدٍّ كبير. صعد رجال الإطفاء والآخرون على متن الشاحنة وراحوا يرفعون النساء والأولاد وأكثر المتضرّرين، بينما عادت السماء تمطر بغزارة.

اتكأ تومّازو على ولدين، أحدهما ذو خمسة أعوام والآخر ستّة:

وكان الأصغر يسنده بكتفه والثاني أخذ بيده.

كانا طيِّعيَن ومَن يدري كم من أهوال مرّت عليهما، إذ ارتسمت على وجهيهما ملامح الكهولة. أمّا من ناحية اللطف فكانا لطيفين، أجل، متشابهان لأنّهما شقيقان، وشعرهما مجعّد وأسود وعيناهما سوداوان متّسعان، لكنّ محيَّاهما كان شاحبًا وجادًّا.

ساروا صامتين، وأحذيتهم تغوص في الطين. رفع الشقيق الأكبر وجهه عن ياقة معطفه الحائل والممزّق، لكنّه ما زال أنيقًا، ونظر نحو تومّازو.

«والآن لم يعد لدينا بيت!» قال «إلى أين سيرسلوننا؟»

«إيه» قال تومّازو «لم يمت أحدٌ من البرد يومًا، لا تشغل بالك!»

«هل غرق بيت فرانكو أيضًا؟» طرح الولد الأصغر سؤاله بعد أن تمعّن فيه.

«لا أعرفه، فرانكو هذا» ردّ تومّازو «لكنّه إذا كان يسكن هنا، فحتّى بيته لم ينجُ، اطمئنّ!» ثمّ قال للأكبر الذي يمسك بظهره: «لا تضغط على رقبتي!»

«نحن لأنّ بيوتنا منخفضة» تابع الشقيق الآخر كلامه سارحًا «أمّا الذين يسكنون في بيوت عالية، فلم تصل إليهم المياه!»

«يا شباب، اللعنة، لا تضغط على رقبتي، قلت لك!» صاح تومّازو.

وصلوا إلى بيترالاتا ببطء، والمطر ثائرًا على صفع الرياح يعيد سيرته الأولى. نقلوا أهالي القرية الغارقة إلى مقرّ الحزب مؤقّتًا، والذي كان بدوره شبه مغمور بالماء. يكاد يضيق بالناس، جلسوا على المقاعد، والنساء حملت أبناءهنّ بين أذرعهنّ: وكانوا يبكون يائسين جميعًا،

فيما تعربد الأمطار والرعود في الخارج أعلى فأعلى.

«ما هذا؟ نهاية العالم؟» فكّر تومّازو وهو ينظر إلى المشهد داخل الحزب: أحدهم جالسٌ على فرشة ملفوفة، وطفله على ركبتيه؛ وآخر جالسٌ على مقعدٍ ويعصر جواربه وينشّف قدميه؛ وامرأةٌ في أسوأ حالٍ تبكي محاطةً بمن يهوّن عليها: «لماذا تبكين؟ أتظنّين أنّ البكاء سيبعد الفيضان؟ إنّ البلاء أصابكِ مثلما أصابنا جميعًا، كما ترين!»، لكنّها لم تكن تسمعهم، بدت كأنّها جُنَّت؛ ومثلها أخرياتٌ كثر حولها خسرن كلّ ما كان لديهنّ، وبتن عاريات كالديدان.

وعلى طاولة المقصف وضعوا كلّ الرضَّع الملفوفين في القماط، فبدوا مثل حشدٍ لصغار القطط، ثلاثين طفلًا على الأقلّ، بعضهم فوق بعض، وأمّهاتهم حولهم ينظرن إليهم ويرتجفن بردًا.

وهنالك أربعة أولاد أكبر سنًّا عثروا على الراية المركونة في إحدى الزوايا، وانتهزوا انشغال الجميع عنهم وراحوا يتسلّون بها ويلعبون الغمّيضة.

«أوه يا أولاد، اللعنة على أمواتكم!» صاح تومّازو حين رآهم. فذهب إليهم وانتزع الراية من أيديهم وركنها ثانية في محلّها، في الزاوية المجاورة للمكتب. «ما بالكم، هل أنتم في بيتكم؟» صاح مرة أخرى غاضبًا. «انقلعوا من هنا!»

لم يحدث شيء: قرية صفيح عشوائيّة أغرقها المطر، تدمّرت بعض الأكواخ، المسكونة من قِبل أناسٍ كانوا قد مرّوا في ظروفٍ أصعب خلال حياتهم. بيد أنّهم كانوا يبكون جميعًا، ويشعرون أنّهم هاموا على وجوههم، يشعرون أنّهم قتلى. ولم يكن في ذلك المكان الذي اجتمع فيه

أولئك البؤساء ما يبعث على الأمل إلّا تلك الخرقة الحمراء المبلّلة التي ألقاها تومّازو في زاوية، وما زالت تتلألأ وتتألّق.

*

وفي الصباح التالي، استيقظ تومّازو متأخّرًا وسرعان ما شعر أنّه ليس بخير، وأنّه كان متعبًا حتّى الموت، وأنّ عظامه محطّمة. لم يكن بوسعه فتح عينيه، ولا رفع ركبتيه للنهوض عن السرير.

ظلّ هناك بعض الوقت يتأمّل. لا بدّ أنّ الساعة قاربت الحادية عشرة، بلا أصواتٍ أو ضوضاء، ولا بدّ أنّ الطقس ما يزال سيّئًا، نظرًا إلى ضحالة الضوء المتسلّل من النافذة. دوّت بعص الصافرات في البعيد. «هيّا، بقوّة!» حدّث نفسه مشحونًا بفضولٍ للذهاب إلى البلدة ورؤية العواقب.

وبينما كان يجاهد في النهوض اجتاحته نوبات سعال متتالية. «اللعنة!» غمغم في سرّه مشمئزًّا. سعل ثانيةً وأحسَّ أنّ فمه ملطّخٌ بقذارة اليد المتّسخة: نكهة حديدٍ بارد ومسامير. بلع ريقه لمحو تلك النكهة المقزّزة، وانحنى لينتعل حذاءه. ولكنْ، بدلًا من اضمحلالها، تفاقمت نكهة الحديد، ومالت إلى الحلاوة أكثر فأكثر، وتزايد اللعاب حولها. «ما هذا؟ هل أكلتُ الخراء هذه الليلة؟» تساءل تومّازو ومسح جوف فمه بلسانه غير مرّة. فإذا بعينيه تتركّزان على قميصه الداخليّ لاإراديًّا، فرأى أنّه مبقّعٌ باللون الأحمر. دماء. فمنذ أن مرض لم يحدث له قطّ أن بصق الدماء. وفي البدء تراءى له الأمر مثل الحلم: أمعن النظر في بقع الدماء تلك، ومسَّها بإصبعه: ما تزال رطبة، ودبقة.

«ما هذا؟» قال. وكان يرتجف ويُخيَّلُ إليه أنّه لم يعد يرى.

واستغرق بعض الوقت لاستيعاب ما يحدث: اكتسحت صدرَه نوبُة سعالٍ أشدَّ وطأة من سابقتها فزلزلته وكادت تصرعه.

وحينما انتهت هبَّ وهُرع إلى المرحاض. كان وحيدًا، ففي تلك الساعة لا أحد في البيت، لأنّ الجميع في أعمالهم. وبينما كان يمشي انتبه أنّ قدميه تحملانه بأعجوبة، لكنّه تابع طريقه إلى المرحاض بكلّ الأحوال، ونظر إلى نفسه في المرآة. كان متّسخًا بالدماء كثيرًا، ذقنه وعنقه وقميصه. «يا إلهي، يا أمّاه!» صاح أو يكاد، واصفرَّ وجهه من الفزع.

عرَّج على المطبخ مترنّحًا يتّكئ على الجدران، واتجه نحو المغسلة. أمسك بخرقة وبلّلها جيّدًا وراح يمسح وجهه وقميصه: يدْعَكُ ويدْعَكُ بقوّة حتّى بدا له أنّه تخلّص من تلك الآثار. فإذا بنوبة سعال جديدة لم يستطع مقاومتها لأنّها صعقت حلقه في العمق كما لو أنّ فيه حديدًا مشتعلًا، وزعزعته كأنّها صفعة ريح: فسالت الدماء مجدّدًا على وجهه وصدره. انتظر تومّازو نهاية السعلة، ونظّف نفسه من جديد.

ظلّ هناك واقفًا، منهكًا، بجانب المغسلة، حيث الصنبور المفتوح والأطباق المتّسخة. لم يعاوده السعال، فغسل الخرقة بالماء النظيف وعصرها، وانسحب نحو غرفته ليستلقي على السرير ثانية.

وظلّ ثابتًا ووجهه إلى أعلى وساقاه ممدودتان، والخرقة المبلّلة على مقعد الثياب. لم يتمكّن من التفكير بسبب كآبته. كانت روحه لا تنتظر إلا عودة أحدهم، عودة والدته، ليساعدوه. لكنّه لم يكن واهمًا، بل كان على يقين بما يجري. «إنّني أموت!» فكّر.

وظلّ على تلك الحال ساعة وأكثر، بلا حراك، دون أن يحرّك إصبعًا. أحسَّ بالباب ينفتح أخيرًا، وأمّه تدخل. «أمّاه!» قال تومّازو

«أشعر أنّي مريض، هلّا ناديتِ الطبيب!»

«يا ربّاه!» صاحت السيّدة ماريّا إذ رأته وأدركت أنّه مريضٌ بالفعل. نظرت إليه برهةً، حائرةً بما تقول، وفمها يرتعش كما لو أنّها ستنفجر باكية.

«عجّلي واندهي الطبيب، اللعنة عليكِ!» صرخ تومّازو. فقالت له: «أجل، أجل، اطمئنّ!» التفتت وخرجت راكضة وهي تلفّع وجهها بيديها، بينما تومّازو راقدٌ هناك على حاله، لساعة أخرى. وفي الأثناء عاد والده وشقيقه من العمل، يتضوّران جوعًا. وحينما رأيا أنّ الطعام لم يجهز بعد، وأنّ تومّازو بحالٍ سيّئة، جلسا في غرفته، والتزما الصمت، ينظران إليه من حين لآخر، وينتظران وصول الطبيب.

وصل الطبيب أخيرًا، وعاين تومّازو، وجَسَّ كلّ ناحية من جسمه، واستفسر عن مرضه بالسلّ. كانت ملامحه جادّة، ومن الواضح أنّ الوضع حرجٌ لا مزاحَ فيه البتّة. انتابت تومّازو نوبة سعال أخرى، فسعل وسعل ووسّخ الخرقة التي في يده بالدماء، ثمّ غطاء المخدّة التي جاءت بها والدته من الخزانة الصغيرة حيث لم تعثر على مناديل أو مناشف.

قال الطبيب إنّه من الأفضل نقله إلى المستشفى، وعلى جناح السرعة. ارتجفت ركبتا السيّدة ماريّا، وهبطت على السرير بيديها فوق جسد ابنها. تومّازو ابنها الثالث الذي يُنقَل إلى المستشفى في غضون عامٍ واحد. ولكنْ ما باليد حيلة: بعد ساعتين كان تومّازو في أحد الأسِرَّة في المستشفى.

تقلّبت حالته على مدار يومين، وعانى من تقيّؤ الدماء في كلّ لحظة،

لكنّه لم يكفّ عن الأمل: ففي المرّة الأولى كُتِبَ له الشفاء، وسينجو من الثانية بكلّ تأكيد. لم يشأ إقناع نفسه بأنّهم سيحفرون حفرته هو بالذات. إذ بات معتادًا على المستشفيات، وصار يعرف ما الذي ينبغي قوله وفعله لينال الاحترام. ومنذ اليوم الأوّل عزم على ألّا يُنقِصوا عنه شيئًا من احتياجاته المستحقّة. وظلّ مستلقيًا بذقنٍ ممدود وعينٍ متيقّظة، يصارع الصواعق التي تباغته كلّما شعر بالإغماء. إلّا أنّ وضعه في الحقيقة كان يتردّى من سيّئ إلى أسوأ.

وفي يوم الأحد، جاءت إرينه أيضًا لزيارته، مع صديقتها ديازيرا وسيتيميو. وجلبت له بعض الفواكه ونبيذ المارسالا، وانتهزت فرصة غياب ذويه، فوضعت له الأغراض على الدُّرج بصمت. حتّى صديقاها كانا صامتين.

وكان تومّازو مستاءً كالصبيّ الصغير، تحت الشراشف المشدودة، لا يكلّ ولا يملّ من النظر إلى الخارج عبْر النافذة، ولم يتفوّه بكلمة واحدة.

طيّعةً كعادتها، ظلّت إرينه تنظر إليه بإحباط كبير، وتتكلّم هامسةً مع الزنجيّة. لكنّها لم تعد تتمالك أعصابها، فخبّأت وجهها بذراعيها، وأجهشت بالبكاء والبكاء. وبما أنّ المهجع كان غارقًا بالصمت كلّيًّا، سُمِعَ صوتُ بكائها عاليًا في المكان، والتفت الجميع إليها. حاولت ديازيرا أن تهدّئ من روعها فضمَّتها بقوّة، لكنّ إرينه لم تعد تحتمل، وما انفكّت تبكي وتنوح كالطفلة. كانت تعلم أنّه لا يجدر بها أن تبكي هكذا، وأنّه لا يجوز. ظلّت تبكي بيدين تخفي وجهها، واليأس ينال منها أكثر وأكثر، إلى أن صحباها بعيدًا.

ثمّ جاء أعضاء الحزب لزيارته: وكانوا قد اتّفقوا أنّهم في حال وفاة تومّازو كانوا سيسمّون شعبة بيترالاتا باسمه، وذلك للمبادرة الشجاعة التي أقدم عليها والتي كان حينذاك يدفع ثمنها غاليًا. وجاء ليلّو أيضًا، وكان هزيلًا وشاحبًا؛ وزوكابّو المنتعش مثل تفاحة ناضجة سقطت توًّا عن الشجرة، ممتلئ الخدّين تحت شعره المجعّد والمصبوغ بالأشقر.

نمى إلى مسمع تومّازو أنّ وزيرًا واحدًا لا غير جاء لزيارة قرية الصفيح التي اكتست بذلك البساط من الطين المتيبّس. تفوَّه بتلك الوعود المعتادة، فيما وُزِّعَ المساكين الذين باتوا بلا مأوى، بعضٌ إلى أحد الأديرة، وبعضٌ إلى إحدى المدارس، حيث كانت تستضيف مُرحَّلين من المساكن العشوائيّة أساسًا.

وبعد أن ودّعه العجزة وانصرفوا، ظلّ ليلّو وزوكابّو قليلًا ولم يقرّرا متى يتركانه. وفي النهاية أخرج زوكابّو من جيبه إجاصًا وموزتين: لهذا السبب إذن كانا هناك متسمّرين لا يعرفان ماذا يفعلان.

«فواكه، تأتيني بالفواكه؟» سألهما تومّازو «ما بالكم؟ ينبغي أن تأتياني بالورود!»

«كفَّ عن هذا يا بوتزيلّي!» قال له زوكابّو وهو يضع الفاكهة على السرير، لكنّه كان يوشك على البكاء هو أيضًا.

«ما الذي يبكيكما؟ إن كان ثمّة أحدٌ عليه أن يبكي هنا، فهو أنا!» قال تومّازو «ماذا؟ هل أنتما مَن سيتوفّيان؟»

ظلّ ليلّو وزوكابّو هناك متسمّرين بلا حراك، وقد بانت أمارات الإكراه على أعينهما اللامعة في وجهيهما المحترقين بالشمس والجوع.

«انصرفا!» قال تومّازو «بدلًا من أن ترافقاني هنا، اذهبا وحطّما

قرونكما في الخارج، فإنّه يوم الأحد!»

استدار بوجهه إلى الجانب الآخر ولم يعد يتكلّم.

أمّا عن الموت، فكان مصمّمًا على الموت في سريره الذي في بيته. وبالفعل، حصل على الإذن بالخروج بسهولة. كان يومًا هانئًا، عذبًا رقيقًا، من أواخر سبتمبر، والشمس تسطع في سماءٍ لا يعكِّر صفوها شيء، والناس تدردش وتغنّي في الطرقات وفي الأبنية الحديثة.

وحينما عاد تومّازو إلى سريره المحبّب، تملَّكه انطباعٌ بأنّ حالته تتحسّن قليلًا. لم يتحصَّل على البركات بعد في المحصّلة؛ وكان قد كفّ عن السعال منذ ساعات، لا بل طلب من أمّه أن تسقيه من نبيذ المارسالا الذي جلبته إرينه. إلّا أنّه عندما هبط الليل، شعر أنّه ليس على ما يرام، واستفحل به ذلك الشعور: تقيّأ دماءه مجدّدًا، وسعل كثيرًا، كثيرًا، وما عاد يلتقط أنفاسه، ووداعًا يا تومّازو.

تنويه

إنَّ الإحالة على أشخاصٍ معيّنين، وأحداثٍ وأماكنَ حقيقيّة، إنّما هي من صنع المخيّلة: ومع ذلك أودّ أن يكون واضحًا لدى القارئ أنّ ما قرأه في هذه الرواية قد حدث واقعيًّا في الخلاصة، وما زال يحدث واقعيًّا.

أشكر «شبّان الحياة» الذين ساعدوني على تأليف هذا الكتاب، سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة، وأخصّ امتناني العميق للمخرج سيرجيو شيتّي.



يُعدّ بازوليني من أهم السينمائيين الملتزمين، ومعلّماً كبيراً في السينما الإيطالية والعالمية. توالت أفلام بازوليني التي اعتمدت على الفلكلور، منها أفلامه الشهيرة «طيور كبيرة وصغيرة» و«حظيرة الخنازير» و«الديكاميرون» و«قصص كانتربري» الذي نال جائزة مهرجان برلين السينمائي، وتلاه فيلم «الليالي العربية» عام 1974 وفيلمه الأخير «أيام سادومي المئة والعشرون» قبل قتله عام 1975، وهو فيلم مليء بمشاهد العنف السادي، مقتبس من رواية تحمل الاسم نفسه من تأليف الماركيز دي ساد.

حياة عنيفة

«حياةٌ عنيفة» ليست استثناءً عن روايات بازوليني الأخرى التي ينحو فيها إلى اعتماد العاميّة الدارجة في أوساط سكّان الصفيح لتصوير عالم الجريمة والعصابات التي تغزو المركز وتستوطن الهامش. أبطاله هم الفتية المشاكسون من أبناء الضواحي والعشوائيّات، المهمّشون وسكّان القاع ممّن يقطنون الأكواخ عند تخوم روما، هناك حيث تنعدم البنية التحتيّة وتتفشّى الأمراض ويستفحل الجهل وتستيقظ الفاشيّة. يركّز آلته السرديّة على تتبُّع مسارات بطل الرواية منذ طفولته، فيصاحبه في كلّ تلك الأمكنة، لنتبيّن كيف يقضي وقته بين الحانة والشارع، وكيف يلاقي حبيبته في المروج والسينما، وكيف ينضج وعيه بين السجن والمستشفى.

Cover design: Hassan Al Mohtasib





معاوية عبد المجيد، مترجم من سوريا. حاز على الجائزة الدولية «جيراردو دا كريمونا» لتعزيز دور الترجمة في البحر المتوسّط، إيطاليا 2018. ترجم إلى العربية روايات عدّة منها: (ظل الريح) كارلوس زافون؛ و(صديقتي المذهلة) إيلينا فيرّانتي؛ و(لا تقولي إنّك خائفة) جوزبّه كاتوتسيلا؛ و(اليوم ما قبل السعادة) إرّي دي لوكا.

